الصراع

مذكرات شيوعي عراقي

بقلم سليم اسماعيل البصري

محرر من سيطرة الرأسمالية
لتثقيف الجماهير
من قبل
حكايات اشتراكية

الإهداء

إلى كل الذين ضحوا بحياتهم وبأعز ما يملكون من أجل حرية وطنهم، إلى كل الذين استشهدوا وتغربوا وتيتموا، إلى والدّي اللذين ماتا دون أن أحضر مأتميهما، إلى كل من يقارعون الظلم والنظام الدكتاتوري في العراق، إلى كل الرفاق والأصدقاء ممن ساعدوني وشجعوني على كتابة هذه السيرة، أهدي كتابي هذا.

سليم إسماعيل البصري

شكر وتقدير

أود ان أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى كافة الأخوان والأصدقاء الذين ساهموا معي لإخراج صفحات هذا الكتاب، واحس بالامتنان للأصدقاء الأعزاء الذين بذلوا جهوداً مضنية من أجل أن يكون هذا الكتاب موجوداً، وخاصة أولئك الذين شجعوني على الكتابة، وأخص منهم الأخ العزيز ماجد الخطيب.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب لايخلو من بعض الحوادث والقضايا المهمة التي سأعود اليها في المستقبل، وآمل من كافة الأخوة، ممن عاشوا هذه الأحداث، أن يوثقوها، وآمل منهم ذكر مافاتني ذكره مع شكري

المؤلف

توطئة

أسرد في هذه الرواية، إن صحّ التعبير، فصولا من عملنا ونضالنا والمعاناة التي رافقتنا طوال سنين من أجل سعادة شعبنا العراقي ورفاهيته. لم يكن سهلاً أن نشن نضالنا ضد قوى مدججة بكل إمكانيات القمع والاضطهاد والكفيلة بتحقيق غاياتها وغايات أسيادها وضمان مستقبلها على حساب مستقبل ملايين البشر. إن كل ما أورده هنا من ذكريات عبارة عن أحداث حقيقية مستقاة من الواقع الذي عاشه صاحب هذه الرواية. وهي جزء مما عانى منه مئات وألوف الوطنيين العراقيين، وخاصة الشيوعيين منهم، في بلد يمتلك كل مقومات الاستقرار والرفاهية لو انتصرت القوى الديمقراطية وحققت ما يصبو إليه الشعب.

سليم إسماعيل البصري

القسم الأول

قبل ثورة ١٤ تموز

الفصل الأول

الوصول...

كانت أطراف القرية فارغة من ناسها و الحركة فيها معدومة تقريباً حينما حططنا رحالنا فيها. المياه في النهر تجري صافية، العصافير والبلابل تزقزق وتغرّد فرحة بمجيء الصباح بعد انجلاء عتمة الليل و الشمس بدأت ترسل حرارتها وخيوطها الحمراء والبنفسجية وتغمرنا بدفئها بعد برد ليل قارص. حينها كنا نياما، أنا وزميلي علي، متلاصقين اتقاء برد الفجر في ساقية جفّت مياهها. قبلها كنا قد حشرنا أنفسنا حشرا في ملابس رثّة أهداها لنا رعاة الغنم المهاجرون إلى السعودية عن طريق نقرة السلمان طلبا للرزق والعشب. أوصلنا إثنان من شبابهم المسلحين إلى بقعة قريبة من سكة حديد القطار الصاعد من البصرة إلى بغداد، والذي يتوقف في مدنية السماوة، حيث كنا نفكّر بالتسلل مع ركابه إلى بغداد، إلا أنه اجتازنا مسرعاً في الثانية بعد منتصف الليل تاركا لوعة في القلب :

يا ريل ثكّل يبـــويه وخل أناغـــيله

يمكن أناغي بحـــزن منغـــه ويحنّ الكطه

وبلحظات اجتازنا " الريل " كالطلقة.. ليعيدنا الى قاع الساقية بعد أن تبدد حلم الصعود، و أقول حلم لأننا أولاً لم نكن نحمل أية هوية، رغم قناعتي بأن أي إنسان معرض لفقدان هويته في هذا الليل الموحش، وثانياً لأن القطار لا يتوقف إلا في المحطة الرئيسة في مدينة السماوة. علّقنا أملاً مبهما على أن تتوقف سيارة ما أو تخفض من سرعتها فنتسلقها بغفلة من سائقها وتنقذنا من الخطر الذي نشعر به في منطقة تجوبها الحيوانات المفترسة كالذئاب أو الأفاعي السامة التي تسكن الحفر والسواقي.

ومرّ بذاكرتي بسرعة البرق، المصير الذي آل إليه الضابط صلاح أحمد، عندما هرب

من سجن نقرة السلمان بتدبير من قيادة السجن التي كان على رأسها صديقي الحميم "أبو خلوق"، واختفى في بئر تقع خارج السجن. غادر البئر بعد حلول الظلام مزودا ببوصلة وماء وكسرات من الخبز مجتازا الصحراء باتجاه مدينة السماوة. لم تعرف إدارة السجن باختفائه إلا بعد مرور عدة أيام، وأسفر التفتيش عنه عن العثور على جثته في الصحراء وقد افترستها الذئاب. وبحكم التفكير بأن مصيرنا قد يؤول إلى نهاية مماثلة مفزعة، وتحت تأثيرالبرد الذي جمّد ظهورنا، جمعت أشجاراً يابسة، وأوقدتها لأني أعلم أن الذئاب والثعابين تخشى النار ولا تقترب منها. أدخلت النار الدفء إلى جسدينا، لكن المخاطر التي تكتنف إشعالها، خاصة وأن الشرطة تلاحقنا، دفعتني لإطفائها بعد أن تلذذنا بدفئها قليلاً. سلمنا من أنياب الذئاب والأفاعي تلك الليلة لكننا لم نسلم من الجوع فاشتد علينا يعتصرنا ثم يعضنا بنابه كما يقولون. انطلقنا بعد انبلاج ضوء الفجر وبزوغ أشعة الشمس بلا هدف محدد علّنا نصل إلى قرية أو شخص ما يرشدنا إلى طريق لا تدركه الشرطة من هذا الريف الشاسع المترامي الأطراف والذي يضم فلاحي الفرات ذوي التقاليد الرجولية والبطولات.

لاحت لنا من بعيد ملامح قرية، كان كل شيء فيها هادئاً حينما بلغناها، وكأنها خالية من السكان، على غير عادة أهل القرى من الفلاحين الذين ينامون مبكرين وينهضون مع بزوغ الفجر للصلاة، ثم للعمل في حقولهم. وجدناها شبه فارغة، أكداس من سعف النخيل مضغوطة على بعضها، قطرات الندى مازالت عالقة بأطراف الأشجار، الكلاب الأليفة على غير عادة كلاب أهل القرى كانت نائمة بعد أن أرهقها السهر والحراسة والتجوال، عيونها محمرّة، جراء تلعب على بطن أمها، وترضع الحليب فتفتح الأم عينيها المحمرّتين ثم تغمضهما. مشينا صوب النهر وهناك وجدنا امرأة شابة تجلس على جرف النهر تغسل أطباقاً وملابس أطفال فتوجهنا إليها محملين بالأسئلة: هل ستستقبلنا يا ترى، أم تطردنا ؟ فهي ملاذنا الوحيد الآن.

هل نتحدث إليها عن هويتنا وقصتنا و من أين جئنا أم لا؟ وهل ستبلّغ عنا الشرطة حينها أم تغمرنا بعطفها وتستميل مشاعر أهل قريتها كي يرشدونا إلى طريق النجاة؟ هل نبلّغها بأننا هربنا في الليلة الفائتة من سيارة شرطة البادية مع مجموعة أخرى من السجناء، وأن الشرطة تطاردنا الآن لا نعرف عن مصير رفاقنا شيئاً؟ هل

نبثها ثقتنا ونخبرها بأننا مجموعة من السجناء، فتحنا شبّاكاً في عربة نقل السجناء، وهمنا على وجوهنا في قلب الصحراء لا نعرف ما يخبئه لنا القدر؟ المرأة مشغولة بغسيلها ولا تدري من نحن، الجوع يعصرنا، وكل هذه الأفكار تتلاطم داخل رأسي كأمواج شط العرب. ما علاقة هذه المرأة الريفية بمشاكلنا هذه؟! و ربما تمتنع عن استقبالنا إذا ما عرفت شيئا عن حقيقتنا، ربما تشي بنا، وقد نضيف إلى متاعبها عبئا جديدا.

سلّمت عليها.. فرفعت رأسها، وبعد نظرة خاطفة منها، ردّت السلام بشكل مطمئن. أخبرتها حينئذ بأننا غرباء ونأمل أن ننال قسطا من ضيافتهم الريفية المعروفة، فجمعت كل أوعيتها وسارت أمامنا إلى القرية، دون أن تنبس بكلمة، فدخلت هي أولا إلى البيت، الذي يبدو أنه بيتها تسكنه وعائلتها.(على عادة أهل الريف، وهي عادة يمتاز بها الفلاحون في بلادي، يستقبلون أي ضيف يمر عليهم، ويحمونه، ولي تجارب عديدة في هذا المجال من خلال معايشتي لسكان الريف، فهي عادات عشائرية وقبلية متوارثة تأريخياً).

كان البيت فارغاً تماماً، لا رجال، لا نساء، لا أطفال.. لا حركة، عدا عن كلبين صغيرين يبحثان عن الدفء لصق بطن أمهما. أوقدت المرأة التنور بلحظات فتصاعد منه اللهب الأحمر، وبدأت النار تلتهم أضلاع السعف وتعلن عن حضورها وهي تلتهم أعواد الحطب اليابس. اختفت المرأة لعدة دقائق، رجعت بعدها يلاحق خطواتها شيخ طاعن في السن، على وجهه سيماء الحكمة والتعبّد، لحيته كثّة بيضاء، وشارباه بيضاويان يتدلّيان على فمه. جلس أمامنا بعد أن سلّم علينا، وأخذ يتفحّصنا بعينين ثاقبتين مجربتين، كأنه يريد سبر غور هويتنا ومعرفة من نحن؟ ولماذا جئنا في هذا الوقت المبكر ومن أين؟ وربما أن عدد الأسئلة التي دارت في رأسه وتعلقت في لحيته كان أكبر بكثير من هذين السؤالين إلا أنه جلس أمامنا صامتاً باحترام. أن أكثر ما يخشاه الفلاح هو جواسيس السلطة المندسين بين العشائر والمكلفين باستطلاع أسرار أهل القرى، وخصوصا مشاكل القتل والثأر ونهب النساء، التي تكثر بين الفلاحين [1]، أو بهدف التفتيش عن الهاربين من الخدمة العسكرية أو البحث عن قاتل هارب من وجه العدالة... إلخ.

غرق الشيخ في التفكير ولم يقطع صمته إلا عودة المرأة الشابة وهي تحمل إبريق

الشاي والأقداح الصغيرة "الاستكانات" وإبريق الحليب والخبز الحار الذي أخرجته لتوها من التنور. ذكّرني المشهد بوالدتي ـ التي ماتت دون أن أراها ـ وهي تخرج الخبز الأبيض من التنور لنتلقفه منها، نحن الصغار المتشبثين بعباءتها، بشهية بالغة.

كانت المرأة الشابة ملتحفة بالسواد، لا يظهر منها إلا بياض قدميها الصغيرتين العاريتن ووجهها الذي يحمل كثيراً من ملامح الجمال الذي تمتاز به الريفيات. كان جسمها على نحافته، رشيقاً ملفوفاً، تتلاعب خصلات من شعرها الأسود، هربت من تحت غطاء الرأس، على وجنتيها. خرجت مسرعة بعد أن وضعت الخبز والحليب والشاي فانحلت عقدة لسان العجوز بحضور الطعام ودعانا الى المائدة أخيرا بكلمتي "باسم الله". التهمنا الخبز الحار كالمفجوعين وأتينا على الشاي والحليب والرجل العجوز ينظر إلينا ويمعن النظر فينا. فكرت وأنا أدس الخبز في فمي، وأراقب دورة الشاي والخبز في فم صديقي "علي"، كيف أفاتح هذا الرجل بقضيتنا، وأية نصيحة سوف يسديها لنا، و وكيف سيساعدنا في ما نحن فيه.

كانت القرية بأكملها غارقة بالصمت والجمود، وهذا ما كان يلفت الانتباه ويثير الشكوك، إلا أنه كانت لي ثقة لا حدّ لها بهؤلاء الناس، إذ أنني جربتهم لمرات عديدة، وخبرت وفاءهم وكرمهم. قطعت حبل الصمت بغتة، وأخبرت الشيخ بغير الحقيقة، فقلت له إننا جنود، أرسلتنا الحكومة للقتال ضد الأكراد في شمال العراق – حيث كانت الحكومة تشنّ حرباً ظالمة ضد إخواننا الأكراد – وقد هربنا من الجيش، ونريد الوصول إلى أهلنا. وأضفت أننا لا نملك أية هوية أو وثيقة، لذلك لا نستطيع السفر أو التنقل بالسيارات أو القطارات، ويقود الانضباط العسكري حاليا حملة ضد الهاربين من الجيش في كل مكان.

مددت يدي إلى جيبي لأخرج علبة السكائر، سارع العجوز لإلقاء كيسه، فاعتذرت منه بالقول إنني لا أدخن سكاير اللف، وهذا ما أثار امتعاض الرجل قليلاً. قال الرجل المسن بعد فترة صمت، و بعد أن اطمأن إلينا قليلا، ألا ترون أن القرية فارغة؟ أجبت نعم وهذا ما يحيرنا. قال: قبل أيام حدثت معركة كبيرة على غير العادة، بين عشيرتنا والعشيرة المجاورة، راح ضحيتها عدد ليس بالقليل من الطرفين.يحتل رجال الشرطة القرية من الجانب الآخر، ولن ينتظروا وقتا طويلا كي يشنوا حملة

لتفتيش البيوت، وأنتم تعرفون أنهم يداهمون البيوت بدون أن يراعوا أية حرمة لها، ويصادرون الطعام كالبيض والخبز.. واستطرد يشرح لنا وقائع المعركة.

وبعد أن رأى الوجوم على وجهينا، قال من الأحسن أن تذهبا بسرعة من هنا قبل حدوث ما لا تحسن عقباه. تململ رفيقي "علي" وقفزت بغتة إلى وجهه المتعب أمارات القلق، خاصة وأنه يمرّ بأول تجربة هروب له، أما أنا فقد سبقته بعدة تجارب من هذا القبيل وعركتني الحياة بخبرة الهروب من المواقف والسجون وبلوغ محطات النجاة بسلام. أجبت الشيخ، بماذا ينصحنا فقال: يجب أن تخرجا الآن قبل وصول الشرطة، وأن تسلكا الطريق الخارجي الترابي، لأن قوات الحكومة لم تتمركز فيه. قلت: وهل تعرف شخصاً يمكن أن يساعدنا بالوصول إلى الناصرية أو البصرة.أجاب بعد أن مسدّ لحيته البيضاء: يمكنكما في منتصف الطريق، أن تسألوا عن سيد جبر، وهو يمكن أن يساعدكم، وهو من أهل مدينة "الخضر".

ربما عرف الشيخ عنّا، وأراد أن يتخلّص منّا، قبل أن يصيبنا أو يصيبهم من ورائنا مكروه، خاصة وأن خبراً أو حادثاً مثل حادثنا لابد أن ينتشر بسرعة بين الفلاحين والعشائر. وهذا طبيعي، فأنه ليس حدثاً عادياً أن تفتح مجموعة من السجناء الشيوعيين، ثغرة في سيارة الشرطة وأن يشق بعض أفرادها رمال الصحراء مجازفين بحياتهم وصولا إلى الريف. ولم يكن شعورنا في غير محله، إذ عرفنا لاحقا بخبر انتشار قصتنا بين الفلاحين وتحول محاولة الهروب من السيارة إلى أسطورة جديدة أضيفت إلى الأساطير التي اجترحها الشيوعيون العراقيون في مجرى نضالهم اليومي ضد عدوهم الطبقي.

نزل "كاظم فرهود" قبلي من فتحة في شباك السيارة المعدني، كان صديقي "علي" بخبرته كعامل كهرباء، قد أحدثها وذلك بقص الأسلاك بالمشرط والكماشة. قفز "كاظم" من السيارة وهي تنهب الطريق وسط الصحراء، بعد أن قطعت أكثر من ٦ ساعات متواصلة بين تلال الرمال الممتدة بين "نقرة السلمان" والسماوة، وبعد أن اجتازت مخفر شرطة "العميد"، الواقع جنوب مدينة السماوة، وهي تنفض غبار الطريق المتطاير عنها كأنها سفينة تشقّ عباب بحر متلاطم الأمواج. جاء دوري في القفز من السيارة بعد "كاظم" فانبطحت على الأرض في الحال إلى أن اجتازتني السيارة ولم أعد

أشاهد ذيل الغبار الممتد خلفها. وقبل أن أنزل أخبرني "علي" أن "ك. ف" ربما اصطدم رأسه بحجر، لأنه تأوه.

بدأت أصيح على "ك. ف" بصوت عالٍ، بعد اجتياز السيارة، لكنني لم أسمع سوى صدى صوتي يرجع لي، فركضت باتجاه السيارة، أي باتجاه السماوة، وبعد عشر دقائق التقيت "علي" وقد نزل بدوره أيضاً وهو لا يزال بملابس السجن التي كنا نسميّها بـ (الكانة). قبلت علي مهنئا بالنجاة وأخذنا نركض بسرعة إلى المجهول وسط ظلام الصحراء. كنت محملا بعشرات الرسائل التي أرسلها السجناء معي لإيصالها إلى عوائلهم بعد وصولنا إلى "بغداد" فدفنتها كلها في الصحراء.. وواصلنا سيرنا.

بعد مرور فترة رأينا ضوءاً من بعيد، فانوساً(!).. قدرّت أنه لرعاة الغنم، فاتجهنا بدون تردد نحو هذا الضوء الذي تراقصت على بصيصه جل آمالنا.. فإما أن ينقذنا أهله أو يلقون القبض علينا، أو.. أو.. إلخ.

بلغنا مصدر الضوء بعد برهة.. خيمتان من الشعر، وقف بينهما ثلاثة رجال من الرعاة، تبدو عليهم الطيبة، فاستقبلونا بلهفة وحرارة وكأنهم يعرفوننا منذ زمن. أخبرتهم دون لف ودوران بأننا سجناء هربنا من سجن "نقرة السلمان" دون أن أكاشفهم بهويتنا السياسية، ولكن من يستطيع أن يحجب ضوء الشمس بغربال؟ قدرّوا أننا شيوعيون دون شك، إذ من يستطيع أن يركب مخاطر الهروب والصحراء غير الشيوعيين، هؤلاء الناس الذين نذروا حياتهم للشعب، وقدّموا للوطن ما لم يقدمه غيرهم. فحال هؤلاء الرعاة مثل حال الفلاح الكردي الذي يرى مفرزة من البيشمركة الأنصار تنزل من الجبل وسط الثلوج المتراكمة والبرد القارس، فيقول لهم: "أنتم إما شيوعيون أو كرونجيّة"[٢] !!.

قال أكبرهم سناً: هل هربتم من السيارات التي مرّت من هنا؟

أجبته: نعم.

أخذ الثلاثة، وقد بهتوا من الدهشة، يتفرّسون فينا وفي ملابس السجن التي كان "علي" يرتديها، فجلسنا، وأشعلوا ناراً.. ثم دخل شاب في مقتبل العمر، وسيم ذو

عينين زرقاوين، يحمل بندقية، فأخبرنا أحدهم، ربما والده، بأن هذا الشاب كان في السجن وقد خرج قبل أيام بعد أن قام "عبد السلام عارف" بانقلاب على البعثيين والحرس القومي المجرم!! سلّم الشاب علينا وجلس هادئاً..

كان الموقف حرجاً، إذ لا زلنا في منطقة الخطر، واقترب وقت وصول السيارات التي تقل رفاقنا السجناء إلى مديرية شرطة "السماوة" وسينكشف أمر هروبنا وتبدأ حملة وتعقّب آثارنا، المهم كل الأهمية أن نبتعد عن منطقة الخطر.

قلت للرجال: إن عودة السيارات والشرطة أكثر من محتملة، عليكم مساعدتنا في ترك المنطقة درءاً لوقوع مخاطر عليكم وعلينا..

قال الرجل: أنتم ضيوفنا ولا خوف عليكم معنا، ويجب أن تأكلوا وتشربوا.. ومن يرشّكم بالماء نرشّه بالدم!! وإذا اقتضى الحال، نضعكم مع عوائلنا، فالشرطة لا تدخل خيام النساء. فضحكت في داخلي من كلامه، خاصة وأني جرّبت نذالات وخسة الشرطة في مثل هذه الحالات. فشكرته... ونادى على زوجته، فأحضرت خبزاً وشاياً، وألزمنا الرجال بالأكل.

التهمنا الخبز دون أن نمضغه جيداً بسبب حراجة الموقف فما كان مني إلا أن أخبر الرجال بخطورة القضية.. وقد قدّروا هم أخيراً ذلك، فنزع أحدهم دشداشته وأعطاها لـ "علي" بدلاً من ملابس السجن، وأعطاني الآخر دشداشة كانت أسمالاً.. ثم أخذ أكبرهم السروال الذي كنت أرتديه وقال إنه سيحتفظ به للذكرى، ثم لفه تحت ظهر الحمار لإخفائه عن الشرطة. وأتذكّر أنه أعطاني عنوانه في السماوة، وقال: إن نجوتم بعون الله يجب أن تزورونا، ثم نادى على شابين مسلحين، بعد أن قدّر وضعنا المحرج، فقبلناهم على عجل وانطلقنا مسرعين نحن الأربعة.

لم نكد نترك الخيام ونعبر الشارع العام حتى رأينا أضوية قادمة من بعيد، كشافات ضوء أحالت الطريق نهارا لكثرة السيارات، فأمرنا الشابان بالانبطاح في الساقية وقطع النفس رغم أننا على مسافة بعيدة عن الشارع العام. انطلق صوت من إحدى السيارات فجأة ينادي العامل الذي كان يعمل في البئر التي تقع في الطريق، وهي كما يبدو واحدة من سلسلة من الآبار التي تسحب المياه لسقي الأرض وللأغنام والماشية، وكنت أعرف بوجود هذه البئر منذ عام ١٩٥٥ [٢].

صاح شخص، ربما كان معاون الشرطة: هل رأيت أغراباً مرواً من هنا؟.

فأجابه العامل: كلا سيدي.

أجاب المعاون: إذا رأيت أي شخص غريب، ألق عليه القبض واحتجزه حتى نرجع!!

أجاب العامل: نعم سيدي.

ثم هدرت محركات السيارات، وكانت عشر سيارات، ونحن نراقبها من مخبأنا، متجهة نحو طريق "نقرة السلمان"، بحثا عنا، ولكن هيهات.. كان من الصعب العثور علينا في هذا الليل البهيم، خاصة بعد أن أصبحنا أحراراً وانطلقنا نحو الحرية. بعد أن اختفت السيارات وبلعتها البادية بظلامها الدامس، نهضنا نحن الأربعة مهرولين بين البساتين في سواد الليل، ولكن الشابين كانا يعرفان الطريق جيداً، كيف لا وهم رعاة من أهل المنطقة.

أشار لنا الشابان على الطريق بعد أن وصلنا قرب سكة الحديد. كانا ينظران إلينا بحنان وكأننا أخوان لهما، قالا إنهما لا يستطيعان التوغّل معنا أكثر من هذا، فقبّلناهما مودّعين ولا ندري ماذا جرى لهما بعد ذلك، لابد أن الشرطة مرّت على خيامهما وأهلهما، عند رجوعهما.

لاشك أن أخبار عملية الهروب الخطيرة قد بلغت قرية الشيخ التي انتهينا إليها، وهو سبب استعجاله لصرفنا، فتركنا القرية غارقة في صمتها كما دخلناها. وخرج الشيخ معنا بعد أن أرشدنا إلى الطريق وإلى الشخص الذي من المفترض أن يساعدنا، فودّعناه بحرارة وواصلنا السير طوال ٥ ساعات وسط بساتين مغمورة بالأشواك والأرض الطينية الرخوة، المحروثة استعداداً لزراعتها. كان السير فيها صعباً ومؤذياً، ونحن بملابسنا التي أهداها لنا الرعاة، تحفّنا المخاطر من كل مكان..

لاحت لنا قرية مؤلفة من عدة بيوت طينية فتوجهنا إليها بعد أن كلّت أقدامنا من المسير، وإذا بامرأة تعمل لوحدها على سجْر التنور. استقبلتنا بترحاب كعادة أهل الريف حال أن شعرت بوجودناوقادتنا إلى بيتها البسيط المفروش بالبسط. سألتها عن الرجال.

فقالت: إنهم في الحقل وأنا موجودة بدلاً عنهم، أهلاً بالضيوف.

بعد دقائق، دخل رجل بيده مسحاة.. طويل القامة، مفتول العضل، سلّم علينا وجلس أمامنا، فبادرته الحديث، وشرحت له بأننا جنود هاربون من الجيش، نريد الوصول إلى "الناصرية". لم يخامرنا شك في أن الرجل لم تصله معلومات عنّا، لم يطرح بدوره أية أسئلة، واكتفينا نحن بسؤاله عن الطريق الذي يوصلنا إلى مدينة "الخضر"، وهي مدينة رفيقنا الشيوعي "محمد الخضري" [٤]. قدّمت لنا المرأة خبزاً وحساءً حارين، ثم شربنا الشاي وتركنا القرية مودّعين الرجل والمرأة، شاكرين لهما ضيافتهما..

الفصل الثاني

الخضر

واصلنا المسير لساعات طويلة في نفس الطريق الصعب مدفوعين بطاقة وهمّة لا حدّ لهما حتى وصلنا أطراف مدينة "الخضر". كانت الشمس قد ودعت السماء حينما اقترينا من أول بيوت مدينة "الخضر" فاتفقنا على مراعاة الحذر كي لا نكشف أننا أغراب أولاً وكي لا نفضح علاقتنا بأخبار عملية الهروب التي تلاحقنا من قرية إلى أخرى ثانيا. أخذت صديقي "علي" من يده وقلت إن علينا أن نسلك طريق أطراف القرية رغم التعب الذي أنهكنا وأقدامنا المتورمة من كثرة المسير. فجأة رأينا شخصاً بديناً خارجاً من آخر بيت يرافقه شخص آخر يحمل فانوسا ينير أمامه الطريق، فمررنا بمحاذاته ملتفين بالظلام، مراعين عدم كشف ملامحنا له. التفت ليتأكد منّا عندما اجتزناه، لكنه مضى، فاتجهنا الى حامل الفانوس، سلّمنا عليه وسألناه عن بيت "سيد جبر"، فأجاب: لقد وصلتم، هذا هو بيته!.

كانت مصادفة سارة أن نصل إلى البيت المطلوب مباشرة. قادنا الرجل، وهو يرتدي دشداشة ونعلاً، إلى وسط البيت، ثم إلى غرفة منعزلة، كانت دافئة ومفروشة بالبسط ونظيفة، فتنفسنا الصعداء، رغم أننا نجهل ما سيؤول إليه وضعنا في هذه المحطة من رحلة المفاجئات.

تبادلنا الحديث أنا و"علي" حول مسيرتنا ومصاعبها بعد أن افترشنا مكانين لنا في الغرفة الدافئة التي امتصت آلام مسيرة النهار. كان "علي" من المحكومين بالسجن المؤبد ويفكّر بالنجاة بأي شكل كان، بل إنه كان مستعدا لركوب كافة المصاعب من أجل الخلاص، والسفر إلى خارج العراق، أما أنا فكنت أفكّر بأسرع الطرق للالتحاق بالحزب...

فجأة دخل رجل طويل القامة، نحيفها، يبلغ من العمر ٤٠ عاماً أو ربما أكثر بقليل، لوّحت الشمس بشرته، ذو ملامح جميلة، وبنية قوية. توقعت أن يكون هو "جبر" الذي أرشدنا إليه الرجل العجوز في القرية الأولى.

سلّم الرجل كالعادة وجلس وأخذ يتفرس فينا ملياً، واستطاع بفراسته الريفية ودون أدنى جهد أن يعرف أننا أولاد مدن وليس من أهالي القرى أو الريف، لسنا رعاة أو لصوصا، ولابد أن تكون لدينا قضية ما تدفعنا. رحّب بنا مرات عديدة، ثم جلب لنا طعاماً جيداً وحساء، ثم قدّم الشاي بيده، من الموقد المنصوب داخل المضيف أو غرفة الضيوف كما نسميها.

شرحت له وضعنا دون لبس حسب القصة التي حبكتها سابقا، فنحن جنود هاربون من الخدمة العسكرية، وننوي الخلاص من الشرطة العسكرية إلا أن الرجل أبى أن يصدق قصتنا كما يبدو، و قال إنه يعرف "محمد الخضري"، رفيقنا ابن "الخضر" البار، وأنه كان في زمن ثورة ١٤ تموز، رئيساً لجمعية فلاحية، ودخل معارك مع السراكيل والملاكين من أجل الفلاحين، وقابل "أحمد صالح العبدي" الحاكم العسكري أيام قاسم، وأنه أوقف مرات بعد أن ارتدّت سلطة "قاسم" وأصبحت تدافع عن مصالح الملاكين والسراكيل وخذلت الفلاحين [٥]. توغل الرجل بالحديث، وكان كما يبدو صادقاً، إذ كان يتكلّم بثقة بينما كان يقلب، بين آونة وأخرى، جمرات الموقد مذكيا نارها التي كانت تبعث الدفء في المكان.

فكرّت.. لماذا أعطانا الرجل العجوز في القرية الأولى، اسم هذا الرجل دون غيره؟ هل قدّر أننا سياسيون؟ إذ لم يكن الشيخ قد عرف قصة الهروب كما أسلفت. حاولنا تجنب الحديث في هذا التفصيل الشائك، الحديث بالسياسة، قدر المستطاع، وترك الأمور لتقديرات الرجل نفسه، وهذا أفضل من أن نعطيه شيئاً ملموساً عن وضعنا، فالحذر في كل الأحوال كان مطلوباً.

تلمست في قلب الرجل طيبة ابن الريف ذي التقاليد العشائرية والشرف فشجعني هذا الشعور على مطالبته بمساعدتنا على شراء ملابس جديدة، عُقُل وكوفيات، ودشاديش جديدة وأحذية، وسلّمته عشرة دنانير لشراء هذه المواد. قلت له إننا نبغي الوصول إلى "النجف" أو "الناصرية"، ومستعدون لدفع الأجرة مهما بلغت، اذ كنت

أحمل ما يكفي من المال معي، ويعود الفضل في ذلك إلى حسن تدبير رفاقنا في قيادة سجن النقرة، الذين سلّموا لي مائة دينار وقالوا إنها قد تنفعك في حالة الهروب. ودّعتهم حينها واحداً واحداً مؤكداً لهم بأني سأحاول الهرب مهما بلغت الصعوبات.. وكانوا كلهم على ثقة بذلك..

وافق الرجل وقال: سأذهب إلى سوق المدينة غداً صباحاً وأشتري لكم المواد، وسوف أفتش لكم عن سيارة أو عن صاحب سيارة من المعارف يقلكم إلى الناصرية أو النجف، ثم تركنا وقام. نمنا بعد أن تركنا كالأموات جراء الإرهاق الذي تسلل إلى مفاصلنا طوال الطريق الوعر إلى قرية الخضري.

جلب لنا الرجل الفطور في الصباح، وكان بيضا مع الخبز والشاي، ثم توجه للقرية مودعاً. في الساعة الثانية عشرة ظهراً، رجع إلينا حاملاً معه كل ما طلبناه منه، إلا أن وضعه لم كن طبيعيا. بادرنا بالحديث قائلاً: إن الشرطة تحتل المدينة وتفتش كل الركاب والسيارات وحتى الجنائز.. فهم يفتحون التوابيت ليشاهدوا إن كان داخلها أحد أم لا.

قلت: لماذا؟

قال: إن شيوعيين، قادة من الحزب الشيوعي، وضباطا كبارا محكومين بالإعدام، قد هربوا من "سجن نقرة السلمان" ويلاحقهم عدد كبير من الشرطة يتولون تفتيش وتمشيط المناطق كافة. رغم ذلك، اطمأنوا فإنني راجع للسوق لاستجلاء الوضع، وإيجاد واسطة نقل لكم. وذهب.

المطاردة

غادرنا "سيد جبر" تاركا مسحا من ملامحه السمراء وعباءته الحنيّة وعقاله الأسود عالقة في ذهني حتى اليوم. وبقينا كامنين في تلك الغرفة، نحس بشيء من الاطمئنان، بينما كانت الملابس التي جلبها لنا جبر في مكانها، مرمية في الزاوية.

وبعد ساعة أو أكثر بقليل من ذهابه، سمعنا صوت زوجته أو زوجة أخيه - لا أعرف بالضبط - وهي تهتف بأعلى صوتها: "اطلعوا، هناك سيارات مسلحة قادمة علينا..!!".

طفرنا الجدار بأسرع من لمح البصر واجتزنا البيت ومن ثم القرية، ونحن حفاة، راكضين لا نلوي على شيء باتجاه النهر، لا نعلم ما يخبئه القدر لنا من مفاجآت اخرى. إذن الشرطة تلاحقنا!! كنا نركض بسرعة عدائي سباق المئة متر حينما سمعنا صوتا قادما من الضفة المقابلة من الشط لشاب ينادي:

"هل هذه السيارات تطاردكم؟!". قلت: "نعم"

قال: اختبئوا !ستذهب حالا، وبعدها أعبّركم الشط!!.

رأينا نساءً وشيوخاً وأطفالاً يقفون في الجهة المقابلة من الشط، ينظرون إلينا دون أن ينبسوا بكلمة، والشاب يجهّز زورقه وعينه لا تفارق حركة المسلحات. مرت بضع دقائق ثقيلة تأكد خلالها صاحب الزورق من ذهاب المسلحات، قبل أن ينطلق نحونا بسرعة. ولحظتها فقط عرفنا كيف وصل خبرنا إلى الشرطة، إذ جاء أخو جبر، ونحن نهم بركوب الزورق، حاملاً ملابسنا الجديدة التي تركناها مرمية في البيت وهو يلطم ويبكي بكاءً حاراً ويندب: ماذا كنت سأقول للعشيرة والأهل لو أن الشرطة ألقت القبض عليكم في بيتنا ؟! "وين أودي وجهي". قال:

"تذكرون عندما جئتم البارحة وكنت أودّع الشخص الذي قابلكم في الطريق، هو ابن سركال سيء، الظاهر هو الذي أخبر الشرطة بوجود غرباء التقى بهم ليلاً، أرجوكم المعذرة، المعذرة".

قبلّناه وشددنا على يده، وقلت له: فضلكم هذا لن ننساه، خرجت القضية من أيديكم، وأنتم غير مسؤولين عما يحدث. بعدها أنطلق البلم بنا عابرين الشطّ إلى شاطيء الأمان، والرجل يودّعنا واقفا لا يتحرك من مكانه، ولم يغادر الشاطئ إلا بعد أن وصلنا الطرف الآخر. نزلنا مسرعين وهرول الشاب نحو بيته، فجلب بندقيته وقال لصاحب الزورق: هيا لنسر "ماكو خطر بعد".

سمعنا زوجته تحتجّ عليه خائفة أن يصيبه مكروه فصاح بها ناهيا ولم نسمع صوتها بعد ذلك، إذ سرنا مسرعين خلفه في طريق وعر. قال الشاب ونحن نشق طريقنا خلفه: " كنت في السجن، وخرجت بكفالة بعد الانقلاب على البعثيين. ثم أخذ يشتم الحرس القومي ويمدح عبد الكريم قاسم ويلومه على تخاذله أمام السراكيل والإقطاعيين. وأضاف: هذا هو سر خوف زوجتي عليّ..

كنا حفاة في أرض محروقة، لا أعرف مصدر العزيمة التي كنّا نمتلكها، لكنني أعرف ان الخوف لا يعرف طريقه الى قلوبنا، وأن بمقدورنا تحمل أنواع الصعاب كافة. وبعد مسير طويل على الأشواك والأرض الرطبة أخذ الظلام بالتساقط على المنطقة طارداً ضوء الشمس تدريجياً.

وصلنا إلى نهر يبلغ عرضه ثلاثة أمتار فتوقف دليلنا مبتسماً وقال: إلى هنا، حديّ معكم.. المنطقة آمنة! وأشار بيده لوجهتنا في المسير ثم ودعنا وذهب. كان فرحاً لأنه قدّم خدمة لأناس تطاردهم السلطة، وكان مستعدا لفعل ذلك وإن كلّفه حياته، وليس هذا سوى نموذج واحد عن الكره العميق الذي يضمره الناس للحكومة والبعثيين.

خلعنا ملابسنا بلا تردد وحملناها بأيدينا وعبرنا النهر، الذي وصلناه للتو، رغم برودة الماء. بعث الماء شيئا من النشاط في أجسادنا ونحن نجلس على ضفته الثانية نتجرد من الملابس القديمة التي أهداها لنا الأخوة الرعاة، ونرتدي الملابس الجديدة التي اشتراها لنا السيد جبر. أطلقنا سيقاننا للريح، بعد استراحة قصيرة، على أرض فارغة، موحلة، حشائشها يابسة تملؤها الأشواك، معرضين لمختلف المخاطر، ويلفّنا صمت مشوب بالقلق.

هل سنضطر للنوم على هذه الأرض الرطبة في هذا الليل الحالك؟ ليكن! فهذا هو قدرنا، ما دمنا قد اخترنا العودة إلى أحضان الجماهير والحزب والحياة ككل بعد تلك الدورة المغلقة من التوقيف والسجن والتعذيب، والممتدة بين "مديرية الأمن العامة" وزنزاناتها الموحشة و موقف "الفضيلية" وسجن "نقرة السلمان". فالنضال الحقيقي يتطلب التضحيات، ولا عسل بدون لدغ الزنابير،كما يقال!!.

فشلنا مرة بالنجاة من النفق الذي حفرناه طوال ٢٢ يوماً في موقف الفضيلية. وبعد الجولة المعتادة من التحقيقات والتعذيب هربنا من كوة فتحناها في جدار السيارة المشبك وها نحن نمشي في طريق لا نعرف إن كان سيقودنا للنجاة أو الموت. ومع ذلك يجب أن نواصل!.

القمر.. الأمل

لاح لنا ضوء خافت من فانوس بعيد فبرقت في نفوسنا لحظات أمل محفوف بالخطر... قلت لـ "علي": لنتوجّه إليه، ربما أنهم رعاة أو قرية، أو هاربون من الحكومة لهذا السبب أو ذاك.نكس "علي"، الذي يتخذ مني دليلاً وصديقًا وفيّاً ومجرّباً، رأسه وقال: "عليهه!!" بلغتنا أصوات الخراف والنعاج قبل أن نصل إلى موطن الضوء فقلت لصاحبي : لابد أنهم رعاة!!

واجهتنا بعد دقائق من المشي خيمة من الشعر مرفوعة على أعمدة ومثبّتة إلى الأرض بأوتاد مخروطية الشكل: بساط مفروش على الأرض، موقد، وأفرشة مرصوفة جنب بعضها. خرجت علينا امرأة متوسطة العمر مرحّبة باشة بينما كنا نحاذر الدوس على رؤوس الغنم التي كانت باركة تجتر ما ابتلعته من عشب.

لم نكد نجلس على البساط الوحيد في هذه الخيمة، حتى جاء شاب طويل القامة يحمل بيده بندقية، يرتدي دشداشة وعباءته على كتفه، ويسحب في يده نعجة يبدو أنها حامل، وحاملاً بيده الأخرى خروفاً صغيراً. سلّم وجلس أمامنا بادي الارتياب من وضعنا. لم يسألنا، كالعادة، من نحن ولا من أين جئنا وما هي مصيبتنا.. ويبدو أنه لا يعرف عنّا شيئاً..

كانت نظراته إلينا تتأرجح بين الأدب الواجب إبداؤه تجاه الضيوف والريبة من الغرباء، كعادة أي فلاح تجاه أناس لا يعرفهم. رمى إلينا كيس تبغه بعد أن جلس وقال: نحن في وسط "جولة" أي برّ منعزل، لا تصله الشرطة: لا المسلحات ولا الطائرات، ومستعدون دائما للقتال. كان هذا تنويهاً بأن جواسيس الحكومة لا يستطيعون الوصول إلى " الجولة " ولا يمكنهم ان يمسونا بسوء. فهمت مقصده وقلت له، نحن جنود هاربون.. إلى آخر القصة.

تسلل إلى الخيمة أثناء حديثي معه شاب آخر، يبدو أنه الأخ الأكبر، سلّم ورحّب بنا. كان وسيم المظهر، لوّحته أشعة الشمس بلون أسمر، ودوداً جداً ومجاملاً يوحي بإمكانية الاطمئنان إليه. انسحب مضيفنا الأول وهو يعرج وذهب لرعاية شؤون الغنم، ثم جاءت المرأة، وعرفت أنها أمهم، فقدّمت لنا الخبز واللبن والزبدة، وهي تختلس إلينا النظرات محاولة بفراستها أن تسبر غور قلوبنا.

بقي"علي" صامتا ومتماسكا كعادته، لأنه كان ابن مدينة، ابن البصرة، وعاملا مأجورا قضى صباه بالعمل، ولم يخض مثل هذه المصاعب قط، لم يختلط بأهل الريف من قبل، ولا يحسن التصرف في مثل هذه المواقف رغم انحداره الفلاحي.

طرحت على الشاب أمرنا، كوننا لا نملك هويات.. الخ ونريد مساعدته في الوصول إلى "الناصرية". فكّر ملياً وقال: سوف أذهب إلى السوق لأطّلع على الأوضاع وأعود إليكم.

أخذ فرسه الحمراء اللون، الرشيقة القوام واقتادها من أمامنا. التفتت الفرس إلينا، وألقت نظرة بعينها اليمنى وكأنها تصارحنا القول: أنا التي سأحملكم على ظهري يوم غد. امتطى الشاب صهوة جواده وانطلق به تحت أنظارنا التي تابعته إلى أن ابتلعه الظلام. جلسنا لوحدنا صامتين، أنا أدخن السكاير، و "علي" ينظر في الأفق، لا أعرف ماذا يدور في مخيلته، لكنني كنت أستطيع أن أجزم بأنه يفكّر بما سيحمله لنا الغد. أطفأت الفانوس، بعد أن ظهر ضوء القمر الفضّي الجميل.

فناجيت القمر..

كم مرّة رأيتك في طلوعك واختفائك؟.. رأيتك بدراً، كما رأيتك هلالاً، خيطاً نحيفاً كأجسام الفقراء، تظهر بخجل في أيام رمضان ثم تختفي، يتنافس لرؤياك البدو والحضر.. ثم يهلّ هلالك يوم العيد... رأيتك مثل فتاة عذراء عارية، شعرها الذهبي نورك، جسمها البض نسيج إشعاعك.. رأيتك تطل من وراء الجبال العالية في شمال بلادي، أو من بين الأشجار الكثيفة والغابات، شاهدتك محاطا بالغيوم الداكنة السوداء، كأنها عفاريت تريد خطفك وهي مسرعة الخطى تحركها رياح عاصفة، راقبت نورك المشعّ الجميل كفارس يقاوم جيوش وعفاريت غاشمة تريد حجبك بدخان أسود تنفثه أفواه أفاع سوداء، أفاع وحشية كوحشية حكّام بلادي. ولكن هيهات أن تستطيع ابتلاعك، فالأفاعي تفر من أمامك كما لو أن عفاريت من عالم آخر تطاردها.. لتبقى أنت في مكانك.

كم مرة أيها القمر المشع، وأنا أحمل مناشيري وكتبي وحقائبي، سائرا في حلكة الليل البهيم والظلمة، متعثراً بخطاي، متلفلفا بعباءة الليل، كنت أنتظر بزوغك لأهتدي بنورك وإشعاعاتك. أيها القمر، أنا أعلم أن نورك المرسل على الأرض والجبال

والغابات، لا ينبعث من داخلك، لأنك تعكس أشعة الشمس فتحلّ محلها في الليالي المظلمة، وتنوب عنها كي يبقي طريق الإنسان مضيئاً.. مشرقا. قد أحتاجك اليوم وأنا في هذه الخيمة الشعرية بين الخراف والنعاج لأهتدي بشعاعك نحو مستقبل أفضل.

بينما أنا غارق في "مناجاة القمر"، سمعنا صهيل فرس مضيفنا وقد رجع من سفرته القصيرة.

وبعد أن ربط الفرس، قدّم لها حزمة من الحشيش اليابس.. توجّه إلينا بأخبار مقلقة، قال:

"إن مسلحات الشرطة، وعددا غفيرا منهم، يحلون حالياً في المدينة ضيوفا على رئيس عشيرة "الشريفات" ومدير الناحية!!". وهنا كرر الشاب نفس الكلمات التي سمعناها في القرية السابقة وهي أن شيوعيين كبار وضباط جيش محكومين بالإعدام قد هربوا من السجن.

وجمنا بعض الشيء وتحسسنا الخطر، فالشرطة ما زالت في أثرنا إذن. نظرت إلى صديقي ورفيقي "علي"، ونظر هو إليّ بعينين متسائلتين " أي، شنو الحلّ"؟!سحب الراعي نفساً عميقاً من سيكارته اللف ووجه حديثه إلينا مطمئناً:

- لا تخافوا!!

وأعاد علينا كلمات أخيه ولكن بشكل آخر...

"نحن هنا في بادية معزولة لا تصلها سيارات الشرطة المسلحة، ولا مشاة، والدنيا ليل وأنا وأخي مسلّحان، سنخرج غداً في الصباح الباكر، لننقلكما إلى مكان أكثر أماناً. وواصل حديثه بثقة : هنا، لا تستطيع سوى الطائرات الوصول إلينا، وهذا غير ممكن في الليل.

بينما كان يتحدث كنت أفكر بأن ذهابه إلى القرية إنما كان لمعرفة هويتنا وليس لمقابلة صديق كما قال. وربما أنه عرف بأخبار هروبنا ومداهمة الشرطة للقرية التي كنّا فيها في منطقة "الخضر". أضاف الشاب قاطعا سلسلة أفكاري: يجب أن تناموا، ونحن نحرسكم، ثم ذهب كما يبدو ليعلم أمه وأخاه بالحالة.

كيف نطبق جفوننا والشرطة على مقربة منا يا ترى ؟ هل نترك المنطقة؟! ولكن إلى أين، في هذا الليل الموحش؟ أليس من الممكن أن يعترض اللصوص أو ربما الذئاب

طريقنا فنذهب إما ضحية لبنادق البشر او لأنياب الوحوش ؟ هذا رغم قناعتي بأن اللصوص أشرف بكثير من الحكّام وشرطتهم وجواسيسهم.. إن لصوص الريف ليسوا كلصوص المدن، فهم يتمتعون بتقاليد وعادات تميزهم عن اللصوص الآخرين، وهم أصحاب نخوة عندما يشعرون أنك مطارد من قبل الحكومة.

ظهر صديقنا الشاب جالباً بطانيات، ربما أخذها من أخيه أو أمه مع وسادتين وقال:

ـ ناموا فالصباح رباح!

ثم تركنا وذهب.

مروءة

بين الحلم واليقظة، والنوم وعدمه أخذ خدر النوم يدبّ في مقلنا المتعبة، خاصة بعد تلك المسيرة المرهقة. غلبنا النعاس بدون وعي منّا، ولم نشعر إلا وصديقنا الراعي يوقظنا، وبيده، أقداح وأبريق شاي، والخبز الذي أخرجته والدته من التنور للتو.

كانت الساعة الرابعة صباحاً. كانت الفرس تصهل وتدقّ بحافرها على الأرض كأنّها تنادينا للنهوض، النعاج والخراف تملأ المكان صياحاً... عنزة تقفز بخفّة ورشاقة، نعاج تجترّ ما خزنته في النهار، وعصافير تلتقط حبات صغيرة من الأرض.

بعد أن وضع الطعام أمامنا، ذهب ليسرج فرسه الحمراء الجميلة.. جاءت المرأة بإبريق ماء دافئ، فغسلنا وجوهنا،التهمنا ما تيسر من الطعام، ثم شددنا الرحال للمسير. ودّعتنا المرأة والدموع في عينيها كأنها أم أو أخت حنون، الأخ الآخر لم نره، ربما كان مشغولاً مع الغنم أو نائماً.

قال مضيفنا: أحدكم يركب على الفرس والآخر يمشي.

قلت: "علي"، أركب أنت فأنا لازلت أستطيع المشي.

امتنع "علي" وقال: أنت أولاً.

رأيته مصراً، فامتطيت صهوة الفرس وسرنا في طريق موحل وصديقنا يقود الفرس... سكبت الشمس على وجوهنا زخات من دفئها ونورها، وبعد مسيرة أربع ساعات متواصلة، تبادلنا ركوب الفرس أنا و"علي" حتى وصلنا إلى مشارف عشيرة "الشريفات"، وهي من العشائر الكبيرة والمعروفة في المنطقة.. توقف دليلنا وقال:

ـ أرجو المعذرة، لا أستطيع المسير معكم أكثر من هذا [٦]

وقال اسألوا عن صديق لي صديق اسمه "سيد خضر"، وأنا سأكتب لكم (تسكره)[٧] تسلّموها بيده وهو سيساعدكم.أخرجت القلم وقطعت ورقة من دفتر صغير كنت أحمله. وقال: اكتب فأنا لا أجيد الكتابة، وأملى عليّ ما يلي:

"إلى حضرة الأخ سيد خضر المحترم

أرجو مساعدة الأخوين حاملي الدسكرة، إنهم أصدقائي

أخوكم ياسين"

وهكذا عرفنا اسمه "ياسين"، فودّعنا بمودّة وقبل أن نفترق عنه قال:

ـ إذا صادفكم شخص ما، قولوا له نحن نريد "سيد خضر"، نطلبه فلوس ونريد استرجاعها!

وامتطى صهوة جواده الأحمر الرشيق ووقف ينتظر. انحدرنا من تلّة صغيرة إلى أرض زراعية منبسطة، وظلّ الرجل واقفاً حتى ابتعدنا عنه. ولا ندري ماذا حصل له بعد ذلك. لقد كانت هذه (التسكره) كنزاً ثميناً بالنسبة لنا وهي ذات قيمة كبيرة لدى الفلاحين.

الشريَفات

حسنا، ماذا سيواجهنا من جديد؟ كيف سنصل إلى سيد خضر، منقذنا وقبلتنا الجديدة؟ ولكن هل من وقت للإجابة على هذه الأسئلة ؟ قطعنا المسافة صوب بيوت وقرى عشيرة الشريفات ونحن نراقب كيف يخطر الفلاحون المسلحون، بملابسهم العربية، وعلى صهوات جيادهم، في الطريق رواحا ومجيئا فكنّا نتحاشاهم قدر المستطاع. كما أنهم لم يلتفتوا إلينا خاصة وأنا كنا متوجهين إلى القرية لا نحفل بأحد منهم ونرتدي أحذية خفيفة وملابس جيدة "معتبرة" كما يقول الفلاحون.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهراً عندما وقفنا أمام بيت كبير من الشعر، أشبه بسرادق مفروش بالسجاد، ومقسوم إلى قسمين، قسم للنساء والقسم الآخر للرجال. ولجنا السرادق لنجد أنفسنا وجها لوجه مع رجل طاعن في السن يجلس أمام موقد فيه بقايا من جمرات صغيرة، مازالت متقدة، وأمامه طاسة مملوءة باللبن وصحن من التمر وأرغفة من خبز أسمر.

كان وجهه ممتلئاً، لحيته البيضاء مسترسلة على ذقنه، أهدابه بيضاء، وعيونه مصابة بالرمد.

سلّمنا عليه فرد السلام بصعوبة... يبدو أنه سركال كبير أو رئيس فخذ من العشيرة، وهو، كما يبدو من خيمته وملابسه، رجل ميسور... مع ذلك كان استقباله لنا دون المستوى المطلوب..

كان التعب باديا عليه، كأنه جاء من سفر بعيد، أومأ لنا بالجلوس فجلسنا في الحال بفعل التعب والإنهاك. كان "علي" ينظر للخبز والتمر واللبن بحنان وبلهفة ولسان حاله يقول علّ هذا الشيخ يتكرّم علينا بقطعة خبز أو رشفة من هذا اللبن الطازج، لكن الشيخ لم يجد علينا بما أمامه من طعام زهيد، وأخذ يقضم الخبز بأسنانه المرصوفة البيضاء كأنها أسنان شاب في العشرين من عمره.

قلت بعد أن أخذت نفساً عميقاً من سيكارتي التي ولّعتها، بأننا نريد "سيد خضر" ونحمل له (دسكره)، من أحد أقربائه، فبهت الرجل وتوقف عن مضغ الطعام الذي في فمه. وبعد أن بلعه، رفع رأسه قال:

- من أين تعرفون سيد خضر؟ وكيف وصلتم إلى هنا؟ وتلاحقت أسئلته..

وقبل أن يكمل كلامه، دخل الخيمة رجل متوسط العمر، مفتول العضل، يحمل بيده رشاشة كلاشنكوف. جلس دون أن يسلّم علينا، فأقشعر جسمي منه وارتبت من وضعه، وأحسست بخطر من هذا الرجل الغامض... ربما أنهم يعرفون عنا، أو على الأقل يعرفون بقضية هروب السجناء من السيارة. بل ربما أن شرطة البادية، الذين كانوا معنا في السيارة، هم من عشيرة الشريفات وهذا يعني أننا وقعنا في " فم السبع". دارت الأفكار في رأسي من جديد محملة بالأسئلة، هل أخبرهم بأننا جنود هاربون من الجيش، أو نتمسك بما قاله لنا "ياسين"،الذي ودّعنا قبل ساعات، وأوصانا بأن ندعي بأننا نروم مقابلة سيد خضر وأننا ضيوفه ونحمل له (دسكره).

طلعت علينا دون توقع فتاة شابة بعينين سوداوين واسعتين وجميلتين،و وجه مورد دائري وخصلة شعر سوداء فاحمة تتدلى على جبهتها. قفزت مخيلتي إلى صورة ابنتي "عواطف"، التي كانت لا تزال في السجن مع أمها، بشعرها الفاحم الأسود وعينيها السوداوين الجميلتين، ونظراتها المعبرة. كل هذه الخواطر قفزت إلى ذهني، بينما كنا

نجلس في هذه الخيمة أمام الرجل المسلح القوي والمقرف، وهذا العجوز الملتحي المبهم، وفي قلب عشيرة الشريفات. أطلّت علينا هذه الشابة الجميلة، لتقول لنا ما رسم الحيرة على وجهينا وجعل علامات الخطر تتقافز من أذنينا. قالت الفتاة:

ـ البارحة عندما رجعنا أنا وأبي (تقصد الرجل العجوز) من بغداد، من دكتور العيون وكانت الشرطة تفتش القطار لمرات عديدة... سمعنا أنهم ألقوا القبض على (ك. ف) رئيس الجمعيات الفلاحية في السماوة، و أخذوه إلى بغداد، وكان قد هرب مع آخرين من سجن "نقرة السلمان"... شيوعيون وضباط كبار من جماعة الزعيم "عبد الكريم قاسم"، وهم محكومون بالإعدام والحكومة تدوّر (أي تفتش) عليهم في كل مكان، وشرطة الخيّالة والمسلحات في كل مكان.. أيضاً.

أدخل هذا الإدلاء الفصيح من البنت الحيرة في نفوسنا لكننا تعلمنا كيفية ضبط النفس والتحكّم بالأعصاب في مثل هذه الحالات. نظرت إلى "علي" فرأيته مطرقاً برأسه الى الأرض ولسان حاله يقول" لقد وقعنا في الفخ بعد كل هذه المصاعب ".بدأ الرجل العجوز يثبّت نظراته الحادّة إلينا محاولاً معرفة حقيقتنا حال انتهاء الفتاة من سرد أخبارها.

إن صحّ الخبر الذي نقلته الفتاة عن (ك. ف)، فإنه يتعرض الآن بلا شك إلى ضرب مبرح من قبل رجال الشرطة الذين ألقوا القبض عليه في مدينة السماوة، على عادتهم الجارية لتفريغ حقدهم عليه بسبب نجاحه في الهروب. وطبيعي فإن شراسة رجال الشرطة ستتضاعف ضد " كاظم" بسبب فشلهم في إلقاء القبض على ثلاثة سجناء آخرين من رفاقه مازالوا طلقاء فكاظم هو الضحية الآن...

ولو ألقي القبض علينا، هنا في عشيرة "الشريفات"، خاصة وأن بعض الشرطة الذين أفلتنا منهم كانوا من هذه العشيرة، فإننا سنتعرض حتماً إلى ضرب وحشي على يد الشرطة الذين يفتشون عنّا، ويتابعون تحركاتنا من قرية إلى قرية بأمل إلقاء القبض علينا. كما سنتعرض للإهانات والضرب مجددا، بعد تسليمنا لمركز شرطة السماوة، على يد شرطتها وخصوصا من قبل أولئك الذين خرجوا ليلة الهروب للتفتيش عنا. سيرسلوننا إلى مديرية الأمن العامة في بغداد، وهناك سنقابل الوجوه المجرمة من المحترفين بالتعذيب وانتزاع الاعترافات من الموقوفين الأبرياء، حيث الضرب المبرح

والاعتداء، الجنسي منه أيضا،والتعليق على الجدار وغيرها من وسائل التعذيب المتبعة آنذاك...

هؤلاء الذين خدموا في أجهزة مديرية التحقيقات الجنائية إبان العهد الملكي المباد، ورجعوا للخدمة إبان حكم عبد الكريم قاسم وانقلابيي ٨ شباط عام ١٩٦٣ وفي عهد عبد السلام عارف وأخيه عبد الرحمن عارف، أناس احترفوا التعذيب، ولم تستغن الحكومات المتعاقبة عن خدماتهم.

ولاشك إننا، أنا ورفيقي "علي"، سنتعرض الى مثل هذا التعذيب إذا ما ألقي القبض علينا. لا أدري ماذا سيكون موقف "علي" من كل هذا ولكنني كنت مقدّراً كل ذلك... ولابد من الصمود وتجاوز هذه المحن، خاصة وأني قد مررت سابقاً بأكثر صعوبة منها.. منذ أيام التحقيقات الجنائية أيام العهد الملكي، حتى آخر مرة كنت فيها بمديرية الأمن العامة في بغداد، قبل نقلنا إلى سجن نقرة السلمان...

ولابد أن الارتباك والحيرة، ودقة التنفيذ وفتح شباك في سيارة الشرطة وهي تسير وسط الصحراء، خاصة وأن إثنين من الشرطة الحراس كانوا معنا في نفس القسم من السيارة، قد أربك دوائر الشرطة وحساباتهم، وأظهرهم بمظهر من لا يقبض سوى الريح... كل هذه الأفكار مرت بخاطري عندما سمعت من هذه الفتاة، نبأ إلقاء القبض على "كاظم فرهود".، إذ ستذهب كل الجهود التي بذلناها خلال هذه الفترة سدىً، وسيصاب رفاقنا في السجن بخيبة أمل كبيرة لو تم إلقاء القبض علينا...

هكذا تناهبتني الخواطر ونحن جالسون في الخيمة فعدت إلى الأمر الواقع موجها سؤالي للحضور: هل سيتأخر سيد خضر؟.

قال الرجل المسلح: لا نعرف إن كان موجوداً أم لا. سيتأخر أم لا!

عند سيد خضر

ونحن بين الارتباك والحيرة والجوع والتعب مرّ رجل نحيف يهشّ على غنمه، أعرج بعض الشيء، والتفت إلى الخيمة، فقال الرجل المسلح:

- هذا أخو سيد خضر. ثم ناداه باسمه وقال له:

- إنهم يسألون عن أخيك ومعهم (دسكره) إليه...

نهضت و"علي" معي قبل أن يكمل كلماته بعد أن أمسكنا بطرف حبل قارب النجاة وتوجهنا إلى هذا الشاب الأعرج وكأننا خرجنا من كابوس رهيب.. صافحنا بحرارة وقادنا إلى بيت شعر (خيمة) تبعد حوالي مائتي متر عن سرادق الرجل العجوز. دخلنا فوجدنا شابين يرتديان دشداشتين نظيفتين، يبدو عليهما أنهما ليسا من الرعاة، ربما كانا زائرين أو مجرد ضيفين جاءا لزيارة ذويهم. سلّمنا عليهما و جلسنا وقلوبنا مشدودة للقاء المنتظر مع سيد خضر. سألنا الشابين عنه، أجابا أنه ذهب ليبيع بندقية، وربما يرجع هذا اليوم، أو لا يرجع!.

عرفت أن الشابين هما أخواه، وهما عاملان يعملان في الكويت، جاءا لزيارة أهلهما. بدأ الظلام يخيّم على القرية، نساء متلفّعات بعباءات سود، نيران تتأجج في المواقد، نعاج وخراف جاثية على مقربة منّا، ولا شيء أكثر من عيوننا تتلصص من فتحة بيت الشعر بانتظار وصول السيد خضر.

كان الوضع خطيراً و متوتراً، إذ أن لنجاحنا تأثيرا معنويا كبيرا على رفاقنا وأصدقائنا، وعلى السجناء، وله رد فعل معاكس على أجهزة الأمن والشرطة. مرّت ثلاثة أيام على هروبنا.. ولابد أن رفاقنا احتفلوا في السجن بنجاح العملية، فهم يخلقون المناسبات الاحتفالية لأبسط الأمور، خاصة بعد أن أزيح كابوس الحرس القومي الفاشي الذي كان يخيّم على سجن نقرة السلمان، ولابد أن زوجتي في سجن النساء مع أقاربي وأهلي وابنتي قد سمعوا بخبر هروبنا وأنهم قلقون على مصيرنا...

ولكن أين سيد خضر، هذا الذي ننتظره بفارغ الصبر؟ هل سيرجع أم لا؟ وماذا سنعمل إذا لم يرجع ؟ فجأة دخل شاب طويل القامة، نحيفها، على كتفه بندقية برنو، ويعلو كتفيه وجه نحيف مستطيل. بادرنا بالسلام وعندما دخل قام الشابان ونحن احتراماً له كعادة أهل الريف.. يبدو عليه التعب وهدوء الأعصاب، ربما جاء من مكان بعيد حقاً...

قال: أنا "سيد خضر"!!

انفتحت أساريرنا، فقلت له:

- ياسين يسلّم عليك وأرسل إليك (دسكره). وسلّمته إياها...

نظر إلى (الدسكره)، لا أدري إن كان يعرف القراءة أم لا، فزاد ترحابه بنا.

وشرحت له قصتنا وكوننا جنوداً هاربين... ولم أكد أشرح له وضعنا حتى سمعنا امرأة عجوز تصيح بأعلى صوتها:

- سيد خضر.. سيد خضر!!!

خرج الرجل فزعاً:

- ماذا؟!

قالت بأعلى صوتها:

- هل إن ضيوفكم جنودا هاربين أم سجناء هربوا من سجن "نقرة السلمان"؟!

قال: لا أدري..

قالت: الشرطة نزلت لدى شيخ "الشريفات"، وقد أقام لهم وليمة عشاء، وهم على مقربة منّا، وسوف يفتّشون المنطقة. عدد من رجال الشرطة الذين كانوا في السيارة، هم من عشيرة "الشريفات"، وقد سجنوا، ولازالوا في السجن حتى يتم القبض على الهاربين...

اهتزّت خيمة الشعر بنا وسادها الارتباك، كأنها سفينة وسط بحر تتلاعب بها العاصفة، فارتبك بحّارتها، انطفأت نار الموقد ونور الفانوس، وهدأ صياح النعاج والخراف، كأنها ارتعدت من الخبر، وسادنا القلق...

مجدداً وبدون وعي منّا، ارتدينا أحذيتنا ووقفنا على باب الخيمة، استعداداً لترك المكان، دخل السيد علينا وقال:

- هل أنتم جنود حقاً أم لا؟ إذا جنود فلا خوف عليكم.. وإذا لا...

ودون أن يكمل جملته، قلت له:

- نحن، الهاربون من السجن!

ضحك.. وقال:

- لا بأس، لن يمسّكم شيء!!

تركنا وذهب إلى خيمة النساء وقال لوالدته المرعوبة:

- أحضري الخبز والطعام.

ثم دخلت علينا المرأة العجوز وجلست أمامنا، وقالت:

- يمّه لا تخافون. نحن نهرّب بعران وجبال، أنتم زلم، سوف نخلّصكم مهما كلف الأمر!

ثم تركتنا وذهبت. كانت المرأة مشحونة بعزيمة وشجاعة وقوة الفلاحات من بنات العشائر. لكن بيتهم وأولادهم قد يتعرّضون لمخاطر جسيمة بسببنا، وهي تجازف الآن بكل شيء وربما بحياتها من أجلنا. هذه النخوة والشهامة التي تميز النساء العراقيات، من بنات ونساء "ثورة العشرين" وانتفاضات الفلاحين ضد السلطات الاستعمارية وحكم الإقطاع والسراكيل... نساء إضرابات عمال النفط والسكك والميناء، ووثبة كانون، وانتفاضة تشرين ١٩٥٢.. نساء العمال والفلاحين، ممن عانوا الإرهاب والجوع، والتشرد والسجون...

هزّتنا كلمات هذه المرأة من الأعماق وزادتنا ثقة وبأساً...

رجع خضر بعد أن لبس وشاحاً منضودا بالطلقات، وأحضرت أمه الخبز والشاي، وأصر السيد على أن نأكل. فوضعنا الخبز في جيوبنا، وما هي إلا دقائق حتى انطلقنا في طريق رملي موحش، ونحن نسمع صوت والدته تقول: الله يحرسكم. الله يحرسكم وينجيكم!!

واختفت القرية عن أنظارنا.. وبعد أن لفّنا الليل بظلامه، قال سيد خضر ونحن نسير بأقصى سرعة:

ـ هذا طريق رملي لا تسلكه السيارات، ولا يستطيع أحد السير فيه وأنا أعرفه جيداً، لا خوف عليكم. على بعد مئات الأمتار، وعلى الجانب الآخر كنا نرى سيارات أهلية تسير على الشارع العام، وعلى ضفة النهر البعيد الذي يفصلنا، إنه نهر مدينة "الخضر"...

ليل حالك بلا قمر، ونحن نسير، دليلنا يسير أمامنا ويلتفت إلينا مبتسماً وبعطف وكأننا أخوة له، يمشي بثقة في هذه الأرض الرملية القاحلة، إنها أشبه بـ "صحراء نقرة السلمان".. نحن لا نعلم بأي اتجاه نسير.

انعطفنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل نحو اليسار، يسير دليلنا ورفيق دربنا على هدى النجوم، وله خبرة فائقة في معرفة الطريق. توقفنا برهة عند بيت شعر صغير فيه ثلاثة جمال نائمة وهي تجتّر، بعيون سوداء لامعة، محمرّة بعض الشيء..

دلفنا داخل بيت الشعر لنرى ثلاثة رجال بدو يجلسون وأمامهم أبريق شاي وخبز شعير. سلّم دليلنا عليهم وكأنه على معرفة بهم، تبادل الحديث معهم ثم سمعتهم يقولون له:

- الأحسن أن ترسلهم على طريق العمارة، ليكونوا بعيدين عن الخطر.

وبعد أن شربنا الشاي، نهض سيد خضر مودّعاً إياهم، نهضنا معه مودّعين هؤلاء القوم، الذين بدوا وكأنهم مهرّبون، وأنطلقنا سائرين في طريق أكثر صعوبة لكثرة الرمال وكأنه الربع الخالي...

في الرابعة صباحاً توقّفنا أمام عدد من بيوت الشعر المتناثرة هنا وهناك بسكون مطبق، زادت من وحشته ظلمة ما انفكت تعم المنطقة و هواء بارد منعش يحمل معه رائحة الأرض الندية. دخلنا أولّها، وكان فارغاً عدا عن بعض البسط المليئة بالأتربة.

جلسنا.. وبعد دقائق، دلف بيت الشعر رجل بدشداشة بيضاء، يبدو أنه كان نائماً مع زوجته في الخيمة المجاورة، تبادل الحديث مع سيد خضر، أمرنا بعدها دليلنا بالنوم، فنمنا بعد أن أخذ المسير المتواصل من السابعة ليلاً حتى الرابعة صباحاً قسطه منا. التحفنا البسط المليئة بالأتربة، ورحنا في سبات عميق حال أن طرحنا أجسادنا على الأرض ووضعنا أحذيتنا تحت رؤوسنا. ولم يمض وقت حتى شعرت بجدي لعين يقفز فوقي، يلعب، بعد أن رضع من ثدي أمه، شبعان، منتعشا، فتذكّرت المثل الذي يقول:

كـــــأنـــي عـــــصـــفـــور بـيـــد طـفـل
يـذوق حـــــــــرارة الموت والـطـفـل يـلـعـب
فـــــــلا الـطـفـل ذو عـــقـل يـرق لحـــالـــه
ولاالعـــــصــــفـــــور مطلوق الجناح ليـــــذهـب
وبهـــــذا فـــلا التـيـس ذوعـــقل يرق لحـــالي
ولا أنا مـــقـــــتـــــدرعلى ضـــربه ليـــذهـب

وعلي يغطّ بنوم عميق بعد أن أخذ التعب منه مأخذاً...

أيقظنا سيد خضر في السادسة صباحاً، وأعتقد أنه لم ينم إذ كان يحرسنا خوفاً علينا.. أكلنا الخبز والحليب مع الشاي ثم قال سيد خضر، هذا الإنسان الرائع:

"مهمتي انتهت إلى هنا، لا خطر عليكم الآن، ضعوا الشمس أمامكم، لا تنحرفوا يساراً أو يميناً، وسوف تصلون إلى مشارف مدينة الناصرية، والله يحرسكم ويكون في عونكم". وصاحب البيت ينظر إلينا بحنان، ولم ينطق بكلمة واحدة.

كيف نودّع سيد خضر، هذا الرجل الكبير الذي أنقذنا، وسار معنا كلّ هذا الطريق؟ كلمات الشكر لا تكفي ولا غيرها! قبّلناه بحرارة، وبخجل قدّمت له عشرة دنانير كأجرة للرجوع إلى أهله، إلا أنه قال إنها تفيدكم في الطريق!! ورفض تسلمها.

شمس الصباح الجميلة، أصبحت قبلتنا ودليلنا.. إنها نور الحرية التي ننشدها، في الليل كانت "بنات نعش"، وهي النجوم الجميلة، دليلنا، وفي الصباح حلت الشمس محلها. هذه هي البوصلة التي يهتدي بها البدو في مسيرهم... النجوم ليلاً والشمس نهاراً، ولهم خبرة كبيرة في معرفة الطرقات بدون بوصلة، هكذا...^٨.

تركنا سيد خضر وبيت الشعر وقلوبنا مشدودة إليه، ولكن ليس باليد حيلة، إذ لا مفر من وضع خاتمة لمصيرنا بعد أن قطعنا عشرات الكيلومترات، ولابد من الاستعداد لما ينتظرنا من مفاجآت. ابتعدنا عن مكمن الخطر مسافات شاسعة وزاد أملنا في الحياة،وهانحن في ريف الناصرية، سرنا لساعات طويلة واجتزنا طرقات عديدة، وخضنا أنهاراً وعبرنا ودياناً وشعاباً في أرض موحلة.

هل سنفاجأ بالشرطة، والمسلّحات تنتظرنا هنا أيضاً عند أحد الشيوخ أو السراكيل بعد أن تركناهم البارحة عند شيخ عشيرة الشريفات ؟ هل اجتزنا مناطق الخطر أم اننا ما زلنا في أرض قد يداهمنا فيها العدو، وفي أية لحظة، مجدداً؟ لا تهمنا المخاطر لأننا تحدونا إرادة فولاذية ومثلنا كمثل الفلاح الذي قال:

لا تبكي يا والدتي وأنا حي
أدوس على الخطر عمداً وأنا حي
لا تشمت يا أهل الشامت وأنا حي
اشمت لو سرى الجناز بيّ

وبينما كنّا،أنا وعلي نغذ السير، كانت صور بطولات الشيوعيين وتضحياتهم وبطولات عمال شركة نفط البصرة، عمال الميناء، كاور باغي، عمال السكاير، فلاحي آل أزيريج، والشامية والحي وجوانروو دزه ئي، تغشي بصري. كانت النضالات التي سطرها رفاقنا تتقلب كالأوراق أمام ناظري: مختلف المواقف والسجون، التعذيب، وأعواد المشانق تتدلىّ منها أجسام فهد وحازم وصارم وهم يهتفون للشعب والوطن والشيوعية.

إلى جانبها كانت مشاهد النساء والأطفال ممن يموتون جوعاً، وسكان الصرائف، وبيوت القصب والبردي، والقصور الشامخات في وسط بغداد والبصرة وغيرها من المدن العراقية،،والحفلات الداعرة والماجنة التي كان الإنكليز وأعوانهم يقيمونها في بيوتهم وفي النوادي الليلة الخاصة بهم تتوالى بلا انقطاع في ذهني.

تذكرت كلمات سيد خميس من قرية "أم الشويح" في البصرة، عندما طلب منه المحامي أن يعطي عشرة دنانير كي يطلق سراحه بكفالة إذ قال:

" آنه أعطي عشرة دنانير؟!، قابل آنه مره (امرأة)، أخاف أحبل؟! أموت بين هذه الصخرات (الحجرات، ويعني بها التوقيف) ولا أعطي عشرة دنانير.. إلى أن تعجز الحكومة مني وتطلق سراحي." ثم هوّس: "خميس تهلة [٩] وبس الروج يدكك عليه" [١٠].

كنا نتحاشى، أنا ورفيقي علي، الطرقات العامة، ونتخذ الطرق الموحلة البعيدة عن موطن الخطر دربا لنا، منذ توديعنا السيد خضر صباحاً حتى الساعة الرابعة مساءاً. قطعنا مسافات شاسعة إلى أن لاحت لنا ملامح قرية صغيرة، فانفرجت أساريرنا نسبياً، سألت علي ما هو رأيك؟ قال: لا مفر لنا ولا ملاذ غير التوجه إليهم، فاتفقنا على قصة الهروب من الجيش.

كان علي بديناً نسبياً بالنسبة لي، لكن بطنه أخذت تتقلص بعد أن طحنه التعب وأخذ القلق منه مأخذاً. قضى فترة ليست قليلة في السجن، أكل ونوم وراحة، ليواجه كل هذه المتاعب دفعة واحدة.

ورغم أن هذه البيوت بعيدة عن المدينة والشوارع العامة ومكامن الخطر، قلت لـ "علي":

ـ أنا أفضل أن نبقى هنا حتى غياب الشمس وهدوء الحركة، ثم ننزل إلى القرية بعد أن يخيّم الظلام تلافياً لأي مكروه. ويمكننا أن نتخذ من الظلام ستارا لحركتنا إلى أن تخف وتيرة الزيارات المتبادلة التي يؤديها أهل القرية لبعضهم فهذا يجنبنا الانكشاف أمام الجميع ويقتصر ذلك على أهل البيت الذي ندخله فقط.

ولم يخامرني الشك في أهل القرية ومساعدتهم لنا أيضاً، كما فعل سيد جبر وياسين وسيد خضر وغيرهم. إن الريف وأهل الريف من الفلاحين آنذاك، هم المنقذ والملاذ والاحتياطي الهائل للثوار، والمطلوبين للحكومة، سواء الريف العربي أو الريف الكردي...

توجهنا نحو أول بيت في القرية بعد أن أسدل الليل ستاره، كان هناك "لوكس" يضيء البيت بدل الفانوس المعتاد، وعلى الجانب امرأة توهج النار في التنور، والموقد متوهّج أيضاً تتطاير منه ألسنة النار.

المكان نظيف ومنظم، يدل على أن أصحابه ميسورون.كان من الواضح أنهم ليسوا من الرعاة، ولا من البدو بل من الحضر وأقرب إلى المدينة منهم إلى الريف... استقبلنا شاب في مقتبل العمر مبادراً بأهلاً وسهلاً تفضلوا، أهلاً بالضيوف، فأخذنا قسطاً من الراحة ودخنت سيكارة، علي لا يدخن نهائياً، كان قد ترك التدخين منذ فترة...كان الاستقبال عادياً، سمعت صوت دجاجة تصيح بأعلى صوتها، مسكتها المرأة التي كانت على التنور من رقبتها، ثم نادت على الشاب ليذبحها... هل هذه الدجاجة لنا؟ هل سنأكل لحم دجاج، بعد الخبز والشاي والمطاردة؟ إنه فوق ما كنا نتصوره.

بعد أن شربنا الشاي، أخبرت صاحب البيت بأننا "فرارية" من الجيش، ولا نملك هويات ونريد الوصول إلى الناصرية أو البصرة، ونطلب مساعدتكم، قال:

- قبل قليل كانت سيارة ابن عمي هنا وهو شخص مأمون وموضع ثقة، سأذهب لأراه إن كان موجوداً أم لا؟ خرج، ثم رجع وقال:

- للأسف إنه رجع للناصرية.

كان الشاب والرجل الذي حضر فيما بعد ينظران إلينا بتمعّن، قال الرجل:

- سوف نوصلكما بأمان، نحن نخشى عليكما.. وسوف ندبّر من يوصلكما.. تنامون هنا هذه الليلة.

وبعد أحاديث لا أتذكّرها، نادت المرأة على الشاب فدخل وهو يحمل أطباقاً من الرز وعليها أفخاذ الدجاج واللحم ووضعها أمامنا. هل هذه حقيقة أم حلم؟!.. رز مع الكشمش والدجاج الحار والخبز واللبن، والتمر، يا لحسن الحظ!!

لابد أن قضيتنا قد وصلت إليهم، خاصة وأنهم على مقربة من المدينة، وعلى تماس بها، وليست هذه الحفاوة بنا والحرص علينا والاستقبال الباش إلا دليل حبهم لنا وكرههم للسلطة، خاصة وأن ريف الناصرية كما هو ريف الفرات الأوسط، لنا فيه تنظيمات حزبية وديمقراطية واسعة، رغم الضربات العديدة التي وجهت لتنظيمات الحزب في الريف وخاصة إبان انقلاب عام ١٩٦٣.

علما أن الناس يعرفون جيداً ما قدمه الحزب للشعب والوطن من تضحيات، كما وأن حبهم لثورة ١٤ تموز وما حققته لهم من مكاسب، لاتزال في ذاكرتهم. علاوة على أن كرم الفلاحين وهم يستقبلوننا كضيوف لا يمكن تبريرها إلا بافتضاح قضية هروبنا لهم، فعذرنا بكوننا جنودا فارين من الخدمة لا ينطلي عليهم، ولابد أن الشرطة في الناصرية تفتش عن الهاربين من سجن نقرة السلمان.

غادرنا الشاب بعد الانتهاء من "حفلة العشاء" وشربنا الشاي فأخبرنا بأنه يعرف شخصا أمينا من أقاربه سيسافر معنا غداً ليوصلنا إلى الناصرية. حضر الشاب بعد دقائق ومعه رجل بدوي اللهجة، تجاوز الخمسين من عمره، بيده سيكارة لفّ، جلس أمامنا. قال له الرجل:

- "هؤلاء من معارفنا، غداً تأخذهم إلى الناصرية عن طريق كذا". كانت لهجة أمرية بعض الشيء، مضيفا: "وهم سيعطونك أجرك".. فأجاب الرجل موافقاً وانصرف وبعد أن شرب الشاي.

كانت ليلة هادئة نمنا خلالها حتى مطلع الفجر، ومع بزوغ الشمس، نهضنا، اغتسلنا، أفطرنا، وسرنا مودّعين أهل البيت، شاكرين لهم ضيافتهم...

لدليلنا الجديد عينان صغيرتان هادئتان ولحية بيضاء صغيرة، يعرف الطريق خطوة خطوة، وبعد مسار طويل، وعبور أنهر وبساتين، وصلنا قرية. دخلنا البيت الأول وكان دليلنا على معرفة بأهله، رجل طاعن في السن وابنه الشاب ذي الثلاثين من عمره، فرحبّوا بنا. كان الوقت ظهراً، قدّموا لنا بيضاً مقلياً مع الخبز والشاي، أناس طيبون أكثر قرباً للمدينة..

فاتحهم دليلنا بأننا جنود هاربون لا نملك هويات يمكن أن نؤمن وصولنا بسيارة الى الناصرية أو البصرة فوافق الشاب مبدئيا. جاء الرجل العجوز بعد دقائق وأخذ يتفرّس بنا بشكل دقيق، أيدينا أرجلنا، طريقة حديثنا، مضغنا للطعام، وجوهنا، وعندما انتهى من تفحّصنا قال:

- اشترى ابني سيارته الجديدة بسبعة آلاف دينار [١١]، ولا نريد أن نغامر بالسيارة

وبأرواحنا من أجل عشرين دينارا، خاصة وأن الشرطة منتشرة في كل الطرقات يفتّشون بدقة، حتى توابيت الموتى... إلخ.

إذن أخبارنا في كل مدينة وقرية ومكان... قلت له للتمويه:

- ما لنا والشرطة، نحن جنود وقضيتنا شيء آخر.

قال: نعتذر، ليكن الله في عونكم.

دخل دليلنا ويبدو أنه كان يحاول إقناع الشاب بإيصالنا، إلا أن الشاب لم يستطع مخالفة أوامر والده. كان التذمر بادياً على وجه الدليل، ربما كان يريد الرجوع الى أهله، ولكن كيف يتركنا في هذا الوضع، قال:

- لنواصل مسيرنا!! فخرجنا مكتئبين بعض الشيء وكان دليلنا ممتعضاً جداً.

هكذا بدأت المواقف تتبدل بين سكان الريف البعيدين والبدو وأهل المدن أو القريبين منها. واصلنا المسير إلى أن بدأ القمر من جديد يعكس ضوء الشمس، وقف دليلنا قليلاً ثم انعطف في طريق منبسط، قادنا إلى جوف بيت شعر صغير. كان فارغاً، ثم سرعان ما دخل رجل مفتول العضل يبدو أنه مزارع ترك حراثة الأرض لتوه، استقبلنا مرحباً بعد أن ألقى بأدوات عمله أرضاً..

ناداني الدليل وقال:

"سأذهب إلى المدينة، أسأل عن سيارة لنقلكم وإيصالكم، وأرجع لكم غداً الساعة الخامسة صباحاً". عيّن المكان الذي سوف نلتقي به، ثم سلّم على صاحب الخيمة وشق طريقه إلى كبد الظلام بعد أن أعطيته نصف دينار، حسب طلبه.

جلس الرجل صاحب الخيمة وأخذ يوقد النار، ألقى إلينا بوسادتين اتكأنا عليهما ثم قذف نحوي كيس التبغ. قلت له إنني أدخن السكاير المعبأة، لكنني حاولت مع ذلك أن ألفّ سيكاره واحدة فلم أفلح. أخذ الرجل كالعادة يتفرّس بنا فقلت له إننا جنود هاربون، قال: من أية منطقة أنتم؟

قلت: من مدينة القرنة.

- أنا أعرف أناسا كثيرين هناك.

ـ نحن من بني منصور، من بيت فلان وفلان..

وهكذا أخذت عملية الاستنطاق وقتاً، حاول الرجل من خلالها معرفة هويتنا، والتأكد من أننا من أبناء المدن ولسنا من الفلاحين.وقدّم لنا وجبة من الخبز واللبن والشاي، أخذ بعدها يطحن القهوة بالهاون. كانت ضربات الهاون ترن بقوة، سمعها كل الجيران، فاجتذبت شابا لبى نداء "دك القهوة " الذي يعلن حلول الضيوف عند صاحب البيت.

كانت ألسنتنا ثقيلة وأحاديثنا متباعدة، خاصة وأن التعب أخذ منّا مأخذاً وصرنا لا نحس بأرجلنا. ريبة الرجل بنا كانت محسوسة لكننا كنا ضيوفه وهو يعرف واجباته تجاه الضيف. شرب الشاب قهوته وغادرنا الى بيته، فأخذ الرجل يسرد لنا قصة، رغم أن علياً بدأ يتمدد راغبا بالاستسلام للنوم. وهي عادة غير مألوفة، إذ لا يصح أن ننام ونترك مضيفنا جالساً وقهوته تنضج على النار. ذكر الرجل بعدها أن رجلين حلا ضيفين قبل أيام وناما عنده، وفي الصباح الباكر عندما جاء لهم بالفطور لم يجدهما، واتضح أنهما سرقا بطانيتين منه وهربا..

استفز هذا الحديث علي، فقال:

ـ هل نحن (حرامية) أو لصوص؟!! نحن جنود نريد الوصول إلى أهلنا!!

وهذه أول مرة يتحدث بها علي بهذه الصورة، فأصبح الموقف محرجاً بالنسبة لي وتلافيت المشكلة مع الرجل بأن بدّلت الحديث، وتحدثت عن الزراعة، والماشية... الخ تركنا الرجل بعد أن أخذ علي يغط بالنوم. نمنا نوماً عميقاً.

علا صباحاً صوت الماشية وهي تجأر بأعلى صوتها متواطئة مع الشمس على إيقاظنا. دخل الرجل حاملاً أبريق الشاي والخبز، أكلنا بسرعة وتركنا مضيفنا بعد أن ودّعناه متجهين إلى المكان الذي اتفقنا عليه مع البدوي.

كانت الشمس تخرج من باطن الأرض قرصاً أحمر مشعاً في عملية ولادة فريدة. بعض طيور القطا تركض بين الحشائش الندية، نسيم الصباح المنعش الصافي يغسل الرئتين وينعش الجسم، خراف تتقافز هنا وهناك بحراسة الكلاب، تسير متدافعة نحو النهر الصغير لتشرب الماء ولترعى في هذا المكان المعشوشب، طيور صغيرة لا تشبه

العصافير تطير وتحط على الأرض، زيطة(*) تحرّك ذنبها كعادتها يوميا، بلابل تغرد فرحة بالصباح، حمامات تلتقط بقايا حبات الحنطة أو الشعير، عشب أخضر يكسو قطعاً من الأرض، غربان تطير وتحط على الأرض وهي تنعق، صقور سوداء صغيرة تحوم في الجو تنوي الانقضاض على فريسة ما، بقايا غيوم معلّقة بالسماء تطاردها الرياح...

بعد برهة وصلنا المكان المتفق عليه مع دليلنا الذي تركنا ليبحث لنا عن مخرج، انتظرنا أكثر من ساعتين، ونحن نتلفّت يمنة ويسرة علّنا نعثر عليه، ثم أخذت الأفكار السوداء المنخوبة بالأسئلة تهاجمنا من جديد: هل يأتي أم تركنا ورجع لأهله؟! هل ذهب حقا إلى المدينة ليسأل عن واسطة توصلنا الى المدينة، وهل وهل ؟...

ظهر الرجل فجأة من خلف تلّة، مسرعاً نحونا ملتفاً بعباءته. قال بعد أن وصل إلينا:

لم أجد أية واسطة نقل، الحكومة، والشرطة، والمسلحات منتشرة في الطرقات، وهم يفتشون السيارات والقطارات والعربات، ومن الصعب عليكم أن تذهبوا بالسيارة أو القطار. كما أنني فاتحت بعض معارفي لمساعدتكم، ولكنهم رفضوا، هلموا معي وأنا أوصلكم إلى مكان أمين ومن هناك أحاول مرة أخرى...

المقام الطاهر

سار بنا بطريق بعيدة متجنباً المارة، والشوارع العامة والقرى، إلى أن وصلنا ظهراً إلى مرقد قديم يدعى "سيد خضير". وهو عبارة عن قبة من الحجر، يحيطها سور صغير وفيها عدة شبابيك، الحائط مغطى بالحنّاء وفي داخله شموع موقدة، وفي نهاية القبة كفّ، يشبه كف سيدنا العباس، وعدد من النساء، بينهن الفلاحات يجلسن وظهورهن على حائط المرقد، جئن يطلبن النذر. المرقد قديم ولا ندري من هو سيد خضير هذا، ربما أحد السادة من سلالة أحد الأئمة، وهو بعيد عن مركز مدينة الناصرية يقع في مكان منعزل، أكثر زواره من النساء...

---

* – طائرة الذعرة .

بعد أن جلسنا قليلاً، قال دليلنا:

- سأرجع إلى المدينة، ربما سيتحسن الوضع اليوم، وعندما أعثر على واسطة لكم أعود ثانية، لا تتركوا المكان. ثم طلب دينارين، قال سوف أدفعها كأجرة لسفركم، وغادرنا تاركاً إيّانا في حماية سيد خضير بأمل عودته.

استندنا إلى حائط السيد تاركين لأفكارنا العنان، لحظة ومرّت امرأة شابة حافية القدمين، ترتدي عباءة سوداء تلف جسمها وفوطة تلف وجهها الشاحب المصفر، عرفنا أنها وزوجها خادما ضريح السيد.

نظرت إلينا بشفقة، قلت لها:

- يا أخت، هل يمكن أن نحصل على خبز وشاي، أو أي شيء نأكله.

- بلى.

أعطيتها ربع دينار وذهبت لتهيئة الشاي والخبز...

الفصل الثالث

" البصرة".. حنين وذكريات

تذكرت مقام "الإمام علي" في العشار، الذي يقع على مقربة من سوق الهنود في الشارع المسمى باسم المقام، له بابان كبيران في مدخله، ملطخان بالحنّاء، وفي داخله السجاد المفروش. وتذكرت كيف كنا نقبّل الباب احتراماً للإمام وخشية منه، وجمهرة المصلين من الناس الذين يؤدون فريضة الصلاة، خاصة يوم الجمعة، ومن ضمنهم والدي.

يستقطب المقام حشود النساء من طالبات النذر، يزرن المقام لحل مشاكلهن، نساء كادحات يذرفن الدمع بحرارة، يبتهلن إلى صحاب المقام كي يحقق أمنياتهن، بعد أن ينذرن البخور والحناء والشموع، عسى أن يلتفت لهنّ الإمام يوماً.. وتذكرت يوم كنا صغاراً، نسافر بقطار البصرة قاصدين كربلاء والنجف لزيارة العتبات المقدسة...

كانت المآتم تنتشر في كل مكان في البصرة، خاصة في أيام "عاشوراء". مأتم الخضّارة، مأتم القصابين، مأتم سليم أبو البيض ومئات المآتم الأخرى التي تختتم قراءاتها باللطميّات.. ينزع الشباب ملابسهم لحد النصف بعد أن ينتهي القارئ من سرد إحدى وقائع معركة الطف، فتبدأ الردات، التي كان بعضها ذا معنى سياسي واضح.

تصوروا أن شركة نفط البصرة "الإنكليزية" كانت توزع الأقمشة السوداء والميكروفونات ومكبّرات الصوت على بعض المآتم التي يقيمها عملاؤها. والهدف بالطبع هو محاولة إسباغ مظهر "محترمٍ للتقاليد الدينية" على هذه المؤسسة الاستعمارية في إطار سياسة أبو ناجي، إذ هكذا كان الناس يلقبون الاستعمار الإنكليزي (أبو ناجي).

هكذا كانت المعتقدات الدينية تترسخ لدينا من الطفولة، وكنا نكن لـ "الإمام علي بن أبي طالب" المحبة والاحترام بسبب انحيازه للمظلومين والفقراء، ولقاء ما كان يبديه

من جلد في الشدائد والأيام الصعبة. وأتذكر كيف نَخْوْته، عندما هربت من يد الشرطي قرب ساحة أم البروم سنة ١٩٥١ عندما كنا طلاباً..

اندلعت تظاهرة سياسية في البصرة، فوجدنا أنفسنا، وكنا ثلاثة أصدقاء حميمين، نجلس على شط العرب ونذاكر دروسنا، خاصة وأن الامتحانات قريبة، في معمعتها دون تخطيط مسبق. سمعنا صوت إطلاقات نارية، فهرعنا دون وعي منّا صوب مصدر الإطلاقات، وبسرعة فائقة وصلنا إلى المكان. شاهدنا مجموعة من المتظاهرين قرب ساعة سورين، وهم يهتفون "تسقط معاهدة صدقي ـ بيفن الجائرة"، "يعيش الشعب المصري" ونحن لا نعرف من هو صدقي، ولا ماهية بيفن. بعدها فقط علمنا أن الأول كان رئيس وزراء مصر والثاني وزير خارجية بريطانيا وأنهما عقدا معاهدة جائرة ضد الشعب المصري كمعاهدة بوتسموث التي عقدها صالح جبر مع الإنكليز في العراق. وهي المعاهدة التي أدت إلى اندلاع وثبة كانون ١٩٤٨، التي شاركنا فيها بحماس، نحن طلاب في الصف السادس الابتدائي وأسقطت حكومة صالح جبر.

وهكذا شاركنا في تظاهرة كانت تحاصرها المسلحات ورجال الشرطة يتقدمون نحو المتظاهرين وهم يطلقون الرصاص في الهواء. هتف أحد المتظاهرين "نريد خبزاً لا رصاصاً" فردد الهتاف بعده من يحملون الشعار فأثار ذلك ضغينة الشرطة. أمر أحدهم، وكان ملثما، المتظاهرين بالتفرق والانتشار في الأزقة فتفرقنا، دخلت أحد الأزقة القريبة من بيتنا، وإذا بشرطي يصحبه ثلاثة مدنيين يلقون القبض عليّ. أمسكني الشرطي من يدي واقتادني أمامه يتبعنا المدنيون.أطلت جارتنا "حسيبة" من الشناشيل، وهي من عائلة وطنية معروفة، فرأت كيف اعتقلني رجال الشرطة، صاحت:

ـ مسكوه مسكوه..

سرت مع الشرطة بهدوء وبيدي كراس درس الجغرافية، انعطفنا نحو الشارع المؤدي إلى شارع الهنود، وهناك صادفوا طالبا معنا في نفس الصف، لا علاقة له بالمظاهرة ولا علاقة له بالسياسة ولكنه وطني، فألقوا عليه القبض أيضا. كانت الشرطة تعتقل أي شاب يصادفها في الطريق. أخذ فؤاد، وهو اسم زميلي المذكور، يصيح بأعلى صوته "والله كنت في الفرن مع والدي، لا علاقة لي بالمظاهرة" وهو يحاول الإفلات من يد الشرطي الذي أمسك به.

خفّت قبضة الشرطي الذي يمسكني، فسحبت يدي منه بقوة وانطلقت في أزقة محلة "الدووب" ورجال الشرطة يلاحقونني وهم يزعقون.. قف، قف، امسكوه!! انعطفت نحو اليسار ولم ألحظ وجود شرطة في هذا الزقاق، رأيت باباً مواربا، دفعته ودخلت راكضاً..

كانت امرأة تهدهد طفلها وتلاعبه.. اندهشت المرأة من المفاجأة، قلت لها: لا تخافي الشرطة تطاردني، فلم تنبس المرأة بكلمة واحدة، ولم ألتفت إليها وإنما شقيت طريقي مباشرة إلى سطح الدار، قفزت عبر جدار السطح إلى البيت الملاصق، ثم إلى سطح البيت الآخر، وهو آخر بيت يطل على الشارع العام وكان مرتفعاً جداً.

رأيت الناس يسيرون في الشارع، وبعض النسوة على السطوح يراقبنني، وهن من معارفنا، إذ أن كل أهل محلة "البجاري" التي هي محلّتنا يعرفونني ويعرفون عائلتي، اختفيت في الغرفة الوحيدة في السطح والتي نسميها "البيتونة"...[١٢].

دخلت "البيتونة" ووضعت الأفرشة القديمة فوقي واختفيت تحتها. فجأة، سمعت صوت الشرطي وهو يصيح من فوق البيتونة بالضبط:

- لا يوجد أحد، السطح فارغ!!!

يبدو أن أزلام الشرطة عرفوا البيت الذي دخلته، فلاحقوني عبر السطوح الثلاثة بغية إلقاء القبض عليّ. ويبدو أن الخوف قد تسلل إلى قلب هذا الشرطي، أو ربما إنه مل من المطاردة الشاقة فوق السطوح. دمدمت دون وعي وأنا أشعر بالخطر قاب قوسين او أدنى مني:

- يا علي بن أبي طالب أدركني!

رجع الشرطي بعد لحظات من حيث أتى وهو يجرجر أذيال خيبته فكمنت في البيتونة فترة نصف ساعة أو أكثر، ولم أتحرك إلا بعد أن تأكّدت من انسحاب رجال الشرطة، فقفزت إلى البيت الآخر، كسرت باب السطح وهبطت مسرعاً إلى الشارع.

وأنا غارق في مثل هذه الذكريات، جاءت المرأة القيّمة على مرقد "السيد خضير" حاملة أربعة أرغفة من الخبز وإبريقاً أسود محروقاً مليئاً بالشاي، وانصرفت لشؤونها باستقبال بعض الزوار من النساء. أكملت الساعة دوراتها عدة مرات وبلغت الرابعة عصراً ودليلنا لم يأت، ساورنا القلق، ماذا نعمل، إلى أين نتجه؟ هل ألقي القبض على

دليلنا؟ هل فقد الأمل في الحصول على واسطة لنقلنا.. أو إنه رجع إلى أهله مجنّباً نفسه المخاطر بعد أن أوصلنا إلى "سيد خضير"؟.

قلت: ما هو رأيك يا علي؟ ماذا نعمل؟ المكان هنا يشكّل خطراً علينا!!

قال: الرأي رأيك.

قلت: لنخرج قبل حلول الليل، وننتظر دليلنا البدوي على ناصية الشارع، قد يعود... خرجنا وانتظرنا لفترة، دون فائدة.

قال علي: لنرجع إلى مرقد السيد، ربما يأتي البدوي إلينا.

رجعنا إلى المقام، ولم نكد نجلس حتى جاءت المرأة حارسة المرقد و سألت:

- من أنتما؟ ما هي قضيتكما؟ يظهر أنكما مهربان أو هاربان.. إذا لم تخبراني ما هي قضيتكما، سوف أخبر الشرطة عنكما. أضافت بعد تردد: قبل عدة أيام لجأ هاربون إلى المقام فما كان مني غير أن أخبرت الشرطة عنهم فأمسكوهم، أنتما "كعَيبر" [١٢]...

بينما كانت القيّمة على المرقد تحادثنا بلهجتها المبطنة بالتهديد دلفت مجموعة من النساء يحملن صواني فيها شموع وحنّة وياس، وكليجة، جئن لزيارة الضريح. قلت لها:

- نحن ننتظر صديقاً لنا.

لكنها لم تقتنع كما يبدو، وأخذ صوتها يرتفع أكثر. وبمبادرة من "علي" ولا أدري كيف طرأت الفكرة على باله وكيف دبّرها.. قال لها:

- تريدين الحق؟

قالت: نعم.

قال لها: إن لنا أختا، نهبها شخص وهربت معه، ونحن نفتّش عنها.. سمعنا أنها تزور السيد بين فترة وأخرى..

لم نشعر إلا والمرأة تلطم خديها وتكاد تبكي "مساكين، أختكما منهوبة؟!"، ثم أخبرت النساء الزائرات بقضيتنا. قلت لـ "علي":

- كيف دبّرت هذه الفكرة؟.

- والله لا أدري كيف طرأت على بالي، وما الحل الآن؟

- لنخرج من هنا، وإلا سنضع حياتنا على كفّ عفريت.

عندما خرجنا، قلت:

- أمامنا حلاّن... إما أن نسير في هذا الطريق الصحراوي، وهو محفوف بمخاطر الوقوع ضحية لهجمات الذئاب و اللصوص والضباع، وإما أن نتسلل إلى المدينة خلال بساتين النخيل على ضفة الشط، وننام الليل في البساتين، أملا بأن نحظى بلقاء من يساعدنا.

اتجهنا نحو النهر، بدون أن ينطق "علي" بكلمة، فاصطدمنا برؤية رتل من الجنود يرتدون ملابس البحارة، ويعودون ربما إلى قاعدة بحرية قريبة. سلكنا طريقاً آخر، سرنا على ضفة النهر، غصنا في الوحل والطين، وبعد عدة ساعات ونحن نسير في وسط بساتين النخيل، رأينا كوخاً صغيراً..

اتجهنا نحوه بعد اختفاء الشمس من كبد السماء، لنرى رجلاً يجفف شباكه وينشرها على النخيل. استقبلنا الرجل بود، قدّم لنا السكاير، فشعرنا بالاطمئنان. وبعد أن جلسنا قليلاً، ذهب ليرجع حاملاً صينية تحوي على الرز واللبن والخبز..

أكلنا معه، ثم أخرج السكر وأقداح الشاي من قلب صندوق صغير من الخشب القديم. وضع القوري (إبريق الشاي) والغلاية على الموقد المنصوب قرب باب الكوخ[١٤]، وحلت فترة صمت قصيرة لم تتخللها غير طقطقة الاستكانات ورنين الملاعق الدائرة في الشاي وأصوات الرشفات. لم يسألنا الرجل عن هويتنا وما الذي نريده، ولكنا فهمنا من أطراف حديثه، أن لديه حدس، بأننا المطلوبون للشرطة، وأنه لم يصدّق رواية الهروب من العسكرية.

كان حدسه ظاهرا أيضا من خلال الاهتمام الذي أبداه تجاهنا، قال:

- كنت رئيساً لجمعية فلاحية. وأنا من جماعة "ناجي طالب" [١٥]، وأظنكم تعرفونه، إذ أنه كان وزيراً في أيام "عبد الكريم قاسم"، كانت لنا مشاكل حول الأراضي، وساعدنا ضد الملاكين.

قلت للرجل: نريد الوصول إلى البصرة ونحن لا نملك أية وثيقة، ولا نستطيع الذهاب بالسيارات خشية أن نتعرض للاعتقال، فهل يمكنك مساعدتنا بالعثور على سفينة أو (ماطور) زورق يوصلنا نهرا إلى القرنة؟

قال:

ـ سأسأل صديقا لي يوم غد!! ثم تركنا وذهب لداره بعد أن جلب لنا الأفرشة.

تذكرت والدي الذي كان يملك زورقاً بخارياً (ماطور) صغيرا، ويعمل بنقل الركاب من البصرة، عبر شط العرب، إلى أبي الخصيب أو إلى عبدان والفاو. كان يقضي يومه في شط العرب، نتيجة عمله، وكان ذو خبرة لا بأس بها بميكانيك هذه الزوارق، يساعده "أسطه عامر الصبّي" (الصابئي) الخبير بمكائن الماطورات. ويمتلك أسطه عامر ورشة صغيرة لتصليح الماطورات في منطقة "الأسكلة" قرب الداكير، وهي منطقة تابعة لبيت "حنا الشيخ"، صاحب شركات النقل وتصليح "الدوب". والدوب عبارة عن سفن ضخمة، تستخدم الزوارق البخارية لجرها أحيانا، ويستخدمها السكان المحليون لنقل الحنطة والشعير والتمور من البصرة إلى بغداد عبر نهر دجلة.

كانت البواخر الكبيرة، التي تعود ملكيتها الى الشركات المتعددة الجنسية وبالدرجة الرئيسة البواخر التي تحمل العلم الإنكليزي، ترسو على طول "شط العرب". وإلى جانب هذه البواخر الأجنبية كانت "الدوب" الكبيرة ترسو أيضا، وهي محملة بحنطة بلادنا وشعيرها وتمرها وجلودها... إلخ، لتفرغها بعنابر هذه البواخر، ناقلة بذلك هذه الخيرات الثمينة، أو لنقل أنها كانت تسرقها من أفواه فلاحينا وعمالنا وناسنا، لتضعها في أفواه الإنكليز وغيرهم. دأب الإنكليز طوال تلك الفترة على جني أرباح طائلة من خلال تبادل البضائع بين الدوَب والبواخر لأنهم كانو يشترون البضاعة الخام بأثمان زهيدة أولا، ثم أنهم كانوا يصنِّعونها ويعيدون بيعها في أسواقنا بأسعار عالية، ثانيا.

وفي هذه الأسكلة ترسو الزوارق البخارية (الماطورات) والمهيلات الكبيرة، المحملة عادة بالتمور وغيرها. وترسو "الأبلام – جمع " بلم"– " العشارية لتنقل الركاب لأبي الخصيب، أو حمدان والتنومة، وكثيراً ما كانت ترفع أشرعتها الجميلة البيضاء منحدرة مع مياه المد، محمّلة بالنساء والأطفال والرجال لتوصلهم لقراهم.

وترسو أيضا "البوآمه" [١٦] بأعداد كبيرة أحياناً، وهي السفن القادمة من الخليج محمّلة بالسمك الذي يسمونه "المتوت"، وهو سمك صغير بحري مجفف، وسمك الكباب وهو سمك كبير الحجم مجفف أيضا، إضافة إلى أنواع العطور والحلوى القطرية والبحرانية والبخور.. إلخ

ينزل بحارة هذه البوامات الخشبية المدهونة باللون الأحمر ويدهن القرش إلى المدينة

بزوارق صغيرة يسمونها (جالبوت) ويستخدمون مجاذيف تسمى "الغرافات" يجذفون بها بشكل متناسق وهم يغنّون أغاني الخليج، ويصيحون: "هلله.. هلله.. هلله" مع عملية الجذف.

كان بحارة الخليج سمر البشرة، تقترب سحناتهم من السواد، لوّحتهم شمس ومياه البحار وملوحتها. ينزلون إلى مدينة "العشار"، بعضلات مفتولة صلبها الجذف، ليبيعوا بضاعتهم ويشتروا البواري مقابلها[١٧]، المصنوعة من القصب، إضافة إلى التمور وكل ما يحتاجونه للمتاجره به في بلادهم. كنا نعاكسهم أحيانا، بقولنا لهم "عبد الرحمن ببغلتكم"، فيركضون وراءنا شاتمين لاعنين.

وتأتي الماطورات والمهيلات محمّلة بالمعدان[١٨]، ينزلون إلى البصرة وهم محمّلون بأنواع الجبن، والحليب، والقيمر، والزبدة، إضافة إلى الطيور بأنواعها وخصوصا طيور "الخضيري " اللذيذة الطعم، ليبيعوها في الأسواق.

يعود المعدان إلى مناطقهم عصراً محمّلين بالطحين، والتبغ والسكر، والشاي، والأقمشة ومختلف المواد الأخرى التي يحتاجونها في مناطق الهور النائية. كانت النساء، وبعضهن جميلات، يشكلن الغالبية العظمى من المعدان المترددين على مدينة البصرة، إذ أن الرجال من المعدان يبقون في بيوتهم لرعي الجاموس والزراعة بينما تحمل نساؤهم هذه المنتجات الى أسواق المدينة في محلة العشار، أو أحياء البصرة القديمة.

والمرأة في الريف تعمل أكثر من الرجل، خاصة سكان الأهوار، فهي تحلب الجواميس، تستخرج الجبن والقيمر أوالزبدة من الحليب وتطبخ الطعام وتخبز وتربي الأطفال وتجوب الهور بالمشاحيف لجلب الحشيش للحيوانات. ولا تنتهي دورة أعمالها عند هذا الحد لأنه يقع عليها أيضا الخروج من الصباح الباكر لبيع منتجاتها في السوق، وهي عملية تعرضها في كثير من الأحيان إلى تحرشات واعتداءات رجال المدينة.

وشط العرب كما هو معروف النهر الرئيس في مدينتي "البصرة"، حلم الطفولة، وحلم الشيخوخة والأمل الذي لم ينقطع. ما أكثر ما جلست على جرفه الجميل وبيدي صنارة الصيد انتظر أن تعلق سمكة أو حورية ما بخطافها، كم مرّة تسلّقت شجرة السدر (النبك) التي تقع في بداية الكورنيش سعيا وراء هذه الثمار الفريدة.. كم تنزهت عصراً على ضفافه.. وكم... وكم..

إلى "الزبير"

يا كوكتي يا بنتي.. صوت طير (الفاختة)... هذا الطير المنتشر في كل العالم تقريباً.هذا الصوت الحنون الدافق، هذا النداء الأمومي الباحث إلى الأبد كبحث عشتار عن تموز، انتشلني من مياه شط العرب كالسمكة. كانت فاختة مرقطة سوداء.. نظرت إلينا شذرا عبر باب الكوخ ثم هربت... ربما احتجاجا على احتلالنا مكانها الذي تنام فيه ليلاً...

قطع الطير منامي على دورات محرك ماطور والدي، تجرفني الذكريات بين كورنيش العشار و جرف التنومة، غارقا في لجة هذا الحلم الجميل والذكريات عن شط العرب. ازدحم رأسي في الحال بالأسئلة المقلقة رغم سكون المكان وخرير المياه و اوركسترا العصافير المهدئة.جاء الرجل الكريم، طلّ علينا ثم رجع جالباً الفطور. قال:

ـ سوف أذهب لأفتّش عن صاحب الواسطة التي تنقلكم. لم يتركنا سوى فترة قليلة عاد بعدها ليقول إن مساعيه قد فشلت وإن صاحبه غير موجود!!

قلت له: وما الحل الذي ترشدنا إليه؟

قال: أن تخرجوا إلى الشارع العام حيث تتردد حافلات "مصلحة نقل الركاب"، تنقلكم إلى سوق الشيوخ، انزلوا قبل سوق الشيوخ عند ضريح الإمام ثم سيروا باتجاه الشط، واسألوا عن الماطورات النازلة إلى "البصرة"، أو المراكب الشراعية "المهيلات".

لا بأس، حاول الرجل أن يتخلّص منّا بذكاء فشكرناه واتجهنا نحو الشارع العام للسيارات بثقة، إذ لا يمكن لهذا الرجل الكريم أن يخدعنا. وبعد دقائق مرّت فعلا الحافلة التابعة لـ "مصلحة نقل الركاب"، فاتخذنا مقاعدنا فيها غير مصدّقين.

بعد كل هذا المسير والتعب والتنقل، نركب سيارة في شارع عام دون ملاحقة أو تفتيش. دفعنا أجرة السيارة.. ووصلنا إلى سوق الشيوخ، إننا الآن في المدينة بين الناس، وفاتني أن أذكر، أن الرجل الفلاح الكريم الذي كنّا عنده، نوّه لنا بأن الشرطة النهرية بزوارقها الحربية تفتّش الوسائل النهرية أيضا، وأنها في حالة إنذار، لذا من الصعب أن تضمنوا السفر بأمان على متون الزوارق. بل إن هذه الحال كانت أحد الأسباب التي دعت صديقه الذي حدّثنا عنه، لرفض مساعدتنا. وفعلاً كانت شرطة الزوارق النهرية من الناصرية إلى البصرة في حالة إنذار على غرار ما كانت عليه شرطة

اليابسة. ورأينا حال وصولنا إلى النهر، حيث ترسو بعض الزوارق النهرية المحمّلة بالتمور و بأكياس الحنطة... الخ، أن الوضع غير طبيعي، والحركة تكاد تكون مشلولة في النهر. ورغم ذلك، سألت أحد أصحاب المهيلات إن كان ينوي الانحدار إلى البصرة، فأجاب نافيا أن سفينته غير جاهزة للسفر، وسألت آخر فلم يعط جواباً، فتجنبت سؤال الآخرين خشية ان نقع فيما لا تحمد عقباه. قال علي:

- إلى أين نذهب؟

قلت: لنذهب إلى السوق ونختلط مع الناس ونحاول البحث عن طريق آخر، ربما نستطيع السفر عن طريق السيارات، الناس هم ملاذنا ومصدر قوّتنا، وعن طريقهم نستطيع أن نحصل على المعلومات وعلى المساعدة، كما أننا يجب أن نتحلى بالجرأة!!.

كان سوق المدينة مكتظاً بالناس من الرجال والأطفال والفلاحين الوافدين من القرى: نساء يحملن أطفالهن على أكتافهن، مقهى صغير ينتشر البعض على تخوته، مطعم تفوح منه روائح الكباب وبرك مياه الأمطار الصغيرة والطين التي تنتشر على أرضية السوق غير المبلطة. كان الوقت ظهراً، مرّ أسبوع على هروبنا، ملامحنا قد تغيّرت، وقد تكون أجهزة الشرطة فقدت الأمل بالعثور علينا.قررت، وفقا لسيل نظرية الاحتمالات التي قرأنا عنها في السجن، الذهاب إلى كراج السيارات، والسفر عن طريقه مباشرة إلى البصرة.

أوقفت علياً عند الباب فيما دخلت أنا إلى موقف السيارات فرأيت شخصاً كان سجيناً معنا في سجن الكوت عام ١٩٥٣، اسمه رزاق الأسود، وكان آنذاك معنا في المجزرة التي دبّرتها لنا مديرية السجون العامة بقيادة عبد الجبار أيوب [١٩]. لم يعرفني لحسن الحظ لأنني كنت قد تغيّرت كثيراً..

توجهت إلى أحد الدلالين سائلاً بهدوء،قال:

- تعالوا بعد ساعتين!

رجعت لـ "علي" وأخبرته بالأمر وسألته عن رأيه، وقال:

- لا طريق آخر أمامنا! ذكرت أن علياً صديقي، كان رجلاً جسوراً، ومنحني ثقته بشكل تام.

توجهنا إلى المطعم الصغير... الذباب يملأ الطاولات، الأوساخ تنتشر في أرجائه،

وأرضيته مجبولة بالطين. فلاحون من قرى مختلفة، بملابسهم العربية، يجلسون في المقهى، وفي المطعم، قادمون من مختلف القرى، يأكلون الكباب، وهذا حلم بالنسبة لهم، إذ يجتذبهم الكباب أحيانا إلى خارج قراهم، هذا ناهيكم عن تشوّق بعضهم لل "كوكا كولا.

دفعنا الحساب و عدنا إلى الكراج. توجهت إلى الدلال،.كان رجلاً ممتلئا، تفحّصنا مرة أخرى، قال:

ـ ستتحرك الحافلة بعد ربع ساعة.

قلت: هل تمرّ الحافلة على الطريق العام؟ وكنت أقصد، ان كانت تمر على مركز الشرطة الذي يتواجد على الطريق.

أجاب وكأنه يقرأ أفكاري : لا، إنها تمر من طريق جانبي!

صعدنا الحافلة وجلسنا في الخانة الأخيرة.كانت حافلة مؤجرة من قبل أحد التجار الصغار لنقل حمولة من أكياس التمر كدسها في الوسط، وبالخلال المطبوخ في الأخير. وكان التاجر يجلس إلى جانب السائق في الأمام، تاركا الوسط لرجل وامرأته كانا يجلسان بين الأكياس، أما خلفية السيارة فقد تقاسمناها مع امرأتين متشحتين بالسواد. تحركت السيارة بعد الظهر على أمل الوصول إلى البصرة في الساعة السابعة أو الثامنة مساءاً، وهذا وقت مناسب للاستفادة من الليل، والوصول بسلام.

غرّزت السيارة في الوحل والطين، بعد أن سارت بنا مسافة في الطريق المنخوب بحفر الأمطار الغزيرة التي هطلت في الأيام السابقة. نزلنا منها وخففنا بعض أحمالها إلا أنها امتنعت على الخروج، فلم يبق أمامنا، نحن الرجال، غير أن نتعاون لإنزال بعض أكياس الرز والتمر منها كي نخفف من وزنها استعدادا لدفعها.

وبينما كنا منهمكين بتفريغ حمولة الحافلة، إذا بسيارتين مسلحتين محملتين بشرطة البادية، تتوجهان إلينا بسرعة فائقة. تبادلنا النظرات السريعة الممزوجة بالريبة، أنا وعلي، واعتقدنا أنهم كشفوا أمرنا، و أنهم لابد قد سمعوا عنّا وجاءوا لإلقاء القبض علينا. ولكن، أليس من المحتمل أنهم جاءوا بمحض المصادفة، وأنهم دورية اعتيادية ؟

إن الاحتمال الأخير يحتاج لرباطة الجأش لم تكن تنقصنا،كما يتطلب التصرف بحكمة وأعصاب قوية، قلت لرفيقي:

- سأنزل تحت السيارة لتنظيف الإطارات مع الآخرين، وتبقى أنت لتفريغ الحمولة وتتصرف بهدوء ريثما نرى خاتمة الأمر!

اقتربت السيارتان منّا ثم توقفتا، وبعد أن سلّموا، استفسروا من السائق عن الأمر، فقال:

- لقد غرّزت السيارة في الطين ونحتاج إلى مساعدتكم!

تصرف رجال الشرطة بشكل طبيعي، فأخرجوا حبلاً متيناً وشدّوه بالسيارتين، و سحبوا الحافلة بعد دقائق قليلة من بركة الوحل. أما نحن، فاختلطنا مع ركاب السيارة، متبادلين الحديث معهم، وكأن الأمر لا يهمّنا، وعيوننا تسترق النظرات التحليلية لتصرفات الشرطة والركاب أيضاً. ولمّا لم نلحظ شيئاً غير عادي، زاد اطمئناننا. شكر سائقنا رجال المسلحات من الشرطة، وتوجه إلى السيارة، كما ركب رجال الشرطة سياراتهم مغادرين ومودعين. ولم تكن إلا دقائق حتى رجعت أكياس التمر والخلال المطبوخ الذي أنزلناه من السيارة إليها. وانطلقت سيارتنا اخيرا من جديد بعد تأخر دام أكثر من ساعة.

قطعت السيارة عدة كيلومترات ثم توقفت مرة أخرى. ظهر أن ماء الراديتر قد نفذ. وبعد أن ملأها السائق بالماء، انطلقت من جديد كأنها سفينة أصابها العطب، تتقاذفها الأمواج من كل جانب، ولا يعرف ركابها ماذا سيحل بهم: النساء الملفعات بالسواد بدأن يتذمرن، والجوع بدأ يعصر أمعاءنا، فامتدت الأيادي إلى أحد الأكياس، وسرعان ما انشغلت الأفواه المتذمرة بالتهام الخلال المطبوخ سدا للرمق.

توقفت السيارة في الظلام بعد برهة، وإذا بأربعة شبان يصعدون إليها، لا نعرف هويتهم، كان وضعهم مريباً حقاً، ملثّمين، ويبدو أنهم مسلحون أيضاً. ظهر فيما بعد أنهم ينوون السفر الى الكويت عن طريق التهريب (كعيبر). وما كادت عجلات الحافلة تدور حتى بدأوا يتهامسون، مثيرين قلقا مشروعا بين الركاب، ثم أن أحدهم جلس قرب شابة لا يتجاوز عمرها الثامنة أو التاسعة عشر، وأخذ يغازلها [٢٠]...

أخذ الشاب يلح عليها بالغزل والكلام، فتحوّل الغزل إلى شجار كما هو متوقع. توقفت سيارتنا العتيدة مجددا ونحن في طريق "الهولندي" بين الناصرية والبصرة، و ظهر أن راديتر السيارة مثقوب وتسلل ماء السيارة منه. ومع توقف السيارة توقف أيضا الشجار بين المرأتين والشاب الدون جوان.

بقينا متوقفين.. والليل يلف المنطقة.. ننتظر سيارة أو شاحنة تزودنا بالماء..وهو ما حدث بعد فترة ليست بالوجيزة حينما مرت شاحنة قادمة من البصرة، متجهة لـ "بغداد"، سوّاقها أجانب، ربما بلغار، جادوا علينا بالماء. وهكذا، فالرحلة التي كان من المفروض أن نقطعها بأربع أو خمس ساعات، قطعناها بـ ١٤ ـ ١٥ ساعة، وهي المسافة القصيرة الممتدة ما بين سوق الشيوخ والزبير. إذ انطلقت السيارة في الساعة الثانية بعد الظهر لتصل الى غرب البصرة في الساعة الخامسة من فجر اليوم الثاني. وصلنا "الزبير" ونحن غير مصدقين، فنزل كل الركاب تقريباً. سألت السائق إن كان سيواصل رحلته إلى البصرة والعشار، قال: نعم!

طلبت من سائق الحافلة أن يتوقف، لينزل صديقي ورفيقي علي، متوجهاً إلى عائلته مودّعاً بعد أن عانقته، حيث كان أهله يعيشون هناك. ولم أحظ برؤية علي مجددا طيلة السنين التي مرّت، سوى أني علمت مرة، أنه ذهب سراً إلى الكويت وبقي هناك...

البصرة...

لم يبق في السيارة المتجهة نحو "العشار" عبر البصرة القديمة سوى التاجر وأنا. قطعت الحافلة الشوارع التي قضيت فيها سنوات صباي لتذكرني بمدرسة "المشراق" الابتدائية و منطقة "السيف" و "الأصمعي" وساحات كرة القدم وكمب الأرمن الذي كنا نقضي وقتاً طويلاً نصيد السمك على ضفة الشط الذي يقابله.

ولم أفق من ذكرياتي هذه، حتى وصلت السيارة إلى "ساحة أم البروم". قفزت أمامي صورة والدتي، وكيف طارت السلة (العلاّقة) من فوق رأسها عام ١٩٥٢ عندما هاجمت الشرطة إحدى التظاهرات الخاطفة التي خرجت من "ساحة البروم"، فلم تر والدتي نفسها إلا وسط التظاهرة ومحتويات السلة، من اللحم والخضروات التي كانت قد اشترتها تداس بأقدام المتظاهرين والشرطة.

نزلت من السيارة مودعاً الرجلين وشاكراً لهما صنيعهما بإيصالنا ثم انطلقت الى هدفي تكاد فرحة اللقاء بالوالدة أن ترفعني سنتمترات عن الأرض. أعرف دروب المنطقة كافة كما أعرف خطوط كف يدي بخبرة عشرين عاماً عشتها في محلة "البجاري" مع أهلي وأخوتي وأقاربي. هنا، في هذه الأزقة تعلمنا كيف نركب الدراجات وكيف نلعب

الكرة لساعات وساعات، وكيف نصنع طائرات الورق ونركض على السطوح بعد أن "نقص" خيوط الطائرات الورقية " المعادية " الأخرى. هنا كنا نخوض المعارك بـ "المعاجيل" مع صبيان المحلات المجاورة ونطارد الكلاب والقطط السائبة ونلعب لعبة "الروّة" ولعبة "الولي جاك". كنا ونحن نمارس اللعبة الأخيرة، وهي نوع من ألعاب الاستغماية، نختفي في البيوت أو نذهب إلى سينما شط العرب تاركين الفريق الآخر يفتش عنّا دون جدوى.وصلت بيتنا وأنا أعيش أجواء الدرابين و تلفّني الذكريات وصور الأهل الأصدقاء. قضيت في هذا البيت مع عائلتي وعمّاتي أيام الطفولة... أياماً لا تنسى...

عندما وصلت البيت، كان شكلي يدل على أنني فلاّح جاء لتوّه من القرية: لحية طويلة، مسبحة سوداء، شعر كثّ، عباءة ودشداشة، كوفية وعقال، وحذاء قديما باليا. كان كل وضعي يدل على أنني رجل غريب، جاء من سفر بعيد...

كان"محسن" [٢١] واقفاً عند باب البيت، يريد الذهاب الى العمل، فالتقينا عند عتبة الباب. حاولت الدخول فمنعني قائلاً:

- إلى أين أيها الرجل؟ ماذا تريد، تكلّم؟ ... لم يعرفني! قلت له:

- دعني أدخل أولا ثم تعرفني... قال:

- لا لن تدخل!!

ففتحت الباب وأدخلته معي، ثم صرخ قائلاً:

- أنت!!!! وأخذ يبكي فرحاً وحزناً...

بعد أن عرفني، ضمّني إلى صدره... خرجت والدتي وعمّاتي بعد ثوان، وأخذن يقبّلنني، باكيات فرحات، ساد كل شيء الهدوء والصمت!

علمت و أنا في سجن نقرة السلمان أن والدي قد توفّى، تاركاً والدتي العزيزة بين أخواتها... والدي الذي لم أشاهده لسنوات طويلة، والذي كان بالنسبة لي، والداً وصديقاً وأخاً حنوناً... جاب السجون ورائي أينما ذهبت من سجن الكوت إلى سجن بعقوبة المركزي و إلى سجن نقرة السلمان... مات دون أن أراه!

لم أكن أتوقع أن أرى ابنتي "عواطف" في البيت مع والدتي، وقد بلغ عمرها أربع سنوات، إذ كانت قد خرجت مع زوجتي من سجن النساء عام ١٩٦٦ بعد انتهاء مدة محكوميتها. أما آخر لقاء لي بعواطف فكان في موقف "الفضيلية" [٢٢] عندما كانت ترسلها والدتها مع إحدى السجّانات لزيارتي في ذلك الموقف.

القسم الثاني

البصرة.. البدايات والطريق الصعب

الفصل الرابع

البصرة

-١-

البصرة مدينتي.. فيها ولدت، وفي بيوتها وملاعبها وبساتينها وشوارعها ترعرعت، كل ما فيها بالنسبة إلي جميل.

وهي جوهرة جنوب العراق الساحرة، الضاربة في القدم، الحافلة بالتواريخ والأمجاد التي توارثها أبناؤها منذ مئات السنين فكانت مصدراً للعلم والعلماء والفقهاء والشعراء من أمثال الحسن البصري وبشار بن برد وغيرهما. هي من أهم الموانئ، وميناء العراق الوحيد، منها ومن ولاية الموصل وبغداد تكون العراق الحديث، و منها انطلقت ثورة الزنج وفيها عاش القرامطة. عرف أهلها بطيبة توارثوها عبر السنين وكونت شخصية البصري المعروفة على مدى تاريخ طويل من التقلبات. عاشت البصرة ظروفا قاسية وشهدت خلال تاريخها، القصير نسبيا، فيضانات وأوبئة وحروباً فتكت بأبنائها وباقتصادها وبنيتها. وكمثل، فقد قتل الأتراك سنة (١٦٣٨م) ما يقدر بنحو (٣٠) ألف إنسان غالبيتهم من أبناء القرى المحيطة بها، وحاصرها الفرس سنة ١٧٣٣ فقضى نحبه في الحصار حوالي (١٠٠) ألف إنسان [٢٣].

دمرت البصرة مرات عديدة فاصبحت مضرب المثل القائل (بعد خراب البصرة). وامتد تاريخ الخراب البصري إلى العصر الحديث على أيدي " البرابرة الجدد " فدمرت في الحرب العراقية ـ الإيرانية في الثمانينات ثم دمرت ثانية أثناء احتلال البعثيين للكويت ـ ولا يزال الخراب والدمار على يد البعثيين نصيبها. كانت وما زالت مركزاً مهماً للتجارة وبوابة العراق على الخليج تقصدها السفن من جهات العالم كافة.

قال الشاعر ابن المهلبي فيها قديماً:

يا جنة فاقت الجنان فما
يعد لها قيمة ولا ثمن
ألفتها فاتخذتها وطناً
إن فؤادي لمثلها وطن
فانظر وفكر لما نطقت به
إن الأديب المفكر الفطن
من سفن كالنعام مقيلة
ومن نعام كأنها سفن

الطفولة والصبا

- ٢ -

ولدت في مدينة البصرة من عائلة كبيرة معروفة وميسورة الحال إلا أن رب العائلة لم يكن يملك من حطام الدنيا سوى قوة عمله. ولوالدي ثلاث أخوات وأخوان من أم ثانية، إذ كان والده، أي جدي، متزوجاً من امرأتين، ومن إرث والده خرج والدي ببيت صغير مكون من أربع غرف تقاسمه مع أخواته الثلاث. يقع البيت في محلة البجاري[٢٤]، والتي تسمى أيضاً محلة الجبل، وتسكنها بعض العوائل البصرية المعروفة.

تدهور الوضع المالي للعائلة في بداية الأربعينات وأثناء الحرب العالمية الثانية، فانتقلنا للسكن في هذا البيت مجبرين، وكنا أنذاك خمسة أخوة، أربعة ذكور وأخت واحدة. لم تكن والدتي في تلك المرحلة قد ولدت أختي الصغرى وأخي الأصغر بعد لكنها كانت قد فقدت ابنها البكر (كاسب) الذي وافاه الأجل لأسباب لا مجال لبحثها هنا. وكان رجل افغاني وزوجته وابنه " ناصر " يسكنون معنا في هذا البيت، وهم عائلة فقيرة ومسحوقة، الرجل شبه أعمى، والزوجة - وتسمى (زري) - تعمل خادمة في بيوت الأغنياء وهم يتلقون طعامهم من بيت الذكير[٢٥] يومياً.

- ٣ -

من الأحداث الكبيرة التي أتذكرها هو موت الملك غازي حيث خرجت الناس للشوارع تلطم وتطوف في المدينة. احتشدت الجموع في سوق الهنود المعروف في البصرة وهي تردد الأهازيج والهوسات ومنها ((مات غازي وحزنت عليه العرب هلّة هلّة يا ملكنا بها السفر)).

وكانت النساء اليهوديات يرددن ((هسه طلع من بيتو)). ومن الأهازيج (رَيِّضْ يا شايل نعش غازي

جرح اللي برأسه صعب يا ناس

بللّه عليكم لا تلجمونه)

ولم نكن نعي، أنا ومن بعمري آنذاك، أسباب موت الملك. كانت والدتي قد منعتني من الخروج من البيت بسبب موت الملك خوفاً علي، إلا أنني تذرعت بزيارة والدي الذي كان يملك زورقا بخاريا يعمل به في مجال نقل الركاب بين ضفتي شط العرب. ومن الأحداث الكبيرة التي شهدتها أيضاً عملية الفرهود، أي نهب محلات اليهود ودكاكينهم، فكنت ترى الناس وهي تحمل البطانيات والملابس والعطور والأثاث إلى بيوتها أو تبيعها في السوق وهي تصيح (حلال مال يهود). ومعروف أن عملية الفرهود هذه قد افتعلت لإخراج اليهود من العراق وتسفيرهم إلى إسرائيل، وهي مؤامرة دبرها الإنكليز وكانت الحكومة العراقية آنذاك تنفذ فصولها خدمة لهدف إنشاء دولة إسرائيل.

ومن الحقائق التي لا تفارق ذهني منذ مرحلة الطفولة هي كثافة تواجد الإنكليز والسيخ والهنود و ما يطلق عليهم الكركه، وهم جنود من جنوب شرقي آسيا استخدمهم الاستعمار الإنكليزي لاحتلال العراق. لم نكن نخشى من الهنود أو السيخ أصحاب اللحايا قدر خوفنا من جنود الكركة، خاصة بعد مشاركتهم في مطاردة بعض رجال الشرطة العراقيين أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني [٢٦] وقتلهم المرأة السوداء (زعفران) بائعة (السويكة) [٢٧].

فُرض منع التجول في تلك الأيام، وكان هؤلاء الجنود يحتلون (أم البروم) وهي من

الساحات المعروفة في منطقة العشار في البصرة. وقد خرجت زعفران إلى هذه الساحة لبيع السويكة متحدية منع التجول والقفة على رأسها فأطلق أحد الجنود الكركه النار عليها من بندقيته الأتوماتيكية وأرداها قتيلة [٢٨].

كانت تدور بين الناس إشاعات يبثها عملاء الإنكليز مفادها أن البارجة الحربية الإنكليزية الراسية في شط العرب سوف تطلق نيران مدفعيتها على البيوت السكنية إذا لم تتوقف المقاومة. وكنا نرى بعض أفراد الشرطة العراقية يطلقون النار من بعض السطوح على جنود الاحتلال. كما كان الكبار يتحدثون عن مقاومة مدينة (القرنة) ومدينة (المدَينة) حيث كان الفلاحون يقاتلون ضد الإنكليز. كنت لا أعي من هذا الكلام شيئاً سوى أن الإنكليز احتلوا مدينة البصرة، وكانوا يتجولون بشوارعها متنكبين البنادق بعيونهم الزرقاء وبشرتهم البيضاء.

بدأ عددهم بعدها يتناقص في الشوارع، لكن حضور رجال الانضباط العسكري (m.p) وكذلك عدد الكركه كان ظاهرا للعيان. بعدها جاء من أُطلق عليهم جيش الليفي[٢٩].

كانت السيارات تأتي محملة " بالليفي " وبالهنود والسيخ في يومي السبت والأحد وتقف على امتداد الشارع من سينما الحمراء إلى مدرسة الأمريكان خلف متصرفية البصرة، وحتى ساحة أم البروم. وكانت الأخيرة منطقة غير مأهولة تنصب فيها دواليب الهواء والمراجيح التي نهرع إليها نحن الأطفال لنمضي أوقاتا سعيدة في أيام الأعياد. كانت المنطقة جذابة لجنود " الليفي " والهنود لأن سينما الحمراء كانت تعرض أفلاماً هندية أو إنكليزية مطولة ويقابلها ملهى الوردة البيضاء الذي يؤمه الرواد من الإنكليز والهنود وغيرهم. يدخل عشرات من الهنود وجنود الليفي السينما لمشاهدة الأفلام الهندية، و غالبا ما كانت المعارك تندلع بينهم وبين المشاهدين من الأهالي بشكل يضطر الانضباط العسكري من الإنكليز (m.p) للتدخل وفض النزاعات. كان الناس ينظرون إلى هؤلاء المحتلين الأجانب باحتقار واشمئزاز، ويعاقبونهم على بعض تصرفاتهم الشائنة. كان الجنود الأجانب يقضون طيلة الأسبوع في المعسكرات وخاصة معسكر الشعيبة[٣٠]، الذي يقع خارج مدينة البصرة، ثم ينتشرون في نهاية الأسبوع في مدينة العشار والبصرة القديمة وهم سكارى يفتشون عن بيوت الدعارة

ويتعرضون للنساء. يدخل بعضهم المحلات السكنية فيتصدى لهم شباب المحلة ويشبعونهم ضرباً. وكثيراً ما كان شبان الأحياء الشعبية يتصدون لليفي والكركة والإنكليز فيرمونهم في شط العشار أو في سواقي المياه القذرة تعبيراً عن كرههم لهم.

كانت بيوت الدعارة المنتشرة في محلة البصرة القديمة وفي محلة (الدوب) في العشار، المرخصة رسمياً، تمتلئ بهؤلاء الناس المتعطشين للجنس [٣١]. وشكل بعض الشقاوات واللصوص المحليين عصابات أطلقوا عليها أسماء مختلفة لمعاقبة هؤلاء الجنود أو لسرقتهم [٣٢].

يبث الإنكليز دعاية واسعة عبر عملائهم من "الرتل الخامس" تروج للمفاهيم الداعية أنهم رسل دولة متحضرة عظمى، أدخلوا المدنية والحضارة إلى البلدان التي احتلوها ومنها العراق، فتحوا المدارس.. إلخ من الدعايات الاستعمارية. وهذا رغم أن العراقيين جربوا الإنكليز بعد أن احتلوا العراق نهاية الحرب العالمية الأولى [٣٣]، حينما قالوا أنهم جاءوا محررين وليس فاتحين، كما ادعى الجنرال (مود). فكان رد العراقيين واضحا ومباشرا حينما انطلقت ثورة ١٩٢٠، التي لقنت الإنكليز درسا في الوطنية، نال خلالها لجمن نصيبه على يد الشيخ ضاري وأولاده، وهزت أركان العاصمة البريطانية (هز لندن ضاري وبجاها).

كانت أحداث ومجريات الحرب العالمية الثانية تنعكس على الناس، وعلى الشباب منهم بوجه خاص، فمنهم من كان يروج للفاشية ويرسم الصليب المعقوف على الجدران ويبث الإشاعات القائلة بأن النازيين ضد الإنكليز، ومنهم من يروج للإنكليز باعتبارهم أعداء النازية وحلفاء الاتحاد السوفياتي ويقول إن الفاشية خطرة على الشعوب رغم أنها ليست أفضل من الإنكليز.. إلخ.

كان شباب المحلات الشعبية ينظمون أنفسهم ويدخلون في حروب مع شباب المحلات الأخرى [٣٤]. وكانت الرياضة تنتشر بين صبيان وشباب المحلات حيث تحولت لعبة كرة القدم إلى لعبة شعبية واسعة الانتشار نلعبها بكرة من الخرق أو بكرة التنس. وغالبا ما كنا نجمع بعض النقود التي نحصل عليها من أهلنا لشراء كرة حقيقية من الجلد نلعب بها في الشارع ونتسبب بحدوث العديد من المشاكل لأهالينا. إذ كان لعب "الطوبة " يقطع الطريق على المارة، أو يؤدي إلى كسر زجاج النوافذ، أو أن الكرة

تسقط فوق السطوح أو ترتطم بقوة بأجساد العابرين. وكثيراً ما كنا نلعب حفاة الأقدام، نخلع أحذيتنا لأنها سرعان ما تتمزق، خاصة الأحذية الكربلائية المصنوعة من الجلد والكارتون، لأن تمزق الحذاء واستهلاكه السريع غالباً ما كان يثير الشجار مع الأهل الذي يصل حد الضرب أحياناً.

يرتفع الماء في شط العرب في وقت المد متأثرا بحركة مياه الخليج فترتفع معه أيضا مناسيب شط العشار الذي يتفرع من شط العرب ويمر في وسط المدينة مرورا بالعشار ومن ثم إلى البصرة القديمة. وهو نهر عريض نسبيا تقع على جانبيه بساتين النخيل والتوت والسدر.

وطبيعي فقد كان لعب كرة القدم في حر البصرة، الذي يبلغ أحياناً (٥٠ درجة) فوق الصفر، يحولنا إلى كتلة من العرق والملح فنذهب لإطفاء حريقنا عبر السباحة في الشط، وقد تعلم أكثرنا السباحة في مياه هذا الشط. كنا نخاف أحياناً كثيرة من سمك القرش [٣٥]، خاصة وقت المد وفي أشهر الصيف، (حزيران وتموز وآب) ورغم ذلك كنا نسبح في الشط مخالفين تعليمات أهلنا. كنت أنا وأخوتي وأولاد خالي طالب ويحيى شهاب وكريم خلف وأخوته والكثير من أولاد المحلة نجلس على ضفاف شط العشار أو شط العرب لصيد السمك بالصنارة أو (البلد)، وهو خيط طويل في نهايته سنارتان وثقالات من الرصاص. وسعيا وراء " وجبة سمك " شهية كنا نصنع قارباً صغيراً من الصفيح (التنك) ونستخدم العجين المخلوط بمادة تسمى (الزهر) [٣٦] للصيد فنصطاد كميات كبيرة من أنواع السمك المشهور في البصرة[٣٧]. كان الكثير من الناس في الريف والمدينة يعيشون على صيد السمك مثل (الهيالة) (والسلْيَّة) (والكرافة) [٣٨].

أما هواة صيد سمك القرش (الكوسج) فيصطادونه بواسطة حبل سميك وصنارة كبيرة يضعون فيها سمكة ويشدون الحبل بشجرة ويذهبون. يعودون في المساء أو في اليوم الثاني بعد أن يكون الكوسج قد أكل الطعم وتدور معركة بينهم وبينه إلى أن ينجحوا بإخراجه من الماء و إلقائه في الشارع.

يبلغ طول الواحد منه متراً ونصف أو مترين أحياناً. وكثيراً ما كان يقطع الخيط أو شباك الصيادون فيمزقها ،ويقطع سمكة كبيرة إلى نصفين باسنانه القوية. كان الناس

يتكلمون عن غانم أو غوينم [39] الذي عبر شط العرب سباحة مرة و دخل في صراع مع الكوسج (القرش) وقتله.

كان شط العرب مصدر إلهام لي وكنت أجلس ساعات على ضفافه أتمتع بسحره. تعلمت الصبر والهدوء منه رغم أنه لم يكن دوماً هادئاً. تضرب أمواجه الضفاف والمسناة، ويتطاير منها الرذاذ ليعبْر للشارع حينما تنتابه " الاضطرابات " المفاجئة أو حينما تهب عاصفة ما فتتصاعد وتتلاطم أمواجه هادرة مزمجرة، مدمرة، كأنها تصرخ أو تحتج. ويجري الشط سريعا عندما يحل موسم الفيضان فلا يتوقف في المكان والزمان عند نقطة محددة، يملأ الأنهر المتشعبة، يغرق البساتين ويجرف كل ما يعترض سبيله، يشرد الفلاحين، ويهلك الزرع والضرع ثم يعود لوضعه الطبيعي هادئاً وكأن شيئاً لم يكن.اكتسبت هذا الحب لشط العرب من والدي.

كانت البواخر الأجنبية الكبيرة ترسو في شط العرب وتعمل ليل نهار محملة بخيرات بلادنا كالتمور والجلود والحنطة والشعير لتصنّع وتعاد لنا بأضعاف أسعارها. كما هو الحال مع النفط الذي كان يباع بأقل من أربعة دولارات للبرميل ليعاد تصنيعه ويستخدم في تدوير وتشغيل المعامل والمصانع الإنكليزية والفرنسية والهولندية وغيرها، أي مصانع ناهبي ثروات بلادنا. كنا نرى العمال العراقيين في الميناء وهم يحملون بأيديهم تلك الثروات، يفرغونها ويحملونها من وإلى تلك البواخر ذات الجنسيات المختلفة وبأجور يومية لا تزيد عن خمسين فلساً مقابل سد رمق عوائلهم. يعملون ٨ ساعات من العمل المضني تحت شمس لاهبة ترفع درجات الحرارة إلى ٤٠ - ٥٠ درجة خلال صيف البصرة الحارق.

ويطلق على عمال الميناء هؤلاء اسم (المصاليخ) [40]، ينحدرون من مناطق الفقراء في (خمسة ميل) ومنطقة الشطيط، يسكنون بيوتا مصنوعة من القصب والبواري وسعف النخيل لا تقيهم حرارة الصيف ولا برد الشتاء، ويفترشون الأرض إذ لا يملكون أسرة للنوم، أو يملكون في أحسن الحالات أسرة مصنوعة من (جريد النخيل). وهي مناطق تشبه أحياء الصفيح البرازيلية إلا أن أهاليها استعاضوا عن الصفيح بالمنتجات الطبيعية (النخل). تخترق شوارعها الترابية سواقي المياه القذرة والبرك المليئة بالبق والناموس ومختلف الحشرات. و لا يعرف المصاليخ أكل اللحم إلا نادراً وربما في

الأعياد فقط، وهم فلاحون في الأصل تركوا أراضيهم جوراً ليصبحوا عبيد العمل كشيالين وحمالين يحْملون بأيديهم خيرات بلادهم للأجنبي (كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ). كنا نستمع إلى غناء المصاليخ الحزين ممزوجا بصوت الرافعات (الكرينات) وهي تعمل ليل نهار لتحميل البضاعة أو تفريغها.

كنت أحبذ السفر بالزوارق الشراعية عن طريق شط العرب من العشار إلى أبي الخصيب في الصيف. إذ كان لعماتي بستان صغير في منطقة تسمى (اليهودي)، تسبق أبا الخصيب على ضفاف شط العرب، إلا أنه كان جميلا وغنيا بالفواكه والخضروات وأنواع التمور[41]. كنت أقطع هذه المسافة الطويلة نهرا مع أمي كي أستمتع بالحكايات التي تقصها عمتي عن (الطنطل والسعلوه والملك محمود) وغيرها. فعمتي هذه كانت تحفظ الكثير من الأمثلة الشعبية والأغاني مثل:

عذاري إلى متى تسقين ذاك النخل البعيد
عطاشى ننتحي يمج ونرفع صوتنا ونعيد
نشوف الكيض [42] عيَّد بالنخل وحنا بليي عيد
عذاري لمتى بالساب يجري الماي من دوني
نشف ريح العشب يا عين دلوني
شْمال العين رحت يمها وراحت تسقى ذاك النخل البعيد
عجب على الوفى تعطين يا أهل الخير دلوني

وكثيراً ما كنت أجلس مع ابن عمتي لصيد السمك على جرف النهر، وأذكر أنه في إحدى المرات صاد سمكة كبيرة لم نستطع السيطرة عليها لضخامة حجمها فقطعت الخيط ورجعت إلى الشط.

كان الإنكليز بعد الحرب العالمية الثانية يقيمون بعض المشاريع ، يُشغِّلون العراقيين فيها وينشرون نفوذهم عبرها في محاولة لتحسين سمعتهم.

وفي إطار أحد هذه المشاريع عمل الوالد مقاولاً ثانوياً في منطقة الداكير مما أدى إلى تحسين وضع العائلة الاقتصادي بشكل ملموس، فاشترى بستاناً في منطقة (المشراق) في مدينة البصرة القديمة كما اشترى بيتاً. وصار الوالد كثيراً ما يساعد أخواته وأقاربه بعد أن تحسن وضعه المالي.

طلب مني ذات مرة أن أعمل معه في مكان يسكنه الإنكليز خلال أيام العطلة الصيفية وكان عمري لا يتجاوز ٩ سنوات بعد. وكان علي أن أتولى تنظيف المكان مستخدماً صفيحة أملأها من ماء شط العرب لغسل المكان، فأديت العمل في اليوم الأول بشكل جيد لكن الصفيحة كانت تنزلق من يدي ويجرفها تيار الماء في اليوم الثاني والثالث بفعل ارتفاع المد. انتابني الخوف من العودة إلى العمل، فعدت إلى البيت وأخبرت والدي لاحقا بما جرى لي فمنعني من العمل.

ومن تقاليد سكان البصرة أن نخلد إلى النوم (القيلولة)،وخاصة في الصيف وبعد الغداء، بعد أن يقسر الحر الإنسان على التخلي عن أي عمل. تحضر الوالدة الشاي على فحم المنقلة بعد أن يستيقظ الجميع فيطيب لنا ارتشاف الشاي مع بعض الكعك. كان بائع الكعك والجرك المملوء بالسمسم يمر في الحي بعد انقضاء فترة الظهيرة ويزعق بأعلى صوته مروجا لمعجناته اللذيذة. كان صوته هذا يثير أعصابنا حينما يتعالي أثناء النوم لكنه كان يسيل لعابنا أثناء فترة مراسيم شرب الشاي فنهرع إليه ونشتري منه الكعك والجرك الحار. نذهب للعب كرة القدم وصيد السمك عصرا بعد خروج الوالد والأخ الكبير، وغالبا ما نختتم يومنا مع حلول المغرب بممارسة مختلف الألعاب مثل لعبة (الروة) أو (ولي جاك) [٤٣]. ومن منا لم يمارس قيادة الطائرات الورقية المصنوعة من الورق الملون وسيقان عذوق النخيل المقوسة ؟ كنا نصنع هذه الطيارات بأيدينا، وكانت جيدة، إلا إنها لا تقارن بطائرات أسطه جمال النقاش [٤٤]، وهو من أصل إيراني، ذات الميزات الخاصة والتوازن الهوائي الدقيق. علاوة على ذلك كنا نستأجر الدراجات الهوائية ونتسابق بها في المحلة.

كانت متصرفية البصرة (المحافظة) محاطة بحدائق صغيرة قرب الشارع العام يمارس فيها، أو في حديقة الملك غازي التي تقع قرب ساحة أم البروم، أبناء محلتنا الكبار هواياتهم الرياضية كالملاكمة.لم تكن هناك نواد رياضية بالبصرة بعد يمارس الشباب الرياضة وهواياتهم فيها، فتحولت المحلات الشعبية إلى ما يشبه المدارس الشعبية، يمارس فيها الشباب نشاطهم، وهي صور لا زالت عالقة في ذهني.

دخلت المدرسة عام ١٩٤٣ وكان عمري ينيف عن ٨ سنوات، وهي مدرسة أمريكية معروفة كانت تسمى مدرسة (الأمريكان) [٤٥]، وسميت بمدرسة الرجاء العالي فيما بعد.

كان مديرها أميركيا يسمى مستر (فانيس)،وهي مدرسة يدْرس فيها الفقراء من عامة الشعب، معلموها من العراقيين، كان أكثر الدارسين يأتون إليها بالدشاديش والعقل ولا يتقيدون بالملابس الرسمية كما هي الحال المدارس الحكومية. وتزود هذه المدرسة طلابها بالكتب والدفاتر مجاناً، كما تشتري الإدارة لهم الملابس وخاصة الشتوية، فكان المعلم (حميد) يأخذ الطلاب إلى سوق الدلالين سنويا ليشتري لهم المعاطف القديمة من (اللنكات)، من سوق (هرج). كان صفنا الأول يتألف من ٢٥ ـ ٣٠ طالباً من أعمار مختلفة تتراوح بين ٧ ـ ١٠ سنوات [٤٦]، وتنحدر غالبيتهم من عوائل كادحة. مرشد الصف معلم مسيحي يسمى معلم (كربيت) وهو عراقي، من مدينة الموصل،في أغلب الظن، يدرسنا الأناجيل مثل أنجيل (لوقا، مرقص، متّى.. إلخ)، في حين كان المعلم حميد يدرسنا القراءة.

تضم المدرسة ستة صفوف، ويتألف طاقم التعليم من: المدير مستر فانيس، والمعلمين حميد وجبار وجليل وكربيت. أما فراش المدرسة فاسمه (قربون) وهو من أصل إيراني، يساعده فراش آخر يسمى (حسن) من أهل مدينة القرنة. وتتضمن المدرسة ساحة لكرة القدم، ومتوازي وحلقات للرياضة ومراجيح يلعب عليها الأطفال والكبار على حد سواء كما تنتشر فيها حوالي ٣٠ نخلة. و ياما تعرضنا للضرب أو الشتيمة من الفراشين والفلاحين بسبب صعودنا النخل لقطف الرطب أو الخلال. سقط أخي شاكر من على النخلة في إحدى المرات وكسرت يده. كانت إدارة المدرسة، بعد انتهاء السنة الدراسية، تنظم مهرجاناً سنوياً لألعاب الساحة والميدان وتوزع شهادات النجاح وتقدم الأكل والمرطبات مجاناً. وتنظم المدرسة كل هذه الأعمال بغية بث الدعاية للاستعمار الأمريكي و محاولة تلطيف مواقف العراقيين من الأمريكان. كانت القنصلية البريطانية في البصرة تعرض في ساحة المدرسة أفلاماً عن الحرب وانتصارات الحلفاء وخاصة الجيشين الأمريكي والإنكليزي. تعرض القنصلية أفلامها بواسطة سيارة متنقلة تسمى (سينما الدعاية) وتسبق عرض الفلم عادة بعرض أفلام كارتون أو مقاطع من أفلام (تشارلي تشابلن).

وللمدرسة قاعة تابعة لها أشبه بنادٍ تقام فيها الحفلات المدرسية والمسرحيات أو الندوات الثقافية، وكان الطلبة التقدميون الذين عرفتهم فيما بعد يستغلون هذه القاعة

ليقيموا فيها الندوات الأدبية والشعرية والمسرحيات. أشركوني مرة في إحدى المسرحيات حيث اقتصر دوري على قراءة نشيد مطلعه:

يا أسود البيد سيروا للمنى ننشد العلى
بشروا الدنيا وقولوا إننا عرب

فصفق لي الحاضرون كثيراً.

وهناك في ظهر هذه القاعة غرفة مخصصة لقس يسمى القس (يشوع) ملأى بالكتب الدينية المسيحية.ويعتبر هذا القس وجهاً من وجوه المدرسة الأمريكية ومبشرا لبث الديانة المسيحية في ذات الوقت. وكثيراً ما كان يبشر ويشرح التعاليم المسيحية وما جاء في الإنجيل من تعاليم سمحة ويسقي زواره في هذه الأثناء ماءً بارداً يخفف وطأة الحر اللاهب عليهم. كان يشتري نصف قالب من الثلج يوميا ويضعه في براد من الخشب ليسقي زواره منه. كان رواده الحقيقيون قليلين، وغالباً ما يتلقى زيارات من أناس لا علاقة لهم بالدين، مثل السكيرين والشقاوات، يأتون للتسلية مع القس وشرب الماء البارد واتقاء الحر. وقد يقدم القس لهم الشاي أحياناً، إلا أنه يكت عن مواعظه في الساعة الثانية عشر ظهراً، فيغلق الغرفة ويذهب إلى بيته لتناول الغداء والراحة، خاصة وأن بيته يقع بالقرب من حديقة غازي على بعد نصف كيلو متر. وقد يأخذ هؤلاء الزوار المفتاح منه وينامون على الكنبات لحين مجيء القس من بيته في الساعة الخامسة عصراً عندما يبرد الجو قليلاً. ولا أعلم إن كان قس يشوع يتقاضى رواتبه من مدرسة الأمريكان أم من الكنيسة؟

كان لمستر فانيس، مدير المدرسة، فيللا جميلة محاطة بالورود والأشجار وسواقي المياه، يعمل فيها عدة فلاحين متخصصين، ومحرمة على الناس العاديين. تقع مناطق الصرائف التي يسكنها العراقيون مقابل هذه الفيللا الجميلة، وكان هذا المستر داعية أمريكياً كبيراً، حول بيته إلى وكر من أوكار الجاسوسية.

كان أشد المعلمين خوفاً منا وكرهاً لنا في آن واحد هو القس المعلم كربيت. كان لا يتوانى عن ضرب التلاميذ لأي سبب مستخدما عصياً من عيدان الرمان القوية والمؤلمة ينزل بها على رؤوس أصابع يدي التلميذ. وكان يستخدم مثل هذه القسوة مع التلميذ إلى أن يدمي يديه وكل ذلك في فصل الشتاء البارد. ولا يتوانى المعلم كربيت عن

استخدام الفلقة، أو معاقبة الطالب بإيقافه على قدم واحدة ووجهه إلى السبورة طيلة الدرس. وقد يسجن الطالب بعد انتهاء الدروس في السرداب حتى المساء، بعد أن يوصي الفراش بإطلاق سراحه، وينسى الفراش أحياناً الطالب حتى ساعات متأخرة بحيث يعطش ويجوع، ويفتش عليه أهله[٤٧].

ولعاشوراء طقوس خاصة في البصرة كما هي الحال في المدن الدينية في كربلاء والنجف. تنتشر المآتم في كل محلة ومنطقة تقريباً في مناطق العشار والبصرة القديمة والسيمر وخمسة ميل والخندق والأصمعي. وكان مأتما الخضارين والقصابين، اللذين يفد إليهما الناس بملابسهم السوداء، من أكبر هذه المآتم التي يرتادها مئات الناس يوميا طوال عشرة عاشوراء. ويعتبر مأتم القصابين أكبر وأهم المآتم على الإطلاق بسبب استقدامه الروزخونية " القرّاء " من مدينة النجف. كنا صغارا لا نعي شيئاً مما يقال ونكتفي بالاستماع إلى القصص التي يرويها القارئ عن أهل البيت ومقتل الحسين وأهل بيته والغدر الذي راحوا ضحيته. وكنا نشتري مأكولات عاشوراء [٤٨] التي تبيعها النسوة السود.

وأمام بيتنا في العشار ساحة مفتوحة في وسطها نخلة تمر (بريم) يسكنها رجل يعمل في سينما الحمراء التي يملكها حبيب الملاك. تنصب في هذه الساحة خيمتان، مجاور الصرائف التي يسكنها محمد علي البواب، وتفرش الخيمتان بالأفرشة النظيفة، وهي عبارة عن مأتم المحلة الواقع في ظهر بيت (الهواز). كان بعض الشباب يجمعون التبرعات من الناس (صندوق الحسين) للصرف على المأتم في حين يقوم بعض آخر من الشباب الإيرانيين على تنظيفه.

يسهر الجميع في ليلة العاشر من محرم (عاشوراء)، بعد انتهاء المأتم، في البيوت حتى الصباح في تقليد يسمى (الحج). كنا نجمع من كل من يسهر هنا مبلغا لشراء الطعام لنأكله في الليل. وتتحرر النساء في أيام عاشوراء ويستطعن السهر ليلة عشرة عاشوراء خارج البيت، ويحضرن مآتم الرجال [٤٩].

يحضر المآتم كما قلت (روزخونية) من النجف للقراءة، يمضي بعضهم الشهر بأكمله في البصرة ويكتفي القسم الآخر بالبقاء فترة الأيام العشرة الأولى. ينخرط معظم الحضور بالبكاء حالما يبدأ القارئ بالقراءة، لا تأثرا بمصيبة الحسين (ع) فحسب، وإنما

تأثرا بمصائبهم أيضا. كأن يكونون عاطلين عن العمل في رقابهم عوائل كبيرة، أو لأسباب قهرية أخرى، فتتوافق مصيبة الحسين أبي عبد الله (ع) مع مصائبهم.

كانت هذه المآتم أشبه بالندوات العامة يلتقي الناس من خلالها ويبثون بعضهم البعض همومهم ومصائبهم. وتضطر الحكومات المتتالية آنذاك إلى تشجيعها إلا أنها كانت تخشاها في نفس الوقت لأنها تتحول أحياناً إلى منابر سياسية ضدها [٥٠]. وحدث مثل هذا التحول كمثل في مأتم الخضارين الذي يرتاده عشرات الناس عام ١٩٤٩ وفي وقت كانت فيه الحركة الوطنية العراقية تعيش في حالة جزر عام.شنت الحكومة حينها هجمة شرسة ضد القوى الوطنية وغصت السجون بالشيوعيين والوطنيين فكان من الطبيعي أن تستغل مثل هذه المجالس للتعبير عن الاحتجاج. كان القارئ علي بن جسام يسرد قصة شهادة الإمام الحسين حينما حول دفة الحديث وصار يطرح أسئلة تتعلق بمعنى {يا أيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات ادخلوا في السلم كافة} وما معنى ادخلوا في السلم كافة، أو {وجعلناكم أحزاباً وشيعاً لتتعارفوا....} إلخ. دخل بعض الوطنيين على الخط وصاروا يناقشون أهمية السلام للناس وأهمية الأحزاب.. إلخ فتحول المجلس إلى ندوة سياسية يحضرها جمهور من المستمعين.

كانت شركة النفط في البصرة (B.P.C) - وهي شركة نفط إنكليزية هولندية فرنسية يحتفظ كولبنكيان بحصة ٥٪ من أسهمها - تشجع عمالها وتقيم لهم هذه المآتم. وكانت بادرة ذكية من الشركة لتحذير وإبعاد عمالها وموظفيها عن السياسة، والظهور، في نفس الوقت، بمظهر الحريصة على الدين. كذلك كان يفعل (جيته) [٥١] في بيته.

وبالمناسبة فإن لعاشوراء طقوسا رهيبة في مدن العراق المقدسة في إيران، إذ تخرج آلاف الناس الى الشوارع متشحة بالسواد، وتؤدي ما يطلق عليه " التطبير "، والتمثيليات عن (الشمر) والمعارك عن كيفية مقتل الحسين.. إلخ.

الانتقال من العشار

-٤-

نجحت من الصف الثاني إلى الصف الثالث في مدرسة الأمريكان وتعلمت أوليات اللغة الإنكليزية لأنهم، في هذه المدرسة، دأبوا على تدريس اللغة الإنكليزية منذ المرحلة

الثالثة.اشترى الوالد، بعد أن تحسنت ظروفه، بستاناً وبيتاً في البصرة القديمة في محله المشراق كما أسلفت، مما اضطرنا أنا وأخي غازي إلى الانتقال إلى مدرسة الخليل بن أحمد الواقعة في المشراق.أما الأخ الكبير شاكر، وكان موظفاً في الميناء ولاعب كرة قدم جيدا، فقد اضطر للبقاء في البيت القديم مع الأخت الكبيرة التي توفيت بالسرطان فيما بعد. وهكذا دأبنا على السكن في البستان صيفاً، ومعنا عمتي (نعيمة) وزوجها الذي كان اسمه إسماعيل أيضاً، وفي بيتنا القديم في العشار شتاء. اشترى الوالد بقرة حلوباً وكانت عمتي وزوجها من ذوي الخبرة في شؤون الفلاحة فدأبا على رعاية شجرة السدر (النبق) الكبيرة التي تتوسط دارنا.

تسبب انتقالنا من مركز العشار إلى أطراف محلة المشراق بانقطاعنا تقريبا عن التقاليد والظروف التي ترعرعنا فيها وكان علينا أن نتعايش مع الأوضاع الجديدة. وكان كل سكان المحلة الجديدة من الفقراء والكادحين من عمال وفلاحين وكسبه وسواق وموظفين صغار.

ويتوسط المحلة بيت كبير يعود إلى عائلة (الرديني)، وهم من العوائل الثرية، وأعتقد أنهم ينحدرون من السعودية. و" الرديني "عائلة محافظة جداً ومن الصعب أن ترى أحداً سوى صاحب البيت أو أحد أولاده. ويقابل بيتهم كوخ كبير يسكنه حسن الحداد المبتلى بزوجة وسبعة أولاد وبنت صغيرة واحدة.

وعلى بعد مائة متر تقريبا يمتد زقاق يطلق أهل البصرة عليه تسمية زقاق البغّادة (البغداديين) وأكثر سكانه من المعلمين والموظفين الصغار القادمين من بغداد. يقابل هذا الزقاق بيت (شناشيل) تسكنه إحدى قريباتنا (رسمية) مع زوجها علوان، وهو موظف في الجمارك. وتمتد إلى جانب بيت حسن الحداد عدة بيوت مبنية من الطابوق، بينها بيت سائق تاكسي تزوج امرأة ثانية بسبب عقم زوجته الاولى.

كان لحسن ورشة صغيرة قرب مدرستنا "الخليل بن أحمد" يصنع الأدوات الزراعية للفلاحين مثل المساحي والمناجل إضافة إلى حدوات الخيل.. إلخ. توجد على مقربة من بستاننا مقبرة يدفن بها الأموات من المحلة، وعلى بعد خمسين متراً يجري نهر يسمى نهر (حسن داده)، ولا أدري من أين جاءت هذه التسمية، كثيراً ما كنا نسبح فيه أو نصطاد السمك. وكان بيت "عزوز "، التلميذ الذي يدرس في نفس مدرستي، ملاصقا

لبيت حسن الحداد. وهناك عدة دكاكين صغيرة لبيع المواد الغذائية مقابل دكان حسن الحداد، يقع خلفها بيت شاكر محمود [٥٢] وأمه وأخته ويقابلهم بيت (فيصل حمود) صاحب المكتبة المعروفة في منطقة السيف. ويسكن أقارب بيت شاكر إلى جانب بيت صاحب المكتبة يلي بيتهم جامع ذو مئذنة عالية يسمى جامع (الكواز)، هو الجامع الثاني في المنطقة الى جانب جامع صغير آخر قرب المدرسة.

وهناك بيت في منطقتنا يسكنه حسن الجتّات الذي تحترف عائلته بيع (حشيش الجت)[٥٣] الى جانب عدة بيوت تعود لعائلة سعودية تسمى " بيت القصابين" لأنهم كانوا يمتهنون " القصابة " في السوق. وهناك مجموعة أكواخ تقع قرب البساتين تنشب المعارك أحيانا بين ساكنيها لأسباب تافهة وخاصة بين النساء. كانت ظروف الفقر والحاجة تضطر بعض النساء للانحراف بغية سد رمق الأبناء.

كان والدي، كما نوهت، على خلاف مع أخوته من غير أمه على مسألة الميراث وكثيراً ما يدخل معهم في صراعات تقود إلى إقامة الدعاوي في المحاكم، ولكن دون جدوى. وقد أقام الدعوى ضدهم مجددا حينما تحسن وضعه المالي لكنهم كانوا أقوى منه فخسرها. ترك العمل في الداكير واشترى زورقاً بخارياً بعد أن أصبح مديناً. وعمل معه (عامر الصائبي) [٥٤] الذي كان ميكانيكيا مختصاً بالزوارق البخارية.

كان والدي أمياً متمسكاً بدينه لا يفوت فرضاً واحداً، ينهض من النوم كل صباح وهو يرتل آيات قرآنية حفظها عن ظهر قلب، لكنه يكره رجال الدين المزيفين ويملك حساً طبقياً بحكم عمله وظروفه. كان يحب سماع القصص وخاصة القصص الشعبية والتاريخية كعنتر وعبلة والزير وألف ليلة وليلة وحسن البصري وقصص الإمام علي بن أبي طالب (ع) وحربه مع الجن. كان يحصل عليها من أصدقائه أو يشتريها ليتمتع بالاستماع لها في ليل الشتاء البارد والطويل بعد العشاء. تنصب الوالدة (المنقلة) وعليها (قوري) الشاي (الأبريق) لنتجمع كلنا حولها [٥٥] ويدعوني بعد الانتهاء من مراسيم العشاء وشرب الشاي كي أقرأ له قصة من القصص التي جلبها معه. ويروق مزاجه للقصص تماما في ليالي الخميس التي تسبق أيام عطلته من العمل.

كنت آنذاك في الصف الرابع الابتدائي، شاطراً في القراءة، لكني ما كنت قادرا على الصمود في المساء كي أشبع نهمه للقصص. يكون الجمر حينها قد خبا في المنقلة

والغرفة قد بردت وانتهى الشاي، فاستميحه عذرا بعد شعوري بالتعب وبرغبتي في الخلود الى النوم، فأراه يتضايق ويريد أن أكمل له البقية وخاصة عندما تصل الأمور إلى قضايا معقدة كدخول الإمام علي بمعارك فاصلة مع الجن تحت الأرض. كان ينتظرني في الأيام العادية إلى أن انتهي من تحضير دروسي كي أكمل له القصص فأواصل القراءة حتى يغلبني النعاس.وقد أفادتني قراءة القصص لوالدي بالدراسة لأنها قوّت قدراتي في المطالعة والإملاء والإنشاء.

كانت السفن التجارية المتعددة الجنسيات ترسو في ميناء البصرة قادمة من كل حدب وصوب،بحارتها خليط من الجنسيات ذوو مواهب متعددة، بينهم الرياضيون، مثل لاعبو كرة القدم أو الملاكمون. ومن الطبيعي أن ينزل البحارة، عندما يصلون إلى أي ميناء، إلى المدينة للترفيه عن أنفسهم بعد العمل المرهق وطول السفر في البحار. وكثيراً ما كانوا يشكلون فرقاً رياضية فيطلبون اللعب مع أحد النوادي أو إحدى فرق كرة القدم المحلية. وكما ذكرت كان أخي الكبير شاكر إسماعيل من اللاعبين البارزين في نادي الاتحاد الرياضي وفي فريق مديرية الموانئ، وفي فريق شركة نفط البصرة وفي منتخب العراق. كما كنا جميع الأخوة نهوى لعب كرة القدم، وكان لوالدتي أخوان، أحدهما الكبير وهو خالي شهاب، من المشاهدين المدمنين على اللعبة وخاصة عندما يكون اللعب ضد الإنكليز ويكون شاكر بين اللاعبين. وتجتذب مثل هذه المباريات عادة جمعا غفيرا من عمال الميناء وعمال شركة نفط البصرة وجماهير البصرة نساءً ورجالاً. أذكر كيف يأتي العمال ببدلاتهم الزرقاء بعد انتهاء العمل مباشرة للحضور في الملعب والتمتع بمشاهدة طريقة لعب الأجانب. كانت والدتنا ونساء محلة العشار يحضرن بعض المباريات النهائية في العشار فتتوفر الفرصة أمامنا، نحن الأطفال، حينما نسمع بمثل هذه المباريات، لضرب عصفورين بحجر. نطب من الوالدة السماح لنا بالذهاب معهم إلى المباراة وانتهاز الفرصة في نفس الوقت لزيارة جدتنا (أم والدتي) وعماتنا اللاتي يسكنَّ كلهن في العشار. تمنحني الوالدة أجرة السيارة ذهاباً وإياباً للذهاب إلى العشار لكني كنت اقتصد بالأجرة لشراء زجاجة كولا أو ما شابه. وبدلاً من ركوب السيارة أو الربلات (العربة التي تجرها الخيل) كنا، نحن الأطفال، نتعلق بخلفية هذه العربات بغفلة من السائق، وكثيراً ما كان سائق العربة يشعر بنا فيلسع ظهورنا بسياطه مما يضطرنا لإكمال بقية المشوار سعيا على الأقدام.

تكتظ ساحة ثانوية العشار بالمشاهدين والمشجعين وتتعالى صيحات مشجعي الفريق البصري ضد الفريق الإنكليزي حينما يشتد الصراع على الكرة.من بين صيحات التشجيع التي أذكرها هي (وين وين ونانه والباخرة خسرانه)، وكثيرا ما كانت فرقنا تفوز على هذه الفرق الأجنبية [٥٦] المتعبة من سفر البحار.

كان ملعب ثانوية العشار أكبر الملاعب في البصرة وتقام فيه أكثر المباريات أهمية.ولا تتوفر الفرصة هنا للتمتع بمشاهدة كرة القدم فقط لأن الساحة تشهد " ألعابا "هي في كثير من الأحيان أخرى أكثر تشويقا، كما هو الحال حينما يحضر بعض الجنود الفارين من الجيش أو المتخلفين ويطاردهم الانضباط العسكري.

بقيت حتى الصف الخامس في مدرسة الخليل بن أحمد إلى جانب الرفيق (أنور طه) أبو عادل، وكان لنا في المدرسة فريق لكرة القدم والسلة والطائرة نخوض بها السباقات مع المدارس الأخرى.

يقبل الكثير من العمال،من مدينة الناصرية وغيرها مع عوائلهم، على العمل كأجراء لجمع التمور عند وقت نضوج التمر وجنيه في البصرة. ويطلق البصريون على موسم القطاف اسم (الكصاص)، وعلى العمال المشتغلين بالكصاص اسم (الطواشة) وهم كما ذكرت من العمال الموسميين الذين تشكل النساء غالبيتهم، ويستلمون أجورهم وبعد انتهاء الموسم، نقداً أو مقابل كميات من التمور. توضع التمور، بعد أن يتم تصنيفها حسب نوعيتها، في صناديق وتترك على حافة الشط أو في وسط البستان، على مقربة من الشارع، كي تتولى السفن أو السيارات نقلها. وتباع هذه التمور عادة إلى تجار التمور أو الى وكلاء الشركات كشركة بيت أصفر أو شركة سيمون. ويشتري هؤلاء التمر بأسعار زهيدة ثم يصنعونها ويبيعونها بأسعار عالية في أسواق الخارج. وكثيراً ما تصدر لإنكلترا ليعاد تغليفها وتصنيعها وبيعها.

تنقل السفن الشراعية (المهيلة) أو شاحنات التمور إلى الجراديغ [٥٧] حيث يعمل عدد كبير من العمال والعاملات وهم جلوس على الأرض الرطبة و تتكوم أمامهم تلال من التمور والصناديق الفارغة. يفتحون التمرة الواحدة ويخرجون النواة منها ثم

يغلقونها ويضعونها في الصندوق، ثم تؤخذ الصناديق للوزن بعد أن تمتلىء. وبعد التأكد من الوزن يحسب للعاملة وللعامل أجرة عملها (عمله) حسب القطعة حيث ينال الفرد خمسين فلسا لقاء كل صندوق. وكانت طريقة الدفع حسب القطعة، بهذه الصورة، جارية في البصرة حتى سنة ١٩٥١. قلت إن أكثرية العاملين كانوا من النساء لأنهن يتقاضين أجوراً أقل ويتقن العمل، وهن من العوائل الفقيرة، يجلبن أطفالهن معهن ويضطررن للعمل ليلاً ولساعات طويلة بالقطعة ليحصلن على أكبر قدر من الأجور. كن غالبا ما يتعرضن للاعتداءات والمضايقات الجنسية، خاصة من قبل الوكلاء، الذين يهددونهن بالطرد من العمل في حالة عدم الاستجابة لرغباتهم الجنسية. وغالبية هاته النساء حافيات بملابس رثة وعباءات سوداء فوق رؤوسهن. يأكل الذباب وجوه أطفالهن، قوتهن اليومي لا يتجاوز قطعة خبز مع الجبن والشاي. هكذا تعامل صاحبات الأيادي والأصابع الذهبية.

رجع الوالد من الكويت نهائياً فباع البيت الذي كنا نسكنه في المشراق واستأجر داراً في محلة الساعي. وهكذا انتقلت من مدرسة الخليل بن أحمد، بعد أن اجتزت مرحلة الصف الخامس إلى الصف السادس، إلى مدرسة (فيصل الأول) في محلة العزيزية خلف المكتبة العامة وثانوية العشار المركزية. وهي محلة يسكنها الكثير من الموظفين والتجار الصغار الذين يشكل المسيحيون أكثريتهم.

أما غالبية سكان منطقة الساعي فهم من الكادحين والعمال والباعة وأصحاب الدكاكين والمعدمين من سكان الصرائف والفلاحين الذين يزرعون الخضراوات ويبيعونها، والمتسولين والعاطلين عن العمل. وكانت عائلة من أقاربنا تسكن في البيت الملاصق لبيتنا.

يجلس المتسولون عادة في الشوارع يستعطفون المارة لكن القسم الأكبر منهم يتجمع في سوق الخضراوات على مقربة من مدرسة المربد الابتدائية القريبة من نهر الخندق. وتكتظ المنطقة بالناس صباحاً قرب سوق السمك (السمّاكة) وعنابر الحنطة والشعير وورشات النجارة الصغيرة وورشات الحدادة و مصلحي إطارات السيارات

(البنجرجية) ودكاكين الندافين. يخلع المتسولون العميان ملابسهم (دشاديشهم) إلى حد الحزام، يفرشون قطعة قماش على الأرض، ثم يبدأون اللطم وترديد مقولات يحفظونها عن ظهر قلب عن الحسين (ع) وأبي الفضل العباس وغيرهم من آل البيت، وانتظار ما قد تجود به أيدي المارة. يرمي الناس من المتبضعين، وخاصة من النساء، إليهم قطع النقود فيلمون هذه النقود من على قطعة القماش ويعودون إلي بيوتهم في الصرائف بعد أن ينتهي السوق. يتقاسمون النقود بينهم في المساء، فإن كان الحاصل وفيراً يبدأون بشرب المشروبات (العرك) ويسكرون ويفتحون (الميكروفون) لأغاني لميعة توفيق وزهور حسين وصديقه الملاية. وكانوا يشترون هذه الإسطوانات من محل معروف يقع في سوق الهنود لصاحبه (خلف)، ويسميه الناس (الأنكر).

وليس من النادر أن تندلع الشجارات و" المعارك " بين عوائل من سكنة الصرائف لأتفه الأسباب بفعل الفقر والبطالة والعوز من جهة، وحر البصرة والجهل من جهة أخرى. وينشب العراك بين العميان أنفسهم عندما تكون قسمة الفلوس غير عادلة وهي ما نسميها (عركة عميان). وهي معارك تتعالى فيها الصرخات وتبادل الضربات بالعصي، و قد تستدعي تدخل رجال الشرطة لفض النزاع إذا ما فشل الجيران في محاولة تهدئة المتشاجرين.

كما يسكن في صرائف محلة الساعي عدد كبير من الأفارقة السود الذين يعملون في الأعمال الشاقة و تجلس نساء بعضهم قرب سينما الحمراء وساحة (أم البروم) لبيع الباقلاء المسلوقة والحمص (اللبلبي) وغيرها من المأكولات. وتقيم امرأة منهم تسمى (رضية) السمينة كل ليلة جمعة تقريباً، في ليل الصيف الطويل، جلسات أشبه بالزار تسمى (النوبان) [٥٨] وهي أشبه ما تكون بحفلات (الذكر).

وكثيراً ما كانت نار الحرائق تلتهم البيوت المصنوعة من القصب والبواري والطين فتهرع النسوة والرجال والأطفال إلى الشوارع وهم يصرخون ويضربون على رؤوسهم حاملين ما يستطيعون حمله من حاجياتهم إنقاذا لها من النار المشتعلة. ويحاول الناس عبثاً إطفاء الحريق إلا أن النار تلتهم صرائفهم، التي يبست وضربتها أشعة الشمس

الحارقة، الواحدة تلو الأخرى. وتأتي سيارات الإطفاء عادة متأخرة بعد أن تكون النيران قد أكلت الأخضر واليابس وحولته إلى رماد وهكذا تصبح عشرات العوائل بدون مأوى[٥٩] خلال ساعتين. ويتعرض سكنة هذه الأكواخ، إضافة إلى الحرائق في فصل الصيف، إلى الكوارث الطبيعية كالعواصف والأمطار فتقتلع الرياح سقوف صرائفهم وأكواخهم وتجرف مياه الأمطار أواعيهم (قدورهم) في السيل. وطبيعي أن تنتشر حينا بينهم الأمراض والأوبئة كنتيجة للمصائب المتكررة التي تحل بهم. هكذا كان يعيش هؤلاء الناس في بلد يعتبر من البلدان الغنية بنفطها وخيراتها في العهد الملكي.

يجتمع في الصباح، في وسط ساحة أم البروم، عمال الميناء والسكك الحديد وعمال النفط ببدلاتهم الزرقاء حاملين بأيديهم أطعمتهم المعبأة بالـ(سفرطاس) في طريقهم إلى العمل. كما يتجمع عشرات العمال العاطلين عن العمل وعمال البناء من الراغبين ببيع قوة عملهم بأي ثمن كان لمن يستأجرهم، ليسدوا أفواه أطفالهم وعوائلهم والحصول على لقمة العيش.

كان المقاولون يتحكمون بهذه الكتل البشرية من العاطلين عن العمل، يستأجرونهم بلا رحمة بأرخص الأجور، أما الذين لا يحصلون على عمل ولا يحالفهم الحظ فيرجعون الى بيوتهم تحت حر لا يرحم. يواصل البعض منهم محاولاته فيتوجه الى الأسواق للعمل كحمالين (شيّالين) يحملون بضائع الميسورين لقاء درهم أو أقل ليوفروا الخبز لعوائلهم. وكثيراً ما كان الباحثون عن العمل يتكدسون في سوق الهنود قرب صيدلية (سليم باكوس). وتحولت (هيلة)، جارتنا، الى خبازة بعد أن توفى زوجها فأصبحت تبيع الخبز في المحلة لتسد رمق عائلتها.

قضيت سنة ممتعة في مدرسة فيصل الأول. ولأني كنت من البارزين في الدراسة والرياضة فقد كنت أكلف من قبل معلم الرياضة الأستاذ طالب جاسم كل خميس برفع العلم وقراءة النشيد التقليدي أمام تجمع الطلاب والمعلمين:

عش هكذا في علو أيها العلم
فإننا بك بعد الله نعتصم

ونقرأ يومياً نشيد:

دم يا سليل الحسب يا رفيع النسب

يا خير ملك في الوجود فيصل فيصل

وكانت مجموعتنا من التلاميذ متحابة ومنسجمة لأن أفرادها ينحدرون من محلة واحدة وهم عبد الصمد طاهر وعبد الرزاق جمعة وناصر الكتيباني وصبيح البدر وغيرهم كثيرون.

وكنا نحرف النشيد قبل أن ندخل الصفوف ونقول:

دم يا طويل الرقبة يا قصير القامة

يا أتعس ملك في الوجود فيصل فيصل

كنت مراقب الصف، أما مرشدنا فكان معلماً يهودياً اسمه ساسون، يدرسنا التاريخ والجغرافية، وهناك العديد من التلاميذ اليهود بيننا.

اضطررت أن أبني غرفة صغيرة مستقلة للدراسة في وسط ساحة البيت بعد أن ضاقت بنا مساحة السكن وكبرت وصرت أشعر بأهمية اجتياز الامتحان الوزاري (البكالوريا). كان ذلك بالضبط بين ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠، حينما كان عدد من البيوت ما يزال محروما من الكهرباء، فقررت حل مشكلة الإنارة عن طريق قنينة ملأتها بالنفط ووضعت في وسطها فتيلة. كانت القنينة تدخن وتطلق أول أوكسيد الكاربون في الغرفة الضيقة فأضطر لترك الغرفة برهة بغية تهويتها قبل أن أعود اليها ثانية. و في هذا البيت، بيت حجي يوسف في محلة الساعي، توفيت أختي الكبيرة.

انتقلنا إلى بيت جديد أفضل نسبياً حلا لمشكلة " الزحام " في الغرف وهو بيت حاج شبيب، مبني من الطابوق،غرفه أوسع ويقع على حافة النهر. ويطل البيت من الخلف على بستان نخيل، والبستان يقع على شط العشار، وفي هذا البيت استطاع اللصوص التسلل إلى البيت وسرقتنا بعد أن نجحوا بخلع الطابوق. وعادت لنا المسروقات بعد أن عرفنا السارق.

لم يكن لدي اطلاع في أمور السياسة في تلك الفترة ولم أكن على علم بها، لكني

كنت أسمع بالأحداث السياسية الكبيرة مثل انتصار الاتحاد السوفيتي، بلد العمال والفلاحين، واندحار الفاشية وألمانيا الهتلرية، وسيطرة الإنكليز على العالم، و جريمة إعدام الرفاق فهد ـ حازم ـ صارم.

كان لمحمد علي،(بواب السينما) الذي ذكرته سابقاً، ولدان من زوجته هما :عبد الباري، وهو الابن الأكبر الذي أصبح بعثياً فيما بعد، وكان من الشقاوات، وعبد الوهاب (هوبي)، وهو إنسان دمث الأخلاق على عكس أخيه. حدثني هوبي، الذي كان عسكريا يخدم في بغداد وعاد بإجازة إلى البصرة، عن المظاهرات والإضرابات في بغداد حيث نزلت آلاف الجماهير الى الشوارع وهي تهتف ضد معاهدة بورتسموث وتطالب بإطلاق سراح السجناء. وسرد لي هوبي كيف فتحت الشرطة النار على المتظاهرين وأردت عدداً من القتلى والجرحى، كما تحدث لي عن المعارك التي جرت في شارع الرشيد و معركة الجسر ومقتل إحدى الفتيات، التي سموها فتاة الجسر فيما بعد. قال ابن بواب السينما: كنت في إجازة ونزلت مع المتظاهرين فأصبت بطلق ناري في رجلي وأراني مكان الرصاصة. وتحدث هوبي كثيراً عن الوثبة وعن الحزب الشيوعي العراقي رغم أنه لم يكن آنذاك حزبياً، وكل ما في الأمر أن شعوره الوطني دفعه بدون وعي منه للمشاركة في هذا التيار الجارف العظيم.

وتأثرت كثيراً بالأحداث التي نقلها هوبي لي وكان ذلك هو الدافع الذي حفزني للتقرب من عدد من أعضاء اتحاد الطلبة العام والطلبة الشيوعيين المعروفين بنشاطهم الوطني الشيوعي في المحلة والثانوية مثل جميل نوري، فيصل البلداوي، كامل سعيد، سليم أبو البيض وأخيه موسى. كان الطلبة الشيوعيون يقيمون ندوات في نادي الطلبة بالثانوية وتعرفت من خلالهم فيما بعد على الحزب الشيوعي العراقي، إذ كان جميل نوري يزودني بالمنشورات السرية للحزب وكنت أدفع له التبرعات.

ويحضر هذه الندوات عدد غفير من الطلبة فكانت تتحول إلى لقاءات تثقيفية يطرح فيها الكثير من القضايا الوطنية والاجتماعية. حضرت مع أخي مرة أحد هذه الاجتماعات التي أقيمت في أحد البيوت فكان الحديث يدور عن فن القصة والخطابة

والشعر ومسائل أخرى لم أكن أفهمها، وبدا لي حينها أنهم لا يتناولون الأمور السياسية وحسب بل الأمور الاجتماعية المختلفة أيضا كالقصة والرواية والخطابة وغيرها. وللنادي فرقة موسيقية يدربها معلم الموسيقى (فرنسيس)، دخلت معهم لتعلم الموسيقى ثم تركتها. كان الطالب اليهودي ساسون مراد عازفا جيدا على الكمان وكان يعزف في الاحتفالات التي يقيمها النادي. أما أبوه مراد فكان خياطاً في سوق الهنود وكانت العائلة اليهودية من جيراننا في محلة العشار.

كان الطلاب الشيوعيون ينظمون السفرات إلى الأرياف والبساتين على الدراجات الهوائية لتوعية الفلاحين باسم "أصدقاء الفلاح". كما يقيم النادي في يوم عشرة عاشوراء احتفالات خطابية عن مقتل الحسين وعائلته والأسباب التي استشهدوا من أجلها. يحضر هذه الندوة عشرات الطلبة والأساتذة ورجال الدين والمثقفون.

الفصل الخامس

المشاركة في أول مظاهرة

ذهبت إلى المدرسة وحديث (هوبي) ما يزال يرن في أذني عن المظاهرات والمصادمات مع الشرطة في بغداد والقتلى والجرحى. التقيت عند باب المدرسة بالزميل عبد الصمد طاهر ومجموعة من طلبة صفنا، فتحدث صمد عن دعوة عامة للإضراب في ذلك اليوم في ذكرى شهداء الوثبة. وقال صمد، الذي كان أخوته من الشيوعيين والتقدميين المعروفين [٦٠] إن علينا دعوة الطلبة لرفض الدوام والمشاركة في المظاهرة العامة في المدينة.

كان لهذه الدعوة صدى كبير لدي فتحمست لها وكأنني أنا صاحبها والمسؤول عنها. توجهت مع إثنين من الطلبة، قبل أن يبدأ الدوام، إلى الصف، خلعنا السبورة من الحائط وكتبنا عليها بالطباشير شعارات لا أتذكرها ولكنها كانت، في أغلب الظن، تدور حول وثبة كانون ١٩٤٨. أخذنا السبورة خارج المدرسة وحرضنا الطلاب على الإضراب، وعدم الدوام، فساد المدرسة نوع من الارتباك والضجيج، وخرج مدير المدرسة [٦١] والمعلمون وطلبوا منا العودة وإرجاع السبورة الى الصف، مع نوع من التهديد بالعقوبة وغيرها.

لم نحفل بالتهديدات والعقوبات المنتظرة، تركنا السبورة قرب باب المدرسة وذهبنا للمشاركة في التظاهرة العامة.

حشد غفير من الجماهير والكتل البشرية القادمة من البصرة القديمة إلى العشار، وهو طريق طوله حوالي خمسة كيلو مترات، تتقدمهم مجموعة من الفتيات يلبسن السواد ويحملن الورود. تليهن مجموعة من الشباب الذين يرتدون الملابس والأربطة السوداء ويحملون أكاليل من الورد، بينهم الطلبة والعمال بملابس العمل، موظفون

ورياضيون ونساء يلبسن السواد. كما كانت مجموعة من النساء العاديات يلبسن الملابس القصيرة السوداء ويرددن ما يقوله الهتّافون من شعارات وردات، مثل شعار "نوري السعيد القندرة وصالح جبر قيطانه" ويسقط أبو لحية النايلون [٦٢].

دخلت المظاهرة وأصبحتُ في وسطها، سرت مع المتظاهرين، وأشاهد كيف يصعد أحد المتظاهرين بين فترة وأخرى على أكتاف زملائه ليلقي كلمة أو شعراً وأتذكر منها:

لا يسلمُ الشَرفُ الرفيع من الأذى
حتى يراقَ على جوانبه الدمُ

أو

عَلمٌ و دستورٌ و مجلسُ أمةٍ
كلٌ عن المعنى الصحيح محرَّفُ

وكنت أنادي مع الهاتفين بسقوط مشروع "بركلي" رغم إني لا أعرف من هو بركلي هذا، كما رفعنا شعار "تسقط معاهدة بورتسموث الجائرة". شارك في التظاهرة مجموعة من اليهود الوطنيين وقد استهواني كثيراً الشعار الذي كان يردده أحد العمال وهو "تعيش الطبقة العاملة العراقية". انغمرت في المظاهرة المتجهة إلى العشار سائراً مع الحشود وكنت أردد هذا الشعار "تعيش الطبقة العاملة العراقية". وسارت التظاهرة وحجمها يزداد باطراد بحكم التحاق الكثير من الناس بها إضافة إلى " المشاركين " من الرصيف من الرجال والنساء.

وصلت التظاهرة إلى مدخل شارع الكورنيش حيث تجمعت الحشود عند (تمثال أسد بابل) فصعد أحد الخطباء وألقى كلمة لا أتذكرها. صعد بعدها الشاعر الشعبي المعروف عبد الدايم فألقى قصيدة شعبية، لكن الشرطة لم تتدخل، ولم تضايق المتظاهرين ولم تعتقل أحداً، ثم تفرقت المظاهرة بسلام.

لقد تأثرت بهذا الجو بشكل غريب وبقيت مشدوداً إليه، لكنني علمت أن الشرطة شنت حملة على بيوت بعض الشيوعيين المعروفين ليلاً.

واصلت الدراسة وخضت الامتحان الوزاري لسنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ حيث نجحتُ إلى الصف الأول المتوسط مع زملائي. ومما أفخر به أنني أكملت الدراسة الابتدائية بدون رسوب من الصف الأول حتى الصف السادس.

كنت شغوفاً بقراءة الكتب التاريخية والقصص، كما كنت محباً للرياضة، فتعلمت الملاكمة إضافة الى كرة القدم ورياضة السباحة والميدان وكرة السلة والطائرة وغيرها. كنت أتدرب على الملاكمة في نادي الاتحاد الرياضي مع مجموعة من الملاكمين يوميا تقريبا، ومع الملاكم (محمد هامل) العامل في شركة نفط البصرة (وتومي توماس) الذي يعمل رئيسا للمحاسبين في شركة نفط البصرة، وكان بطل وزنه، لعدة ساعات يومياً تقريباً. ونجحت في مجال الملاكمة، حتى أصبحت من الملاكمين الجيدين وبطلاً للمنطقة الجنوبية وحصلت على كأس البطولة.

كان نادي (الاتحاد الرياضي) ،الذي يقع خلف دائرة الكهرباء (باورهاوس)، يضم خيرة رياضي البصرة،كما هو الحال مع الشهيد عبد الله رشيد [٦٣] في رفع الأثقال و جميل بطرس وعبد الواحد عزيز بطل العالم في وزنه، وعبد الرزاق طاهر وعبود علي وخالد الشلال في الجمباز والعديد من لاعبي كرة القدم المعروفين.

بدأ الشباب في البصرة يتطلعون إلى التجديد وتأسيس النوادي الرياضية التي تلبي طموحاتهم. كانوا يتطلعون إلى نواد تقودها هيئات إدارية شابة لا هيئات من كبار السن والرياضيين القدماء الذين تتضارب توجهاتهم مع طموحات الشبيبة. ولذلك توجهت مجموعة من الرياضيين إلى بغداد، ومنهم الرياضي المعروف (أصف العطار) وغيره وحصلوا على إجازة لفتح فرع من نادي (الأمير) الرياضي، الذي كان مركزه في بغداد ويقف السهروردي على رأسه. نجحوا بعدها في افتتاح فرع باسم نادي الأمير الرياضي- فرع البصرة، اتخذ مقرا له في نهاية الكورنيش قرب شط الخورة،على مقربة من القنصلية الأمريكية وعلى امتداد الشارع الذي كان يضم بيت متصرف البصرة. تم انتخاب هيئة إدارية جديدة لنادي الأمير بعد صراعات ومنافسات، وتأسس بعده نادي الجنوب الرياضي [٦٤]، وبدأ الشباب ينتمون إلى هذه النوادي ويبدعون في كل المجالات.

كانت البصرة مزار الكثير من الفرق الرياضية الإيرانية، مثل نادي تاج، التي تخوض المنافسات الرياضية مع النوادي والفرق البصرية. وهناك قصة طويلة عن الرياضة والنوادي الرياضية والرياضيين في البصرة ودورها.

لم أكن أعي الأمور السياسية بشكل واضح، إلا أنني كنت أتحسس الفروقات الطبقية في المجتمع، وأشعر بالهوة التي تفصل الفقر والجوع والحرمان والبطالة من جهة عن الثراء والتفسخ من جهة أخرى.

بدأت أقرأ الأدبيات الحزبية السرية وأنا في الصف الأول المتوسط. كانت الحركة الوطنية عموماً تمر في حالة جزر بداية الخمسينيات، و خاصة بعد الضربة التي وجهت إلى الحزب الشيوعي بإعدام قادته (فهد، حازم و صارم)، وبعد اعترافات (مالك سيف) وخيانته وسقوط صبري عبد الكريم (مسؤول البصرة) وغيرهم عام ١٩٤٩.

كنا نلتقي،أنا وعبد الصمد طاهر وعبد الرزاق، على ضفاف شط العرب في الكورنيش لمراجعة دروسنا استعدادا لخوض الامتحانات السنوية النهائية للصف الأول المتوسط. سمعنا صوت إطلاق رصاص قادما من سوق الهنود في الساعة العاشرة صباحاً من أحد أيام الجمعة في عام ١٩٥١ . طوينا دفاترنا، وركضنا دون وعي منا صوب مصدر الإطلاقات النارية. دخلنا نحن الثلاثة بداية سوق الهنود قرب جسر ساعة (سورين) فرأينا المتظاهرين يركضون وهم في حالة فوضى، يرفع أحدهم لافتة مكتوب عليها (نريد خبزاً لا رصاصا)، إضافة إلى لافتات مطوية بيد متظاهرين آخرين، ورجال الشرطة يطاردونهم لإلقاء القبض عليهم. كان أحدهم يهتف تسقط معاهدة (صدقي - بيفن) تعيش مصر حرة مستقلة.

دخل المتظاهرون في شارع فرعي يلاحقهم معاون في الشرطة يشهر مسدسا وخلفه مجموعة من رجال الشرطة مدججين بالبنادق والهروات. أصبحت فجأة في مقدمة المتظاهرين وبينهم في حين اختفى زميلاي عن ناظري فهتف معاون الشرطة ينادي علينا: تعالوا نتفاهم ماذا تريدون؟ لماذا تتظاهرون؟ كان يريد بهذا الأسلوب أن يلقي القبض على أي من المتظاهرين المتبقين بعد أن تسلل عدد كبير منهم إلى بعض البيوت القريبة فاستقبلتهم العوائل وأغلقت أبواب بيوتها حفاظا عليهم. تشهد البصرة أحيانا مثل هذه التظاهرات الخاطفة ويتهيب رجال الشرطة عادة من ملاحقة المتظاهرين في الأزقة المتفرعة والضيقة خوفاً من الهجمات المضادة. أما أنا، الذي أصبحت أحد المتظاهرين رغما عني، وانصبغت بصبغتهم، فذهبت إلى بيت عمتي القريب من موقع المظاهرة، وخرجت من بيت عمتي متوجها إلى بيتنا في محلة الساعي بعد أن هدأت الأمور وأنا أحمل بيدي كتبي ودفاتري الدراسية. ولم أكد أقطع أكثر من مائة متر وأدخل الزقاق المؤدي إلى الشارع العام، قرب بيت حاج (علي الطاهر) وهو جد عبد الوهاب ورزاق وعبد الخالق طاهر، حتى داهمتني مجموعة من الشرطة السرية

والرسمية و ألقوا القبض علي. قال أحد رجال الشرطة للمعاون إن هذا كان معهم سيدي.

قلت لهم إنني طالب ولدي امتحانات، وإني منشغل بالدراسة ولا علاقة لي بالسياسة،وهذه كتبي، وكنت أصيح بأعلى صوتي كي يسمع الجيران، وافتعلت ضجة كبيرة. خرجت مجموعة من النساء ومن ضمنهم (حسيبة) (التي أصبحت زوجة عبد الرزاق طاهر فيما بعد) مدّت رأسها من شنانشيل بيت حاج علي الطاهر وصاحت مسكوه مسكوه. وبعدها أخبروا بيت عمتي وأهلي بالقضية. اقتادني الشرطة معهم، ويبدو أن أحدهم قد رآني في المظاهرة،وفي الطريق صادف أن كان أحد طلاب صفنا ماراً فالقوا القبض عليه واسمه (كمال ابن أبي الكعك)، إذ كان أبوه يملك فرناً لصنع الكعك. ولا علاقة لكمال بالسياسة والتظاهرة وكل ما في القضية أنه كان قد أنهى عمله في الفرن وكان راجعاً إلى بيته. إلا أن الشرطة، ولستر فشلها، كانت تلقي القبض على كل من تصادفه. أخذ كمال يتناقش معهم كونه كان يعمل في فرن والده، دفعوه وحاولوا ضربه، ارتخت يد الشرطي الذي كان يمسك بيدي، فسحبت يدي منه بقوة وجريت بسرعة راكضاً باتجاه الشارع المؤدي إلى منطقة (الدوب)، التي كنت أعرف أزقتها وبيوتها. باغتهم هربي فانعقدت ألسنتهم في البداية لكنهم سرعان ما صاروا يزعقون خلفي وأنا أركض دون أن التفت إليهم تاركاً (كمال) معهم. اجتزتهم بمسافة ثم دخلت الشارع المؤدي إلى حديقة غازي، كان باب أحد البيوت مفتوحاً دخلته مسرعاً وقفلت الباب خلفي متسلقاً درجاته بسرعة. رأيت في وسط البيت امرأة متوسطة العمر بين يديها طفل يبكي وتحاول أن تنومه. ذهلت المرأة من وجودي وأنا أمامها وفي بيتها ولم تتفوه بكلمة من شدة المفاجأة، قلت لها إنني طالب والشرطة تطاردني ولم التفت إليها بل صعدت إلى سطح الدار مباشرة. اجتزت جدران سطوح بيتين وعندما صرت على سطح الدار الثالثة اكتشفت أنه كان نهاية سلسلة البيوت ويطل على الشارع مباشرة. مددت رأسي لأرى المارة في الشارع العام، ولكي أقدر إمكانية الإفلات، فوجدت أن القفز إلى أرض الشارع متعذر بسبب ارتفاع البيت. تلفت حولي فرأيت غرفة صغيرة تسمى (بيتونه)، وهي مساحة مخصصة لوضع الأفرشة في أيام الصيف وخزن الحاجات الزائدة والقديمة، دخلتها ووضعت الأفرشة فوقي واختفيت تحتها.

كان رجال الشرطة يلاحقونني، ويبدو أنهم عرفوا البيت الأول الذي دخلته أو أن المرأة (أم الطفل الباكي) هي التي أرشدتهم إلي، فداخلني خوف كبير حينما سمعت صوت أحدهم يقف فوق (البيتونه) ويقول لأقرانه من الشرطة إنه لا يرى شيئاً وإن السطح فارغ وإنه غير موجود. سمعت صوت أقدامه وهو يقفز من على (البيتونه) إلى السطح الثاني، بقيت متدثرا بالأفرشة والصناديق القديمة حتى تأكدت من ذهاب الشرطة فخرجت من هذا المخبأ حذراً والكتب مازالت بيدي. نظرت إلى السطوح المقابلة عبر الشارع، فرأيت بعض الفتيات، وهن على الأكثر أخوات الحاكم (حسين مرزه) ينظرن ويؤشرن لي عن رجوع الشرطة ويتهامسن بينهن. فكرت بكيفية النزول إلى الشارع،خاصة وأن الشرطة قد تنصب كميناً لي، قفزت إلى سطح الدار الثانية وأطللت برأسي فرأيت نساء في ساحة البيت يشرثرن ويلففن (الكبّة). لاحظت أن باب السطح - وكان خشبيا قديما- مقفلا فكسرته ونزلت مسرعاً أسابق إحدى النساء التي التقطت عباءتها على عجل في محاولة للخروج إلى الشارع لطلب النجدة. وصلنا سوية الى باب البيت الخارجي الرئيس فأمسكت بي من سترتي وهي تصيح حرامي حرامي، فقلت لها إنني طالب ولست لصا، ثم خلصت نفسي منها بدفعة قوية تقطعت لها أزرار سترتي الشتوية. وقعت هي داخل البيت وسقطت أنا في الشارع، فأسرعت مبتعدا عن ذلك الزقاق يلاحقني صوت المرأة المستغيثة. التقيت في زقاق قريب صديقاً وطالباً معنا اسمه فؤاد أخذت منه الشال الذي كان يلفه على رقبته ولففته على وجهي وذهبت عبر الأزقة نحو دارنا في محلة الساعي.

شاع الخبر في المحلة بسرعة، وبلغ دارنا قبل أن أبلغها أنا،فرأيت والدتي وعماتي وأخوتي يبكون وفي حالة يرثى لها، حينما وصلت ولم يهدأ روعهم إلا بعد أن أوصدوا الباب خلفي وقصصت عليهم ما جرى معي.

ذهبت في اليوم الثاني إلى المدرسة، وشاهدت في الطريق عدداً من خيّالة الشرطة منتشرين قرب مدرسة الأمريكان وساحة أم البروم وهم مدججون بالسلاح، لم أعبأ بهم وعبرت من أمامهم في طريقي إلى المدرسة.

كانت هذه المظاهرات إحدى التكتيكات التي كان يستعملها الحزب لاستنهاض الجماهير، وكان ينظم تظاهرة من هذا النوع بين فترة وأخرى في مراكز تجمع الناس،

سواء كان ذلك في سوق الهنود أو ساحة أم البروم. كانت والدتي في إحدى المرات راجعة من السوق، محملة باللحم والخضار والعلاّقه على رأسها، فصادف إن انطلقت إحدى التظاهرات الخاطفة في ساحة أم البروم. أصبحت والدتي دون خيار منها في خضم المتظاهرين الذين يحملون اللافتات ثم جرفها تيار رجال الشرطة الذين حضروا لكسر تلك التظاهرة. فكان أن طارت العلاّقه من على رأس والدتي وتبعثر اللحم والخضار تحت الأقدام، فعادت إلى البيت بعلاّقة فارغة وهي غاضبة تشتم الشرطة وعنفها وتنحى باللائمة على المتظاهرين. وكثيراً ما كان المتظاهرون يتركون جاكيتاتهم وأخذيتهم ونعلهم في الشارع، ومن يرجع إليها يعرض نفسه للاعتقال [٦٥].

كنت أنتظر خروج إحدى الطالبات بعباءتها السوداء من بيتها، وهي من عائلة محافظة، كي أفتعل صدفة لقائي بها في الطريق الى المدرسة. كنا نسير لا يكلم أحدنا الآخر، إما هي أمامي بمسافة أو أنا أمامها، نكتفي بتبادل النظرات حتى نصل إلى الشارع القريب من متصرفية البصرة (المحافظة) فتعبر هي الشارع لتذهب إلى مدرستها وأسير أنا نحو اليمين لأذهب إلى مدرستي. وتتكرر نفس العملية، بعد أن ينتهي الدوام الصباحي في الساعة الثانية عشر ظهراً، إذ كان الطلاب يُداومون في دفعتين، صباحا وبعد الظهر. كانت لدي رغبة كبيرة في التحدث إليها وهي كذلك، لكن ذلك لم يحدث.

كان فريقنا لكرة القدم يتدرب يومياً بعد انتهاء الدوام المسائي، في الساعة الرابعة عصراً، وبإشراف معلم الرياضة الأستاذ (حمودي البدر) أولا ومن ثم بإشراف الأستاذ (علي سباهي) الذي تلاه في العمل. أصبح فريقنا، فريق ثانوية العشار، من أقوى الفرق الرياضية بعد فريق شركة نفط البصرة وفريق الميناء لكرة القدم، وقد فزنا مرة على فريق الميناء، ولعبنا مع فريق شركة نفط البصرة B.P.C على كأس المحافظة.

كثيراً ما كنا نجلس أنا والأخ العزيز ناصر الكتيباني أو صبيح البدر في بيته لمراجعة دروسنا.

ونجحت من الصف الثاني المتوسط إلى الصف الثالث نهاية عام ١٩٥٢ فانتقلنا من محلة الساعي إلى منطقة (الأرمن) في الميناء في حي يسمى (كمب الفلج) أكثر سكنته من الأرمن والآشوريين وعمال الموانئ. وهكذا تركت الدوام في مدرسة ثانوية

العشار وأخذت أداوم في مدرسة الأمريكان المسائية التي تحولت من مدرسة تابعة لإدارة الأمريكان إلى مدرسة تابعة لمديرية المعارف بالبصرة، وكان يدرسنا فيها الأستاذ (سامي الهلالي). ثم انتقلت إلى ثانوية المعقل المسائية بعد أن تعينت في شركة نفط البصرة -(B.P.C) قسم المخازن- ليبدأ فصل جديد من فصول حياتي. وهو قسم يحوي على الأدوات الاحتياطية لمكائن الحفر الخاصة باستخراج النفط، ويطل المخزن التابع له على ورشة التصليح التي يعمل فيها الكثير من العمال الفنيين على مكائن (التورنات). وهناك الكثير من الأقسام في الشركة مثل قسم المحاسبة، وقسم الذاتية، والتعيينات، والنقليات، وقسم المخازن وهي أقسام يدير الإنكليز معظمها. وكان أخي شاكر والكثير من العراقيين يعملون في قسم المحاسبة، وخاصة الرياضيون مثل اللاعب المشهور (حميد مجيد) وغيره.

كان ابن عمتي الشيوعي المعروف (علي الشعبان)، وهو الذي رشحني لعضوية الحزب سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١، يزودني بالمنشورات السرية مثل جريدة القاعدة وجريدة (صوت الكادح) التي تصدرها لجنة المنطقة الجنوبية في الحزب، إضافة إلى النشريات التي تصلنا من بغداد (المركز)، و كانت تصدر بالرونيو، فأتولى توزيعها. كما كنت أقرأ بعض الكتب والأدبيات المتوفرة آنذاك مثل كراس" البطالة "، و" مستلزمات كفاحنا "، و "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية " وهي من مؤلفات الرفيق فهد، وكراس "الجبهة الوطنية" لحسين الشبيبي، و " تاريخ الحزب البولشفي" و "المادية الديالكتيكية" للرفيق ستالين.لم أستوعبها كلها رغم قراءتي لها، ولم يكن المستوى السياسي والنظري للرفاق يؤهلهم لفهم وشرح بعض الكتب النظرية لنا.

مرض أخي شاكر وسافر للعلاج إلى بيروت، ونال المرض من أبي حصته فأصبح في وضع لا يؤهله للعمل. كان العمل في شركة نفط البصرة مضنياً لأنه يفرض عليَّ أن أنهض في الساعة الخامسة صباحاً، في الصيف، التحق بسارة الشركة التي تنتظرنا على الشارع العام لنقل جميع الموظفين، ولأبدأ العمل في الساعة السادسة صباحاً. نعود إلى العمل بين الساعة التاسعة والنصف والساعة الثانية عشرة بعد فترة فطور أمدها نصف ساعة تمتد بين التاسعة والتاسعة والنصف. تنقلنا السيارة مجددا إلى بيوتنا خلال فترة استراحة الغداء، الممتدة بين الساعة الثانية عشرة والواحدة من بعد

الظهر، لنواصل العمل حتى الرابعة من بعد الظهر. وكل هذا ونحن مجرد مستخدمين. أداوم بعدها في المدرسة المسائية من الساعة السادسة حتى الثامنة والنصف تليها فترة لابد منها لمراجعة الدروس ومن ثم النوم مبكراً للنهوض مبكراً والذهاب إلى العمل. هكذا كانت تدور دوامة العمل، وبهذه الطريقة ربطت الشركة الاستعمارية لنفط البصرة عمالها وموظفيها بنظام حديدي للعمل. كما كان هناك تمييز صارخ بين العمال والموظفين في الشركة من مظاهره انه كان للعمال سيارات خاصة ومطعم خاص بهم غير مطعم الموظفين.

كان عملي في المخزن المسمى (Moving store) يتيح لي فرصة إقامة الصلات بالعمال والتحدث إليهم وتبادل بعض الزيارات معهم. اتصلت بأحد العمال في إحدى المرات لإيصال الأدبيات إليه وإلى تنظيمه، فدعاني إلى بيته، وهو عبارة عن كوخ من الطين. استقبلني بود، وبدلاً من أن أشرح له أنا ما أعرفه عن الاستعمار ونهب الشركات الاستعمارية لثروات بلادنا و.. إلخ استلم هو زمام المبادرة وبدأ يسرد لي عن مشاركته في إضراب عمال الشركة عام ١٩٥١، وكيف تم اعتقاله وتعذيبه بعد أن انتخبه العمال ممثلاً ومفاوضاً عنهم مع إدارة الشركة. تحدث ساعة كاملة معي، أنا الشاب المندفع ذي الخبرة القليلة بالعمل الحزبي والنقابي، كانت نظراته خلالها حادة وقاسية، فلم أستطع النظر إليه وأخذ العرق يتصبب مني، متهيبا أن تلتقي عيناي بعينيه بعد أن فرض شخصيته القوية علي. وكنت أنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي هذا اللقاء الذي أثر بي كثيراً وأظهر لي مدى صعوبة العمل بين العمال و مقدار الخبرة والدراية والتجربة التي يحتاجها المرء للتعامل معهم.

كنت أقوم بتوزيع النشريات الحزبية في مناطق سكن عمال الميناء في المعقل والسكك الحديدية وعمال النفط و في منطقة تسمى (خمسة ميل)، وهي منطقة ساكني الصرائف من العمال الكادحين. وأستخدم في نشاطي هذا دراجة صديق يعمل معي في الشركة اسمه (واركيس)، وهو إنسان لطيف المعشر ومعادي لطائفة الطاشناق الأرمنية الرجعية، يسكن بالقرب منا في حي (كمب الفلح) ولديه دراجة هوائية جديدة. كنت، عندما تصل كمية من النشريات للتوزيع، أستعير منه دراجته الهوائية مساءً وأضع النشريات في علاّقة وأذهب بها إلى منطقة الصرائف في خمسة ميل حيث يسكن عمال

الميناء وعمال البناء والسكك وغيرهم. كانت " أكواخ " لا يصلها الكهرباء ولا ماء الإسالة، ينتشر بينها وفي أجوائها دخان المواقد، وينتشر معه البؤس في كل ركن. كان الفلاحون المعدمون، ممن تركوا أراضيهم ومصدر معيشتهم وهاجروا للعمل في المدينة بأبخس الأجور، يشكلون غالبية سكان الصرائف.يعودون من العمل مع حلول المساء ليلقوا بأجسادهم المرهقة على أسرتهم الخشنة وليستيقظوا صباحا للعمل وقد ملأت نشريات الحزب الشيوعي، التي وزعتها في الليل، أزقتهم.

كانت ليلة مظلمة موحشة استتر فيها القمر وطرزت السماء نجوم لامعة جذابة حينما أخذت الدراجة الهوائية من (واركيس) وذهبت لتوزيع البيان الجديد للحزب. سمعت أصواتاً خلفي تناديني قف..قف بعد أن انتهيت من عملية التوزيع، كان البعض يتراكض في تلك العتمة الليلية ومن عدة اتجاهات لإلقاء القبض على هذا الشخص الذي يوزع نشريات الحزب الشيوعي ويقض مضاجع الحكومة.

شعرت بالخطر في هذا الظلام، فحملت الدراجة على كتفي وركضت، لأن قيادة الدراجة متعذرة في هذا الليل والطريق المتعثر، سقطت في بركة ماء ونهضت، وواصلت العدْو حتى عبرت إلى الشارع العام وانطلقت بالدراجة بأقصى سرعة، أنا لا أزال أسمع أصوات المنادين قف... قف. كانت بيانات ونشريات الحزب تقض مضاجع الشرطة السرية وتنير، في نفس الوقت، الطريق أمام العمال من سكنة المنطقة، لكنني لم أكن على علم بمدى تأثيرها فيهم.

كنت في أيام العطلة أذهب إلى محطات تصليح القطارات في السكك الحديدية، وأصعد القطارات وأتحدث مع العمال عن أحوالهم وظروفهم، و أدس في جيوبهم إما الجريدة أو بيانات الحزب إذا ما رأيت منهم تجاوبا. كنت أوزع ما لدي من نشريات في مواقع عمل العمال، أدسها بين حاجياتهم وأضعها تحت القطارات الواقفة للتصليح، وتغمرني الفرحة عندما أرى العمال يلتقطونها ويدسونها في جيوبهم أو تحت ملابسهم الزرقاء.

لم تكن اللجنة المحلية للحزب في البصرة آنذاك (سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) واسعة في عدد أعضائها وكادرها، إذ كان قسم من كادرها في السجون ومنهم من ترك العمل السياسي والحزب، ومنهم من انهار أثناء التعذيب على أثر اعترافات صبري

(مالك سيف) وغيرهم. كما كان لإعدام قادة الحزب أثر كبير في نفوس الشيوعيين ومعنوياتهم، وبإعدامهم وجهت السلطة الملكية الرجعية ضربة موجعة للحزب.

ولهذا فقد كان العمل الحزبي يعتمد على البطولات الفردية والشخصية للرفاق الطليقين، بحكم أن المنظمات الحزبية مشتتة، واقتصار عضويتها على بعض الرفاق. كما كان التنظيم في محلية البصرة آنذاك يعتمد العمل على الصلات الفردية بالأساس والتركيز على النشاط بين العمال، وخاصة عمال النفط. كان هناك مرشحان في الميناء وعدد قليل من الرفيقات والرفاق ولم يكن عدد الطلبة والمعلمين المنظمين يتجاوز أصابع اليد. وهذا ما جعل المسؤول الأول الرفيق (حميد بخش)، سكرتير محلية البصرة، يلتقي بنا فرادى لأنه لم تكن هناك تنظيمات، لكن سمعة الحزب وجماهيريته واسعة جداً رغم الإرهاب المسلط على رقاب الناس ورغم سعة الدعاية الرجعية، التي تتهم الشيوعيين بالكفر والإلحاد وانعدام القيم.. إلخ، ورغم محاولات القضاء على الحزب الشيوعي. اعتمد الحزب حينها، في مسعاه لتجاوز ضعفه التنظيمي المؤقت، على تاريخه ونضاله في الأربعينات، وعلى النضالات الملهمة للجماهير مثل الإضرابات العمالية لعمال السكك وإضراب عمال نفط كركوك (كاورباغي)، وعمال الميناء، ونضال الطلبة والفلاحين، وعلى السمعة الطيبة التي حصلها الشيوعيون عموما، لأن أكثر الأعمال الجماهيرية والنضالات الوطنية في سبيل الاستقلال والسيادة الوطنية اقترنت باسم الشيوعيين العراقيين والقوى الوطنية.

لست بصدد تقييم تلك المرحلة، ولكن الشيء بالشيء يذكر، وكان كل عضو في الحزب شعلة من البطولة والشجاعة والتحدي والضبط والالتزام. كان أحد الرفاق مثلاً يدخل إلى السفن في الميناء مساء، وهو ليس من عمال المرفأ ولا يعمل هناك ليلاً، ليقوم بتوزيع النشريات، في المؤسسة، التي تدعو العمال للإضراب في سبيل تحسين معيشتهم ورفع الأجور. كانت الجماهير العمالية تئن تحت وطأة الاستغلال البشع والاضطهاد ومحرومة من أبسط الحقوق الإنسانية كالتنظيم النقابي وقلة الأجور وغيرها لكنها تعلمت كيفية الحصول على حقوقها بنضالها. كانت الإدارات الإنكليزية ومأجورها يتحكمون برقاب العمال ومصيرهم، وكان أكثر عمال الميناء معاناة هم الحمالون (المصاليخ) وعمال الحفارات في الفاو الذين أعلنوا الإضراب مرات عديدة

وعطلوا بواخر الحفر عن العمل في سبيل تحسين حياتهم المعيشية. ورغم الجزر الذي انتاب الحركة العمالية خاصة والحركة الوطنية عامة إلا أن العمال أعلنوا العديد من الإضرابات[٦٦] التي كان لها أكبر الأثر في نهوض الحركة الوطنية مجدداً، وتحمل العمال الكثير من المعاناة من فصل وتشريد وبطالة وسجن إلا إنهم بقوا القاعدة الصلبة للحركة الوطنية عموماً سواء في البصرة أو غيرها. وواصل العمال والفلاحون نضالاتهم غير هيابين رغم الانتكاسة كما هو الحال في انتفاضة تشرين الثاني المجيدة، التي نزل الجيش خلالها لحماية النظام، أو في تمرد فلاحي الإزيرج في العمارة، وفلاحي قلعه ده زي وجوانرو في السليمانية. كما كان لتأسيس المكتب الدائم لنقابات العمال ١٩٥١ ،بدون ترخيص من الحكومة واستئجار مكتب له في شارع النعمان في بغداد دور كبير في جذب العمال، كعمال النسيج والسيكاير والمطابع والبناء والميكانيك إلى المشاركة في الاضرابات والمطالبة بحقوقهم في الأجور والنقابات.

المشاركة في أول إضراب عمالي

ونحن عائدون في سيارات الشركة بعد انتهاء الدوام لبيوتنا، قال أحد الموظفين إن عمال الميناء قد أعلنوا الإضراب اليوم صباحاً وسكت. سمعت الخبر بفرحة عارمة وبدون شعور مني وفي وسط السيارة شتمت الإنكليز وعملاءهم والحكومة، فتوجهت الرؤوس كلها نحوي وبعيون مفتوحة متسعة كانت نظرات تعجب واستغراب، فلم أعبأ بهم وهم ينظرون نحوي، في المساء ذهبت إلى المدرسة.

في اليوم الثاني ذهبت للعمل في الشركة، وعند سماعي نبأ استمرار الإضراب والشرطة تطوق العمال تركت العمل في الشركة دون أن التفت لأي شيء رغم احتمالات الفصل أو توجيه الإنذار[٦٧] لي من قبل إدارة الشركة. لم يكلفني أحد من الحزب بالمشاركة، بل شاركت ذاتياً؛ توجهت إلى مديرية الميناء حيث كان مئات العمال متجمعين هناك، وهم يهتفون ويرددون الشعارات والهوسات الشعبية مثل (الخاين شعبه نكص أيده). ثم صعد أحد العمال واسمه (محمد علي هيلك) وألقى كلمة شرح فيها مطالب العمال.

رأيت بعض الرفاق مثل (حميد بخش وعلي الشعبان ومحسن ملا علي)،

وثلاثتهم ليسوا عمالاً في الميناء، يديرون الإضراب ويشكلون لجان لتنظيمه، فتشكلت لجنة لجمع التواقيع تأييداً للإضراب ولجنة لجمع التبرعات ولجنة للحراسة ولجنة للتفاوض. حضر وزير الشؤون الاجتماعية في هذا الوقت، واعتقد إنه كان المحامي (حسن عبد الرحمن)، وطلب من العمال إرسال لجنة للتفاوض معه حول مطاليبهم[٦٨].

سبق أن ذكرت أنه لم يكن لدى الحزب أنذاك سوى مرشحين ولم تكن هناك كوادر ذات خبرة كما كانت عليه في ١٩٤٥، ولهذا فقد تكونت لجنة المفاوضات من عدة عمال من جملتهم الرفيق (علي الشعبان)، الذي كان عاملاً في مديرية الصحة للأمراض المستوطنة في البصرة، باعتباره عامل ميناء. صعد علي الشعبان مع بقية العمال للتفاوض وعندما التقوا مع الوزير طرح هو مطالب العمال شارحاً شروطهم الزهيدة ومؤكدا كثيراً على أهمية النقابة. لم يتوصلوا إلى نتيجة بصدد تشكيل النقابة، لكن الوزير طالب بعناوين العمال وعملهم وأسمائهم كي يرسل عليهم للتفاوض مرة أخرى. شعر علي بالخطورة و خرج من الاجتماع بعذر ولم يعد مرة ثانية، وجرت محاولة لإلقاء القبض عليه ولكنه هرب. كان مئات العمال ينتظرون نتيجة المفاوضات لكن إدارة الميناء لجأت إلى المماطلة والتسويف بهدف الالتفاف على مطالب العمال و كسر الإضراب عن طريق عملائها وإرجاع العمال للعمل دون الحصول على مطالبهم.وهكذا سخرت مديرية الميناء، التي يشرف عليها ويديرها عملياً الإنكليز من خلال موظفين عراقيين مخلصين لها، الشرطة كالعادة لكسر الإضراب وضرب العمال، وتفتيت وحدتهم. ومعروف أن لإدارة الميناء والإنكليز باعا طويلا بهذا العمل وخبرة اكتسبوها على مر السنين، فبدأوا ببث الدعايات ومحاولات شق الصفوف وإضفاء طابع ديني على الإضراب، وواجههم عمال الميناء بخبرتهم وتجاربهم. وكان لوجودنا أثر كبير في شد أزر العمال وتقوية معنوياتهم وتفويت الفرصة على (حزب الأمة الاشتراكي)[٦٩] الذي حاول قسم من منتسبيه السيطرة على العمال.

سمع العمال بأن مرتزقة مديرية الميناء، وكانوا من الهنود، توجهوا للقاعدة البحرية في السفن لتشغيل الكهرباء وكسر الإضراب. توجه قسم كبير من العمال، وأنا بينهم، وتسللنا إلى البساتين المؤدية إلى السفن بهدف منع دخول أي شخص لكسر الإضراب، إلا أن الشرطة سبقتنا ونصبت رشاشاتها فوق السيارات وبدأت بإطلاق النار في الهواء

وبغزارة وفوق رؤوس العمال لإرهابنا. كان البستان مليئاً بجذوع النخيل المقطوعة والملقاة على الأرض فحاولت قطع طريق السيارات بالنخيل بهدف منعها من الوصول إلى المنطقة إلا أن غزارة الرصاص أجبرتنا على التراجع والاحتماء بنخيل البستان. قد سمع العمال أن الشرطة قتلت ثلاثة من العمال هم (عاشور، وموسى، وعبد الرحمن) وجرح العديد منهم قرب المديرية وأن الذي قاد المعركة هو المعاون (أبو سامي) فثارت ثائرة العمال وأخذوا يتهددون القتلة ويطالبون بمحاكمتهم.

مظاهرة التشييع

استشاط العمال غضباً بعد أن بلغهم نبأ مقتل العمال الثلاثة وجرح رفاقهم الآخرين، إذ تبين لهم مدى الحقد الذي تكنه الحكومة لهم ومبلغ رخص دمائهم عند السلطات التي تمثلها.

لعبت اللجنة المحلية للحزب دوراً كبيراً في تحشيد جماهير البصرة الغاضبة والعمال ودعت إلى تظاهرة لتشييع القتلى من العمال. احتشد قسم من الجماهير والعمال عند جامع المظفر في العشار والقسم الآخر في منطقة الجبيلة رافعين الشعارات التي تندد بالقتلة وتطالب بمحاسبة المسؤولين. التقت المظاهرتان في منتصف الطريق المؤدي الى المعقل فشكلتا كتلة جماهيرية واحدة سارت وهي تحمل الجنائز والأعلام الحمراء باتجاه محطة قطار المعقل مندده بالقتلة ومهددة بالقصاص منهم ومطالبة بمحاكمتهم وتحقيق مطاليب العمال. شارك في التظاهرة ما يزيد عن ٣٠٠ شخص منهم النساء من عوائل العمال ومعلمين وموظفين انضموا بدورهم إلى تجمع غفير في محطة قطار البصرة شارك فيه المسافرون أيضاً. تفرقت التظاهرة وطويت الأعلام الحمراء ورجعنا إلى بيوتنا بعد تحرك القطار الذي حمل الجنائز لدفنها في النجف الأشرف. كان لهذا الإضراب صدى واسع في أكثرية المدن العراقية و استنكرت الأحزاب الوطنية هذه الجريمة النكراء التي بلغ صداها إلى العاصمة بغداد. كان لهذا الإضراب بالغ الأثر في نفسي، وتعلمت درساً هو أن الطبقة العاملة ذات الإرادة والتصميم قادرة على نيل حقوقها بنضالها. كما كان له أثر في الإضرابات اللاحقة وخاصة إضراب عمال النفط لشركة B.P.C في البصرة لاحقاً عام ١٩٥٤.

لقد تعلم العمال أن وحدتهم ونضالهم المشترك هو مفتاح انتصاراتهم، وأصبح من التقاليد أن يتضامن فرع من الفروع كالميناء أو النفط مع إضرابات عمال القطاعات الأخرى سواء بإعلان الإضراب أو جمع وتقديم المذكرات والتواقيع لمآزرتهم، و سواء جرى ذلك في بغداد والسليمانية أو البصرة أو النجف. وهكذا توحدت الطبقة العاملة في مجرى الصراع الطبقي، وأخذ العمال يشعرون بأهمية تضامنهم.

رجعت إلى العمل في الشركة بعد انتهاء الإضراب الذي دام ثلاثة أيام. استدعاني مدير القسم الذي أعمل فيه وكان اسمه مستر (نوبل)، وكان يجيد اللغة العربية، بعد الدوام بساعتين وأخذ يحاكمني على خروجي بدون عذر مشروع وترك العمل.. إلخ. استلمت بعد أسبوع إنذاراً، وهذا يعني إيقاف العلاوة السنوية لمدة سنة، ثم استلمت الإنذار الثاني بعدة بضعة أسابيع ولا أتذكر لأي سبب كان. قابلت مدير قسم الذاتية وكان اسمه مستر (بري)، كما أتذكر فشتمته، وخرجت منه بعصبية بعد أن ضربت الباب الزجاجي خلفي مما أثار الموظفين في القسم، هذا مع علمي أن تلقي الإنذار الثالث معناه الفصل من العمل. لم أفكر بعائلتي ومدى احتياجها لي وأهمية وجودي في الشركة بين العمال، والمنظور للمستقبل. كنت أوزع ما يتوفر عندي من أدبيات في المدرسة المسائية وكان خالد حبيب[٧٠]، المتدرب في الميناء والذي أصبح طياراً في القوة الجوية العراقية فيما بعد، من ضمن الطلاب الذين كنت أزودهم بالنشريات.

تفجرت الانتفاضة في تشرين الثاني ١٩٥٢ في بغداد، وكانت انتفاضة عنيفة تزامنت بعد إضراب عمال الميناء الذي تحدثت عنه وكان في ١٩٥٢/٨/٢، فداهمت الشرطة بيتنا الواقع في كمب الفلح في المعقل صباحاً وكنت نائماً. أيقظني والدي من النوم وقال إن الشرطة يريدون إلقاء القبض عليك، وتفتيش البيت وأمرني بالخروج سريعاً من فوق السطح. كان بيتنا ملاصقا لبيت عائلة آثورية، وبيننا وبينهم باب سطح مشترك، فتحت الباب وصعدت إلى سطح الدار وهم نيام. لم يكن السطح مرتفعا فوثبت إلى الشارع بملابس النوم، حافي القدمين، وركضت بالاتجاه المعاكس مبتعدا عن موقع البيت. دخلت أحد المراحيض التي تنتشر قرب نهر صغير يقع أمام بيتنا وبقيت مختفياً فيه عن أعين رجال الشرطة. كانت الساعة الخامسة صباحاً، والرطوبة والنتانة ورائحة المراحيض الكريهة تخدش الأنف لكنني بقيت مع ذلك مختفيا لمدة ساعة تقريباً.

دخل الشرطة وفتشوا البيت دون جدوى فغادروا البيت بعد أن أبلغوا والدي بضرورة حضوري إلى مركز شرطة الميناء، وتكررت عمليات المداهمة.

كنت في صراع دائم مع العائلة التي كانت تخشى علي من الاعتقال والتعذيب والسجن والفصل من العمل، ولهذا كنت غالبا ما أجلب الأدبيات والنشريات الحزبية إلى البيت بسرية تامة وأوزعها بأقصى سرعة خشيت المداهمة.

كانت هناك فتاة أرمنية تود إقامة علاقة معي وتتحين الفرص للقائي. رجعت في إحدى المرات إلى البيت وكنت حاملاً الأدبيات فدخلت غرفتي كي أخبئها وإذا بهذه الفتاة تدخل الغرفة وتطوقني بذراعيها وتحاول تقبيلي وكانت تفوح منها رائحة عطر جميل. تخلصت منها وطردتها من البيت، رغم رغبتي بمصادقتها، وتصرفت معها بخشونة وأنا في هذه السن المبكرة. إن هيبة الحزب والخوف من العقوبات والسمعة السيئة، كانت مانعاً كبيراً آنذاك أمام المناضل تحظر عليه الانغمار في الممنوعات. إذ كان الحزب يتعامل مع شرب الخمر و إقامة العلاقات الغرامية مع النساء بوصفها من الشوائب والنواقص وتوصي إرشادات الحزب :(أيها الرفيق صن لقب الرفيق من كل شائبة) كما كان الوضعان الاجتماعي والعائلي لا يسمحان بذلك. ويقال من باب النكتة إن أحد المسؤولين جاء من بغداد مشرفاً على لجنة محلية البصرة وكان يوم جمعة، حضر الجميع إلا واحد وهو عامل في سفن الدوكيارد، فقال أحدهم أنا أعرف مكانه، ذهب بحثا عنه ووجده في الحانة وأمامه قدح عرق فقال للعامل إن مشرفاً جاء من بغداد وطلبك للحضور. فلما حضر الاجتماع قال له المشرف أين كنت، فلما تكلم الرفيق فاحت من فمه رائحة العرق، فقال له المشرف إنك سكران وأمطره توبيخاً، فقال الرفيق إنك جئت مشرفاً علي ولعن ذلك اليوم الذي شرب به.

اضطررت لترك عملي في الشركة والمدرسة عندما كثرت المداهمات وتكررت. كنت أزور نادي الأمير الرياضي بين فترة واخرى وأسلم النشريات لبعض الرفاق والأصدقاء وأتدرب على الملاكمة. كان هناك شخص دخيل على النادي من بيت (الخضيري) دخلت معه في مشاجرة، فأخبر الشرطة عن نشاطي في النادي فأسرعت إلى دراجتي وهربت من النادي متخذا طريق البساتين قبل وصول رجال الشرطة. رشحت أيضا للمشاركة في الدورة العربية للملاكمة بعد أن حصلت على بطولة المنطقة الجنوبية، إلا أن اختفائي وسوء التغذية والمطاردة منعتني من مواصلة الملاكمة.

لم اكن أعرف صفتي الحزبية ولم أسأل عنها لحد تلك الفترة. كلفت في إحدى المرات أن أحمل البريد إلى بغداد، زودت بالمعلومات المطلوبة وبالعنوان، وشارة الاتصال، وهذه أول مرة أسافر بها إلى العاصمة حاملاً البريد. كان البريد عبارة عن عدة رسائل أخفيتها بإحكام، وكان الطريق طويلاً، عندما وصلت إلى بغداد ذهبت إلى فندق في الكرخ في علاوي الحلة، وكان فندقا عادياً يعج بالمسافرين. في اليوم الثاني وحسب الموعد والإشارة جاء رفيق [٧١] على دراجة هوائية ومعه بطانية فيها وسادة محشية بالجريدة والبيانات كما أعلم. وكانت معه امرأة عجوز، كما أعتقد أم الرفيق (هادي متروك)، عدت الى البصرة بسلام مع العجوز وسلمت الإمرأة والبريد الى المسؤول.

كان الرفيق حميد بخش سكرتير محلية البصرة آنذاك، الداينمو المحرك للعمل، فهو ذو جهادية عالية وتفانٍ وإخلاص منقطعي النظير كما كان يمتلك شجاعة نادرة. كنت تراه في أي تجمع عمالي، و يعتمد على الصلات الفردية في عمله، اعتقل وسجن وجرى تعذيبه كما علمت، إلا أنه اجتاز كل الصعوبات بأمانة.

حل محله ولفترة قليلة مسؤول جديد هو (عبد الله حاتم) [٧٢]، أخو عامل السيكاير (حيدر حاتم)، لكن التنظيم سحبه بسرعة مخليا المسؤولية لرفيق جديد عرفته فيما بعد باسم (خضير عباس) أبو ماجد من أهالي العمارة، الذي يذكره الرفيق صالح دكله بمذكراته، وكان سجيناً وخرج من السجن بعد أن أنهى مدة محكوميته.

أصبحت مسؤولاً عن اللجنة العمالية في النفط ثم عن لجنة مكونة من أربعة رفاق مسؤولة عن العمل الديمقراطي، وكانت الرفيقة أم مازن أخت الرفيق (كريم عباس) الذي كان سجيناً من أهالي الخندق مسؤولة عن العمل النسائي. وكان لهما أخ أعمى شيوعي، كثيراً ما كان يعتقل ويطلق سراحه لأنه ضرير. كنت مختفياً في هذه الفترة وحركتي محدودة ومررنا بأيام صعبة كان الكادر الحزبي فيها قليل الدراية و ضعيف الإمكانية، ولكنت كنت أكثر فائدة للحزب لو انتقلت الى مدينة أخرى أو أني اختفيت في مكان أكثر حصانةً.

كنت على موعد مع الرياضي المعروف (عبد الرضا الدوغجي) في الساعة العاشرة صباحاً، في أحد البساتين الممتدة بين البصرة والعشار قرب مقبرة محلة الخضر. أبلغني

الرفيق بموت الرفيق ستالين، كان ذلك عام ١٩٥٣، فاسودت الدنيا أمامي وسقطت الدراجة من يدي واعتبرتها نكبة، لأن ستالين بالنسبة للشيوعيين كان آنذاك خليفة لينين ورمزاً كبيراً من رموز الحركة الشيوعية. كان العمل الحزبي يتسم بالجهادية العالية، وباليسارية المتطرفة، إلا أن الوضع يفترض التراجع وتربية وجمع الكادر والحفاظ عليه وعدم زجه في معارك ومظاهرات غير متكافئة. لكن الخبرة والدراية التنظيمية كما أسلفت كانت بسيطة وليست بالمستوى المطلوب فلم نلتفت كثيرا إلى هذه الحقائق. كنت أذهب ليلاً للاختفاء في بيت عماتي أو البيت الذي يسكنه ابن عمتي (علي الشعبان) أو بيوت أقاربي.

كانت التهيئة تجري للخروج بتظاهرة خاطفة بمناسبة أول أيار (١٩٥٣)، عيد العمال العالمي، في وقت كان فيه بيت علي الشعبان يخضع للمراقبة. دخلت إلى بيت (علي) مع دراجتي، لم يكن في البيت، لكن البيت كان مشحونا بالشعارات والبيانات المهيأة للمناسبة. سمعت بعد فترة قصيرة صوت طرقات على الباب ثم داهم الشرطة البيت بعد أن طوقوه من كل مكان، وصعدوا إلى سطحه بواسطة سلالم معدة سلفاً. وحينما هرعت إلى السطح للهروب منه إلى بيت أقاربنا المجاور كانت الشرطة قد احتلت السطح، نزلت لأكتشف أن رجال الشرطة قد احتلوا البيت أيضا. أمسكوا بي، بين احتجاج وصيحات عماتي وأخذوني معهم، ونصبوا كميناً في البيت بانتظار (علي الشعبان) وقد أخذوا معهم الشعارات التي تمجد أول أيار والبيانات. اعتقلوا ابن عمتي أيضا بعد عودته إلى البيت، أودعونا مركز شرطة العشار[٧٣] الواقع قرب سوق الخضارة. كان المركز مملوءاً بالموقوفين الهنود والباكستانيين والبلوش[٧٤] ومملوءاً بأنواع القاذورات وروائح البول والرطوبة والبرد فقضينا ليلتنا فيه معرضين لغزو القمل بأنواعه الأسود والأبيض والبراغيث. نقلت في اليوم الثالث من توقيفنا إلى مركز شرطة الميناء، باعتباري من سكنة الميناء، وحاولت الهروب أثناء نقلي ولكن الفرصة لم تسنح إذ كان معي أربعة شرطة مدججون بالسلاح، ومررت على شركة نفط البصرة في الطريق ثم مديرية الميناء حيث كان العمال المضربون. كانت والدتي تزورني وكذلك والدي ويجلبان لي الطعام والألم يعصر فؤاديهما.

وبعد عدة أيام نقلت أنا وعلي الشعبان إلى محطة قطار البصرة حيث سفرنا إلى

بغداد، وبعد وصولنا أودعنا في موقف مركز شرطة السراي، ونقلنا بعدها إلى معتقل سجن رقم واحد في معسكر الرشيد.

أول محاكمة ١٩٥٣

كان المعتقل في معسكر الرشيد إثر انتفاضة تشرين ١٩٥٢ مملوءاً بالموقوفين والمعتقلين، بينهم المرحوم الأستاذ كامل الجادرجي زعيم الحزب الوطني الديموقراطي الذي أطلق سراحه قبل وصولنا للمعتقل، وبقي ابنه نصير، كما أعتقد، معتقلاً في الجناح الآخر. و كان الرفاق بهاء الدين نوري (باسم) سكرتير الحزب وصادق الفلاحي وكامل السامرائي وباقر جعفر، الذي أصبح عميلاً للشرطة فيما بعد، ضمن الموقوفين أيضا. كانت كل غرف التوقيف تكتظ بالموقوفين من العرب والكرد ومن مختلف مدن العراق، فشاركنا في قاعتنا أخوان من السليمانية هما (فرج محمود وعلي محمود) إضافة الى فوزي داود ابن أخ الرفيق فهد وأناس لا أتذكرهم. كانت الوجبات تلو الوجبات تذهب إلى المحكمة ولا ترجع إلا ليحل محلها موقوفون آخرون [٧٥]. كان عبد الزهرة العيفاري من ضمن الموقوفين وكان جندياً آنذاك.

لم يطل مكوثنا كثيراً في معتقل رقم واحد، حتى قدمنا إلى المحاكمة. كانت محاكمة صورية، إذ لا محامٍ يدافع عنا ولم نستطع الكلام أو الدفاع عن أنفسنا بأنفسنا، كما كانت الأحكام مقرة سلفاً من قبل التحقيقات الجنائية. وهكذا لم تدم المحاكمة الصورية أكثر من خمس دقائق أصدر بعدها الحاكم العسكري أحكامه الجائرة ضدنا، صدر الحكم علي أنا لمدة ثلاث سنوات مع سنتين تحت مراقبة الشرطة، وعلى (علي الشعبان) خمس سنوات مع ثلاث سنوات مراقبة. أخرجنا من القفص لتدخل مكاننا وجبة أخرى، وهكذا كانت تصدر الأحكام الجائرة ضد الشيوعيين والوطنيين.

وبعد أن تنقلنا بين عدة مواقف سفرنا إلى سجن الكوت في مدينة الكوت، كانت فكرة الهروب تراودني، ولكننا كنا، علي وأنا مربوطين بالسلاسل سوية والحراسة علينا مكثفة.

الفصل السادس

في سجن الكوت

تلقفتنا الشرطة (السجانة) في سجن الكوت مساءً. فتشوا حاجياتنا البسيطة من ملابس داخلية وأدوات حلاقة، وقمل وبراغيث حملناها معنا عند مرورنا في مواقف الشرطة في بغداد، وكانت ملأى بضحايا النظام من مختلف المشارب من سياسيين وجنود هاربين من الخدمة العسكرية وقوادين ونشالين ولصوص وقتلة، وفلاحين موقوفين لأسباب مختلفة ومشتبه بهم.

بعد تفتيشنا نودي على ممثل السجناء لاستلامنا دخلنا السجن وقد صرت الأبواب الحديدية خلفنا وقفلت بأقفال حديدية لتبدأ مرحلة جديدة من العذابات والصراعات. استقبلنا استقبالاً حاراً من قبل رفاقنا السجناء وصافحنا الجميع وقبلونا والبشاشة على وجوههم، كان لهذا الاستقبال وقعه الطيب على نفوسنا، من أناس لا نعرفهم، إلا من خلال الأهداف والمبادئ التي سجن الجميع من أجلها.

وبعد مكوثنا عدة أيام أنا وعلي الشعبان اطلعنا على الأوضاع والنظام المعمول به في السجن.

سجن الكوت، هو السجن الجديد غير السجن القديم الذي كان مسجوناً فيه الرفيق فهد ورفاقه، والسجن الذي دخلناه عبارة عن بيت كبير عندما تدخله ينقسم إلى قسمين القسم الذي على اليسار والذي كنا نسكنه، غرفه متوسطة على اليسار ثم المطبخ والحمام، بعدها مخزن صغير يستخدمه السجناء كغرفة للجنة الحزبية (لجنة تنظيم السجناء) وتوضع فيها المواد الغذائية بجواره غرفة صغيرة كانت تستعمل كصيدلية فيها الأدوية وما شابه. تجاورها قاعة كبيرة واسعة تستخدم لنوم السجناء وللدروس والمحاضرات وفيها مكتبة سرية ومسؤول عن المكتبة. تحتوي المكتبة على العديد من

الكتب والقصص، وثم المرافق (المراحيض). وهناك ساحة في الوسط طولها ١٥ ـ ٢٥ متراً، تستخدم للتمشي وللرياضة الصباحية ولعبة كرة الطائرة، ثم سقيفة فيها مياه الشرب (الحُبوبْ).

والقسم الآخر الذي يقع على جهة اليمين عندما تدخل السجن عدة قاعات صغيرة لا تختلف كثيراً عن القسم الأول سوى عدم وجود ساحة للرياضة، وكان يشغل هذا القسم أكثرية رفاق (راية الشغيلة) [٧٦] وبعض السجناء الآخرين.

كان عددنا يتجاوز (١٦٠) سجيناً منهم العمال والفلاحون الذين انتزعوا من أماكن عملهم بتهم ملفقة وسجنوا. باعة وكسبة طلبة وجنود، ومن مختلف الفئات والقوميات والأقليات أكثريتهم من العرب وبينهم أيضاً الأكراد واليزيديون والصابئة واليهود ومن مختلف مدن العراق. أكثريتهم حكموا وفق المادة (٨٩ أ) [٧٧] من قانون العقوبات البغدادي. عنصر التنظيم هو الشيء البارز في حياة السجناء، وهي تقاليد توارثها السجناء من زمن الرفيق فهد، الذي وضع أسسها، وجرى الحفاظ عليها بتضحيات كبيرة.

الحياة في السجن

ينهض السجناء صباحاً مبكرين وخاصة في فصل الصيف ليؤدوا التمارين الرياضية الصباحية، وكان السجين أكرم حسين وهو عامل نقابي مسؤولا عن الرياضة. يبدأ بعدها الفطور الجماعي الذي يلم كل (٤) سجناء سوية ويتكون في الأغلب من شوربة العدس والصمون اللذين يعدهما السجناء. وقد يتكون الفطور أحياناً من الجبن والدبس، ويختتم عادة بشرب الشاي جماعيا، لتليه " مدرسة الشعب". وأقصد الدروس والمحاضرات حول مادة الاقتصاد السياسي التي كان يلقيها علينا (حسقيل قوجمان) الموجود حالياً في لندن، أو الدروس التنظيمية أو المحاضرات عن تاريخ الحزب.. إلخ. ويكون العمل عادة مقسما بين السجناء بحيث يتكفل كل منهم بمهمة، فريق للعجن، فريق الخبازين، فريق الطباخين، ثم غسل الملابس، الذي يعتبر من أصعب المهمات ويشمل الجميع ويكون عادة أسبوعياً. ثم هناك مسؤول الرياضة، التي يعفى منها العجزة وكبار السن من أمثال الشاعر المعروف (محمد صالح بحر العلوم)، و مسؤول

متابعة أخبار الصحف. تبدأ بعد الدروس والمحاضرات فترة المطالعة الذاتية حتى وقت الغداء الذي يتم في الثانية عشر ظهراً. و يتكون الغداء عادة من (الرز والمرق والخبز) تليه فترة النوم والهدوء(القيلولة) حتى الساعة الثالثة عصراً. نستيقظ لنجد شاي العصر قد جهز، يتشكل بعدها فريقان (لكرة الطائرة) من أحسن اللاعبين ثم فريقان لمن يرغب اللعب من السجناء، ويستمر ذلك حتى السابعة مساء موعد العشاء. وتتكون وجبة العشاء على الأكثر من الخبز والجبن أو البطاطا وأحياناً مع البندورة، تليها فترة التمشي التي ينقسم فيها كل إثنين أو ثلاثة في مجموعات تتحدث عن مختلف القضايا الوطنية والسياسية والحزبية. وكان النوم يجري صيفاً في الساحة العامة، حيث يفضل بعض السجناء النوم بشكل مبكر في حين يسهر البعض الآخر حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وهناك حراسة ليلية دورية لكل السجناء أمدها ساعة حتى الصباح حيث يتولى الخفر إيقاظ العجانين والخبازين والطباخ الصباحي.وتعرفت خلال فترة وجيزة على أسماء السجناء ومن أي المدن العراقية منبعهم،وأسباب سجنهم، ومدد محكومياتهم، وصمودهم في التحقيق، وما تعرضوا له من تعذيب ومضايقات وجولات في مواقف الشرطة. وهذه تقاليد سجنية أسسها السجناء القدامى وتوارثها الذين بعدهم وحافظوا عليها، وتعكس ألفة ووحدة السجناء على أساس القضية المشتركة والفهم المشترك للمبادئ الوطنية والمثل الاشتراكية. كنا نعيش في السجن معا وكأننا أصدقاء متعارفين منذ زمن طويل تجمعنا مباديء المحبة والتضامن والتجرد من الذاتية والفردية والأنانية : كنا كمن يبني نموذجا للمجتمع القادم، مجتمع المساواة والأخوة، المجتمع الذي يخلو من الاستغلال الطبقي. كان السجناء يتحركون في نسيج واحد رغم التباين في المعرفة والعمر والقومية والثقافة والمنحدر الطبقي.. إلخ.

وكان ظهور بعض المشاكل والخلافات في الرأي لا مناص منه، وبعضها بسيط يدور على أمور عادية. على أن الخلاف لا يمس أمور القضية في غالب الأحيان، وكانت قيادة منظمة السجن تعقد اجتماعات ينبه خلالها البعض إلى الأخطاء وبأسلوب النقد والنقد الذاتي.و كان سجن الكوت يسمى (الكلية)، بسبب وجود الرفاق فهد، حازم، صارم والكثير من الكوادر العلمية والمحامين، من أطباء وأدباء وسياسيين، وكان العديد من المناضلين يودون أن يسجنوا ليروا الرفيق فهد ورفاقه ويتعلموا منهم.

كانت رؤية المستقبل من منظار إسقاط النظام الاستعماري الملكي الرجعي وتشييد نظام ديمقراطي شعبي تحت شعار (وطن حر وشعب سعيد)، من أجل العمل والأرض ولقمة الخبز والسلام،قد تبلور. وأصبح النضال، من أجل هذه الأهداف، وتقديم التضحيات من أجل مستقبل مشرق قد تركز في أفكار كافة السجناء. كان يحدو الشيوعيين الأملُ بالانتصار ويعمق الإيمان بالمستقبل وبوحدتهم وصمودهم.

كانت عوائل السجناء تزور أولادها السجناء باستمرار، وقد زارني والدي مرة واحدة وكانت معه بنت علي الشعبان (حسنة). وتنقل لنا هذه العوائل الكثير عن الأوضاع العامة في الخارج وعن الوضع السياسي وعن مشاكلها الخاصة، وخصوصا ظروف عوائل السجناء السيئة وحياة أطفالهم بعد أن فقدوا معيلهم. ومن الطريف أن بعض السجناء، عندما تزوره عائلته كل شهر أو شهرين مرة واحدة، يبقى صامتاً طيلة فترة المواجهة (الزيارة) وليس لديه ما يقوله، وهو موضع تندر أحياناً.وعندما تنتهي الزيارة يعود السجناء إلى السجن حاملين معهم البطانيات التي كان يجلسون عليها وما جلبته عوائلهم لهم من مواد وملابس ونقود وسيكاير. وكانت بعض العوائل الغنية أو الميسورة، مثل عائلة الرفيق (محمد عبد اللطيف)، أستاذ الفيزياء المعروف، الذي توفي في ألمانيا سنة ١٩٩٨، تجلب معها كميات كبيرة من المواد الغذائية كالرز والطحين والمعلبات[٧٨]، فكنا ننتظر هذه المواجهات بفارغ الصبر. كنا محرومين من أية حقوق سياسة، ويشمل هذا الواقع كل السجناء المحكومين وفق المادة (٨٩ آ) من قانون العقوبات البغدادي التي سبق وأن ذكرتها.

كان السجناء يحتفلون بالمناسبات الوطنية والقومية والأممية حيث تخلق هذه الاحتفالات جوا من البهجة وتذكرنا بأمجاد الشعب العراقي في هذا السجن البغيض. السجن بأبوابه الحديدية المقفلة، وجدرانه العالية المحروسة، ببنادق حراسه، ورتابة حياته اليومية التي لا يرى فيها سوى ذات الوجوه والأشخاص التي تتكرر أمامك صباحاً ومساءً.

لا نرى من الشمس،التي تملأ الدنيا بأشعتها المشعة على البحار والشطآن والأنهار والأرض والجبال والمدن والقرى، سوى ما يتسلل منها الينا عبر فتحة جدران السجن، لكنها سرعان ما تغيب تاركة الذكريات عنها. و لا نرى من النجوم الزاخرة في ظلام

المساء، و كنت كثيراً ما أحاول عدها وأنا مستلق في فراشي، إلا عدداً محدوداً بسعة فتحة حيطان السجن.وكثيراً ما كان القمر يطل علينا فيملأ السجن بهجة ولكن أسوار السجن العالية كانت تغيبه بعد آن. كان السجين محروماً من أبسط الحقوق الإنسانية الضرورية، لذا عمل السجناء الشيوعيون على تبديد هذه الحياة غير الإنسانية بتنظيم حياتهم بشكل يخفف من هذه الصورة المعتمة، أي بالعمل اليومي والرياضة والدروس والمطالعة وخلق المناسبات والاحتفاء بها.

وكان للأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية دور في شد لحمة السجناء وتذكيرهم مثل:

حصن حزب أشاده فهد

كيف تستطيع هدمه قرد

حزب فهد وحازم الثائرين حزب فهد وصارم المخلصين

أو

يا رفاقنا الخالدين يا مثال المخلصين

لم نزل سائرين لسحق الظالمين

كانت المشاريع الاستعمارية جارية على قدم وساق لإعادة ترتيب المنطقة وكسر شوكة النضال التحرري في المنطقة والسيطرة عليها من قبل الحكومات الغربية وخاصة بريطانيا وأمريكا.

واتجهت بريطانيا منذ عام ١٩٥٠ لتوريط المنطقة بالأحلاف ومحاولة تشكيل منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط. وعملت بريطانيا في نفس السنة على إعادة النظر بالمعاهدات واستبدالها بمعاهدات اخرى، مثل المعاهدة الثنائية مع مصر ١٩٣٦ والمعاهدة مع العراق ١٩٣٠، وإشراك أطراف عديدة أخرى مثل أمريكا و بعض البلدان العربية فيها. وحاولت الحكومة البريطانية إنشاء حلف مع تركيا وباكستان في ٢ نيسان ١٩٥٤، وحلف تركي مع العراق في ٢٤ شباط سنة ١٩٥٥، والاتفاقات الخاصة بين العراق وبريطانيا التي تبلورت كلها بتأسيس حلف بغداد العسكري المشؤوم. وهي محاولات للسيطرة على المنطقة بالأحلاف والاقتصاص من الحركة الوطنية بشكل عام ومن الحركة الوطنية العراقية بشكل خاص. فجرى تسليط الأحكام العرفية على رؤوس الشعب، و تمت مصادرة الحريات الديمقراطية وغلق الصحف الوطنية الشحيحة والتنكيل بالقوى الوطنية وخاصة الشيوعيين.

أثار انتصار الثورة المصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الرعب بين أوساط حكام العراق، كما أثار الرعب في قلوب الدول الاستعمارية. و حسب الإحصائيات المتوفرة كانت سجون بغداد تحفل بنحو (٣١٢) سجيناً شيوعياً، منهم (١٦٠) في سجن بغداد و(١٢٣) في سجن الكوت و(٢٥) في سجن نقرة السلمان، إضافة الى بعض السجناء في سجن البصرة وسجن الحلة وكركوك وسليمانية. وجرى نقل بعض السجناء إلى سجون أخرى إثر إضراب سجناء نقرة السليمان في تموز ١٩٥١.

وشهدت هذه الفترة محاولتين للهروب من سجني الكوت وبغداد ١٩٥٢ - ١٩٥٣. فاكتشف السجانة في صباح يوم ١١ شباط ١٩٥٢ أن السجناء قد حفروا نفقاً طوله ١٣ متراً وأن ١٤ سجيناً قد هربوا، فألقي القبض لاحقا على سبعة منهم.

واستطاع الرفيق جمال الحيدري عام ١٩٥٣ الهروب من المستشفى بينما كان سجيناً في سجن بغداد المركزي [٧٩]، وفي فترة كان فيها نوري سعيد يشدد من قبضة الإرهاب.

مجزرة سجن بغداد

كان التذمر بين السجناء في شهر حزيران ١٩٥٣ واضحاً نتيجة للمعاملة السيئة من قبل إدارة السجن. وقد تعقد الوضع عندما أراد جبار أيوب [٨٠] تجريد السجناء من كافة مكتسباتهم التي حصلوا عليها بنضالهم الطويل حينما أبلغهم يوم ١٨ حزيران بأنهم سينقلون إلى سجن آخر دون أن يكشف اسم السجن. لم يخطر ببال السجناء حينها أنهم سينقلون إلى سجن جديد على الطراز الأمريكي في بعقوبة، وأن الغاية من نقلهم هي عزلهم عن ذويهم وعن علاقتهم بالخارج وحرمانهم من المكاسب البسيطة التي حصلوا عليها.

ضربت قوات الشرطة في ١٨ حزيران ١٩٥٣ طوقا حول السجن وكان أفرادها مجهزين بالأسلحة والعدة العسكرية. احتل رجال الشرطة بعدها سطوح السجن وبدأوا برمي السجناء بالحجارة والقنابل المسيلة للدموع. وعندما تجمع السجناء في الساحة فتحت خراطيم المياه أولا بهدف تفريقهم ثم بدأ إطلاق النار على السجناء العزل، فسقط ٨ شهداء [٨١] وجرح ٨١ سجيناً بعد مقاومة باسلة. نجحت السلطات بعدها في

نقل السجناء إلى سجن بعقوبة المركزي إلا أن هذه المجزرة القذرة ألهبت حماس الشارع العراقي.

نقرة السلمان

وفي نفس الفترة أعلن السجناء في سجن نقرة السلمان احتجاجهم، وكانت هناك خطة مدبرة لنقلهم إلى سجن بعقوبة المركزي (الجديد) وتجميع كافة السجناء الشيوعيين في مكان واحد لعزلهم.

أعلن السجناء التمرد ورفعوا العلم الأحمر وكان على رأسهم (حميد عثمان)، ولكن رجال الشرطة، وكلهم من البدو، نجحوا في احتلال السجن و إشباع السجناء ضرباً وتنكيلاً، ومن ثم نقلهم إلى سجن بعقوبة. هذا ما عدا السجناء اليهود، الذين تم نقلهم من القلعة إلى السجن الجديد في السلمان مع الرفيق بهاء الدين نوري ورفاقه.

مجزرة سجن الكوت

وجاء الدور علينا نحن سجناء سجن الكوت، فقدمنا احتجاجا على ما تم في مجزرة سجن بغداد. علما أن رفاقنا كانوا قد تقدموا بمذكرة مشابهة إلى مديرية السجون، قبل فترة من وصولنا إلى السجن، واحتجوا فيها على قلة المواد الغذائية وسوء المعاملة.وطالبت المذكرتان بمعاملتنا كسجناء سياسيين إضافة إلى بعض المطالب الأخرى. وبدلاً من تلبية الطلبات والنظر في المذكرة أرسلت السلطات محكمة لمحاكمة الموقعين على المذكرة، كما طالبت إدارة السجن بعزل اليهود ونقلهم إلى سجن نقرة السلمان، وهم من الكوادر الحزبية ومن أعضاء عصبة مكافحة الصهيونية. كما ارتأت إدارة السجن نقلنا جميعاً إلى سجن آخر، وقد تبادر لذهن الجميع نقلنا إلى سجن (نقرة السلمان)، ثم تقدمت بمطلب جديد يقضي بتفتيش السجن وحاجيات السجناء بحثا عن أسلحة مزعومة وممنوعات.

عقدت لجنة السجن المسؤولة اجتماعاً طارئاً لكل الكوادر وتم بالإجماع رفض طلب تفتيش السجن والنقل. وكان ممثلنا مع الإدارة هو الرفيق عزيز وطبان، كما أتذكر، فأدى واجبه وبلغ الإدارة برفضنا، لكنه لم يرجع وإنما حجز ونقل. إن تمتع السجناء بهذه

الحقوق التي اكتسبوها، وخاصة وجود تنظيم داخل السجن يعتبر جريمة بنظر السلطات، لذا حاولت أن تبتكر الذرائع للقضاء على هذا الشكل البسيط من الحقوق والتنظيم. عقّدت الإدارة العلاقة بشكل متعمد مع السجناء، ثم قطعوا الأرزاق (المواد الغذائية والكهرباء والماء) يوم ١٩٥٣/٨/٢عنا وعملوا على خطف الرفيق أكرم حسين ممثلنا الجديد. هذا أثار غضب السجناء، بدأ رجال الشرطة، الذين احتلوا سطوح السجن، بضربنا بالحجارة وشتمنا فرددنا عليهم بالمثل. وعندما منعوا دخول الماء إلينا [٨٢]، وهو العنصر الرئيسي للحياة، و هو إجراء يعني أنهم حكموا علينا بالموت ونحن أحياء، اضطررنا لحفر بئر بعمق عدة أمتار داخل السجن. وكان الرفيق أبو عمر هو صاحب الفكرة، ولما كان ماء السجن يحوي الكثير من الميكروبات، لأنه امتداد لمجاري مياه المدينة، فقد كنا نغليه ونستعمله للشرب والطبخ.

كان المخزن الذي نحتفظ به للطوارئ يحتوي على بعض المواد الغذائية بينها عدد من أكياس العدس، والرز، والدهن، والطحين، وبعض المعلبات التي كان أهالينا قد جلبوها إلينا في زياراتهم السابقة للسجن. وهي مؤونة تكفي لعدة أيام، إلا إن حصة الشخص الواحد بدأت تقل تدريجياً،وأصبحت في النهاية قليلة جداً مما أصاب بعضنا بالهزال والضعف، كما تدهورت صحة بعض الرفاق. رغم ذلك كان التحدي والمواجهة وعدم الرضوخ للإدارة البغيضة هو الدافع الرئيس لصمود المساجين.

كان الوضع يجري يومياً على الشكل التالي: يحتل رجال الشرطة سطح السجن،يسيطرون عليه ويضربوننا بأنواع الحجر ويشتموننا، ونجتمع نحن السجناء في ساحة السجن وفي القاعات ونرشق السجانة بالحجارة المتوفرة. ثم عملنا (المعاجيل) [٨٣] أو المقلاع كما يستخدمه (الفلسطينيون حالياً مع الشرطة الإسرائيلية)، فكنا نلف الحجر بالرسائل ونقذفها من فوق الأسوار إلى أهالي المدينة شارحين فيها الوضع داخل السجن وانقطاع المواد الغذائية والماء عنا. كما كان الرفيق (حميد بخش) يذيع بمكبرات الصوت النداءات لجماهير الكوت يشرح فيها وضعنا، مطالبا بفك الحصار عنا، وداعيا إلى التظاهر والاحتجاج ضد هذه العملية المجرمة. ومع استمرار الوضع نفد الشاي والسكر تقريباً، كنا نغلي ورق الشاي عدة مرات ونشربه، بعدها يجري تجفيفه في الشمس ويلف بورق الجرائد ويدخنه المدخنون بدل السكاير.

ثم بدأت الأطعمة المخزونة تنفد تدريجياً مع وجود كميات من الحنطة وقوارير من دهن السمك. ولا أدري كيف صنع الرفاق (رحى) لطحن الحنطة فيها وصنع الخبز بعد خلطه بدهن السمك. أصابت مياه البئر ودهن السمك الكثير منا بالإسهال الحاد، و امتلأت (المرافق) المراحيض بالقاذورات وفاضت لتملأ رائحة السجن بها. حاولنا عدة مرات التفاوض مع الإدارة لفك الحصار وإرجاع الأمور إلى سابقها، إلا أنهم رفضوا طلبنا، ودأبوا على إذاعة البيانات العسكرية مكررين عبارة(وقد أعذر من أنذر). اتضح لاحقا أنهم كانوا يبيتون لمجزرة كبيرة بقيادة (طاهر الزبيدي وعبد الجبار أيوب) وعندما خرج أحد الرفاق للتفاوض معهم حجزوه بعد أن أشبعوه ضرباً ونقلوه. كانوا يريدون منا الاستسلام بدون قيد أو شرط، وهذا كان متعذرا في تلك الظروف، رغم معرفتنا بأننا كنا نخوض معركة غير متكافئة. كانت معركة بين سجناء عزل إلا من قيودهم، محصورين في السجن، وبين شرطة شرسة مدججة بالسلاح تمسك بيدها سلاح قطع الطعام والماء، وهو عامل تفوق يكفي بمفرده للاستسلام أو الموت الجماعي. ولكن شرف السجين وتحديه ومبادءه وصموده وتفانيه كانت تدعوه للمقاومة رغم ما ستؤول إليه هذه المعركة. فهؤلاء الشيوعيون السجناء كانوا النواة الصلبة لكل الانتصارات اللاحقة، وكان صمودهم، رغم شراسة وعنفوان عدوهم، قد أصبحت محط أنظار أبناء الشعب عموماً.

والطريف هنا هو ان رفيقنا الشاب(بطرس مارين)، صاحب المواقف البطولية والصوت الرجولي الحاد، كان يحلو له الهتاف (تسقط العائلة المالكة المجرمة) فيردد السجناء الهتاف بعده ويرد عليه رجال الشرطة (تعيش العائلة المالكة المجرمة) تعيش تعيش.. دون أن يعرفوا معنى مجرمة. إلا أنهم تخلوا بعدئذٍ عن الهتاف به.

لم تهدأ أركان حرب إدارة السجن عن إذاعة البيانات الحربية عن طريق المكبرات، وإطلاق التهديدات لنا، في حين كان الشارع في محافظة الكوت يغلي. وخرج الناس في تظاهرة لنجدتنا ولكن جهودهم لم تستمر، واستمر الوضع هذا حتى يوم ١٩٥٣/٨/١٨ حيث فتحت علينا النيران بقيادة المجرم (طاهر الزبيدي، الذي كان مدير السجون العام) والمجرم جبار أيوب الذي أعدم بعد ثورة تموز ١٩٥٨. أدى إطلاق النار على السجناء العزل إلى استشهاد الرفيق صبيح مير، الذي أصابته الطلقة في رأسه مباشرة فتناثر دماغه على الحائط واستشهد فوراً.

كما أصيب عامل المطبعة الشاب الرفيق (وحيد منصور) بثلاث طلقات فأخذ ينزف دماً، فاتحنا إدارة السجن بأخذه إلى المستشفى لعلاجه لكنها لم تستجب للطلب، نقلناه ووضعناه بين البابين الحديديين الخاصين بمدخل السجن بأمل معالجته. و قال وحيد قبل نقله "لقد حصلت ثلاثة أوسمة (ثلاث طلقات) الوسام الأول من أجل الرفيق والوسام الثاني وسام الحزب الشيوعي والثالث وسام الطبقة العاملة التي أنا منها "وبقي ينزف دماً ولم تنقله إدارة السجن حتى استشهد في مكانه.

أثار استشهاد الرفيقين صبيح مير ووحيد منصور غضبنا بعد أن شاهدناهما يتلطخان أمام أعيننا بدمائهما الطاهرة واستشهدا من أجل القضية التي آمنا بها ودخلا السجن من أجلها. ولأول مرة أرى رفاقا يستشهدون أمامي، لم يكونا أول ولا آخر الشهداء، ولهذا لم يدخل استشهادهما الرعب في قلوبنا، بل زادنا عزيمة على الأخذ بثأرهما. لم نكن نعرف كيف سيكون عليه الوضع لاحقاً، فاتحنا الإدارة مرة أخرى بضرورة فك هجومهم وإرجاع الوضع إلى ما كان عليه، إلا أنهم لم يستجيبوا واستمروا بحصارهم في محاولة لدفعنا للاستسلام. استمرت المصادمات اليومية مع الشرطة وزادت الإنذارات، ساء وضعنا الصحي أكثر، نفدت الأدوية، شح مخزون دهن السمك والحبوب وفتات الخبز، وبدأت مياه البئر غير الصحية تفعل فعلها بنا. واليوم يتلو اليوم والحالة كما هي حتى يوم ١٩٥٣/٩/٢، حينما بدأت المفاوضات مع إدارة السجن وانتهت بالسماح لهم بالدخول وتفتيش السجن وهم يعلمون جيداً بعدم وجود أسلحة ولا متفجرات بحوزة السجناء.

المجزرة

بدأوا التفتيش من بعد الساعة الثالثة ظهراً، فتشوا السجن والقاعات والمخزن وكل شيء. و كانت الشكوك تنتاب أكثرية السجناء، ونابعة عن قناعة بأن العملية هذه لن تمر بسلام، ولا يمكن الوثوق بكلام هؤلاء الأوغاد. صادروا كل شيء اعتبروه ممنوعاً، أصلحوا خطوط الكهرباء ومدوا خطوطاً جديدة بحيث يمكن إضاءة السجن إضاءة تامة. كانت الهيئة المسؤولة من الرفاق قد أخفت الكثير من الوثائق المهمة التي تعود لأيام الرفيق فهد عندما كان سجيناً في سجن الكوت قبل إعدامه ورفاقه.

وتحت أضواء السجن التي أصلحوها بشكل أمسى ينير ساحاته إنارة تامة، أدخلوا لنا الطعام والماء، وكان خبزاً وكباباً وتمراً. وعثر أحد الرفاق على رسالة صغيرة مخفية في سيخ الكباب أرسلتها منظمة الكوت للحزب تشيد فيها ببطولات السجناء وصمودهم وتأييد الجماهير لهم.

بعد الساعة الخامسة مساءً، كما أتذكر، وبعد أن انتهى تفتيش السجن وأخذوا ما اعتبروه ممنوعاً، وبعد إدخال الطعام والماء، دخل عدد من الشرطة (السجانة) وطلبوا تفتيشنا، بدنياً، الواحد بعد الآخر، ومن يجري تفتيشه ينقل إلى الجهة اليمنى ويصفُّ على الحائط. كانت أجسامنا هزيلة وضعيفة لكن عملية التفتيش المقيتة استغرقت فترة زمنية طويلة، أخذت بعدها الشرطة السيارة، وهي غير السجانة وغير شرطة السجن، تدخل وأفرادها يخفون الهروات تحت ملابسهم. استمرت العملية طوال منتصف ليلة ١٩٥٣/٩/٢، وحينما بدأ فجر يوم ٩/٣ وهم يفتشوننا ويصفوننا على الحائط ظهر أنهم كانوا يتهيأون لمعركة بعد أن جردونا من كل شيء. ثم طلبوا منا تسليم الرفاق اليهود - كان حوالي (١٥) شخصاً منهم شيوعيين والآخرون من عصبة مكافحة الصهيونية.

تم رفض الطلب حسب الاتفاق، هجم بعدها رجال الشرطة علينا وهم يحملون الهروات والخناجر والمسدسات، انطفأ الضوء فجأة واندلعت معركة شرسة بين سجناء عزل أنهكهم الجوع ومياه البئر الوسخة، وبين أناس مهمتهم القتل والقمع. كانوا قد نصبوا رشاشاتهم على السطح سلفا فبدأوا بالرمي عشوائياً، وعملوا خلالها على فتح بوابات سدة الكوت التي تتحكم بتدفق المياه القوية بهدف تغطية أصوات الرصاص بهدير المياه الجارفة. اشتعل الضوء فجأة، وزاد عددهم حيث بلغ حوالي ٣٠ ـ ٤٠ شرطياً، وأنا لا أدري كيف انطفأت الأضواء وكيف أضيئت مرة أخرى. انهال ضرب الهروات علينا بدون رحمة، ركضت إلى الساحة الثانية فشاهدت شرطياً مرمياً على الأرض، ربما يكون قد سقط بفعل ضربة وجهها له أحد زملائه من الشرطة عندما انطفأت الأضواء. وكان صوت الرصاص يلعلع من سطح السجن، فدخلت القاعة الكبيرة التي كانت مكاناً للدروس مع الرفيق عيسى، وهو عامل خضار من مدينة الناصرية من الشطرة، والرفيق حسين العامل الذي ترك العراق وأصبح صحفياً ومذيعاً في إذاعة براغ

في جيكوسلوفاكيا.كان شرطة الخيالة و السجانة يصطادون السجناء عندما دخلت القاعة، وخوفاً من هجوم الشرطة علينا أقفلنا باب القاعة ووضعنا الأفرشة ومكتبة من خشب خلفه. صار الرصاص ينهمر علينا من الشبابيك ومن الباب الخشبي، فوقفنا حائرين لا ندري ماذا نعمل وما سيؤول إليه مصيرنا، في حين كان عدد من رجال الشرطة يحاولون كسر باب القاعة. و كسروه فعلا ودخلوا علينا، أحدهم يحمل خنجراً والبقية يحملون الهروات، وبدون إرادتي دفعت أحد الشرطة وحاولت الخروج من القاعة راكضاً بسرعة، فإذا بأحدهم يوجه لي ضربة قوية على رأسي اصطدمت من شدتها بأحد الجدران وسقطت على الأرض. ثم انهالت علي الضربات من كل جانب ففقدت الوعي، وكدت أطلق نزعاتي الأخيرة حينما شعرت إن أحداً يسحبني من قدمي وأنا في حالة غيبوبة.

المسلخ

سحلت من قدمي كما تسحل الخراف ورأسي يضرب بحجر الأرض وأخرجت من القاعة وألقيت على أرض شعرت برطوبتها، ولكن لا أعلم أين. كنت أشعر، وأنا بين الغيبوبة والوعي، بالموت قادماً لا محالة، أعجز عن الحركة وجسمي كله أوجاع من شدة الضرب الذي تلقيته وأنا فاقد الوعي، حشرجة الموت في بلعومي، ولا أستطيع التنفس إلا بصعوبة نادرة. وأنا بين الموت والحياة شعرت أن جسماً ثقيلاً ألقي على صدري، وأن سائلاً حاراً لزجاً ينقط علي ويدخل فمي وأبتلعه. فتحت عيني بصعوبة بالغة وأنا بين حشرجة الموت فرأيت وجه الرفيق (ناصر عبد الأمير) ،الذي كان سكرتيراً لنقابة الغزل والنسيج في مدينة الكاظمية، وقد ألقى فوقي ورأسه ينزف دماً من شدة الضربات التي تلقاها. كان دمه الحار الذي سقط في فمي هو الذي أعاد لي الحياة بعد الغيبوبة التي كنت فيها. و كنت أشعر أن الحياة تعود لي ببطئ ويعود لي معها الوعي بفضل دمه الطاهر. سمعت أصواتاً وضجيجاً تزعق بوحشية، اشتموا ستالين (قولوا يسقط ستالين يسقط فهد)، لكنني سمعت أصواتاً خافتة كأنها حشرجة الأموات تردد يعيش ستالين يعيش فهد، فرددت الهتاف معهم. فتحت عيني لأرى غرفة صغيرة في أعلاها شباكاً صغيراً عالياً ينبعث منه ضوء الصباح فتعرفت على غرفة التعذيب.

استمرت المجزرة ضد السجناء طوال يوم ١٩٥٣/٩/٣ وفرسانها هم طاهر الزبيدي ونوري السعيد ورهطه، وضحاياها هم أبناء الشعب السجناء العزل، أبناء العمال والفلاحين والطلبة والعسكريين.. إلخ.

وكنا أكثر من ١١ ـ ١٥ سجيناً نعاني من نزف الدماء والكسور والرضوض التي تملأ أجسادنا مكدسين بعضنا فوق الآخر في هذه الغرفة التي تشبه مسلخ ذبح النعاج. في هذه الغرفة المشؤومة تعرض خيرة أبناء الشعب العراقي من ضحايا الإرهاب الملكي وعملائه، ضحايا النظام الاستعماري، المنادين بالحرية والخبز والأرض والسلام الى التعذيب البشع. لا أدري كم من الوقت مر علينا ونحن أشباه أموات في هذا المسلخ البشري، لكنني أدري بأن رجال الأمن كانوا يدخلون بين حين وآخر مسلحين بالهراوات ويضربوننا. ولم ينقذنا من براثنهم غير مجيء بعض المدنيين والعسكريين من الشرطة، لنقلنا إلى إحدى مستشفيات مدينة الكوت. رأيت بعض الرفاق، بعد أن أخرجونا من هذا المسلخ، ممددين على الأرض فاقدي الوعي وجروحهم بليغة ورجال الشرطة لا يكفون عن الدوس على رؤوسهم بأحذيتهم. كانوا ينهالون علينا فجأة بالهروات للقضاء على ما تبقى من أنفاسنا، ثم ألقونا، نحن المجموعة الذين كانت حياتهم في خطر وهم بين الموت والحياة، في جوف إحدى السيارات. لا أدري ماذا عملوا بالآخرين، لكنني فتحت عيني بعد غيبوبة طويلة وكنت أجد صعوبة بالغة في تحريك يدي ورجلي. اكتشفت أن يدي اليمنى مكسورة وأحد أصابع يدي اليسرى مكسور ورأسي شبه مهشم. حضر مجموعة من الأطباء والمرضات، خاطوا الجروح العديدة في رأسي، التي لم تمح آثارها حتى اليوم بعد ٤٧ سنة من المجزرة، وجُبِّرت يدي بالجبس. وحصل خطأ في تجبير أصبع يدي اليسرى خطأً فأعيد كسره وتجبيره تحت التخدير الكامل (بنج) بعد أن فقدت الوعي أثناء تجبيره دون تخدير. كان يرقد في المستشفى إلى جانبي الرفيق (سلام عبد الله السلام) [٨٤].

اتفقنا نحن الموجودين في المستشفى على المطالبة بتشكيل لجنة نزيهة للتحقيق بهذه المجزرة الرهيبة. وفعلاً أرسلت الحكومة مثل هذه اللجنة ذرا للرماد في العيون لكننا طلبنا من هذه اللجنة تشكيل هيئة من نقابة المحامين ومن الأحزاب الوطنية كالحزب الوطني الديمقراطي وشخصيات وطنية مستقلة أخرى. ورفضنا إعطاء أية

معلومات أخرى، لم يطل مكوثنا في المستشفى إلا عدة أيام ثم نقلنا، نحمل جروحنا وآلامنا، لنلتقي مع بقية الرفاق في مركز شركة الخيالة في الكوت. كانوا من الرفاق غير اليهود. أما اليهود فقد نقلوهم، وهم في حالة يرثى لها إلى سجن نقرة السلمان، تمهيداً لتسفيرهم إلى اسرائيل. عرفنا بعد ذلك أن عدد ضحايا المجزرة كان٨ شهداء ٩٤ جريحا من الرفاق [٨٥].

مركز شرطة الخيالة في مدينة الكوت

نقل البعض وحشر ما تبقى منا بعد استشهاد الرفاق في مركز شرطة خيالة الكوت. فقدنا رفاقا وهبوا حياتهم للشعب،استشهد معظمهم وهم في عنفوان شبابهم، وظلت دماؤهم الزكية تستصرخنا لمواصلة الطريق الذي استشهدوا من أجله. كان كل منا يحمل كسوره وجروحه والعاهات التي سببتها له هذه المجزرة. فهمنا جيداً أن عدونا عدو شرس يفتك ولا يبالي، ويبطش إذا ما تهددت مصالحة بدون رحمة، من أجل تنفيذ مشاريعه. وأثبت التاريخ العراقي مراراً بعد ذلك مدى ضراوة المستعمر وعملائه وكما قال شوقي:

وللمستعمرين وأن ألانوا
قلوبُ كالحجارة لا ترق

كانت هذه مدرسة تعرض فيها المناضل للاختبار، تصلب فيها عوده وتعمق حقده على أعدائه، وتعلم منها أن الفردوس الذين ينعم به المستعمر و أذنابه من الحكام لا ينتزع بدون النضال والتضحيات الجسام. وهذا هو الشعب الفلسطيني أمام الأنظار، يمنح يومياً من الشهداء، ممن يسقطون بيد القتلة الصهاينة، قربانا لانتزاع حريته وحقوقه.

منع القتلة عنا الزيارات ليخفوا معالم جريمتهم وبانتظار أن تلتئم جروحنا. زارنا بعد مدة من الزمن مدير شرطة الكوت، طلب منا معاونوه الوقوف والسلام عليه احتراماً له فرفضنا وقلنا لهم إننا لا نقف للمجرمين والقتلة، فامتعضوا وتركوا القاعة. وقفنا جميعاً وقفة حدادا وقرأنا النشيد الأممي بعد مرور ٤٠ يوماً على المجزرة:

هبوا ضحايا الاضطهاد

ضحايا جوع الاضطرار
بركان الفكر في اتقاد
هذا آخر انفجار
هيا نمحو كل ما مر
ثوروا حطموا القيود
شيدوا الكون جديداً حراً
كونوا أنتم الوجود
بجموع قوية هبوا لاح الظفر
غد الأممية يوحد البشر.
كما قرأنا نشيد
السجن ليس لنا نحن الأباة
السجن للمجرمين الطغاة
ولكننا سنصمد.. سنصمد
وإن لنا مستقبلاً سيخلد

فاهتزت القاعة التي كنا فيها، وأخذ الشرطة يتراكضون وينظرون إلينا من الشبابيك وهم غير مصدقين، ولابد أنهم كانوا يقولون أي نوع من الناس هؤلاء السجناء السياسيين.

حدث بعض التغيير، أذ صرنا نزود بكثير من الأطعمة بعد أن قطعت عنا أيام الحصار الذي دام شهراً، وصار يأتينا الكباب والتمر والرقي والبطيخ، نأكل بنهم لنعوض عن الدماء التي سالت منا، نعين جروحنا على الاندمال وعظامنا المكسورة على الالتئام ونقوي أجسادنا الضعيفة على الهزال. كان باب القاعة يفتح لنا ثلاث مرات في اليوم، مرة في الصباح، مرة أخرى عند الظهر، مرة أخيرة في الساعة السادسة عصراً ثم تغلق نهائيا بعد ذلك [٨٦].

خلقت هذه المجزرة، بعد مجزرة سجن بغداد، جواً من الاحتجاجات والكتابات وتقديم المذكرات للجهات المسؤولة، كما أدت إلى سخط جماهيري وضجة واسعة واستنكاراً من عوائلنا ومن الأحزاب السياسية والشخصيات الوطنية ضد الحكومة التي انكشفت على حقيقتها أمام الرأي العام.

وبعد أن تحسنت أوضاعنا الصحية نسبياً نقلنا بسيارات خشبية فصرنا، ونحن نجتاز مركز الكوت، نقرأ الأناشيد الثورية مثل نشيد (هبوا يا رفاق حرروا العراق). كان بعض الطلبة والشباب يصفقون لنا عندما مررنا بهم، وبعد مسيرة عدة ساعات وصلنا إلى سجن رقم واحد في معسكر الرشيد في مدينة بغداد، مساءً.

كان آمر معتقل المعسكر ضابط يسمى (عبد المهيمن) وكان من الضباط الشرسين، استقبلنا استقبالاً جافاً، ألقى علينا محاضرة ونحن وقوف، واختتمها بجملة من الأوامر العسكرية التي عاملتنا كجنود تحت سيطرته. ومن جملة ما قاله: الاتصال فيما بينكم ممنوع الخروج من الغرف ممنوع، إلا وقت فتحها، الاتصال مع الموقوفين الآخرين ممنوع وكذا وكذا ممنوع... إلخ من الممنوعات والأوامر. فجرى التصدي له من قبلنا، وكان أول المتكلمين هو العامل النقابي المعروف (ناجي لازم)، ثم تبعه الرفيق علي من الناصرية ومن ثم أنا، فقلنا له إننا سجناء سياسيون قادمون من سجن الكوت، بعد المجزرة الدموية التي قدمنا فيها (١٠) شهداء. وأنت كما ترانا نعاني كلنا من إصابات، نحن لسنا جنود عندك، أو موقوفين، ولنا حقوقنا. تراجع بسرعة عندما شاهد موقفنا وسمع كلامنا وتحدينا له وقال ما هي مطالبكم ماذا تريدون؟ قلنا تبقى الزنزانات طيلة النهار مفتوحة، تزويدنا بالصحف اليومية والراديوات، السماح لنا بمواجهة ذوينا، توفير طعام جيد، فوافق على مطالبنا وقال إنكم هنا لعدة أيام وسوف تنقلون إلى السجن.

كان لوجودنا وتحدينا وقع جيد على الجنود والموقوفين الآخرين.

وبعد عدة أيام وخشية من وجودنا في معسكر للجيش تم نقلنا إلى سجن بغداد المركزي.كان أحد رفاقنا قد أخفى وثيقة أو مخطوطة كتبت بيد الرفيق فهد فتقرب مني وقال لي هل تستطيع إخفاءها عندك. قلت نعم فأخذتها منه ووضعتها في يدي المكسورة داخل (الجبس) وشددت يدي بقطعة قماش وعلقتها برقبتي. استقبلنا المجرم مدير سجن بغداد وبطل مجزرة سجن بغداد المركزي (جبار أيوب) تقف خلفه مجموعة من شقاوات السجناء العاديين. رشقنا برشة من الشتائم القذرة محاولاً استفزازنا للاعتداء علينا، وكان يمشي كأنه أحد القادة الفاشيين وهو يلقي نظرة على أشلاء ضحاياه في المواقع الحربية. سمعنا بعد أن تركنا هو وعصابته تفاصيل عن مجزرة سجن بغداد وكيف أن كافة السجناء نقلوا إلى سجن بعقوبة.

لم تكن الغيوم السوداء تكتنف جو السجناء وحدهم بل مجموع الشعب العراقي بعد أن اتضح ان المعارك والمجازر المدبرة ضد السجناء الشيوعيين كانت مؤامرة حيكت خيوطها بإتقان للانتقام من الشعب باسم معاقبة الشيوعيين واليهود. أدت هذه المجازر إلى نشوء حالة تعاطف كبير معنا، وكان لها وقع هائل على الحركة الوطنية عامة وعلى الحزب الشيوعي خاصة.

لم يدم بقاؤنا طويلاً كما قلت في سجن بغداد المركزي، إذ ساقونا إلى سجن بعقوبة المركزي ليبدأ فصل جديد من حياتنا.

الفصل السابع

سجن بعقوبة المركزي

يعتبر سجناء نقرة السلمان من أخطر الشيوعيين المكبلين بعشرات السنين من الأحكام منذ خيانة مالك سيف وغيره. مثالهم الرفاق (زكي خيري، عمر إلياس، عمر الشيخ، مهدي حميد، سلطان ملا علي، حسين الوردي، جميل نوري، حميد عثمان وغيرهم). وهؤلاء تم نقلهم مكبلي الأرجل بالحديد إلى سجن بعقوبة، سبقهم إلى هناك سجناء بغداد ثم جاء دورنا نحن سجناء الكوت حاملين كسورنا وآلامنا، مجردين من كل شيء سوى ملابسنا الرثة الملطخة بالدم التي كنا نرتديها، وأفكارنا السامية ومبادئنا الوطنية التي تحملنا ونتحمل من أجلها كل هذا العذاب.

وقفت سيارات الشحن التي نقلتنا من بغداد أمام باب سجن بعقوبة المركزي الذي يقع خارج المدينة. تلقفتنا شرطة السجن (السجانة) وبينهم العريف المشهور (أبو كمال) من الموصل. تقع غرف إدارة السجن ومدير السجن إلى اليمين حيث سجلت أسماؤنا ومحكومياتنا. ثم كانت هناك غرفة ثم بوابة حديدية دخلنا منها الواحد تلو الآخر. وبعد الباب الحديدي على اليسار ساحة صغيرة وعدة قاعات، إضافة إلى غرفة انفرادي صغيرة في الوسط.وهناك باب صغير للدخول إلى الساحة الكبيرة، أي إلى القسم الثاني من السجن،تفصل بين القسمين بوابة حديد. وعندما تجتاز هذا الباب تواجهك غرفة صغيره على اليسار ثم قاعة متوسطة الحجم تليها غرفة صغيرة استعملت كمخزن فيما بعد، ثم قاعة كبيرة بعدها الحنفيات للتغسيل، ثم المرافق والحمامات. يأتي بعدها المطبخ ثم خزان مياه كبير تليه قاعة كبيرة. و مساحة هذا القسم كبيرة [حوالي ١٠ أمتار طولاً وأكثر من ٦ أمتار عرضاً]، القاعات كلها مظلمة لا تدخلها الشمس، ولكل القاعات أبواب حديدية يمكن إغلاقها.رأينا بعد دخولنا الرفاق موزعين على هذه

القاعات، تجلس أغلبيتهم على بطانيات عسكرية قديمة بلا أفرشة ويفتقدون إلى أبسط المستلزمات من الأفرشة والبطانيات والألبسة. حشرنا معهم في القاعات، كنا آخر وجبة سجناء تصل من السجون، ولكننا لم نكن آخر السجناء لأن المحاكم كانت مستمرة بإصدار الأحكام ضد المواطنين. كان السجن موحشاً، جدرانه الأربعة عالية محاطة بأسلاك شائكة ويقف فوق سطحه سجانة مسلحون.

لقد فرضت إدارة السجن شروطها وقوانينها على السجناء، لا أفرشة بل بطانيات رثة، وصارت تتصرف بالمواد الغذائية. السجناء العاديون يطبخون الطعام ويوزعونه على السجناء، يعدون شوربة العدس بدون تنظيف العدس في أوان (طاسات) نحاسية، بمعدل طاسة واحدة مملوءة لكل ٤ أشخاص. كنا نعثر أحياناً على الصراصير مطبوخة مع العدس. وحرمت إدارة السجن المدخنين من السيكاير إذ كان إدخالها ممنوعاً. فكان الحارس (السجان) يعطف على المدخنين فيلقى لهم سيكارة (لف) واحدة أو اثنتين فيتلقفها السجناء، يشعلها الأول ويأخذ منها نفساً واحداً ثم يعطيها لرفيقه الذي يأخذ منها نفساً ويعطيها للآخر وهكذا حتى تنتهي. ويكتفي من لا يصله الدور بشم رائحة الدخان الذي يخرج من أفواه زملائه فيقتنع أنه قد دخن أيضاً.

في البداية، وبعد المجازر التي دبرت للسجناء، كانت الأمور صعبة في سجن بعقوبة المركزي.

كان رفاق راية الشغيلة في القسم الأول من السجن و بعضهم بين رفاقنا في القسم الثاني، ولكنهم انسحبوا بعد مجيئنا مع رفاقهم في القسم الأول وتجمعوا هناك.

سلمت الوثائق التي أخفيتها في يدي المكسورة للتنظيم ولا أعلم ما بها. فتعجب الرفاق كيف تمكنت من الحفاظ عليها.

بدأت الأمور تستقر وتتغير ثم بدأت المفاوضات مع الإدارة لاستلام المواد الغذائية (الأرزاق) وطبخها من قبلنا عبر ممثلنا مع إدارة السجن الرفيق (مهدي حميد) [٨٧]. وصارت إدارة السجن تستجيب لكل مطاليبنا بفصل صمودنا وبدعم الحملة التي قام بها الحزب لنصرة السجناء.

كان معول الرفيق (آرا خاجا دور) يقوم بهدم الشبابيك والفتحات الصغيرة في القاعات المظلمة ليتم بعدها بناؤها بشكل أكبر، فتدفق النور من خلالها، رغم أن

الشمس قليلاً ما تزور القاعات. وسمح لنا بمقابلات ذوينا (المواجهات)، وإن كانت تتم قرب إدارة السجن وتحت مراقبة الشرطة في البداية، ثم انتقلت بعدها إلى داخل السجن في القاعات التي كنا ننام بها، ولعدة ساعات، فتدفقت علينا المواد الغذائية. ثم سمح بدخول الصحف، وبعدها أدخل راديو كبير منصوباً في وسط القاعة كان الرفيق (مكرم الطالباني) [٨٨]، الذي كان مسؤولاً عن الأخبار، مسؤولا عنه. كما بدأت تتدفق الكتب بصورة سرية وخاصة الكتب الماركسية والقصص والروايات، ونظمنا أنفسنا من جديد، وبدأ النشاط والتنظيم يدب في السجن إلى جانب الرياضة الصباحية والدروس المنظمة والمحاضرات في الاقتصاد السياسي، والفلسفة، والدروس والحلقات الخاصة بتدريس برنامج الحزب والنظام الداخلي والتجارب المكتسبة في التنظيم. وكانت النقاشات حول تطور الثورة الوطنية الديمقراطية وكيف تتطور إلى ثورة شعبية كشكل من أشكال الاشتراكية تأخذ حيزاً كبيراً من النقاشات. وكان هناك تباين في الأفكار حول الديمقراطية الشعبية في أوربا الشرقية وشكل الثورة الشعبية في الصين وطبيعتها. وزادت الترجمات والكتابات عن الثورة الصينية، وخاصة كتاب ماوتسي تونغ حول (الديمقراطية الجديدة) وكتابات (ليو شاوتشي) (كيف تصبح شيوعياً جيداً)، (تاريخ الوزارات لعبد الرزاق الحسني) و(قصص عراقية)، وكتب عن ثورة العشرين. أصبح السجن ورشة عمل فكري كانت النقاشات تدور حتى على وجبات الطعام، عن العراق وتاريخه وحضارته، وعن الأهداف والمهام التي صاغها الحزب إبان فترة قيادة الرفيق فهد.

وبهذا فشلت الخطة التي رسمت والمؤامرات التي حيكت ضدنا لمصادرة حقوقنا البسيطة من قبل السلطة ومديرية السجون العامة وتحويلنا إلى سجناء عاديين.ونفذت حكومة البعث منذ انقلابها الأمريكي في ٨ شباط ١٩٦٣ خطة تبليد السجناء وقتلهم بكل حذافيرها بهدف تجريدهم من كل الحقوق السياسية، ثم استكملتها بعد ذلك في انقلاب ١٩٦٨، ومازالت مستمرة بها فبنت سجونا جديدة تحت الأرض لا يعرف مكانها أحد، واستخدمت أدوات تعذيب مبتكرة لانتزاع الاعترافات من السجناء وإعدامهم بالجملة، ضاربة كل القوانين وحقوق الإنسان عرض الحائط.

كان لهذا التثقيف رغم قلة المصادر وقلة المعلومات، تأثير علينا نحن الشباب المتحمسين لزيادة معلوماتنا وتعميق وعينا الوطني والطبقي. وكان الكثير منا يقضي

كل وقته بالمطالعة والمتابعة والبحث والاستفسار من الرفاق القدامى. كان (الرفيق علي الوتار)[٨٩] عامل الحدادة متابعاً وقارئاً جيداً وخاصة لتاريخ العراق وكان يقرأ دوماً تاريخ الوزارات لعبد الرزاق الحسني وتاريخ الحركة العمالية والنقابية. كما كان الكتاب لا يفارق الرفيق (إبراهيم الحريري)، وهو أصغر سجين كان لا يتجاوز عمره آنذاك ١٧ سنة، ولا يفارق رسول رضا الجبوري وأنا، وكثيرين من السجناء.

استقالت حكومة نوري الدين محمود العسكرية [٩٠] في نهاية عام ١٩٥٣، وما أن شكلت حكومة مدنية حتى تقدمت الأحزاب الوطنية بمذكراتها مطالبة بإلغاء قرار تخلف الأحزاب كما طالبت بإلغاء الأحكام العرفية ورفع الرقابة عن الصحف. فنشبت موجة من الإضرابات العمالية منها في مشروع مصفى الدورة للنفط في بغداد في مارس ١٩٥٣ وإضراب عمال السكك في كانون الأول ليوم واحد. وامتدت موجة الإضرابات الى البصرة، فأضرب (٢٠٠) عامل في مصلحة نقل الركاب لمدة (٣) أيام وأضرب عمال اللاسلكي في الميناء، ويقدر عددهم بنحو (١٥٠) عاملا لمدة (٩) أيام، ولكن الموجة الإضرابية بلغت ذروتها عندما أضرب عمال شركة نفط البصرة (B.P.C) في ٥ كانون الأول ١٩٥٣. كما أضرب عمال السيكاير في بغداد، وعلى أثر تأييد العمال الآخرين لعمال النفط أعلنت الأحكام العرفية في مدينة البصرة لقمع الحركة العمالية دفاعاً عن شركة النفط الاستعمارية، فكان هذا أسلوباً جديداً لقمع الحركة العمالية [٩١].

وبعد سلسلة الإضرابات العمالية في مدينة البصرة، والتي نظمها كما علمنا فيما بعد الرفيق سلام عادل بعد خروجه من السجن، وإعلان الأحكام العرفية في البصرة، تدفق علينا في سجن بعقوبة قسم من الذين حكم عليهم المجلس العرفي وهم الرفاق كريم الأسدي [٩٢]، فريد كركوكلي، صادق جعفر، وغيرهم. وفي نهاية ١٩٥٣ ـ بداية ١٩٥٤ بدأ نهوض جماهيري نسبي في عموم الحركة الوطنية، واشتدت مقاومة المشاريع والأحلاف العسكرية الأنكلو ـ أمريكية، التي كان لبلادنا أن ترتبط بها. وأهم ما حدث في تلك الفترة هو تعاون الأحزاب الوطنية في جبهة انتخابية مشتركة لخوض الانتخابات. واتفقت الجبهة، التي تشكلت في ١٢ مايس ١٩٥٤، على نقاط برنامج مشترك منها:

١ ـ إلغاء معاهدة ١٩٣٠.

٢ ـ إطلاق الحريات الديمقراطية.
٣ ـ رفض المساعدات الأمريكية وجميع الأحلاف العسكرية.
٤ ـ العمل على إلغاء امتيازات الشركات الأجنبية وحل مشكلة البطالة.
٥ ـ العمل على إزالة آثار الفيضانات المدمرة.

وعلى أثر ذلك أقيم العديد من الاجتماعات الانتخابية لفضح الحلف التركي - الباكستاني العسكري وفسخ اتفاقية التسليح الأمريكية.. إلخ. وشنت الحكومة آنذاك حملة واسعة لإرهاب الناس وقسرهم على عدم انتخاب ممثلي الجبهة الوطنية، لكن الانتخابات جرت يوم ٩ ـ ٦ ـ ١٩٥٤ و فاز فيها عشرة مرشحين من ممثلي الجبهة منهم المحامي توفيق منير [٩٣].

كانت لدى السجناء عادات شبه ثابتة، وهي أنه عندما تأتي مجموعة جديدة، بعد مرورهم بالتحقيقات الجنائية ومراكز الشرطة وأصناف التعذيب الجسدي والنفسي الذي يمر به الشخص المعتقل، والأحكام التي تصدر ضدهم من المحاكم العرفية أو المدنية يزجون بالسجون لقضاء مدد محكوميتهم، أو عند خروج رفيق أو عدة رفاق بعد أن ينهوا مدة محكومياتهم. كان السجناء القدماء يقيمون لهم الاحتفالات اعتزازاً بصمودهم وبطولاتهم ومواصلة نضالهم بعد خروجهم، ينشدون لهم فيها الأغاني، مثل:

يا رايح للحزب خذني
وبنار المعركة ذبني
بركبتي دين أريد أوفي
على الأعوام اللي مضت مني
يا خي لو شبت النيران
وكربت ساعة العدوان
لو نادى حزبك الشجعان
تقدم واعتذر عني
حزبك دوم سالم وغانم
شوكة بعين كل عدو ظالم
ويقوده كل بطل حازم

سعادة للشعب يبني
أغنية ذات لحن جميل وهي:
من السجون تهفو القلوب
بحنين وباشتياق
رغم البعاد أي حنين
للجهاد مع الرفاق
عهد علينا يا شعب أن
نمحو الطغاة والخائنين
ومن دمانا سنطلع
الفجر المضاءَ للكادحين
الظلم لا ينهار
بغير التضحيات فيا قيود
طلي دمانا نحن أباة
نأبى السجون

وهناك أغان تمجد ثورة العشرين، ووثبة كانون ١٩٤٨. وكان هناك الكثير من الأغاني الشعبية الوطنية والقومية والأممية. ومنها أيضاً أغان ضد الانتهازيين وخونة الحزب [٩٤] التي يرددها السجناء [٩٥].

كانت هذه الأغاني والأناشيد تلهم السجناء العزم والتصميم على مواصلة النضال،و كان لدى الرفاق البصريين بعض الأغاني يغلب عليها ألحان " الهيوة ". ويقدمون أحياناً بعض العروض التمثيلية السريعة كما هو الحال حينما يصبغون وجوههم بالسخام الأسود ويغنون الأغاني الأفريقية فيصبحون سودا كالأفارقة. وقد اشتهرت هذه الأغنية في سجن بعقوبة بين السجناء، وهي تحوي نقداً لمسؤول السجن (حميد عثمان) ومنها:

مبروكه يا مبروكه [٩٦]
دايخ وأريد سويكه
دايخ وأريد غليون

خلي الربع يتونسون
يطلع منه فنون فنون
حجي مرجان [٩٧] عنتيكه
وبعدها يؤشرون على حميد ويقولون:
جان تعرف سياسة
هل الظلم شنو ساسه
لجوماكنياته [٩٨] ممنون
من أعماله بأفريكا
مبروكه يا مبروكه
دايخ وأريد سويكه

كان لهذه الأناشيد وقع جيد وتشد من أزر السجناء وتخلق جواً من الألفة بينهم وتغرس فيهم المفاهيم الوطنية.

قلت إن المواجهات مع العوائل أصبحت داخل قاعات نوم السجناء[٩٩]، ومنها نضجت فكرة الهروب، خاصة وأن الحزب كان يعاني من قلة كادره بعد الضربات التي تلقاها ١٩٤٩.

فكر (حميد عثمان وهادي هاشم وفرحان طعمة)، باعتبارهم من قادة الحزب، وبالتنسيق مع الحزب، بعملية الهروب. وقد تمت عملية هروبهم في يوم غير اعتيادي من ناحية كثافة المواجهات (الزيارات)، إذ خرج (حميد عثمان وفرحان طعمة) مع العوائل بعد أن تنكروا جيداً بحيث لم يستطع حراس السجن التعرف عليهم. إلا أن هادي هاشم لم يستطع الهرب معهم لأسباب فنية ورجع مع بقية الرفاق. وبعد رجوع السجناء وانتهاء المقابلات، دخل شرطة السجن (السجانة) للتعداد وقد رتبت الأمور بشكل جيد من قبلنا بحيث بدا تعداد السجناء طبيعيا والعدد مضبوطاً. خرج بعدها السجانة من السجن دون أن يشعروا بأن هناك سجينين تمكنا من الهرب. أما هادي هاشم فكان ينتظر مجيء اليوم الثاني من المقابلات ليلحق بهما أيضاً [١٠٠]. عادت إدارة السجن إلى التشدد بعد الهروب ومنعت المواجهات داخل قاعات السجن من جديد. كان السجناء قد أصدروا نشرة أقرب إلى المجلة سميت (السجين الثوري)، كانت تهرب إلى

خارج السجن، وكان الرفاق يعيدون طبعها في الخارج،أي في بغداد، وتوزيعها. كانت تحوي الكثير من المواضيع والتحليلات السياسية الهامة آنذاك بفضل الكادر المثقف والمتقدم الذي يصدرها ويحررها. كانت عملية الهروب تشكل تحدياً للنظام وعملية جريئة حقاً رفعت من معنويات الكثيرين، وكانت موضع إعجاب، ولكنها كانت لدى البعض الآخر ليست ذات أهمية كبيرة، لأن حميد عثمان لم يكن الشخص القادر على النهوض بالحزب إلى جانب كونه هزيلاً نظرياً ومتطرفاً سياسياً. التحق بالحزب وتسلم قيادته بعد هروبه في ١٦ حزيران ١٩٥٤، بعد أن كان الرفيق سلام عادل على رأس الحزب، وقد ورط عثمان الحزب بشعارات يسارية فارغة يصعب تحقيقها. منها رفع شعار (الإضراب السياسي العام) في أيلول ١٩٥٤، في حين أن وضع الجماهير لم يرتق لهذا المستوى، ثم رفع شعار (الكفاح المسلح) وبناء الخلايا الثورية المسلحة بالريف في كانون الثاني ١٩٥٥ ... إلخ. ونتيجة تطرفه هذا، الذي لا يلائم الوضع السياسي، أزيح في حزيران ١٩٥٥ وتسلم الرفيق سلام عادل قيادة الحزب.

كان الرفاق داخل السجن عبارة عن خلية متحركة و نشطة ومتفاعلة، فتذهب منذ الصباح الباكر مجموعة لصنع الصمون، وفرقة للطبخ وفرقة لغسل الملابس، وأخرى تهيء حمامات الغسيل والاستحمام وغيرها لغسل الأطباق الفارغة بعد الطعام. تلي ذلك عملية تنظيف العدس أو الرز التي يشترك فيها أكثرية الرفاق، وفرق "خفارات" لتنظيف القاعات والأفرشة. ولم يختلف النظام هنا كثيراً عن النظام السابق في سجن الكوت من ناحية الرياضة وشرب الشاي والتمشي والمطالعة والنشرات الأخبارية أو حفلة خطابية أو شعرية، خاصة هناك مجموعة من الشعراء مثل الشاعر (محمد صالح بحر العلوم) و ماموستا كوران الشاعر الكردي المعروف، ومحمد حسن المظفر وهو شاعر شعبي، وحميد المظفر المحامي من البصرة، وعزيز الحاج، وعدنان عبد القادر، زاهد محمد. هذا إضافة إلى مجموعة كانت تتعاطى الشعر مثل ناجي لازم، وعثمان دانش من سليمانية.

ورغم هذا الوضع المنتظم في السجن إلا أنه كانت تحدث بعض المشاكل والخلافات الفكرية أحياناً بين الرفاق،أو حتى انهيارات نفسية بين حين وآخر نتيجة الظروف الصعبة داخل السجن وقساوتها. ولكن خلق حياة جديدة وأجواء جديدة جعلت أكثرنا

ينسى أنه في سجن، إلا من خلال بعدنا عن العالم الخارجي وإحاطتنا بأربعة جدران عالية، تقف الشرطة وهي مدججة بالسلاح فوقها. كنا من مختلف الأعمار وفي وضع جديد غير مألوف عند أكثريتنا، إلا إن التفكير الجماعي، حيث الكل يحملون نفس المبادئ، والاحترام السائد بلا فرق بين كبير وصغير، صهرنا في بوتقة واحدة. كما ذكرت فإن كل السجناء قد مروا بمراحل النضال المعروفة، الاعتقال والتعذيب والاستنطاق، والنوم على أرض باردة في عز الشتاء، والعذابات النفسية والذكريات، الاختطاف من بين أحضان الزوجة والأهل ورجالات الأمن وهم يدوسون حرمة البيوت ويفتشوها، بين صراخ الأطفال ووجوم الأهل والخوف، والمطاردات والمداهمات الليلية، والمرور بمراكز الشرطة والمحاكم العرفية.

وكانت التحقيقات الجنائية التي يشرف عليها الإنكليز هي التي تمارس شتى أنواع التعذيب وانتزاع الاعترافات بالقوة من الوطنيين، وهي التي تحدد محكومية كل موقوف، دون محامٍ أو دفاع حقيقي تقرر محكومية المعتقل [١٠١]. كان بعض السجناء محكومين بأحكام مؤبدة تبلغ ٢٠ سنة وفق المادة (٨٩ آ) التي سبق وأن شرحتها. كل السجناء من الذين كانوا في السجن محسوبين على ملاك الشيوعيين وتفاعلت الظروف التي سادت السجون بعد المجازر وهروب (حميد عثمان) مع حاجة الحزب لكوادر الحزبية، بعد اتساع العمل الحزبي والديمقراطي، لجعل الرفاق يفكرون بعملية هروب جماعية عن طريق نفق تحت الأرض.

محاولة الهروب من سجن بعقوبة المركزي

إن هروب السجناء السياسيين من السجن لمواصلة النضال الوطني هو عمل مبرر ومشروع. فعملية الهروب بأية وسيلة من السجن، سواء عن طريق حفر نفق أو غيرها أو الهروب من مركز شرطة أو الإفلات من يد الشرطي الذي سيقودك للمشنقة أو يلقي بك في غياهب السجن، أمر مبرر ويحتاج أول ما يحتاج إلى الجرأة والتصميم والمبادرة والذكاء. وللشيوعيين والثوريين العراقيين تجارب عديدة في هذا المجال.

بعد هروب الثلاثة (حميد عثمان وفرحان طعمة وهادي هاشم) من السجن فكر الرفاق الباقون بالهروب عن طريق حفر نفق انطلاقا من الغرفة التي كانت تستخدم

كمخزن. بدأ حفر النفق بعد تخطيط جيد وبسرية تامة، لم تواجهنا في البدء مشكلة ولكن التوغل بالحفر أكثر جعلنا في مواجهة مشكلة الأتربة وعملية إخفائها، وكانت مشكلة جدية. ملئت في البداية أكياس كثيرة ووضعت في المخزن، كما تم تفريغ خزان كبير داخل السجن يستخدم لخزن المياه للاحتياط في حالة انقطاع المياه يستخدمها السجناء، وتم تفريغ الأتربة في داخله حتى تمت عملية حفر النفق. كانت غالبية السجناء تجهل بعملية حفر النفق، وكانت الشرطة (السجانة) تقوم بعملية العد والحساب كل يوم مرتين ولم تنتبه لشيء غير عادي رغم أنهم يدخلون المخزن والحمامات والمطبخ والقاعات. وبعد عملية الهروب عمل [١٠٢] عدد من الرفاق على النوم بدل الهاربين في القاعات، وبين رفيق وآخر كان ينام أشخاص وهميون، كأنهم نيام، وعندما يحين وقت التعداد يكون العدد صحيحاً فيخرج السجانة وترفع تماثيل الأشخاص حتى التعداد الثاني.

و ألقي عليهم القبض بعد هروبهم بيوم أو يومين عند جسر ديالى بعد أن شكت بهم الشرطة عدا عن رفيقين إثنين استطاعا الإفلات هما عبد اللطيف الرحبي وعزيز الحاج، الذي ألقي عليه القبض في بغداد فيما بعد. ولما عرفت الشرطة هويتهم، أبلغت إدارة السجن بالأمر، فنفت إدارة السجن الأمر [١٠٣] و قالت إنه لا وجود لعملية هروب وإن العدد الموجود صحيح. ثم دخل السجانة بشكل مفاجئ إلى السجن وكانت جميع التماثيل قد رفعت، وبدأوا بالحساب وعندما أتموا عملية التعداد وجدوا أن العدد ينقص حوالي ١٠ عن المجموع العام. أعادوا الكرة مرة ثانية وثالثة وعندئذ تيقنوا من عملية الهروب. قاموا بعملية تفتيش دقيقة فعثروا على النفق في غرفة المخزن وأغلقوه، أما الرفاق الهاربون الذين لم يحالفهم الحظ بالخلاص فنقلوا جميعاً إلى نقرة السلمان، بعدما أخذوا قسطاً من الإهانات. ثارت ثائرة إدارة السجن بعد أن اكتشفت النفق فبدأت بالتشديد علينا، فقلصوا المواجهات، وتشددوا في إدخال المواد الغذائية وصادروا الراديو، ومنعوا الصحف. لقد كانت عملية بطولية وجريئة، وكان لها صدى جيد بين الجماهير. ولكن للأسف باءت عملية الهروب بالفشل.

أصبح مدير السجن (علي زين العابدين) [١٠٤] يأتمر بأوامر التحقيقات الجنائية، وكان الوضع السياسي في بغداد والعراق عموماً متوتراً، حلت الأحزاب والنقابات

والنوادي ومنعت الاجتماعات العامة وأغلقت صحف المعارضة، وتم إسقاط الجنسية عن الشيوعيين توفيق منير وكامل قزانجي وغيرهما، وسحقت الحريات الشحيحة التي أعيدت بعد الأحكام العرفية ورجع نوري السعيد للحكم مرة أخرى. وكان قد حل المجلس النيابي الذي كسبت فيه الجبهة الوطنية (١١) مقعداً من أصل(١٣٥) عضواً وأصبح الرفيق (عمر إلياس) مسؤولاً للسجن، وهو من مدينة الموصل، وضم للجنة الحزبية عددا ممن يرتاح لهم. كان يسارياً متطرفاً وهجومياً وشجاعاً، بعد عمليات الهروب أخذت إدارة السجن، ومديرها علي زين العابدين، تتحين الفرص للهجوم علينا وإنزال العقوبات بنا.

كان مدير السجن علي زين العابدين وجلادوه يتقنون فن تعذيب السجناء الذين كانوا في القاعات القريبة من الانفرادي، يعيشون في زنازين صغيرة أشبه بالموقوفين ومحرومين من حقوق السجناء. يجلدونهم، ويشتمونهم، ويعرضونهم للضرب لأتفه الأسباب، يمنعون عنهم المواجهات مع ذويهم ويربطونهم بالسلاسل في ساحة السجن، كما كان عليه الشاعر المعروف ماموستا كوران، الذي كان مربوطاً والزنابير تلدغه من كل جانب.

كنا نحن في السجن المركزي نجهز الطعام والمواد الغذائية ونرسلها لهم، كما كانت ترسل لهم الأدبيات التي تصلنا سراً مع الطعام. كان الطعام يرسل لهم بصفائح من (التنك) تخبأ الأدبيات فيها بطريقة فنية ويحملها الشرطي بيده دون علمه ليعطيها للرفاق. انعكس توتر الأجواء السياسية بالخارج علينا، وكان لدينا راديو، نسمع به مجريات التطورات السياسية للثورة المصرية وتطورات الإعداد لعقد الحلف مع تركيا وحلف بغداد. كان علينا أن نسلك خط التراجع والهدوء حيث أصبحت الأوضاع في مصلحتنا، ولكن جرى العكس وصار التطرف هو الذي يسود تصرفات المسؤول الجديد للسجن.

في أحد الأيام نقل أحد الذين يسمعون الأخبار، وهو سجين من العمارة يطلق عليه (أبو علي)، أخباراً كاذبة مفادها، أن إضرابات ومظاهرات تعم بغداد والبصرة وبعض المدن الأخرى، وأنها أشبه بانتفاضة. وبدون تدقيق وروية واستشارة وقراءة للوضع السياسي، قرر الرفيق المسؤول ومن معه الخروج بمظاهرة داخل السجن. ودعا المسؤول

الرفاق للتجمع وبدأ بالخطابات الحماسية والهتافات الرنانة تنطلق بأعلى صوت لإسماع الرفاق في السجن الانفرادي وهو يقول: أيها الرفاق إن شعبنا ينتفض اكسروا القيود، وحطموا الأبواب والسلاسل.. يعيش.. يسقط.. وكان الرفيق بطرس ماربين يهتف بصوته الرنان الجهوري بالشعار المحبب إليه (تسقط العائلة المالكة المجرمة) وبدأ بعض الشعراء إلقاء الشعر. ولما هدأت العاصفة داخل السجن [١٠٥] طلبنا مصدر هذه الأخبار فقال الرفيق المسؤول إنكم لا تصدقون.. إلخ. استمرت المظاهرات السجنية حتى جاءت بعض العوائل لمواجهة أولادها، سألناهم عن الانتفاضة في بغداد والبصرة فقالوا لا يوجد شيء من هذا القبيل، يوجد جو إرهابي واعتقالات أوسع ومنعوا الشباب من مواجهتكم واحتجزوهم، وهكذا كنا ضحية الأوهام.

الهجوم على سجن بعقوبة

قلت كان يسود الوضع السياسي حالة تشبه الأحكام العرفية بعد تعطيل الصحف المعارضة وغلق الأحزاب والتهيئة لربط بلادنا بمعاهدة جديدة أشد سوءاً من معاهدة ١٩٣٠، أي حلف بغداد العسكري العدواني. لما ذهب المواجهون كان من المفروض الاتعاظ بما سمعه الرفاق منهم إلا أنه جرى منع الشرطة من دخول السجن وإعلان الاعتصام، ومنع مدير السجن علي زين العابدين من الدخول، وأعلن الإضراب الذي دام ثلاثة أيام.

لم يكن هناك أي مبرر لكل هذه الأمور المتطرفة، خاصة وأننا كنا قد خرجنا للتو من مجازر فقدنا فيها أعز رفاقنا في سجن الكوت وبغداد. والمعارضة لهذه الإجراءات تعني بنظر هؤلاء الرفاق، الخوف وعدم الثقة بقدرات الشعب!! وبعد منع الشرطة (السجانة) من الدخول للسجن، في اليوم الرابع صباحاً دبرت إدارة السجن خطة لاقتحام السجن ونحن نيام. نزلت مجموعة من أفراد الشرطة من السطح بالحبال وبيدهم الهروات في حين دخل قسم آخر منهم من الباب الحديد المؤدي للإطباق علينا، حفاة لا يسمع لهم صوت، مسلحين بالهروات أيضاً، وكنا منهكين من الإضراب والمظاهرات اليومية. وإذا بالهروات تنهال على رؤوسنا وأجسامنا من قبل السجانة الذين أوسعونا ضرباً وشتماً واحتلوا السجن. قيدونا بالحديد بأرجلنا، وعلقوا قسماً منا من أيديهم

بالسلاسل وشدوهم بالشبابيك، ثم حلقوا رؤوسنا وشواربنا، وأعطونا ملابس السجن،التي كنا نسميها (الكانه)، بدل الملابس التي كنا نرتديها. واحتلوا المخزن وأفرغوه من كل المواد الغذائية ونهبوها وكان يقود هذه الحملة الضابط الفاشل (علي زين العابدين). وانتهى هذا الفصل بنقل أكثريتنا إلى سجن نقرة السلمان و آلت هذه العملية الطائشة إلى انهيار عدد من الرفاق وتقديمهم البراءات.

الحياة في سجن نقرة السلمان

بعد عدة أيام من الحملة والهجوم واحتلال السجن نقلونا، نحن المجموعة الكبيرة والسلاسل الحديدية بأرجلنا والكدمات على وجوهنا وعلى أجسامنا، بالباصات الخشبية وتحت حراسة مشددة. وكنا نقرأ الأناشيد الوطنية طوال مسيرة القافلة في شوارع مدينتي بعقوبة والسماوة وطوال الرحلة التي دامت ٨ ساعات متواصلة من محافظة السماوة حتى سجن نقرة السلمان عبر الصحراء مروراً بمركز شرطة (عميد).

وسجن نقرة السلمان الصحراوي - الذي بناه الإنكليزي (كلوب باشا) الملقب (أبو حنيك) - عبارة عن سجنين، كانا سابقاً سجنا واحدا يسمى القلعة. ثم تم بناء سجن أضافي جديد إلى السجن الأول يضم حوالي عشر قاعات كبيرة وساحة طولها حوالي مئة متر وعرضها حوالي ٣٥ ـ ٤٠ متراً، وعلى جانبي الساحة تقع القاعات العشر، ثم المرافق والمطبخ وباب حديدي مقفل وغرفة صغيرة استعملت كصيدلية. ويحيط السجن سياج مرتفع من الأسلاك الشائكة، وهناك عدة ربايا للحراسة تحيط به، تفصل مسافة ١٠ ـ ١٥ متراً بين ربيئة وأخرى وفي كل ربيئة حارس مسلح. السجنان القديم والجديد متلاصقان يفصل بينهما جدار سميك وبينهما باب حديد صغير ويطل من السجن القديم شباكان حديد على ساحة السجن الجديد.

قبل نقلنا إلى سجن نقرة السلمان كانوا قد نقلوا إلينا الرفاق كريم أحمد وعبد علوان ودلي مريوش وتوفيق منير [١٠٦] من السجن الانفرادي، والذين شملهم الهجوم علينا أيضاً في آب ١٩٥٥. كانت السلطات قد نقلت جميع الرفاق تقريباً، من الذين هربوا من سجن بعقوبة وألقي عليهم القبض، إلى نقرة السلمان، و بعد مدة نقل المحامي توفيق منير إلى سجن نقرة السلمان أيضاً. كان في سجن نقرة السلمان سابقاً الرفاق

(بهاء الدين نوري، صادق الفلاحي، كامل السامرائي، باقر جعفر) [١٠٧]. إضافة إلى الرفاق اليهود المتهمين بالصهيونية أمثال (رودني وصالحون) والبقية من اليهود البسطاء المتهمين زوراً بالصهيونية، الذين كبلوا بعشرات السنين من الأحكام الثقيلة التي أصدرتها ضدهم المحاكم العرفية سنة ١٩٤٩ من أجل تسفيرهم لإسرائيل.

كانوا يقضون معظم أوقاتهم بتربية الدجاج وزراعة الخضراوات وتربية الحمام. وبالمناسبة فإن أرض السلمان يمكن أن تنمو بها الخضراوات والقطن والسمسم إذا ما توفرت لها المياه اللازمة.

كسرت السلاسل التي كنا قد كُبلنا بها في سجن بعقوبة، عولجت الكدمات والجروح التي أصبنا بها، واستقبلنا استقبالاً يليق بنا من قبل رفاقنا في السلمان.إذ كان لهروب الرفاق والهجوم علينا وصمودنا صدى جيد لدى الجماهير، وكان عاملاً من عوامل انتقاد الحكومة وزيادة السخط ضدها.

بدأت بعد أيام الحياة العادية في السجن: الدروس، الواجبات، الرياضة، المطالعة، الاجتماعات، التمشي، الحراسات الليلية.. إلخ.

شكلنا فريقا لكرة القدم من لاعبين ممتازين كانوا سجناء أيضاً مثل اللاعب المعروف (هادي عباس المحامي) الذي أصبح رئيس اتحاد كرة القدم العراقي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وخضر عباس من السماوة، وكريم الأسدي وأنا الذي كنت من اللاعبين الجيدين. الساحة شبه نظامية طولها حوالي ١٠٠ مئة متر رغم أن أرضها صخرية إلا أننا كنا قد أزلنا الصخور البارزة منها. وكان بيننا عدد من اللاعبين الجيدين على مستوى منتخبات الألوية والمدارس وخصوصا من بغداد والبصرة.

أصبح لفريق كرة القدم في السجن جماهيرية واسعة بين السجناء وخاصة العاديين. كنا ننتهز الفرص والمناسبات الوطنية والأممية لتنظيم مباراة جيدة من أحسن اللاعبين، وبالمناسبة أصبحت أنا مسؤول الرياضة في السجن.

كنا نخطط الساحة (بالنخالة) بعد نخل الطحين، وتنصب الأهداف والشباك، ينقسم السجناء إلى قسمين كل قسم يشجع فريقاً معيناً ويصعد سجناء القلعة العاديون (أي غير السياسيين المحكومين لأسباب مختلفة) بالحبال إلى الشبابيك ليشجعوا فريقنا وكان الفريق الذي نلعب معه (هادي عباس) وأنا يفوز دوماً، وكان صدى اللعب يستمر عدة أيام بين السجناء.

الحزب ينهض من جديد بقيادة سلام عادل

أصبحت الحياة عادية في السجن، كما كانت عليه في سجن الكوت وبعقوبة في الأيام الطبيعية، وتسلم الرفيق مهدي حميد مسؤولية اللجنة الحزبية بعد أن نحي (بهاء الدين نوري) من المسؤولية. دعانا مهدي حميد أنا ومجموعة من الكوادر للاجتماع، وكانت تطورات هامة تجري في الحزب والعراق ككل على أثر تنحيه حميد عثمان واستلام الرفيق سلام عادل لقيادة الحزب في عام ١٩٥٥. وكان ضمن حضور الاجتماع الرفيق (مدّ الله الراوي) وهو ذو شاربين كثيفين من أهالي مدينة (راوه) في الرمادي، كان يتكلم دوما بعصبية يتأرجح معها شاربا الى الأعلى والأسفل. وكان على علاقة سيئة مع حميد عثمان منذ كنا في سجن بعقوبة. كانت قد وصلت للسجن النشرة الداخلية (مناضل الحزب) وفيها قرارات اللجنة المركزية والخط السياسي الجديد والدعوة للجبهة الوطنية.

وفي هذه الفترة حدثت تطورات في الحزب غاية في الأهمية حيث تحققت الوحدة التنظيمية بعد حل كتلة وحدة الشيوعيين نفسها وانضمام أعضائها للحزب، ثم أعقبها حل كتلة راية الشغيلة وعودة أعضائها للحزب، وكذلك صدور جريدة مركزية باسم اتحاد الشعب بدلاً من القاعدة. تلا ذلك انعقاد الكونغرس الثاني للحزب ١٩٥٦ الذي رسم سياسة الحزب في ضوء التطورات الحاصلة في العراق وفي المنطقة العربية والعالم، انتخب قيادة جديدة للحزب وطرح العديد من المهمات الآنية الأكثر انفتاحاً وتفهماً للوضع السياسي والتطورات العالمية. وحدث كل ذلك بعد تنحية حميد عثمان، الذي ترك الحزب ولجأ للرفاق في راية الشغيلة، التي كان على رأسها الرفيق جمال الحيدري.

قرأت علينا الموضوعات التي وردت في مناضل الحزب فكانت موضع ارتياح وتقدير الرفاق بالنظر لاهتمامها بآفاق للنهوض بالحزب والحركة الوطنية وموضوعيتها في تناول الأوضاع السياسية والاقتصادية. وتضمنت نفس النشرة الداخلية قرار تنحية الرفيق حميد عثمان، واعتقد أن اسمه الحزبي كان (صابر)، من اللجنة المركزية، وبعد ذلك طلب الكلام الرفيق (مد الله) فقال إن كل ما ورد في النشرة خاطئ، فسألناه لماذا؟ قال ما زال حميد عثمان على رأس الحزب وهو الذي رسم هذه السياسة، ولهذا فإنها خاطئة، ضحكنا جميعا، ثم وضحت له الأمور، وكيف أن قرار تنحية حميد

عثمان موجود على الصفحة الفلانية وأن رفيقاً جديداً استلم مسؤولية الحزب فضحك وقال إذن هذه السياسة صحيحة!.

ومن الطريف في هذا الاجتماع ما حدث مع الرفيق عبد الرحمن منصور، وهو شيوعي قديم من أهالي الزبير، حينما اصفر وجهه وهو جالس وكاد يغمى عليه. كان قد خلع (البالطو) ومنهمكا في لعب كرة القدم عندما نودي عليه لحضور الاجتماع فارتدى البالطو بسرعة وانضم إلى الاجتماع. شعر وهو جالس بشيء يتحرك داخل ردائه فظن أنها حية - وما أكثر الأفاعي والعقارب السامة في حياة السجن - وأنه ميت لا محالة إذا ما لدغته. قلنا له اخلع البالطو بسرعة، كان متردداً وخائفاً وكنا قد أخذنا الحذر، فخلع البالطو فإذا هي فأرة بيضاء ركضت مسرعة لتختفي فانفجر الجميع بالضحك.

من الطريف أيضا أنه تم تعيين الرفيق الشهيد كريم الأسدي، الذي مر ذكره، خبازاً مع الرفيق آرا خاجا دور، وكان عليهما أن ينهضا صباحاً مبكرين ويذهبان إلى السجن القديم حيث موقع الفرن الذي يعملون به الصمون. كان الوقت صيفاً وأكثريتنا ينام في ساحة السجن، وكان على الرفيق كريم أن ينهض مبكراً، ينهض عندما يناديه الرفيق الخفر الليلي، يطوي فراشه ولا يزال النوم غالباً في عينيه، ويحمله على كتفه كي يضعه في القاعة ثم يذهب للخبز. ولكنه ذهب إلى المراحيض بدلا من أن يذهب إلى القاعة والفراش على كتفه، وجلس وهو شبه نائم في المراحيض وتأخر عن أداء مهمته. وهناك الكثير من المواقف المضحكة التي كانت تحدث في السجن، لكن يبقى السجن سجناً مهماً كان الأمر. كانت الأيام طويلة ومملة وقاتلة في سجن صحراوي بعيد وكانت الزيارات (المواجهات) قليلة ومتعبة ومكلفة للعوائل.وكانت الحياة تكرر نفسها يوميا رغم كل الأمور والوسائل التي كنا نعملها من دروس ورياضة وحفلات سجنية. كنا نودع الرفاق الذين ينهون محكومياتهم، ونادرا ما كنا نستقبل سجناء جدداً. في هذه الظروف القاسية التي مررت بها من مجازر وتعذيب وحرمان انتهت محكوميتي التي دامت ثلاث سنوات من الشقاء والأهوال.

العودة إلى بادية نقرة السلمان

بعد ثلاث سنوات عجاف مليئة بالأحداث والطوفان في السجون، من سجن الكوت والمجزرة إلى سجن بغداد إلى سجن بعقوبة وسجن رقم واحد وإلى سجن نقرة السلمان،خرجنا أنا والرفيق (حميد الدجيلي) في يوم واحد أوائل عام ١٩٥٦ من السجن.وعلمتني تلك السنوات العجاف الكثير وزادتني إيماناً بالقضية التي أعمل من أجل تحقيقها: السعادة للشعب.

تعذبت من أجلها وكدت أفقد حياتي، كما فقدها الكثيرون قبلي، رأيت أناساً يعذبون، وتسيل دماؤهم، ويقتلون وهم يهتفون للحياة للشعب وللحزب، مكبلين بعشرات السنوات من الأحكام الشاقة المؤبدة ودون أن تنكسر معنوياتهم. كنا أصحاب قضية و على قناعة بأن يوم انتصارنا قادم لا محالة. كنا نواجه عدوا قويا، مدججا بالسلاح، يمتلك كل مقومات القهر، وخبرة محلية وعالمية صقلتها خبرة الدول الإمبريالية في الانتصار على شعوبها والشعوب الضعيفة وخاصة بريطانيا الاستعمار الأقوى. لكن الشعب أقوى منهم جميعاً، ولابد أن يثور وينتصر.

وصادف مع إخلاء سبيلنا ،أنا والرفيق حميد، انتهاء محكومية إثنين من الصهاينة، هما (رودني وصالحون) ورودني هذا يقال إنه بريطاني الجنسية، صعدنا جميعاً السيارة المسلحة لنقلنا إلى السماوة ومن ثم إلى التحقيقات الجنائية في بغداد.

صعد رودني وصالحون قرب السائق وكانا غير مقيدين في حين قيدنا أنا وحميد بالسلاسل، وبالقرب منا كان يجلس شرطي مسلح. كانت الأتربة ورمال الصحراء تلفح وجهينا ونحن مقيدان بالسلاسل، والسيارة تشق الطريق الطويل. مرت أمامي صور صرائف الكادحين من عمال الميناء والسكك الحديدية في البصرة وأكواخهم التي كانت الرياح والزوابع تعصف بها وتتطاير في الهواء، وتغرقها الأمطار، وكادحي منطقة خمسة ميل (المصاليخ).وبعد مسيرة عدة ساعات وقفت السيارة أمام المركز شرطة (العميد) وهو مركز للشرطة في الصحراء جنوب السماوة، وبعد استراحة قصيرة واصلنا سيرنا حتى وقفت السيارة المسلحة أمام مركز شرطة السماوة، وهو المركز الذي يستلم المسجونين الذين يقادون إلى سجن نقرة السلمان أو القادمين من السجن إلى بغداد للمحاكمات وغيرها. فكوا قيدينا وسلمونا إلى شرطة المركز حيث أُدخلنا إلى

الموقف، أما رودني وصالحون المتهمان بالصهيونية فلم يسلّما معنا ولا أدري إلى أين ذهبا، لربما لأحد فنادق المدينة.

سفرنا بعد ثلاثة أيام إلى بغداد ونحن مقيدان بعد أن ودعنا الموقوفين، وكانوا فلاحين من مختلف أرياف مدينة السماوة متهمين بقضايا مختلفة أكثرها حول الأرض والنساء.

وصلنا إلى مركز شرطة السراي في بغداد وهو مركز رئيسي للتسفيرات وغيرها. كان في التوقيف الرفيق كاظم حبيب، وخليل الشيخلي ورجل دين من الأعظمية يسمى نفسه (أبو علي) [١٠٨] وهو متهم بانتمائه إلى حزب التحرير الإسلامي الذي كان مركزه في الأردن، رجل متنور ومنفتح يقرأ جريدة الحزب الشيوعي وبعض الكتب التي كانت تهرب للتوقيف سراً. يعرفه أكثرية الموقوفين والسجناء الذين مروا بمركز شرطة السراي حيث أن بعض المتهمين يبقون فترة طويلة بالتوقيف. وطبيعي أن يحفل الموقف بأنواع القمل والبراغيث وحشرة تسمى (تخته كالوس)،خاصة في فصل الشتاء، وكثيراً ما كانت بالوعات الموقف تفيض فتطفوا القاذورات والفضلات على مقربة من الباب الحديدي للموقف. وهناك إضافة إلى غرفة السياسيين، الذين يحشرون فيها كالسمك،قاعة صغيرة للموقوفين على قضايا أخرى، وأحياناً يأتون ببعض النساء المتهمات بمختلف القضايا. نودي علينا بعد عدة أيام أنا و الرفيق حميد الدجيلي واقتادتنا الشرطة إلى مكان آخر عرفنا أنه مديرية التحقيقات الجنائية، وهذه أول مرة ندخل فيها هذه المديرية الموجهة من قبل المخابرات الإنكليزية، والتي كانت مركزاً للرعب ومصدراً للتعذيب والرهبة والتحسس.

حشرنا في السرداب تحت الأرض، وكان فيه بعض الموقوفين، لكن مكوثنا لم يطل كثيراً إذ قادنا الشرطي في اليوم الثاني لوصولنا إلى غرفة المفوض (مولود). أتذكر هذا الشخص لكنني لم أكن أعرف أنني سوف أقابله مرة ثانية. كان طويل القامة، نحيفها، متعكر المزاج، طلب منا أسماءنا أولاً ثم طلب منا (إعطاء البراءة) [١٠٩] مهددا " وإلا سوف نرجعكم إلى السجن مرة أخرى ". وكان ردنا سريعاً عليه، إننا أنهينا محكومياتنا وكانت لمدة ثلاث سنوات، ولدينا محكومية الخضوع لمراقبة الشرطة لمدة سنتين، ولا شأن لنا بالبراءة. رفع رأسه ونظر إلينا شذراً وقال لي أين تريد أن تكون المراقبة متهكماً قلت له: أنا من مدينة البصرة وأريدها أن تكون في مدينة البصرة.

ثم وجه سؤاله لحميد: وأنت؟ قال له أنا من مدينة الكوفة وأريدها أن تكون في الكوفة. كان من حق المحكوم بمراقبة الشرطة أن يطلب المكان الذي يريده. نظر إلينا بتهكم ثم خرجنا منه إلى السرداب، وبعد يومين نقلنا إلى مركز شرطة السراي للتسفير، لنبقى يومين أو ثلاثاً، فرأينا الرفيقة أخت الرفيق ولي مريوش وكان ذلك الوقت اسمها (خيرية) وهو ليس اسمها الصحيح، ثم نودي علينا حميد وأنا لننقل إلى محطة القطار فرأينا شرطة البادية وعلمنا أننا سوف ننقل إلى نقرة السلمان.

كانت المحطة تعج بالمسافرين، ركبنا القطار النازل إلى البصرة بحراسة ثلاثة شرطة مدججين بالسلاح حتى وصلنا محطة مدينة السماوة.

فترة المراقبة في قرية قضاء السلمان

وبدلاً من تحقيق رغباتنا ونقلنا إلى مدننا لقضاء فترة محكومية مراقبة الشرطة بالقرب من أهالينا، قررت مديرية التحقيقات الجنائية،وهي الحاكم بأمره، نقلنا إلى قضاء السلمان وهذه المرة ليس في السجن وإنما في القرية.

بعد بقائنا في موقف مدينة السماوة، ولقائنا بأحد الموقوفين وهو من مدينة الموصل، نقلنا جميعاً بالسيارات الخشبية و الرمال والغبار يملأ صدورنا. وصلنا مساءً إلى قضاء السلمان وسجلت أسماؤنا في مديرية الشرطة ثم ذهبنا بمفردنا ولأول مرة بدون حراسة إلى القرية، وللبيوت المعدة لسكننا.

سكنا البيوت الطينية على بعد قليل من القرية، وبيوتنا تبعد حوالي (٣) كيلومترات عن السجن الذي كنا فيه. يقول أهل القرية إن هذه البيوت بناها العميل الإنكليزي كلوب باشا (أبو حنيك)، الذي خدم التاج البريطاني خدمة جليلة، والذي كان البدو يطلقون عليه سابقاً (أبو البويضة)، لأنه كما يروون كان يمتطي ويملك ناقة لونها أبيض ويغدق عليهم بكرمه من أجل تطويقهم وكسبهم، خاصة البنادق الجديدة بدل بنادقهم القديمة.

كنا حوالي ثلاثين مبعداً سياسيا [١١٠]، قضى بعضنا فترة مشتركة في السجن وارسلنا إلى نقرة السلمان لإنهاء محكومية المراقبة انتقاماً منا.

كانت المراقبة تقتضي أن نذهب مرتين لمديرية شرطة البادية، مرة في الصباح

وأخرى في المساء، لإثبات وجودنا وللتوقيع بحضورنا، يقود المركز المسؤول الأول عن الأمن وهو شرطي، بالإضافة لذلك كان هناك شرطي أمن مدني يراقب حركاتنا ويقدم كل يوم تقريره للمسؤول الأول عن اتصالاتنا بالأهالي وغيرها. وهو بدوي ذو شاربين أسودين كثيفين، لا يعرف القراءة والكتابة. وفي القرية عدة بيوت طينية لسكن الشرطة، وفيها مقهيان ومدرسة ابتدائية ومستوصف، وحلاق.

كان أحد معلمي المدرسة الرفيق (محمد الخضري) [111] يسكن هو ووالدته في أحد بيوت القرية التي تحتوي عدة حوانيت لبيع المواد الغذائية كالرز والطحين والسكر والشاي.. إلخ. أكبرها حانوت حاج مجيد، وله ولدان وهم من مواليد مدينة السماوة، جاءوا طلبا للرزق وفتح والدهم دكاناً في القرية. وفي القرية أيضاً عدة بساتين أكبرها بستان حاج علي، هي أرض زراعية تزرع فيها إضافة إلى كميات من الحنطة والشعير، البصل والسمسم والرقي والبطيخ. وفي كل مزرعة بئر لإرواء الأرض تسحب المياه منها بواسطة ماكنة سقي. وعلى بعد مسافة من بيوتنا كانت هناك بئر أيضاً لإرواء الإبل والماشية وأحياناً للسباحة، إضافة إلى أراض صغيرة لزراعة القطن. كان لدينا داخل السجن مزرعة تجريبية لزراعة القطن، الذي عرفنا أنه ينمو بشكل جيد في الصحراء. نظمنا في القرية أنفسنا وكونا لجنة مسؤولة كنت أحد أعضائها كما تعلمنا في السجن، وقسمنا الواجبات اليومية: الندوات والمطالعة، وشكلنا فريقا لكرة القدم من خيرة اللاعبين ولعبنا في فريق مختلط من أهالي القرية.

ومن خلال تواجدنا في القرية وطدنا علاقتنا بأهالي القرية، أقمت علاقة مع الرفيق محمد الخضري، الذي يسكن مع أمه، وكنت أزوره ليلاً وبسرية تامة. كنت أزوده بالجريدة والأدبيات التي تصل إلينا وأسمع منه آخر التطورات في القرية، وعرفت انه نقل إلى قرية السلمان نكاية به بسبب نشاطه السياسي في مدينته الخضر. كنت أزوره عندما يذهب الجاسوس (شرطي الأمن) إلى بيته وبعد أن يتأكد أننا موجودون في بيوتنا. وعن طريق الرفيق محمد أصبحت لدي علاقة مع ولدي الحاج مجيد، اللذين كانا يتعاطفان معنا، وكنت أكلفهما بمهمات بعد أن أصبحت لنا علاقة بمنظمة مدينة السماوة، فكانا يجلبان الرسائل والنشريات مع المواد الغذائية التي كانا يشتريانها من مدينة السماوة. وكان للرفيق محمد علاقة مع بعض عرفاء شرطة البادية، ورشحت

أحدهم للحزب بعد أن عملت معه عدة أشهر، كان يزودنا بالمعلومات التي تصل إليه، وكنت أزوده بالأدبيات وهو بدوره يعطيها لمعارفه الذين أصبح أحدهم المسؤول الأمني (مسؤول الأمن) بعد سحب المسؤول السابق. كنا نرسل الأدبيات لرفاقنا في السجن عن طريق الأصدقاء الذين يتعاطفون معنا.

وتوطدت علاقتنا مع الأهالي بفعل الاحترام والتقدير الذي يكنه الجميع، والدور الذي لعبه الرفيق (محمد صالح سميسم)، وكان طالبا في السنة السادسة بكلية الطب، وفصل من الكلية وسجن (٣) سنوات ثم أخضع لرقابة الشرطة. كان يزور المرضى ويعالجهم في بيوتهم، ويكتب لهم الوصفات الطبية التي كانوا يجلبونها من مدينة السماوة، كما كان أحياناً يولد النساء، رغم وجود المستوصف الذي يفتقد إلى أبسط مستلزمات العلاج. وكان الموظف الصحي سيئ السمعة، في حين يتعامل المرضى مع سميسم بثقة بالانتصار على المرض. كنا موضع تقدير الأهالي لالتزامنا وخدماتنا لهم، في إحدى المرات تزوج أحد أصدقائنا فتاة من عائلة أحد العرفاء، و قد دعا كل أهالي القرية، كما دعانا جميعاً لحضور يوم زواجه [١١٢]. جاء ضيوفه من البدو، وبعد أن رقصوا رقصتهم المشهورة حضر العشاء، جاءت وبعد ذلك في الليل فرقة من الغجر (الكاولية) وبدأوا الغناء. كانت إحدى الغجريات ترقص، وكانت هذه الراقصة شابة جميلة لوحتها أشعة الشمس، وأحياناً تجلس في حضن أحد الرجال فيضع في صدرها النقود وهذا يعني أنها معجبة بهذا الشخص، وجلست مرتين في حضني فلم أعطها شيئاً مما دعاني لترك الحفلة خجلاً من الحاضرين.

كان المخصص لنا من قبل الحكومة سبعة (٧) دنانير فقط لكل فرد شهرياً وهي مخصصات زهيدة جداً ولولا مساعدة عوائلنا لعشنا في ضنك.

ومما كان يساعدنا على المقاومة هو الحياة الجماعية التي تعلمناها في السجن وروح التعاون، كنا نأخذ من كل رفيق خمسة (٥) دنانير للغذاء المشترك والباقي لسد حاجاته الشخصية كالسيكاير وغيرها، وأثبتت الحياة المشتركة نجاحها عكس الأنانية والفردية.

أما على نطاق البلد والوضع السياسي في عام ١٩٥٦ وعلى النطاق العربي فكانت تجري تطورات هامة سياسياً، كانت تصلنا ونحن في عزلتنا هذه أخبار عن تحركات سياسية مناهضة للحكومة وتوتر الأوضاع.

إن الثورة في مصر عام ١٩٥٢ وما تبعها من خطوات ألهبت الشارع العربي والعراقي خاصة، كما حرك تأميم قناة السويس ١٩٥٦[113] والعدوان على مصر وخاصة بعد يوم ١٦ آب ١٩٥٦ عندما قرر الإمبرياليون في مؤتمر لندن الانتقام من مصر، الشارع العربي، فأعلنت الشعوب العربية إضراباً عاماً تأييداً لمصر. وقد أجرى الحزب اتصالات عديدة مع الأحزاب الأخرى في سبيل قيام جبهة وطنية تحقق أماني شعبنا وتواكب الركب العربي، فاجتمع ممثلو الأحزاب الأربعة: (الحزب الشيوعي والحزب الوطني الديموقراطي وحزب البعث العربي الاشتراكي وحزب الاستقلال) والديموقراطيون المستقلون في اليوم الأول لوقوع العدوان وانتخبوا قيادة ميدانية للمتابعة.

شمل الإضراب العام العراق ومصر والأردن وسوريا وليبيا والسودان والجزائر، ومراكش وتونس، ضد مؤتمر لندن. طالب الحزب [114] الانسحاب من حلف بغداد العسكري ومساندة الشعب المصري وقامت أكثر من (٢٠٠) مظاهرة في كل أنحاء العراق دامت أكثر من شهرين. واستشهد في يوم ١٩٥٦/١١/٣،في أثر إحدى المظاهرات المناهضة للعدوان الثلاثي على مصر،الرفيق الشيوعي عواد رضا تقي الصفار[115]، وكان أول كادر شيوعي يستشهد في المعركة لنصرة الشعب المصري. ونتيجة المد الهائل للحركة الوطنية أعلنت حكومة نوري السعيد الأحكام العرفية، واعتقل مئات الوطنيين من مختلف الاتجاهات السياسية، وفرضت على الشعب معركة دموية رهيبة لا سيما في مدينة الحي حيث حاصرت الشرطة المدينة. واعتزمت الجماهير أن تجعل من مدينة الحي (بور سعيد ثانية) لكن السلطة قصفت المدينة بالمدافع وأدت مقاومة الجماهير إلى سقوط عدد كبير من المقاومين من النساء والرجال وحتى الأطفال. واعتقل أكثر من (١٠٠٠) ألف مواطن وحكم على القائدين البطلين الشيوعيين (علي الشيخ حمود وعطا مهدي الدباس) بالإعدام ونفذ الحكم في ١٩٥٦/١٢/٢٩ في الساحة التي كانت تنطلق منها المظاهرات الجماهيرية [116]. كان الحزب يعتبر النضال السلمي هو الأسلوب الرئيسي والغالب ولكن بعد الأسلوب العنفي الدائم التي سلكته السلطة، وإغراق المظاهرات والإضرابات بالدم وخاصة ما جرى في مدينة الحي وإعدام الرفيقين، اعتبر الحزب أن الأسلوب السلمي غير مجد وأن الأسلوب العنفي المسلح وطريق القوة هو الأساسي. وبدأ الحزب يدرب رفاقه على استخدام السلاح، وكان الرفيق العسكري خزعل يدرب بعض الرفاق على استخدام السلاح في البيوت.

اشترك في العدوان على مصر بعد تأميم قناة السويس كل من إنكلترا وفرنسا وإسرائيل بمباركة الولايات المتحدة الأمريكية، وكان الإنذار السوفياتي العامل الحاسم في إيقاف العدوان إضافة لصمود الشعب المصري وبطولاته ومساندة الشعوب العربية له. ويسرد الرفيق زكي خيري في كتاب مذكراته الكثير من التطورات والأحداث المتعلقة بالعدوان الثلاثي.

بعد هذه الأحداث الجسيمة، و إعلان الأحكام العرفية، بدأ يتدفق على قرية نقرة السلمان عشرات المحتجزين من محامين وأطباء وسياسيين ومهندسين وعمال وكسبة وطلبة وكان من بينهم فؤاد الركابي[117]، والمحامي المعروف عبد الوهاب القيسي وأخوه عبد الستار القيسي طبيب الأسنان، وخالد عيسى طه المحامي، وعشرات غيرهم. أدخلوا جميعاً في سجن نقرة السلمان ليس كسجناء بل كمبعدين ويعاملون كمبعدين سياسيين ينامون ليلاً داخل السجن ويتجولون صباحاً في قرية السلمان. يصرف لهم ثلاثة أرباع الدينار يومياً، ويمنع علينا الاتصال بهم ولكننا كنا نلتقي وإياهم سراً.

كما أرسل عشرات غيرهم، على أثر المظاهرات وانتفاضة ١٩٥٦ التي كانت البروفة لثورة ١٤ تموز، إلى مناطق أخرى من العراق من المسرحيين والفنانين و جلهم من طليعة الشعب وعلمنا من هؤلاء المبعدين تفاصيل انتفاضة الحي ومظاهرات الشعب والموجات المتلاحقة من الاعتصامات والإضرابات والمظاهرات.

اشتدت المضايقات على رفاقنا السجناء وبدأ وضعهم في التدهور من سيئ إلى أسوأ على يد العسكري الفاشل المؤتمر بأوامر التحقيقات الجنائية (شهاب أحمد)، مدير سجن نقرة السلمان آنذاك. وهو لا يختلف عن مدير سجن بعقوبة، المطرود من الجيش كما علمنا لأسباب خلقية، فشن حملة ظالمة ضدهم وأعاد السلاسل والحديد إلى أرجلهم وانتزع أبسط الحقوق التي كانوا يتمتعون بها. ومنع الاتصال فيما بينهم ومنع عنهم مقابلات أهاليهم وأخذت تطبق ضد الوطنيين سياسة إرهابية قرقوشية، لحماية مصالح المستعمرين والانعزال عن الركب العربي الذي بدأ يتمرد كموجات البحر المتلاطمة.

ونتيجة للسياسة غير المنطقية التي مارسها نوري السعيد ورهطه من إرهاب وحبس الحريات الديمقراطية كانت جبهة المعارضة تتسع يوماً بعد يوم وتشتد معها

التناقضات بين النظام الدكتاتوري والشعب. وأخذ النظام يعجز عن تطبيق قوانينه والجماهير تتمرد ولا تعترف بما يدبره المستعمرون للعراق، والناس تنزل للشوارع محتجة ومتمردة، وامتد الوعي الى الجيش الذي هو جزء من هذا الشعب.

الالتحاق بالخدمة العسكرية

ونحن في لجة الأحداث والأخبار زارني والدي العزيز بالنقرة وقد فاجأني بزيارته وخاصة تحمله أعباء الطريق من البصرة إلى مدينة السماوة ومنها إلى بادية نقرة السلمان.

كان قدر صدر قرار حكومي يسمح للمحكومين الخاضعين لمراقبة الشرطة ولم ينهوها بعد بتداخل المراقبة بالخدمة العسكرية لمن لم يخدموا الخدمة العسكرية. كان هذا القرار ينطبق على الكثيرين منا ممن أنهوا سنة أو أكثر من حكم المراقبة وما زالت أمامهم مدة أخرى في مراقبة الشرطة. شملني هذا الإجراء، لأنه كان علي أن أقضي سنة أخرى تقريباً من حكم مراقبة الشرطة، وهكذا وبعد أيام من زيارة والدي لي وتنفيذا لهذا القرار، بلغت من قبل مديرية شرطة البادية بالنقل إلى البصرة للالتحاق بالجيش.

في معسكر قتيبة بالشعيبة

لقد كانت فرحتي عارمة عندما بلغت بقرار نقلي إلى مدينتي البصرة بعد هذه السنين الطويلة. سلمت ما لدي من تنظيم لأحد الرفاق، وودعت معارفي من أهل القرية، وأقام لي الرفاق حفلة توديع. وبعد عدة أيام سفرت إلى البصرة،إلى القاعدة البحرية، ومن ثم إلى معسكر (قتيبة) في منطقة الشعيبة، وهي القاعدة العسكرية للإنكليز سابقاً إلى جانب قاعدة الحبانية. جُمع في هذا المعسكر عدد من الطلبة وسجناء سابقون ممن أنهوا محكومياتهم أو معتقلون ويخشى إطلاق سراحهم.

كان في هذا المعسكر سلطان ملا علي، كاظم حبيب،ماجد عبد الرضا وأحمد مظلوم، الذي كان طالباً معنا، وعمال ممن شاركوا في إضرابات عمالية مثل السيكاير وفلاحون وكسبة ممن شاركوا في انتفاضة مدينة الحي التي مر ذكرها،في حين كان حكم الإعدام بعلي شيخ حمود وعطا الدباس قد نفذ. كان تجمعنا هنا لا علاقة له بالخدمة العسكرية الفعلية وما كمان إلا بدعة حكومية تتبعها السلطات لإبعاد وحجز أكبر

عدد ممكن من الوطنيين والتنكيل بهم، خاصة وأن زخم المعارضة الشعبية يزداد يوماً بعد آخر. كان التدريب على السلاح ممنوعا، ويشرف على المعسكر رئيس أول (داود سمعان) وهو من مدينة الموصل، ولديه مراسل يسمى (صدام) وهو ليس صدام الحالي. كما يعمل نائبا عريف تحت إمرة سمعان؛ يطلق على أحدهما اسم حمود وهو طويل القامة متعجرف ذو شاربين كثيفين صارم الملامح من أصل فلاحي غير متسامح عسكري نظامي، والآخر عكسه تماماً.

استلمت الملابس العسكرية من ضابط الإعاشة، وهو برتبة ملازم ثاني مسلكي كان سابقاً ضابطا في جيش الليفي.

علمت عائلتي بوجودي في المعسكر، وكنا جنودا في معسكر ولكن بدون تدريب على السلاح، وحشرنا جميعاً في قاعة واحدة كبيرة. ألقيت علينا في اليوم الثاني محاضرات حول الخدمة في الجيش (ومنها الطاعة وكنسٌ القاعة) وأهمية الالتزامات والواجبات العسكرية والعقوبات... إلخ. وكانت الالتزامات هي النهوض الصباحي، الفطور ويتكون من شوربة العدس والبصل والصمون الأسمر، وبعدها التدريب على المشي والانبطاح والهرولة والدوران، وبعدها الاستراحة حتى اليوم الثاني صباحاً.

يجرى التعداد المسائي من قبل الضابط الخفر أو العريف الخفر. والمعسكر،الذي يقع بالقرب من معسكر القوة الجوية، محاط بأسلاك شائكة من جميع الجهات. ويتألف المعسكر من ساحة العرضات ثم بناية مقر الآمر ومساعده وضابط الإعاشة، وغرف التوقيف والسجن الانفرادي. كانت الإجازات للجنود مفتوحة ولكنها قلصت بعد عمليات الهروب الجماعية، ثم منعت.وبعد عدة احتجاجات صار يسمح لنا بالنزول أزواجا إلى المدينة مع جندي حارس ومرافق. وعندما وصلت أنا إلى المعسكر كانت الإجازات يوم الخميس والجمعة قد منعت، و يلقى القبض على الهارب و يعتبر هارباً (قابضاً) و يغرم أو يسجن كل من ينزل إلى المدينة بدون علم.وتكون العقوبة مخففة ضد من يعود من ذات نفسه و يعتبر (نادماً)، إلا أن ذلك لم يحدث.كان الهدف من جمعنا هو عزلنا و تبليدنا،إذ كانت الصحف وسماع الأخبار من الراديو ممنوعة، الزيارات ممنوعة، التدريب على السلاح ممنوع، الاتصال مع الجنود الآخرين ممنوع، النزول للمدينة ممنوع، والاتصال بعوائلنا ممنوع. لكننا نحن، من قضوا سنوات في السجون

والإبعاد، وبعد الأهوال التي مررنا بها، وحرمنا من كل شيء حتى من زيارة ذوينا، لم نقف مكتوفي الأيدي و نظمنا الاتصال مع اللجنة المحلية للحزب في مدينة البصرة، فكانت ترسل لنا الجريدة والنشريات السرية وبعض القصص والكتب ونتداولها بيننا سراً. وفي إحدى المرات فتش العريف أفرشتنا فعثر على جريدة الحزب ولكنه أخذها وسكت ربما قرأها في بيتهم ولم يخبر عنها الآمر. يفرغ المعسكر من الضباط والعرفاء وجنود القاعدة الجوية تقريبا في يوم الخميس (ليلة الجمعة). ويحدث ذلك بالضبط بعد الساعة السادسة مساءً وبعد التعداد الليلي وذهاب الخفر ليرتاح. كان المعسكر كما قلت محاطا بالأسلاك الشائكة إلا أنه كانت هناك ثغرات فتحها الجنود للهروب منها والعودة للمعسكر عن طريقها. وهكذا كنت أتسلل بعد التعداد المسائي يوم الخميس،وبعد التأكد من ذهاب العريف الخفر، من المعسكر من هذه الفتحات. وبعد مسافة من الركض والمشي أصل إلى الشارع العام لأركب مع الباصات (اللوريات) المحملة بالحصو والرمل القادمة من الزبير والمتجهة إلى مدينة البصرة، فأركبها وأذهب إلى زيارة عائلتي والتمتع ببعض الراحة في البيت. أذهب إلى بيت أحد الرفاق لاستلم منه ما لديه من النشريات والمعلومات لآخذها معي للمعسكر وأصل قبل التعداد الليلي مساء الجمعة.

كان في المعسكر حانوت لبيع الشاي مع الحليب والمشروبات أنيطت مسؤوليته لجندي من عندنا اسمه (علي) من أهالي الحي جيء به مع أخيه ومجموعة أخرى بعد انتفاضة الحي، المدينة التابعة لمحافظة الكوت. وكان علياً لا يلتزم بالطاعة العسكرية ولا يحضر التدريب و أقرب إلى الشقاوات وكان العريف يهابه لذلك كلفه بإدارة الحانوت.

وهناك راديو كبير في الحانوت إلا إن سماع الأخبار من محطة أخرى غير محطة بغداد كان ممنوعاً علينا. كانت إذاعات صوت العرب والقاهرة ودمشق ولندن وغيرها ممنوعة علينا، وكان مراسل الآمر واسمه صدام كما قلت، برتبة جندي أول يراقب تحركاتنا والحانوت والراديو ويبلغ الآمر. انتهزنا فرصة غيابه وجئنا للحانوت لسماع الأخبار وكنا أربعة أو خمسة، طلبنا شايا وقلنا لعلي فتش لنا عن أية إذاعة غير إذاعة بغداد. عثر (علي) على إذاعة دمشق وكانت تذيع أخباراً عن المنطقة وآثام العدوان الثلاثي على مصر وعن المظاهرات والتجمعات لمساندة مصر ومن ثم التعليق الأخباري

عن العالم العربي... إلخ كنا متجمعين حول الراديو ومتعطشين لسماع الأخبار حينما دخل صدام، أغلق الراديو وطلب منا الخروج من الحانوت والتفرق.

غضب (علي) وقال له لماذا أغلقت الراديو ونحن نسمع إذاعة بغداد. فزعق المراسل قائلاً هذه ليست إذاعة بغداد. وحاول (علي) فتح الراديو ولكن صداما منعه، فما كان من (علي) إلا أن تشابك معه بالأيدي وهو الشاب القوي. فقمنا نحن المجموعة وبحجة منعهم من العراك كتفنا المراسل وأشبعه (علي) ضرباً حتى أدماه. ثم أطلقنا سراحه، فمسك قنينة وحاول ضرب (علي) بها وهرب بعد أن أشبع ضرباً والدماء تسيل من أنفه وفمه وهو يصيح بأعلى صوته قتلوني الشيوعيين، ثم دخل غرفة الآمر وأغلق خلفه الباب. اتصل بالقاعدة الجوية وضابط الخفر وأبلغه أن الشيوعيين احتلوا المعسكر.

بعد نصف ساعة جاءت أربع سيارات محملة بالجنود المسلحين ومعهم ضابط من القوة الجوية وكانوا بهيئة قتالية. احتلوا المعسكر واحتجزونا في القاعة الرئيسية.جاء المراسل وبدأ الضابط التحقيق مع المراسل، من الذي اعتدى عليك ولماذا ؟ شرح صدام الأمر ووجه التهمة إلى علي أولاً وإلى اثنين آخرين فأمر الضابط بتوقيفنا حتى اليوم الثاني. في اليوم الثاني قدمنا للآمر وشرحنا له الموضوع فأمر بسجننا أربعة أيام مع قطع الراتب الذي كان دينارا ونصف، أي نصف راتب الجندي المكلف.

ونتيجة الشدة مع المراسل صدام بدأ الاخير يغير سياسته معنا ويخافنا!.

كان التعداد المسائي يجري عادة مبكراً، خاصة في يوم الخميس، حيث ينزل الكثير من الضباط والمراتب والجنود إلى عوائلهم لعطلة يوم الجمعة. وبعد أن منعنا من النزول للمدينة كان يتفق عدد منا على الهروب والنزول إلى المدينة، عبر ثغرات الأسلاك الشائكة التي ذكرتها.ولم تكن محطة قطار الشعيبة بعيدة، فكان عدد من الهاربين يتوجهون إلى محطة الشعيبة حيث يتوقف فيها القطار لعدة دقائق متجهاً إلى بغداد فيصعد اليه الجنود الذين تقيم عوائلهم في مدينة بغداد أو مدن أخرى قريبة. يرجع عدد منهم ويسلم نفسه نادماً بعد أسبوع أو أكثر في حين يمتنع الكثيرون عن العودة فيلقى عليهم القبض ويساقون إلى المعسكر من قبل الانضباط العسكري. وعند ذلك يسجنون ويحكم عليهم بالغرامات.

هربت في أحد أيام الخميس، بعد التعداد المسائي، مجموعة منا عبر الفتحات متجهه

إلى المحطة بانتظار مجيء القطار. وكان نائب العريف حمود هو الخفر في تلك الليلة ولا أدري كيف علم بأمر هروب الجنود فأخذ جنودا مسلحين بسيارة المعسكر وألقى القبض عليهم وهم في المحطة بانتظار مجيء القطار، فأودعهم السجن حتى يوم السبت.

كنت أشتاق لمشاهدة مباراة كرة القدم بين فريقين حقيقيين. علمت أن مباراة نهائية لكرة القدم سوف تقام على الكأس بين فريقي مديرية الميناء وشركة نفط البصرة، الذي كان يلعب معه أخي شاكر، وهما أقوى فريقين، على ساحة نادي الميناء في المعقل.

فهربت مساء الخميس لحضور المباراة التي تقام بعد ظهر يوم الجمعة. ذهبت الى المباراة مساء يوم الجمعة وأنا أرتدي ملابسي العسكرية متشوقا لمشاهدة المباراة. كان جمع غفير من عشاق ومشاهدي الكرة حاضرين في الملعب. وكنت منزعجاً من فكرة الرجوع الى المعسكر بعد انتهاء اللعب، ولكن فرحتي لم تدم طويلاً إذ شاهدني صدام مراسل الآمر، الذي كان حاضراً المباراة، بعد بدء اللعب بعشرين دقيقة واللعب في أشده. ولم تمر خمس دقائق إلا والانضباط العسكري يلقي القبض عليّ ويسوقني قابضاً إلى معسكر القاعدة البحرية في الجبيلة. وفي اليوم الثاني رحلت إلى معسكر قتيبة لأسجن يومين مع قطع راتب!!

كان هذا الصدام وبالاً علينا ولكنه أهون بكثير من (صدام حسين).

متعلق بهامش ٩٤، ٩٥

نص أغنية (يااللي عقدوا النية):

يااللي عقدوا النية
حزب خربوه خفية
غاية قذرة ودنية
وللتحقيقات تفيد
كالوا حطمنه الشدة
والحزب ماله ردة
خايبين حزبنا بعده
وكل يوم بنصر جديد

نص أغنية(السجن ليس لنا نحن الأباة):
السجن ليس لنا نحن الأباة
السجن للمجرمين الطغاة
ولكننا سنصمد نصمد
وأن لنا مستقبل سيخلد
لنا الغد حيث تنصب المشانق للمجرمين الطغاة

نص أغنية (يا أمي لاتبكي عليّ):
يا أمي لاتبكي عليّ
وأنا المناضل ياهنيه
لأجل الشعب روحي أفديها
لأجل السلم والحرية
لو نزلوني بالقبر
لأهتف تعيش الشيوعية
لو وصلة وصلة يقطعوني
من حزبي ماجر أيديه

نص نشيد (حصن حزب أشاده فهد):
حصن حزب أشاده فهد
كيف تستطيع هدمه قرد
حزب فهد و حازم المخلصين
حزب فهد و صارم الثائرين
حزبنا رمزه النضال العنيد
به يرمي إلى نظام جديد
كيف يثنيه مجرم أو بليد
وهو للشعب قد غدا

الفصل الثامن

الهروب من معسكر قتيبة بالشعيبة

كنت على صلة دائمة بالمنظمة الحزبية في البصرة، وكانت تراودني باستمرار فكرة الهروب من العسكرية (المزيفة)، إذ ليس من المعقول البقاء في هذا المعسكر بعد كل تلك السنوات في السجن والإبعاد. كنت أشعر بضرورة الالتحاق بالحزب ومزاولة النشاط التنظيمي.

التقيت بالرفيق خضير عباس (أبو ماجد) مسؤولي ومسؤول البصرة عام ١٩٥٣ وهو يعرفني بشكل جيد، كما التقيت بالرفيق (محمد غضبان) سكرتير نقابة السكائر في بغداد. فاتحني الرفيق خضير بفكرة الهروب والذهاب إلى بغداد لمواصلة العمل الحزبي فيها، فوافقت فوراً، ووضعت جميع الاعتبارات الأخرى خلف ظهري، رغم احتمال أن تلفق لنا تهمة جديدة بعد إنهاء الخدمة العسكرية، قد تعيدنا إلى السجن أو تبقينا رهن الحجز والتوقيف، فربطت مستقبلي بمستقبل الحزب.

اتفقنا على اليوم المحدد وعلى أن نلتقي يوم الخميس في ساعة متأخرة من الليل في منطقة قريبة من ساحة (أم البروم) في العشار. كانت أمامي بضعة أيام من الانتظار حتى الخميس. بعد أن جرى التعداد المسائي تسللت من تحت الأسلاك الشائكة بسهولة واتجهت صوب الشارع العام بانتظار مرور سيارات الرمل القادمة من الزبير. أوصلتني السيارة حتى منطقة البصرة القديمة فركبت سيارة أخرى لمنطقة العشار، واتجهت مباشرة إلى البيت. خلعت الملابس العسكرية وارتديت الملابس المدنية. كادت الدموع تفر من عيني وأنا أودع والدي ووالدتي وأخوتي. فكرت: هل سيكتب لي رؤيتهم مرة أخرى ؟ كانت وجوههم تدل على أنهم يتوقعون فراقاً طويل الأمد. وحين رأيت الدموع في عيني والدتي كاد قلبي أن يتفطر ألماً فخرجت مسرعاً، تاركاً مشاعري وعواطفي عندهم.

التقيت محمد في الموعد لنذهب إلى بيت (چلوب)، وهو أحد معارفه، فصل من معمل السجائر ببغداد بسبب نشاطه النقابي فانتقل للعمل بالبصرة. كان خضير هناك أيضاً.

قررنا أن نتحرك إلى بغداد في الرابعة صباحاً من يوم الجمعة. أفقنا ومازالت المدينة تغط بنوم عميق، لا يكسر سكونها سوى حركة العمال الذين ينهضون مع (صياح الديكة) ليلتحقوا بركب العمل. تناولنا فطوراً من خبز و جبنة وشاي. ودعنا الرجل، (جلوب)، شاكرين له موقفه معنا.

سرنا نحن الثلاثة بخطى ثابتة نحو محطة السيارات الخشبية المتجهة إلى بغداد. لا نحمل وثائق رسمية ولا أية ورقة تثبت هويتنا. وبعد أن امتلأ الباص بالركاب والبضائع دفعنا الأجرة (١٥٠) فلساً، كما أتذكر، وصعدنا فوق سطحه وانطلق بنا، من دون مشاكل. وقف الباص في مدينة القرنة وقد غطتنا طبقة من الأتربة. التقيت بأحد الطلاب الذي كان معنا في ثانوية العشار، فطلب منا النزول في ضيافته، شكرته معتذراً وواصلنا المسير. انطلقت السيارة بعد أن تزودت بالوقود والماء. لنصل بعد مسير طويل إلى مدينة العمارة، ثم مدينة الكوت ومنها إلى بغداد دون أن تعترضنا سيارات الشرطة أو الانضباط العسكري.

وصلنا العاصمة بغداد في المساء. ولم أكن قد زرتها سوى مرة واحدة عندما كنت مراسلاً سنة ١٩٥٣، أحمل البريد الحزبي بين البصرة وبغداد.الشوارع مكتظة بالناس.. حركة السيارات لم تكن عادية أو مألوفة لدي بعد ذلك الهدوء في المعسكر وقبله في قرية السلمان.

أشار علينا (محمد غضبان)، الهادئ والصامت في أغلب الأحيان، أن من الأفضل الذهاب إلى بيت أحد أقاربه، فهو إنسان طيب رغم كونه شرطياً. قضينا ليلتنا في بيت قريبه الشرطي لننطلق في الصباح أنا وخضير(كان قصير القامة سريع الحركة لا تفارقه الابتسامة، أضافت حياة السجن إلى خبرته الكثير) وبقي محمد مع أقاربه لرؤية عائلته. توجهنا إلى نقابة المحامين لمعرفة خضير موقعها والشخص الذي سيربطنا بالحزب. سرنا في شوارع مكتظة بالناس، نفاجأ بين حين وآخر بالانضباط العسكري،فكنا نختلط بالناس ونزوغ منهم، فلو كشفوا أمرنا لأعادونا مخفورين إلى البصرة والحديد بأيدينا. ولكننا اجتزنا تلك المخاطر.

اخترقنا سوق الشورجة المزدحم ثم سوق السراي وشارع المتنبي. انتظرت في الشارع ليغيب خضير حوالي نصف ساعة. عاد أخيرا ليخبرني بأنه التقى أحد الرفاق وحدد ظهر الغد موعداً في بيته. رجعنا إلى بيت محمد وبقينا إلى اليوم الثاني ثم خرجنا نحن الثلاثة ظهراً. واتجهنا إلى سيارة كان سائقها ينادي " كرادة داخل أبو شجاع. نزلنا من السيارة لأحد البيوت الواقع في أحد الأزقة. فتحت الباب إمرأة ملتحفة بالسواد .وكانت هناك امرأة أخرى نائمة على الأرض ومغطاة بعباءة سوداء. لم يطل مكوثنا في الغرفة التي أدخلتنا المرأة إليها حتى دخل علينا شخص متوسط القامة يلبس نظارات طبية، صافحنا وهنأنا على سلامة الوصول. وبعد خروجه من الغرفة لجلب الطعام لنا، قال الرفيق خضير إنه المحامي حمزة سلمان [١١٨]. عاد الرفيق حمزة حاملاً بيده أطباق السمك المقلي مع الخبز والبصل.

أول لقاء مع الرفيق (سلام عادل) والعمل في مطبعة الحزب

بعد وجبة الغداء الشهية، دخل علينا شخص نحيف، تبدو على ملامحه الجدية، ذو نظرات حادة وثابتة، سلّم علينا وصافحه الرفيق حمزة سلمان (أبو سلام) بحرارة وكذلك الرفيق خضير ويبدو أنه يعرفه أيضاً، ثم صافحنا أنا ومحمد وجلس. تفحصت القادم الجديد وقدرت أنه رفيق متقدم في الحزب. أخذ الرفيق خضير جانباً وتكلم معه همساً. وكذلك فعل مع محمد. ثم التفت إليّ وقال لي :" أنت تأتي معي. هل لديك حاجيات؟" قلت:" كلا". بعدها نهضنا جميعاً وخرجنا أنا وهذا الشخص الذي كان مجهولاً لي، كما ودعت الرفاق أبو سلام صاحب البيت والرفاق خضير ومحمد.

كان الفصل صيفاً وفي طريقنا إلى الشارع العام أومأ إلى شخص كان واقفاً في نهاية الزقاق للحراسة والمراقبة كأنما يقول له إن كل شيء عادي، خاصة وأن بيت الرفيق حمزة لم يكن بيتاً سرياً بل بيتاً علنياً.

ركبنا سيارة تاكسي إلى زقاق شعبي عرفت فيما بعد أنه منطقة العوينة... سرنا مشياً على الأقدام في الأزقة الشعبية حيث مجاري تصريف المياه المكشوفة والبيوت القديمة، حتى أن بعض الجواميس كانت تسرح في تلك الأزقة. وأمام أبواب البيوت جلست النساء الشعبيات الملتحفات بالعباءات السوداء يتجاذبن الحديث ويغزلن. توقفنا أمام أحد البيوت، وطرق الرفيق الباب عدة طرقات قد يكون متفقاً عليها.

فتحت لنا الباب امرأة ودخلنا البيت إلى غرفة صغيرة مظلمة، تبينت فيها ثلاثة أشخاص بأيديهم حروف طباعية. بعد أن أشعل الضوء تبينت مطبعة صغيرة مركونة في الزاوية ومنضدة عليها حروف كثيرة وبقع من الحبر ورائحة الحبر التي تفوح في الغرفة. لم أفاجأ بل امتلكني شعور فياض من الغبطة والفرح، إذن أنا في مطبعة الحزب السرية. هذه المطبعة الصغيرة اليدوية التي تطبع فيها جريدة الحزب والبيانات الثورية التي كنت أوزعها في الشوارع والأزقة والمعامل وبيوت الكادحين والمدارس، لإلهاب مشاعر الجماهير. وهؤلاء الأبطال الواقفين خلف طاولات تنضيد الحروف لإصدار الأدبيات غير هيابين بما سوف يلاقونه لو أنهم ضبطوا في هذا المكان.لقد تحملت أنا وغيري أشد صنوف التعذيب من أجل النشرة السرية التي تطبع هنا.

نظرت للرفيق الذي جاء بي إلى هنا نظرة تقدير وشكر. وبعد أن سلمت على الرفاق الثلاثة نظرت إليهم وأشرت على أحدهم وقلت إنه يشبه عزيز الحاج. قلتها بشكل عفوي [١١٩] قال الرفيق : "يخلق من الشبه أربعين."سكت الجميع وهم يتبادلون النظرات. كان عليّ أن لا أقول ذلك، حسب قواعد العمل السري.

وبعد زمن من هذا اللقاء، أي بعد أن اعتقلت تعرفت على الجميع، وكان هذا هو أول لقاء مع سكرتير الحزب الرفيق سلام عادل، والآخرون كانوا: صبيح سباهي، وحزام عيال، ولطيف الحاج [١٢٠]. وكانت الغرفة الصغيرة رطبة يمتلئ جوّها بسحب دخان السكاير التي كان لطيف يدخنها ورائحة حبر المطابع.

كانت منظمة البصرة قد كتبت معلومات جيدة عني واقترحت (علمت فيا بعد) أنني أصلح للعمل في مطبعة الحزب.

غادرنا الرفيق سلام عادل بعد أن شربنا الشاي سوية.

بعد أن أنهى الرفاق عملهم، صعدنا للنوم على سطح الدار. ألقيت رأسي على الوسادة ونظرت إلى سماء بغداد الصافية المطرزة بنجوم لا حصر لها والقمر المشع يلقي بضوئه على سطح البيت.. دارت بي الأفكار كشريط سينمائي عن أيام النضال السجون، المجازر، الإضراب عن الطعام، المطاردات، الهروب، الحرمان وشظف العيش، فراق الأهل والأصدقاء، أيام المراقبة في نقرة السلمان والعسكرية في الشعيبة، لينتهي المطاف بي أخيراً للعمل في مطبعة الحزب السرية، هذا الجهاز الخطر الذي يحسب العدو له ألف حساب وعليّ أن أتحمل المسؤولية وأصون عملي كما كنت من قبل.

العمل في مطبعة الحزب يحتاج لمواصفات خاصة ينبغي أن تكون لدى الرفيق المنسب إليه :

١ ـ المبدأية، الوعي السياسي والقناعة بالعمل.

٢ ـ الشجاعة والجرأة.

٣ ـ الانضباط الواعي والتمسك بقوانين العمل السري والطاعة الواعية.

٤ ـ السلوك والمعاشرة والخلق الجيد مع من يعمل معهم، وإلا ينقلب العمل إلى جحيم.

٥ ـ التحلي بالصبر.

٦ ـ العمل دون إدعاءات وضجيج.

٧ ـ تحمل الظروف المعاشية السيئة.

٨ ـ الثقة بالمستقبل.

إن ظروف السجن علمتني الكثير من الصبر والتحمل.

كان علينا أن ننهض مبكرين في الخامسة صباحا، قبل بزوغ الشمس والنزول من سطح الدار لمواصلة النوم في الغرفة. ومن ثم النهوض في السابعة صباحاً وتناول الفطور الذي يتكون من صمونة مع قطعة من الجبن وشاي. ندخل ورشة العمل في الثامنة صباحاً للتدرب على الحروف وأنواعها وكيفية ترتيبها وتعلم مفردات أدوات العمل وأسلوب الحديث بصمت خشية الجيران. بعد دخول غرفة الطباعة لا يجوز الخروج منها إلا لقضاء الحاجة. وإذا ما طرق الباب لأمر ما فإن صاحبة البيت، وهي زوجة حزام عيال، مسؤولة عن فتح الباب. كما كان يتوجب علينا إيقاف العمل حتى يذهب الزائر وأن تخبرنا زوجة حزام قبل أن تفتح باب البيت ومن ثم تبلغنا بذهابه كي نستطيع مواصلة العمل.

يتوقف العمل فنخرج من الغرفة في الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى الساعة الواحدة حيث تكون فترة استراحة وغداء مكون من مرق بدون لحم مع قطعة خبز أو طماطم وباذنجان مقلية مع الخبز، والشاي في الواحدة. ويبدأ العمل حتى الساعة السابعة أو الثامنة مساء. يجري صف الحروف بدون صوت خلافاً لعملية الطباعة. الرفيقة الموجودة في البيت مسؤولة عن الصرف وعن إدارة شؤونه واليقظة إزاء أي حدث طارئ. وكانت صاحبة البيت امرأة شعبية تربي الجاموس وتبيع الحليب واللبن.

كنا نعيش على الكفاف، عكس ما كان يروج أعداؤنا بأننا نعيش في نعيم وبذخ.

كان الرفاق ينشغلون في البداية بعملية إصدار الجريدة وصف الحروف بعدها تأتي المرحلة الثانية وهي التصحيح. وبعد عملية البروفات تباشر عملية الطبع. وتلك كانت المرة الأولى التي أشارك فيها في عملية إصدار الجريدة المركزية للحزب.

كان صبيح سباهي دينامو العمل الطباعي بخبرته الطويلة ومعرفته بأمور الطباعة السرية.فهو الذي يشتري الورق من المطابع ويشرف على قطعه ويتدبر الحبر والكليشهات إضافة إلى عمله على الرونيو، كما كان طالباً في الصف الخامس الثانوي في المدرسة يداوم مساءً، وهو الوجه العلني للبيت. ومن خلال ربط العمل العلني بالسري واجه الكثير من المشاكل التي تغلب عليها بخبرته. عمل مع الرفاق محمد صالح العبلي وهادي متروك، وبهاء الدين نوري، يحب أغاني أم كلثوم، دمث الأخلاق، لا يزعج أحداً بكلامه مهما كان الوضع الذي فيه (انظر كتاب شهداء الحزب).ومع مرور الوقت تعلمت بسرعة مكان الحروف [١٢١] وكيفية تنضيدها حتى البدء بطبع الجريدة.

بعد مرور أسبوع زارنا الرفيق سلام عادل وكانت زوجة حزام تشكو من كثرة العمل والوحدة. فطلبنا من الرفيق أبو إيمان رفيقة أخرى للمساعدة. وبعد بضعة أيام جاءنا الرفيق عدنان جلميران ومعه رفيقة ترتدي الملابس السوداء. قدّرنا أن أحداً من عائلتها توفي أو استشهد[١٢٢]. كنا ننوي الانتقال من هذا البيت بعد أن ننهي طبع الجريدة.

بدأنا بطبع الجريدة المكونة من ثماني صفحات، يعمل إثنان على الماكنة، أنا والرفيقة صبيحة نقوم بعملية الطباعة، والرفاق لطيف وحزام بتوزيع وترتيب الصفحات. كان يتخلل عملية الطباعة الكثير من العراقيل.

ونحن في طباعة الصفحات الأخيرة زارنا الرفيق سلام عادل. من جملة ما قاله: "تأخرت الجريدة عن موعدها! الكل بانتظارها!" وبلهجة ودية طلب منا الإسراع بإصدارها. ورغم زيادة وتيرة العمل إلا أننا كنا نعمل حتى الساعة التاسعة مساء.

كانت غرفة الطباعة ملاصقة لجدار أهل البيت و العمل حتى الساعة المتأخرة منافياً لشروط التيقظ والحذر إذ لا يجوز العمل ليلاً مهما كانت الظروف، فصوت المطبعة قد يسمع بوضوح في الليل [١٢٣].

أنجزنا طبع الجريدة ورتبنا الصفحات وطويناها وعبأناها بصناديق من الكرتون

بفرح لا يوصف، وكان صبيح لولب العمل. مساء جاء الرفيق سلام عادل وأخذ قسماً منها، وجاء في اليوم الثاني ظهراً لأخذ القسم الآخر.

وكانت نساء المحلة يجتمعن عند الظهيرة وفي المساء أمام أحد البيوت وبيدهن المغازل. ورغم انشغالهن بالحديث إلا إنهن كن يراقبن كل حركة في الزقاق ويتابعن أي غريب ليعرفن أين يدخل ومن أين يخرج، فلم يستطع الرفيق سلام عادل الخروج إلا بعد أن خلا الزقاق منهن.

أخذني الرفيق صبيح ذات مرة معه لشراء كمية من الورق فدخلنا إحدى المطابع العلنية التي يتاجر صاحبها بالورق. وطلب صبيح منه بندي (رزمتي) ورق،فسأل صاحب المطبعة: " لمن هذا الورق؟". فأخبره صبيح دون تردد بأن لدينا مكتبة في الكرخ لتجليد الكتب وإنتاج الدفاتر المدرسية، وأعطى اسم مكتبة وهمية. فاقتنع صاحب المطبعة خاصة عندما رأى العشرة دنانيرثمن الورق.

أخبر صبيح العامل بكيفية تقطيع الورق وبأية أحجام، وقال له سنرجع في الساعة الثالثة لأخذه. قال لي بعد أن خرجنا تستطيع شراء الورق عند الحاجة من هنا. لفت انتباهي حديثه معي وكأنه سيتركنا ،وربما سأكون مسؤولاً عن شراء الورق مستقبلاً. دخلنا أحد الأزقة الضيقة في الشورجة ثم إلى أحد الخانات ففتح غرفة صغيرة في الخان تحتوي على دراجة هوائية كانت تستعمل لبيع الصحون ومطبعة صغيرة قديمة كانت تستعمل قديماً في الطباعة الحزبية. وكمية مكدسة من الورق وحروف طباعية قديمة بأحجام مختلفة وحاجيات أخرى.

قال لي صبيح عليك أن تعرف موقع الخان والغرفة وأنا مستأجرها بدينارين في الشهر ودفعت الأجرة لمدة ستة أشهرنضع فيها الورق الفائض، وعندما تحتاجون إليه تأخذه من هنا، والورق الذي تشتريه تضعه هنا، وتستخدم الغرفة أيضاً للمواد الزائدة وغير الضرورية كالحروف والحبر وغيرها. ويعرف صاحب الخان أن لدينا مكتبة لتجليد الكتب، وهو رجل أمي وطيب. خرجنا من الخان واشترينا علب كرتون وذهبنا لصاحب المطبعة ونقلنا الورق للخان. [١٢٤]

تيقنت أن صبيحاً سوف يتركنا و سأكون مسؤولاً عن تدبير مستلزمات الطباعة.

وقبل مجيء الرفيقة أم عواطف إلينا، انقطع صبيح رغم أهمية دوره وسافر إلى

المهرجان (مهرجان الشباب الذي أقيم آنذاك بموسكو). وأصبح من الضروري البحث عن دار جديدة كإجراء احتياطي بعد أن غادرنا الرفيق صبيح. وباعتباري غير معروف في بغداد كلفت بهذه المهمة وحددت لي منطقة الكرادة الشرقية داخل وخارج. ولأول مرة في حياتي هذه أكلف بالبحث عن بيت للإيجار، ابتدأت بمنطقة أبو أقلام. فكنت أخرج من الصباح أجوب الشوارع والأزقة لأعثر على بيت يصلح أن يكون مكاناً مناسباً للمطبعة. أخيراً عثرت عند مكتب دلالية في مفرق الكرادة على بيت للإيجار في الكرادة الشرقية. ذهبت مع الدلال لمشاهدة البيت، فوجدته مناسباً جداً لعملنا، حديقة صغيرة أمام البيت، صالة، ثلاث غرف في الطابق الأرضي وأخرى في الطابق الثاني، سطح واسع غير ملاصق لبقية الأسطح المجاورة وحديقة خلفية تفصل البيت عن الجيران. أخبرت الرفاق عن مواصفات البيت وعن مبلغ الإيجار وهو خمسة عشر دينار شهرياً، وهو مبلغ لم يكن بالهين آنذاك.

قابلنا صاحب البيت ودفعنا له إيجار ثلاثة أشهر مقدماً.

كيف انتقلنا إلى البيت الجديد في الكرادة الشرقية ؟

يعرف عمال المطابع وخاصة العاملون منهم في تنضيد الحروف، أن عدد قطع الحروف المصنوعة من الرصاص كبير جداً، فمثلاً حرف (ب) يوجد منه حرف ابتداء وآخر وسطي وثالث نهائي والـ(ج) كذلك وهكذا باقي الحروف إضافة إلى حجمها (بنط ١٢ و١٦ و٢٤)، والتي تستعمل للعناوين وسبق أن عددتها في صفحات سابقة. علاوة على الحبر والورق و و... إلخ.

وحسب الخبرة المتراكمة صنعت الرفيقتان أكياسا طويلة من القماش للحروف، فيوضع حرف (بـ) الإبتداء مثلا ويربط ثم (ـبـ) الوسطى ثم يربط مع (ب) الأخير ويربط وهكذا بحيث يصبح الكيس مثل المسبحة ويوضع داخل الأفرشة. إن ربط الحروف بهذه الطريقة يسهل عملية تنظيمها من جديد عند فتحها. فككنا المطبعة على شكل قطع صغيرة وقمت بنقلها إلى الخان مع قسم من الأدوات وباقي الحاجيات.

عندما رفع الحمالون الأفرشة وجدوها ثقيلة بشكل غير طبيعي فقال أحدهم "هذا فراش لو هنكلا نة؟" [١٢٥] فقلت إنها تحتوي على لعب الأطفال وغيرها. وتمت عملية النقل بسلام.

بدأنا بنصب المطبعة مجددا بعد أن نقلتها من غرفة الخان إلى البيت الجديد مع الحروف والورق واخترنا لها الغرفة الخلفية المطلة على الحديقة التي تفصلنا عن الجيران. وبدأنا بترتيب الحروف وأحضرنا كافة المستلزمات. بعد بضعة أيام زارنا الرفيق سلام عادل (أبو إيمان) وتحدث معنا باستفاضة عن الوضع السياسي. وكان فرحاً بوضعنا الجديد واستحسن كثيراً موقع وترتيب البيت. كان حضوره إلينا موضع تفاؤل وثقة وكان يطعم كلامه وشروحاته بنكات عديدة. وبعد أن قضى يومه معنا قال: إنكم الآن مهيأون للعمل، وراح يغني بصوت خفيض أغنية:

يا الرايح للحزب خذني

وبنار المعركة ذبني

برقبتي دين أريد أوفي

على الأعوام المضت مني

عند مجيئه في المرة الثانية جلب معه مواد للجريدة لطباعتها.

خلال تلك الفترة تعلمت كل ما يخص عملنا، من صب رولات (الوارلغ من) من الجلاتين، تنضيد الحروف وضبط أماكنها وتوزيعها ربط الحروف الجديدة، قص الورق، التصحيح (البروفات)، تنظيم الكراريس والطباعة على الماكنة. كنا جميعاً نتعاون على هذه الأعمال. أما في المطابع الرسمية أو الخاصة فلكل عامل اختصاصه، فالطباع غير منضد الحروف، وغير المتخصص بقطع الورق أو تنظيم الكراريس والكتب... الخ، أما نحن فكنانتعلم ونعمل في جميع تلك الاختصاصات..

استمر نفس نظام العمل وبنفس الطعام البسيط.كنا سبعة رفاق دائميين ونتقاضى ١٥ دينار شهرياً بضمنها السكاير. وقليلاً ما كنا نأكل اللحم، ولا نطلع على ما يدور في الخارج إلا من خلال بعض البيانات أو المقالات أو عند زيارة الرفيق (أبو إيمان) إلينا.

أصبحت الوجه العلني للعمل. فكنت أقوم بشراء الورق من المطابع العلنية. أخرج مع ذهاب الموظفين إلى دوائرهم، وبعد أن أنهي كل أعمالي، أعود بعد الظهر مع عودتهم إلى بيوتهم. كنت أجوب الشوارع وأتجول في محلات بعيدة عن المركز، والمحلات السكنية والشوارع التي أمر بها لا أعود إليها مرة ثانية، يساعدني في ذلك

بأني غير مكشوف في بغداد [١٢٦]. وهو إجراء جيد. فعندما ينكشف أي مناضل في مدينته ينبغي عليه الانتقال إلى مدينة أخرى وأن لا تترك الأمور للصدفة، كما حدث معي فيما بعد حين ألقي القبض علي.

كان من الضروري تلقين الأطفال بعض القضايا وخصوصا التعود على تغيير أسمائهم وأسماء آبائهم حين يسألهم أي غريب عن ذلك، وأن يكون خروجهم للعب في الشارع أو الاختلاط مع الجيران قليلا جداً. كما أنهم يحرمون من الدراسة لأسباب تتعلق بالصيانة بعض الأحيان.

في إحدى المرات ونحن في غمرة العمل منهمكين في تنضيد الحروف طرق جرس الباب مسجل الوحدات الكهربائية وهو يريد الدخول لقراءة العداد (الميتر). أخبرتنا الرفيقة أم عواطف بذلك مضيفة بأنها تعرفه واسمه (سالم عبد القادر)[١٢٧]. أطفأنا النور وجمعنا الورق المتناثر في الغرفة وغطينا الحروف ثم قلنا لزوجة حزام أن تدخله فدخل وسجل وخرج.

وحين حدد يوم تعداد النفوس العام في العراق لسنة ١٩٥٧، غادر الجميع إلا أنا وزوجة حزام وطلفتهما (انتصار) فسجلنا بأسماء أخرى[*] وتخلصنا من هذه المسألة العويصة.

بعد فترة انقطع عنا الرفيق أبو إيمان بعد التعداد العام للنفوس وجاءنا رفيق آخر كنت لا أعرفه ألتقي به [١٢٨] ولأول مرة، كان اسمه (أبو علي) وربما كان الرفاق الآخرون يعرفونه. كما رجع الرفيق صبيح سباهي إلينا من السفر وعاد للعمل معنا. وحدثنا بالتفصيل عن المهرجان والأغاني التي غناها العراقيون والسودانيون وغيرهم من الوفود المشاركة في مهرجان الطلبة و الشباب بموسكو. و بدا أكثرحيوية وتفاؤلاً. وكان قد حفظ بعض البستات الهزلية التي كان يرددها الوفد العراقي في جلسات السمر (ديوشكا ـ عليج الله ناوشيني عرق زين ومن أرجع أدري الحكم سنتين) [١٢٩].

ومما كان يردد الوفد السوري (يا موسكو حبيناك ومن سوريا جيناك ـ شعب الروس وشعب الشام عقدوا دروجبا بحماك، يا موسكو جيناك) [١٣٠].

ويردد بستات أخرى باللهجة السودانية الجميلة.

زرت البصرة ذات يوم والتقيت مع عائلتي وأخواني وكنت مختفياً طيلة وجودي.

ثم وبمساعدة أخي عادل رجعت إلى بغداد ومعي صفيحة من التمر التي كانت أحسن هدية لرفاقنا في المطبعة.

قبل رجوع صبيح، ومن بعد ذلك أيضا، كنت أقوم بكل المتطلبات كما طلب مني : شراء الورق وتقطيعه في المطابع وخزنه في الخان، جلبه لبيت المطبعة وقت الضرورة، وكذلك كنت أنقل المطبوعات على دراجة هوائية فأضع الكارتونات في السلة الكبيرة التي في مقدمتها وأوزعها حسب المواعيد المحددة أو أسلمها للرفيق (صالح دكلة).

لا شك أن عملاً كهذا تكتنفه مخاطر ومصاعب جمة،وكنا نتجاوزها أو ننفذ منها عن طريق الإلتزام بقواعد العمل السري والانضباط والصيانة والشعور بالمسؤولية.

كان الوضع السياسي في تلك الفترة يتطور بسرعة نحو التغيير، فيما أخذت سياسة الحزب تنحى نحو المرونة مع بقية الأحزاب في سعي لتشكيل جبهة الاتحاد الوطني التي تحققت في شباط ١٩٥٧ وكانت تتألف من : الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال. وكان حزبنا في ذلك الوقت يقدم المساعدة لحزب البعث في أمور الطباعة.

كان برنامج جبهة الاتحاد الوطني يتكون من خمس نقاط:

١ ـ إزاحة حكومة نوري السعيد وحل المجلس النيابي.

٢ـ الانسحاب من حلف بغداد وتغيير سياسة العراق بما يتفق مع توجه البلدان العربية المتحررة ومحاربة الانتهاكات الإمبريالية واتباع سياسة الحياد الإيجابي.

٣ ـ إطلاق الحريات الديمقراطية والدستورية.

٤ ـ إلغاء الأحكام العرفية.

٥ ـ إطلاق سراح المعتقلين السياسيين وإعادة ا لطلبة والمعلمين المطرودين لأسباب سياسية.

طبع هذا البيان في مطبعة الحزب يوم ٩ آذار ١٩٥٧ ووزع بنطاق واسع في كل أنحاء العراق. كما عقد الحزب، انطلاقاً من تمسكه بالقضية الكردية، اتفاقاً خاصاً مع الحزب الديمقراطي الكردستاني حينما رفضت الأحزاب القومية العربية قبوله في الجبهة.

و بقيادة سلام عادل، أصبح الحزب الشيوعي العراقي الناشط الأساسي في ساحة الصراع ضد الاستعمار والرجعية. وخاض الحزب معاركه الطبقية والوطنية على مختلف

الجبهات كالدفاع عن مصالح العمال والمساهمة الفاعلة في إضراباتهم التي عمت البلاد. وكذلك مع انتفاضات الفلاحين وإضرابات الطلبة والشباب وحركة رابطة المرأة والعمل بالجيش وأوساط المثقفين.

دأبنا على عدم إبقاء مواد ثقيلة فائضة في البيت بل كنت أنقلها للخان في الشورجة تحسباً للطوارئ، حتى إذا ما أردنا الانتقال السريع نكون بحمل خفيف.

في يوم ١٩٥٧/١٢/١٧ حسبما أتذكر، طلب مني الشهيد لطيف الحاج نقل كمية من الحروف الزائدة إلى الخان في منطقة الشورجة، فطلبت تأجيل الأمر إلى وقت آخر، لكنه أصر على ذلك بحجة كونها زائدة ولا نحتاجها. وأمام إصراره عبأت هذه الحروف في كارتونات ووضعتها أمامي في الدراجة الهوائية في الساعة الثانية ظهراً من نفس اليوم وانطلقت بها سالكاً طريقاً ملتوياً غير مزدحم. وحين وصلت قرب القصر الأبيض الواقع في منطقة السعدون (قرب مديرية الأمن حالياً)، صادفت شخصين يركبان الدراجات الهوائية فشخصت أحدهما، وكان الخائن (باقر جعفر) وبمعيته عريف التحقيقات الجنائية المدعو (حمزة). وسبق وأن ذكرت بأن باقر قد أصبح عميلاً وشرطياً في التحقيقات الجنائية. إنها صدفة غير متوقعة وباقر كان معنا في سجن نقرة السلمان ويعرفني حق المعرفة. فاجتزتهما وواصلت سيري كأنني لم ألمحهما. لكنهما سارا خلفي. زدت من سرعتي ودخلت أحد الأزقة وهما خلفي ثم دلفت إلى شارع آخر. وعندما لم أرهما تركت الدراجة الهوائية وهي محملة بالحروف في بستان كان قريباً وركضت مسرعاً ودخلت من فتحة تؤدي إلى صف من بيوت الطين والصرائف. اكتشفت أنه طريق مسدود وينتهي ببيت من الطابوق حائطه عالٍ جداً فدخلت آخر كوخ في الطريق. رأيت امرأة شعبية يبدو عليها أنها من أهالي الجنوب وسرير مصنوع من جريد النخيل ينام عليه ابنها المريض. دهشت المرأة وارتبكت من دخولي عليها بهذا الشكل وعقدت المفاجأة لسانها فبادرتها قائلاً إن الشرطة تلاحقني. قالت إن ابني مريض وأنا لوحدي في الدار ! جلبت لي ماء للشرب. ولم تمر دقائق حتى داهم البيت باقر و حمزة شاهرين مسدسيهما ومعهم بعض شباب المحلة، الذين دلوهم على البيت الذي دخلت فيه دون أن يعرفوا بأنني سياسي لأن باقر وحمزة أخبروهم بأني حرامي. وضعا الأصفاد (الكلبجات) بيدي وأخذاني معهما.عثرا على الدراجة الهوائية المحملة بالحروف

واقتاداني إلى مركز الشرطة القريب ثم اتصلا بالتحقيقات الجنائية ـ بقيت عدة ساعات في مركز الشرطة ـ وبعدها نقلت والدراجة إلى التحقيقات الجنائية الواقعة على نهر دجلة.

في التحقيقات الجنائية

التحقيقات الجنائية، بيت كبير فيه غرف عديدة يقع على نهر دجلة يضم مكاتب وأجهزة تعذيب مختلفة. يشرف الإنكليز على المكان ويمارس فيه التعذيب لانتزاع الاعترافات والبرا ءات على يد أشرس رجالات الأمن والشرطة السرية. وقد مر على هذا المكان خيرة أبناء الشعب من قادة وأعضاء أحزاب عدة وجرى تعذيبهم واستنطاقهم وإسقاط بعضهم سياسياً. لقد عذب فيه قادة الحزب فهد، سكرتير وباني الحزب الشيوعي العراقي ورفيقاه حازم وصارم، وفيه كانت تحدد الأحكام ضد الوطنيين والمحاكم تنفذها. مديرها الشرطي المخضرم بهجت العطية وهو من البصرة.

تلقفني أفراد الشرطة السرية بالصفعات والشتائم حال دخولي المبنى، ثم وضعت في غرفة صغيرة مظلمة فترة قصيرة ليفتح باب الغرفة الشرطيان(جبار) الملقب (أبو إيد المحروقة)، و(عبد) لينهالا عليّ بالضرب والرفس والشتائم. (شتم فهد، ستالين. جمال عبد الناصر... إلخ).

قيدت يداي إلى الخلف بالكلبجات الأمريكية (من أفضال النقطة الرابعة الأمريكية) وصعدنا إلى الطابق الثاني في البناية يقودني المفوض (فرج زيا) وشرطيان. أدخلت إلى غرفة مدفّأة وواسعة ومؤثثة بشكل جيد يجلس خلف منضدة كبيرة رجل بادرني بسؤال: "هل أنت شيوعي ؟" قلت: "كلا!" ومع كلمة كلا انهالت عليّ الصفعات. وبعدها وجهت لي عدة أسئلة من قبل هذا الشخص [١٣١]، من مثل : أين مكان المطبعة؟ لحساب من تعمل؟ أجبت بأنني لا أعرف.. وأعمل لحسابي الخاص...

أمر الشرطة بطرحي أرضاً وشد رجلي بحزام البندقية وعقد جلدها على قدمي وأمسك الشرطيان البندقية كل من طرف ورفعت قدماي للأعلى بعد أن نزعت الأحذية والجوارب. بدأ فرج زيا بالضرب على قدمي بواسطة سوط مصنوع من الجلد وملفوف بأسلاك حديدية رفيعة. كان الألم صاعقاً. وحين سال الدم من أصابع قدمي،أمرهم المدير

بالتوقف ففتحوا حزام البندقية وأوقفوني على قدمي ودفعوني خارج الغرفة. وأجبروني على الركض والمشي تحت وابل من الصفع والرفس.

وبعد ثلاث دورات من الركض أجلسوني وسكبوا الماء البارد على قدمي. كان الجو بارداً إذ كنا في شهر كانون الأول. أدخلوني الغرفة مرة ثانية وأعادوا الكرة بالجلد حتى سالت الدماء من قدمي. كاد يغمى عليّ من شدة الضرب ولكني لم أتفوه بكلمة واحدة، ولم أتأوه، وبقيت صامتاً.

توقف الضرب وحلت قدماي. وبعد أن استطعت الوقوف راح (توفيق) يشتم عبد الناصر والعروبة. أخرجوني من الغرفة وأجبروني على الهرولة،ثم سكبوا الماء على قدمي مرة ثانية.

انتهى الفصل الأول من المسرحية. بعدها أنزلت إلى الطابق الأول وأنا أسير بصعوبة شديدة، ليبدأ الفصل الثاني.

مرّ في مخيلتي مشهد الرفاق وهم يقفون الآن خلف المطبعة وينضدون الحروف، لطيف يدخن وصبيح يغني والكل منهمك بالعمل.

بعد فترة تم استدعائي لإعطاء الإفادة، اسمك، شغلك، سكنك... الخ.

كان باقر جعفر يعرف اسمي الحقيقي من فترة السجن، فقلت: بأني كنت طالباً وموظفاً في شركة نفط البصرة. انتزعت من مدرستي ووظيفتي ظلماً وسجنت وفق قانون الأحكام العرفية لمدة ثلاث سنوات.أنهيت مدة السجن بعد أن تعرضت للموت في سجن الكوت ثم سجني بعقوبة ونقرة السلمان. بعدها دخلت مراقبتي ضمن الخدمة العسكرية. قدمت إلى بغداد للعمل ولم أجد عملاً مناسباً. والحروف التي معي اشتريتها من إحدى المطابع وهي قديمة وأبيعها في سوق الصفارين الذين يصهرونها لاستخدامها في اللحام. وليس لدي مكان محدد أسكن فيه لأنني لا أعمل، وأنا لازلت جنديا في الشعيبة في البصرة ومنذ قدومي وأنا منقطع عن عائلتي.

إلا أن المحقق (مولود منير العاني) وكان من أشرس المحققين وأقذرهم، وهو الذي حقق معي ومع الرفيق حميد الدجيلي عندما خرجنا من سجن نقرة السليمان ١٩٥٦، قال : "إفادتك غير صحيحة، أين مطبعة الحزب؟ ومن يعمل معك؟ إلى أين كنت تنقل هذه الحروف؟. من أعطاها لك؟".. وغيرها من الأسئلة.

فأخبرته بأني قلت ما عنديّ وليس لدي علم بما يتكلم عنه. فنظر إلي شرزاً ثم صفعني بما يملك من قوة.. كان بمعيته ثلاثة من الجلاوزة المخصصين للضرب وهم جبار "أبو إيد المحروقة" وحسن وعبد الشرطي. دخل فرج زيا وقال: إنك من البصرة، و فرج زيا مفوض من البصرة،ولابد أن الباشا يعرف عائلتك [١٣٢].

في العاشرة ليلاً تقريباً، بعد أن انتهى الفصل الثاني من الضرب والاستنطاق، أخرجوني ولفوا رأسي (بيشماغ) أحمر وأركبوني سيارة لاندروفر وانطلقوا بي حتى الكرادة الشرقية وسوق رجوان حيث موقع بيت المطبعة. خفق قلبي خوفاً على الرفاق وقلت في نفسي لابد أنهم الآن في وضع محرج وأنهم قلقون عليّ (وكما علمت من أم عواطف فيما بعد، أنها عند الساعة السادسة مساء تنبهت لعدم عودتي فأخبرت الرفاق بذلك).

دخلنا في زقاق ضيق في منطقة تطل على نهر دجلة وتوقفت السيارة أمام قصر كبير. فتحت الباب الكبيرة ودخلنا القصر. وبعد فترة انتظار قصيرة أدخلت في غرفة أشبه بمكتب وبعد بضع دقائق دخل رجل طويل القامة أسمر اللون، نحيف. سلّم علي وقدم لي سيكارة وفنجان من القهوة العربية. قلت أنني لا أدخن ثم سألني ما الأمر. فتحدثت عن عائلتي وأعدت عليه نفس الإفادة التي أدليت بها في المديرية أمام المحقق مولود!.

فابتسم قليلاً ثم قال أنه غير مقتنع بكلامي وإفادتي: قال إنني حققت مع فهد وقابلت (مالك سيف وصبري عبد الكريم) [١٣٣] وكثيرين غيرهم. إن كلامك غير مقنع. نحن نستطيع مساعدتك بإكمال دراستك. وإعادتك للعمل، أو إرسالك للخارج للدراسة. نعطيك شهرياً (٥٠٠) دينار لمساعدة عائلتك.. وغيرها من الإغراءات. أين مطبعة الحزب ولمن هذه الحروف ومن أين استلمتها. وإلى أين تريد إرسالها؟ قلت له عن أي مطبعة وأي حزب تتحدث يا سيادة المدير أنا لا أعرف شيئاً من هذا القبيل.

فنادى على المفوض فرج وخرجت من الغرفة ليتلقفني زبانية التحقيقات بالتهديد ثم أوثقوا يدي وأخرجوني. في السيارة قال فرج كيف لا تقول الحقيقة للباشا سوف نريك حليب أمك.. وراح يتهددني طوال الطريق وأنا صامت.

انتصف الليل وأعياهم الضرب والتحقيق معي فاقتادوني إلى غرفة صغيرة عارية

من كل شيء فيها شباك كبير و يدخلها الهواء البارد من كل مكان. ربطوا يدي من الخلف وعلقوني بسلسلة حديدية مربوطة بمسمار كبير مثبت في الحائط. كانت أطراف أصابعي تصل بالكاد للأرض. أقفلوا الباب وبقيت معلقاً حتى الصباح. وكنت كلما أتحرك تضيق (الكلبجات) الأمريكية على معصمي، وتنغرز في اللحم والبرد يلسع جسدي، خاصة هواء الصباح البارد.

رغم كثرة اللكم والضرب والفلقة والجلد الذي تلقيت لم أكن أشعر بألم شديد. هذا شيء سبق لي أن تعرضت لمثله من حوادث في مجزرة الكوت.

ما شغل بالي هو حال رفاقي في المطبعة،فكنت أخشى أن يرتبكوا ويستعجلوا في اتخاذ إجراءات قد توقعهم بمثل ما أنا فيه.. سأتحمل ثقل القضية حتى لو فقدت حياتي وليكونوا مطمئنين، فلن استسلم لهؤلاء الأوباش ولن أشي بأي من رفاقي الذين ائتمنوني ووثقوا بي.

بقيت معلقاً حتى الساعة السابعة صباحاً حيث يبدأ دوامهم الرسمي. فكوا السلسلة من يدي، ثم بدأ الاستجواب مرة أخرى من قبل المفوض مولود العاني. كررت ما قلته بالأمس. ثم أضربت عن الكلام، كانت عملية اختبار لقدراتي على الصمود والتحدي. خطرت ببالي مجزرة الكوت وكيف واجهت الموت وجهاً لوجه في المسلخ وكيف تكسرت يداي، و لازال رأسي يحمل آثارتلك الجروح البليغة التي أصبت بها. فكل تلك التضحيات ستذهب سدى لو تفوهت بكلمة. وكنت أحياناً أتعامل مع الإهانات التي وجهت إلي ليس لكوني سياسياً وحسب، بل من زاوية الكرامة الشخصية والعناد ، وصور بطولات وصمود المناضلين ومئات السجناء المكبلين بعشرات السنين، الذين لازالوا في السجون من ضحايا هذا النظام وهذه الدائرة: "التحقيقات الجنائية" بالذات،تمثل أمام ناظري.

أرجعت إلى التوقيف،إلى نفس الغرفة ولكن دون إجراءات التعليق بالسلسلة. أعطيت بطانية عسكرية سوداء شبه بالية. فرشت نصفها على الأرض وغطيت ساقي بالنصف الآخر. وضعت حذائي تحت رأسي، تصاعد الألم في عموم جسدي، ولا أدري كيف ومتى أدركني النوم.

استمر هذا الحال لمدة ٣ - ٤ أيام. وبعد أن تأكدوا من أني عسكري هارب، كبلني

شرطيان مسلحان بالحديد وقاداني إلى وزارة الدفاع. واعتبر التحقيق معي منتهياً من أجل تقديمي للمحكمة، ربما محكمة عسكرية.وكانت الدراجة بصحبتي بما فيها من حروف.

أودعت في التوقيف مع مجموعة من الجنود الهاربين.تم في المساء نقلنا جميعاً إلى معسكر الرشيد في سجن رقم واحد. مررنا بشوارع بغداد الجميلة وعبرنا جسورها ومياه دجلة التي لا تتوقف عن الحركة، حركة الناس الدائمة في الشوارع وهم يمتلكون حريتهم إلى أي مكان يشاؤون.

في معسكر الرشيد شعرت بتغير المعاملة. أعطيت ثلاث بطانيات عسكرية فنمت نوماً عميقاً بعد تلك الفصول في التحقيقات.. في الصباح نخرج للتمشي.. كان الجنود ممنوعين من التحدث معي!!.

بقيت ثلاثة أيام في هذا السجن الانفرادي، في المساء أوصلني، مع الدراجة الهوائية، إثنان من الانضباط العسكري، بعد أن كبلت يداي، في سيارة عسكرية، إلى محطة القطار بانتظار التسفير. ولم أتوقع أنني سوف أسفّر إلى الديوانية حيث مقر الفرقة الأولى العسكرية بل كنت أتوقع أن أسفّر إلى البصرة،أوإلى الشعيبة.

وصل القطار إلى لواء الديوانية ومنها إلى مقر الفرقة الأولى. بعد عملية التسليم أودعت التوقيف وكان مملوءاً بالجنود الهاربين، أغلبهم من الفلاحين الفقراء. كان الجنود يلعبون الدومنة ويسخرون من الفلاحين الذين لازالوا بملابسهم المدنية ويدبرون لهم المقالب.

في صباح اليوم التالي قادني آمر التوقيف إلى غرفة قائد الفرقة (عمر علي)[١٣٤]. كان جالساً وخلفه ضابط استخباراته يمسك بيده حزمة من الأوراق.

بدأ السؤال بـ :" هل أنت شيوعي؟" أجبته بأني إنسان وطني كنت طالباً وعاملاً في شركة نفط البصرة سجنت والآن أنا في الخدمة العسكرية.

هل تعطي البراءة؟ قلت: كلا.

سألني :" أنت عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي؟" فأجبت بالنفي. أخذ وجهه بالإحمرار ثم سكت.اعتدل بجلسته قال: " أستطيع أن أجلدك مئة جلدة وأمام كل الجنود." قلت له بأنه يستطيع ذلك،فهو قائد الفرقة وأنا جندي عادي. ثم أضفت بأنني

لم أفعل شيء يستحق الجلد. أخذ يشتم الاتحاد السوفييتي وعبد الناصر عميل روسيا وامتدح الإنكليز الذين أدخلوا الحضارة وبنوا الجيش والجسور... إلخ وقال إن الأمريكان أشرف من الروس. أثارت شتائمه السخرية في داخلي. وبلهجة عسكرية أمرني بالخروج.

تلقفني الجندي الحارس وأدخلني إلى غرفة آمر الانضباط العسكري[١٣٥]. وحين سأل عن تهمتي أخبرته أني متهم بكوني شيوعياً. لمست منه حساً وطنياً، إذ أعطاني بعدها سيكارة وقدم لي الشاي، تحدثت إليه عن الوضع العربي ونهوضه وعن تأميم قناة السويس، وحركة التحرر التي تشمل كل البلدان العربية وتحرر مصر من الاستعمار الإنكليزي وتسليح الجيش المصري ودوره، وعن تخلف العراق عن الركب العربي وارتباطه بالإنكليز ودور الاتحاد السوفييتي والإنذار الذي وجهه لإيقاف العدوان الثلاثي على مصر. كان يصغي إليّ بانتباه، ثم قال بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ونادى على الحارس وأوصاه بي. شعرت أن الوضع في الجيش يختلف عنه في التحقيقات. وأن هناك شعوراً وطنياً وإحساساً بتخلف العراق عن الركب العربي. لم يطل بي المقام طويلاً في موقف مقر الفرقة العسكري في محافظة الديوانية. بعدها تم تسفيري إلى البصرة مع الدراجة الهوائية والحروف، لأودع في الموقف الانفرادي بمقر القاعدة البحرية في منطقة الجبيلة. في المساء جاء أحد معارفي من الجنود وجلب لي طعاماً وقال إنه سيخبر عائلتي، التي كانت على علم بخبر اعتقالي.

في اليوم الثاني جرى تسفيري إلى معسكر قتيبة في الشعيبة وأودعت التوقيف. بعد يوم من ذلك، تم تقديمي إلى الآمر فحكم بسجني أسبوعاً، باعتباري هاربا تم إلقاء القبض عليه. زجني الحارس في غرفة مظلمة توجد فتحة صغيرة في بابها الحديد. كنت فيها بمفردي، ومنع عليّ التكلم مع الجنود.

كنت أشعر بالغبطة رغم تلك المصاعب والتعذيب والتنقل من موقف إلى موقف، لأني لم أسمع أخباراً عن اعتقال آخرين. فكرت بأن الرفاق والمطبعة جميعاً بخير، ولابد أنهم تأكدوا من صمودي وصيانتي لشرفي الحزبي، ولابد أن مطبوعات الحزب سوف تصدر أو صدرت وسيقرأها الكادحون وباقي أبناء المجتمع، ولابد أن لصمودي صدىً واسعاً بين الرفاق والناس. ورغم فرحي ذاك كانت بعض الظنون تراودني. فكان أشد ما أخشاه أن يرتبك الرفاق، بعد غيابي عنهم ومعرفتهم باعتقالي، ويحاولون الانتقال ويعرضون أنفسهم لمخاطر غير محسوبة.

بدأت أفكر بالهروب، ثانية، وبأي وسيلة. ولم يدم ذلك طويلاً. فذات مساء جاء أربعة جنود مسلحين ومعهم كتاب رسمي باستلامي وتسفيري فوراً إلى بغداد. وضعوا بيدي أصفاداً متصلة بسلسلة واقتادوني إلى سيارة عسكرية نحو محطة قطار الشعيبة. وصل القطار، الذي يقطع المسافة بين بغداد والبصرة في يومين تقريباً،إذ يتوقف في جميع المحطات ليلاً. مع بدء الرحلة راحت الأتربة تتصاعد داخله. أمضيت السفرة بلا نوم أو استراحة إذ كانت يداي مربوطتين بالسلسلة إلى أحد الكراسي. وبعد معاناة الطريق الطويل وصلنا صباحاً إلى بغداد.

كنت طوال الطريق أفكرلم تم استدعائي بهذه العجلة؟ هل ألقي القبض على الرفاق؟ هل اعترف أحدهم وذكر اسمي؟ وهل...؟ وهل...؟ ولم هذه المعاملة القاسية من الجنود؟ واستنتجت أخيراً بوجود مستجدات ولابد أن هناك خيانة وانهيارات، خاصة وأن أكثر الضربات التي وجهت للحزب جاءت بسبب الانهيارعند التحقيق أوالخيانة. لكن من منهم انهار؟ ومن هو الحلقة الضعيفة في هذه السلسلة؟ استعرضتهم واحداً واحداً، سلوكهم تصرفاتهم، ولم أصل إلى جواب.

ومن محطة القطار في بغداد مباشرة إلى وزارة الدفاع. كنت أرتدي الملابس العسكرية.سلم الجنود كتاب الاستدعاء إلى شعبة الاستخبارات العسكرية. وبعد وصول ضابط استخبارات واطلاعه على الكتاب الرسمي، قال: هو مطلوب في مديرية التحقيقات الجنائية.

استلمني عريف من وزارة الدفاع و بعد أن قيدني قادني عبر السراي. فكرت بالهرب والإفلات من يده وسط ذلك الزحام، إلا أن الفرصة لم تكن مواتية، خاصة وأن يداي مقيدتان ومشبوكتان بسلسلة طويلة. دخلنا مديرية التحقيقات الجنائية. وحالما وصلنا أمام غرفة المعاون (فزاع فهد)، انهال عليّ أفراد الشرطة السرية بالضرب. صعق الجندي الذي رافقني وأراد التدخل، ولكن أفراد الشرطة وقعوا له بالاستلام وقادوه إلى خارج المديرية. أخذأحدهم السدارة العسكرية من على رأسي وهو يقول إنني لا أستحق الشرف العسكري.

وبعد هذا الفاصل من الضرب والشتائم أدخلت على المعاون (فزاع فهد) فابتسم قائلاً:" لماذا لم تخبرنا الحقيقة منذ البداية؟" ثم أضاف بأن الأستاذ (حزام عيال) اعترف علي وعلى كل شيء. أخرج من منضدته ملفاً ضخماً وطلب مني قراءته، وهو يكمل:" هذه اعترافات حزام!". قلت له إني لا أعرف حزام وليست لي علاقة بما ذكر. ضرب الجرس وطلب إحضار حزام من التوقيف. دخل حزام وكان بكامل صحته ولا تبدو عليه آثار تعذيب، إلا أنه كان متخاذلاً ومنهاراً وشكله مقرف.

سأله فزاع المعاون هل كان سليم معكم في بيت المطبعة. أومأ برأسه بتخاذل بمعنى نعم. بعدها قال حزام إن كل شيء قد انتهى، وأخرج من الغرفة. لم أفق من الصدمة إلا و المعاون يسألني:" ماذا تقول الآن؟" قلت أنا لا أعرفه ولأول مرة أراه. ابتسم ثم أمر بإخراجي من الغرفة. وبعد سيل من الشتائم قيدوني ووضعوني في غرفة صغيرة مظلمة تحوي على طاولة وكرسي وفيها شباك مغلق ملاصق لغرفة مطبعة التحقيقات وتتبع للمفوض عبد الله مسؤول النقليات.

إذن حزام هو الذي اعترف، فمن الذي معه وأين ألقي القبض عليه، وكيف؟ وأين البقية؟ وهل كبست المطبعة أم لا؟ كانت دوامة التفكير والاستنتاج تلفني وتضغط على رأسي: أتحمل صنوف التعذيب الجسدي والنفسي لصيانة الرفاق، وأخيراً ينهار كل شيء! لقد تحققت هواجسي، ولم يدم بقائي في هذه الغرفة. أخرجت إلى ساحة التوقيف لأرى مجموعة من الموقوفين بينهم لطيف الحاج وصبيح سباهي ورفيق آخر عرفت اسمه فيما بعد وهو سليم المرزا من النجف، وأحمد شبيب من البصرة وآخرين لا أعرفهم من ضمنهم حزام عيال.

حشرت معهم و كنت حليق الرأس وبالملابس العسكرية. تيقنت أن اعترافات حزام هي سبب وجودهم هنا. ثم جيء بصاحب الخان، ثم صاحب البيت الذي كنا نسكنه في الكرادة الشرقية ورجل آخر لا أعرفه. وبعد أن أوقفنا صفاً واحداً جاء صاحب الخان ليشخصنا، فلم يتعرف على أي منا.

كان حزام قد اعترف على غرفة الخان، وتمت مصادرة كل ما فيها. ثم جاء صاحب البيت وأخذ ينظر إلينا وقال لا أستطيع اتهام أحد. ثم سألوا الرجل الذي معهم فقال لا

أعرفهم. أخذهم، المعاون وشخصنا لهم على ضوء اعترافات حزام. خرجوا من الغرفة بعد تهديدهم وأخذوا ينظرون إلينا مرة ثانية وأشاروا إلينا أنا وصبيح وانتهت المسرحية. أدخلوا الجميع إلى غرفة الموقف وبقيت أنا في الساحة لوحدي ثم خرج المفوض لطيف وضربني، بكل ما أوتي من قوة، على وجهي، ضربة لم أوفق بنسيانها. اقتادني بعدها إلى غرفة النقليات. قيدت يداي بسلسلة وربطت بشباك الغرفة،ثم قيدت قدماي بسلسلة طويلة إلى خارج الغرفة وربطت بشباك المطبعة التي تطل على الساحة، بحيث لا أستطيع التحرك وأوقفوا شرطياً حارساً بباب الغرفة. أعطوني بطانية بالية لأنام عليها دون غطاء. كانت الأرض باردة والغرفة مظلمة، نتنة مشبعة برائحة البنزين، وتيارالهواء البارد يمر عبر باب الغرفة المفتوحة. كنت أتلوى من البرد ولكن دون جدوى.

القضية كما عرفتها لاحقاً من أم عواطف والرفاق الآخرين؛ في يوم ١٩٥٧/١٢/١٧، وبعد إلقاء القبض عليّ تنبهت الرفيقة صبيحة (أم عواطف) لعدم رجوعي حتى الساعة السادسة مساء فأخبرت الرفاق بذلك. عقد اجتماع للموجودين، وطلب منهم تحديد الموقف، وكان الرفيق جمال الحيدري (أبو علي) على موعد معهم. قالت (أم عواطف) أنا لا أعرف الرفيق ولكنني واثقة منه، فاقتنع الرفيق (أبو علي) بكلامها، وقال إن حدس الرفيقة فيه شيء من الواقعية. الرفيق صبيح وبقية الرفاق أصروا على ضرورة التفتيش عن دار جديدة والانتقال من هذه الدار. خرج الرفيق جمال وصبيح والرفيقتان صبيحة وزوجة حزام وبقي في البيت حزام ولطيف. في اليوم الثاني أجر الرفيق صبيح غرفة في خان في الشورجة، أعطى أجرة لمدة ستة أشهر، ونقل إليها نصف المطبعة وكمية من الحروف وأدوات الطباعة. كما جاءت الرفيقة أم عواطف صباح اليوم الثاني وأحرقت الورق الزائد ونظفت البيت. أما زوجة حزام فقد ذهبت ولم تعد. وفي نفس اليوم خرج صبيح وحزام للتفتيش عن بيت جديد فتم اعتقالهما.

عوملت معاملة قاسية جداً من بين جميع الموقوفين.في ظهر ذلك اليوم،وبعد انتهاء الدوام الرسمي، فكت السلاسل من رجلي ويدي،لأصطحب إلى غرفة المفوض لطيف الخزرجي والشرطي حسن ابن إحدى العاهرات. فتح لطيف التحقيق مرة ثانية. س... و ج... فقلت له بأني أعطيت إفادتي في اليوم الأول من اعتقالي وليس من شيء جديد

أضيفه. ولا علاقة لي بما يجري الآن. ثم أضربت عن الكلام.عاد يسألني عن الحروف والمطبعة مرة ثانية، واعترافات حزام، فلم أجبه. كنت أعتقد أنها جولة تأديبية لكسر شوكتي،كما يقال، وإهانتي.

كنت جالساً على كرسي خشبي ويداي مربوطتان إلى الخلف بالكلبجة.خرج لطيف ليدخل الشرطي المأبون (حسن) وبيده عصا وأخذ يضربني على رأسي بكل قوته حتى أغمي عليّ. وكان يوجه لي بعض الأسئلة أثناء الضرب فلم أجبه. ثم أعيد الضرب وجاء المفوض (فرج زيا) وقال إننا سنقلع أظافرك ونكسر عظامك ونجلدك. وبعد أن عجزوا معي أخرجوني من الغرفة إلى الساحة الصغيرة.كنت بالقميص والبنطلون العسكري وكان الجو بارداً،ولم تزل يداي مربوطتين من الخلف، فشدوا بها سلسلة طويلة وأصعدوني على كرسي وشدوا السلسلة بالشجرة الوحيدة التي كانت في وسط الساحة وسحبوا الكرسي من تحت قدمي فبقيت معلقاً في الهواء والقيود الحديدية تشد وتنغرز في لحم يدي كالكماشة وتضغط على أعصابي. وزادوا على ذلك بتوجيه اللكمات على وجهي. لم أتأوه رغم الألم ولم أتكلم. لقد كنت رياضياً وجسمي وأعصابي قوية يتحملان مختلف أنواع التعذيب ناهيكم عن موقفي السياسي كشيوعي أحمل مبادئ إنسانية عظيمة، فدخلت أيضاً في حالة من العناد والتحدي أمام حثالة من الخونة والمرتزقة.وبعد أن أشبعوا رغباتهم السادية وصبوا جام غضبهم علي أنزلوني من الشجرة. كان هناك مواطن آخر معلق في ذات الساحة، وكان يرتدي دشداشة بيضاء عليها بقع من الدم وآثار التعذيب بادية على وجهه.

لقد كان في ذلك الوقت تعذيباً قاسياً ولكن الأمر في زمن حكم (صدام حسين الاشتراكي الوحدوي) قد فاق ذلك كثيراً، فهو يقوم بقتل المعارضين أو المشكوك بولائهم أو المشتبه بهم أودفنهم أحياء أوإذابتهم بالتيزاب أوضربهم بالأسلحة الكيماوية أودفنهم في مقابر جماعية أو إلقائهم في نهر دجلة أو تقطيعهم من قبل كلابه المسعورة... إلخ.

كنت منهكاً عندما أنزلوني وقادوني لذات الغرفة. ربطت قدماي مرة أخرى بالسلاسل إلى خارج الغرفة وشدت [١٣٦] بالشباك الخارجي وشدت يداي بالشباك داخل الغرفة، تحت حراسة شرطي رسمي. كان من أهل الجنوب أنهى خدمته العسكرية ونقل

كشرطي في التحقيقات الجنائية بعد أن انخرط في سلك الشرطة. كان ينظر لي بعين التقدير الممزوجة العطف، بعد ما رأى ما تعرضت له، حتى أنه،بعد أن فرغت الدائرة من المحققين وأفراد الأمن، جاءني بسندويشة وماء وشاي.

نمت نوماً عميقاً من هول ما جرى لي، ولم أشعر إلا وثقل غير اعتيادي على بطني. فتحت عيني لأجد أحد أفراد الشرطة السرية واقفاً على بطني [١٣٧]. اتضح لي أن أربعة مخمورين من أفراد التحقيقات الجنائية، وعلى رأسهم المعاون إسماعيل، كانوا في دورية، وجاءوا بعد انتهائها لتعذيبي وإجراء التحقيق معي. وبعد طول حوار سألني المعاون إسماعيل ما إذا كنت سأعطي البراءة وأعترف نادما لو صدر قرار بإعدامي، فقلت له أعطي البراءة مِن مَنّ ؟ قال من الحزب الشيوعي! لم أرد عليه، فانهالوا علي بالضرب والشتائم، ثم غادروا. سألت الشرطي عن الساعة، فقال إنها الثالثة صباحاً.

وأخذت هذه العملية تتكرر يومياً تقريباً، وبعدما يخرجون يجلب لي الحارس الشاي الذي يعمله لنفسه مع السندويش. كانت ثقتي بقيادة الحزب كبيرة. وكنت أفكر أن الرفاق سوف يدبرون مطبعة ويعيدون النشر. كما بقيت قصة اعتقال الرفاق تقلقني وعالقة في ذهني.

بقيت على هذا المنوال أكثر من أسبوعين، وبعدما عجزوا مني نقلت إلى الموقف الكبير حيث كان حزام عيال وبقية الموقوفين لأسباب مختلفة. تقدم حزام لمصافحتي، فلم استطع مصافحة اليد التي سببت لنا كل تلك الكوارث.

دخلت الموقف ويداي مكبلتان بالكلبجات. وكان صبيح ولطيف وسليم المرزا في غرفة مجاورة، وأم عواطف ووردة ماربين (أم سلام) زوجة الرفيق محمد صالح العبلي في موقف سجن النساء كما علمت لاحقاً.

كان باب التوقيف من الحديد فيه كوة صغيرة و يفتح صباحاً للغسيل والذهاب للحمامات ومرة أخرى في المساء. وقضاء الحاجة ما بين الفترتين يكون داخل الغرفة المعتمة النتنة التي تضم عشرة موقوفين. أما الكلبجات فكانت لا تفتح إلا وقت الطعام، الذي هو عبارة عن مرق معكرونة وقطعة خبز. وكنت أفتح الكلبجات ليلاً بواسطة مفتاح صنعته من الصفيح.

اعتقلوا في إحدى المرات شخصاً تبين أنه تاجر من لبنان وبعد التحقيق معه أدخل

التوقيف معنا. رأى الغرفة المعتمة وصفيحة التبول والموقوفين وقد طالت لحاهم والأفرشة الرثة من البطانيات العسكرية البالية والرائحة النتنة، فظن أنه دخل غرفة للمجانين وسوف يقتل على أيديهم، فأخذ يصرخ بأعلى صوته: " آه يا أمي! يا أمي!" وكاد يبكي من شدة الرعب. وواصل صراخه متوسلاً الحارس لإخراجه. أسمعه الحارس بعض الشتائم وطلب منه الهدوء وإلا سيضربه، فسكت ولكنه ظل واقفاً قرب فتحة الباب.

بعد أن هدأ روعه، أخبرناه بأننا لسنا مجرمين، بل موقوفون لأسباب سياسية، أخذت أشرح له أسباب توقفينا والآلام التي مررنا بها.. ولما اطمأن لنا، أخبرنا بأنه من الحزب الاشتراكي (من جماعة كمال جنبلاط)، ولا يوجد لديهم في لبنان مثل هذا الظلم... وبعد بضعة أيام أطلق سراحه.

ومن مظاهر الانحطاط الخلقي في الموقف، أنني شاهدت، بعد انتهاء التحقيق معي، الشرطي جبار يدخل إلى الغرفة بصحبة عاهرة، وراح يسخر مني بالقول، جئت بها لتنام معك الليلة ! [١٣٨]

وفي إحدى المرات جيء بشاب وسيم ممتلئ العافية، يرتدي (دشداشة) حرير، لم يتعرض للضرب،ولما سأله حزام عن تهمته،قال بأنه بعثي وعثر في حوزته على كتاب "الأم " لمكسيم غوركي وكتاب آخرمن تأليف عبد الله الرزاز البعثي الأردني. نودي عليه بعد بضع ساعات وأطلق سراحه [١٣٩].

التقيت مع نفس الشخص سنة ١٩٦٢ عندما كنت معتقلاً في الأمن العامه وكان هو مسؤول تنظيم عسكري وقبل أن يطلق سراحه، قال له أحد الشرطة :" ولك احنا نعرف بس الشيوعيين هنا، وإنت تقول آنه بعثي، شجابك هنا!"

وكنت أحدث نفسي أحياناً وأنا في التوقيف متوسداً حذائي البالي، لم كل هذا ؟ وما النتيجة ؟ وإلى متى ؟ ثم أعود فأقول لنفسي : أنا الذي اخترت هذا الطريق الوعر وأن الطريق ليس مفروشاً بالورود والرياحين ومن يشتهي العسل يتحمل لدغ النحل. وأتذكر الأهازيج الشعبية والأغاني التي تمجد بطولات شعبنا التي تعلمتها ورددتها وأنا في السجن ومنها ما قيل في ثورة العشرين: "بس لا يتعذر موش آنا!" ويأتي الرد: "خلوني ????? وقلت آنه!" وهو حوار بين أم وابنها المتوجه للمعركة ضد الجيش

الإنجليزي وقد اهزجت خوفاً من أن يتخاذل فرد عليها، بما معناه، أنهم لو وضعوه أمام فوهة المدفع سيرد، بأنه لا يخشى الموت. كلفنا ذات مرة نائب عريف شرطة أن يشتري لنا أي جريدة[١٤٠]، وفي اليوم الثاني عندما انتهت حراسته ألقى إلينا بالجريدة دون أن يراه أحد، أخذتها ووضعتها تحت فراشي على أمل قراءتها في الليل عندما ينام الجميع. كان من جملة الموقوفين معنا شرطي متهم بتزوير الجوازات[١٤١] وقد رأى ذلك. فخرج من التوقيف وأخبر المفوض (فرج زيا)[١٤٢] بالأمر.

مر شهران صعبان، لم نغتسل خلالهما ولا مرة واحدة، وطالت لحانا وشعر رأسنا وراح القمل الأبيض والأسود ينهش جلدنا والبرغوث يقض مضجعنا والروائح النتنة تزكم أنوفنا.. قَدِمَ إلينا بعد فترة عبد الوهاب طاهر، إذ أنه أنهى مدة مراقبته وجيء به إلى التحقيقات.وحين شاهد وضعي نزع لي فانيلته لأتقي بها من برد الزنزانة؟! كما أعطاني بعض المال ثم انتقل.

في أحد الأيام أخرجني المفوض مولود العاني من التوقيف، فتح القيود من يدي وأدخلني الغرفة التي كنت معلقاً بها في أول توقيفي. فوجئت بوجود الرفاق صبيح ولطيف وسليم المرزا. ما كاد مولود يقفل باب الزنزانة علينا حتى غرقنا في لجة من ضحك غير طبيعي. كأننا كنا نشعر بكبت وانفجرنا. وكان ضحكنا عالياً مما دعى المفوض مولود أن يعود ويسكتنا وهو يهدد. هل كان ذلك بسبب مفاجأة اللقاء وقد اجتزنا كل مراحل التعذيب والاستنطاق والاستجواب،أم على هيئتنا التي صارت غريبة. فصبيح لحيتة سوداء كثة وله شارب وشعر طويلان، لطيف الحاج كان تظهر شعيرات منفردة طويلة على ذقنه مع شارب خفيف وسليم المرزه بلحية طويلة وشارب كثيف وعلى وجهه شعر متناثر أسود بشكل غير منتظم، أما أنا فقال صبيح: إن شكلك جميل بلحية كثة سوداء وشاربين طويلين وشعر مجعد أسود. كان انفجارنا بالضحك هو عبارة عن انفجار شحنات من الكبت الطويل والألم الذي في داخلنا.

أول سؤال طرحته عليهم عن كيفية اعتقالهم. قال صبيح: نبهتنا الرفيقة صبيحة بعدم رجوعك وكنا على موعد مع الرفيق أبو علي (الرفيق جمال الحيدري)، في الساعة العاشرة ليلاً. تقرر في الاجتماع الذي عقدناه الانتقال من البيت، رغم الثقة، ولكن الصيانة ضرورية.

فسألته ألم يكن بالإمكان ترك البيت بعد نقل المطبعة وأدوات الطبع وانتظار النتائج بعد أسبوع أو أكثر، خاصة وأن الشرطة السرية قد استنفروا بعد اعتقالي ومعي الحروف؟ قال لقد استعجلنا .وبعد اعتقالي وحزام في ذات المنطقة تعرف علينا أحد أفراد الشرطة السرية، قسم التحقيقات الجنائية، فقادونا إلى مركز شرطة السعدون ثم إلى مركز شرطة في الكرخ. لقد كانت الجريدة(اتحاد الشعب) على وشك الانتهاء من الطباعة، ماعدا الصفحة الأخيرة، كانت نسخة منها بجيب حزام فرماها في موقف السعدون.بعد نقلنا عثرت عليها الشرطة وسلمت إلى التحقيقات الجنائية.

لماذا أخذ حزام نسخة معه والجريدة لاتزال غير مكتملة؟ خاصة وأنهم خرجوا للتفتيش عن بيت جديد؟ كانت هذه النسخة (القشة التي قصمت ظهر البعير) وبدأ التحقيق معهم. وبعد عدة أيام انهار حزام واعترف.

بعد اعتقال الرفيقين صبيح وحزام، كانت أم عواطف تخرج من الصباح حتى المساء تفتش عن دار جديدة. بعد ثمانية أيام عثرت على بيت فارغ للإيجار خلف سوق رجوان قرب المسبح في الكرادة الشرقية، وبعد موافقة أبو ليلى ذهبت مع لطيف الحاج وتم تأجيره.

وانضم الرفيقان وردة مارين وسليم مرزا للتعويض عن الرفاق الذين اعتقلوا.

ولم يطل مكوثهم في البيت الجديد أكثر من يومين أو ثلاثة، ففي يوم ١٩٥٨/١/١ كبس البيت وتم اعتقال من فيه. وانهالت الشرطة على لطيف الحاج وسليم مرزا، وهما مازالا داخل البيت، بضرب شديد. وبعد زمن عرفت من أم عواطف قصة المداهمة.إذ بعد انهيار حزام عيال واعترافه على بيت المطبعة جاء بالشرطة إلى البيت،وجيء بصاحب البيت ففتح الباب. وكان البيت فارغاً. جن جنون رجال الأمن، فسألوا الجيران عن العائلة التي كانت تسكن في هذه الدار وأين ذهبوا؟ فأخبروهم بعدم معرفتهم بذلك، ولماذا يسألون عنهم؟. فأدعى رجال الأمن أن ابنتهم وفي يدها علامة مميزة قد هربت منهم وأنها موجودة مع هذه العائلة. وكان الجيران لا يعرفون أن هؤلاء من رجال الأمن. أشاد الجيران بأخلاق ساكني الدار السابقين إلا أن تدخل شخص من المنطقة متبرعاً لتقديم المساعدة في قضية اجتماعية أخبرهم بأن السيارة التي نقلت الأثاث والعائلة مكتوب عليها (لنقل الأثاث المنزلي) ولونها كذا وهي (بيك آب).

تحركت الشرطة السرية إلى باب الشيخ على عجل، لمعرفة السيارة وصاحبها، فنجحوا في تحرياتهم في اليوم الثاني أي في يوم ١٩٥٨/١/٢، فهددوا السائق وهم يروون له قصتهم الملفقة، فأوصلهم إلى البيت الجديد، خلف سوق رجوان. اقتحموا البيت وألقوا القبض على من فيه، وكان حزام معهم. هذه القصة استقيتها من إفادة معاون التحقيقات الجنائية الذي شهد ضدهم في المحكمة.

عثروا في البيت على نصف ماكنة الطباعة ونصفها الآخر كان في الخان الذي أجره الرفيق صبيح في الشورجة. وأدوات طباعية أخرى.

الهروب من الجيش والالتحاق بالحزب

اكتمل التحقيق معنا وبقينا ما يزيد على ثلاثة أشهر. وبعد أن توضحت لهم خيوط مهماتنا نقلت أنا إلى وزارة الدفاع باعتباري عسكريا هاربا ولأعود منها إلى وحدتي في معسكر قتيبة في الشعيبة في مدينة البصرة، وهذه المرة دون الدراجة الهوائية والحروف.لم أمكث طويلاً في وزارة الدفاع بل نقلت مع مجموعة من الجنود الهاربين إلى معسكر الرشيد في سجن رقم واحد الانفرادي.

كان لنقلي من التحقيقات في وقتها أشبه بإطلاق سراحي. وكنت مصمماً على إطلاق سراحي بنفسي والعودة للالتحاق بالحزب من جديد مهما كلف الأمر لأعوض ما فاتنا وأكلل صمودي ورفاقي الآخرين بزخم جديد. نقلت إلى البصرة إلى معسكر قتيبة وأودعت كالعادة في السجن الانفرادي حيث الرقابة مشددة ولم أستطع اللقاء بأحد. بعد عدة أيام زارني والدي ووالدتي في المعسكر.

بقيت كلما أخلد للنوم، تمر أمام عيني أيام التحقيقات الجنائية، ويذكرني ألم يدي اليمنى بعملية التعليق بالشجرة فيزداد تصميمي على التحدي والهروب. كنت أعلم أن هروبي سيكلفني غالياً إن ألقي القبض عليّ. بيد إنني قليلاً ما كنت أفكر بالنتائج المترتبة على ذلك. طلبت أن أعالج عند طبيب للباطنية لأني أنزف دماً حين أذهب إلى التواليت. فربما حصل لدي تمزق في الأمعاء، أو المعدة، بسبب التعذيب.

قدمت طلبا لآمر المعسكر بالسماح لي بمراجعة الدكتور. وفرحت حينما تلقيت الموافقة لمراجعة عيادة الدكتور في القاعدة البحرية في منطقة الجبيلة، التي تقع بين محلة العشار ومنطقة المعقل (الميناء).

بعد بضعة أيام اصطحبني جنديان أحدهما برتبة نائب عريف. كان ذلك في شهر رمضان. في منطقة العشار، طلبت منهما مساعدتي في زيارة بيت أحد أقاربي، وكان بيت عمتي (ياسه)، التي توفيت منذ سنين، في محلة البجاري. رأيت عمتي وقد شاب شعرها وهدها الكبر ومرارة السنين.

استقبلتنا بترحاب وقبلتني وهي تضمني إلى صدرها و تبكي. شربنا الشاي ثم خرجنا ،فطلب الجندي من نائب العريف أن يزور عائلته إذ أنه لم يرهم منذ مدة طويلة، فوافق على أن يلتحق بنا في القاعدة البحرية عند الطبيب.

عند الظهر مررنا بالسوق المحصور بين منطقة أم البروم وسوق الهنود قرب موبيليا السماح. بعض المقاهي والمطاعم المرخصة من البلدية تفتح أبوابها بعد تغطية الواجهة بستارة من القماش خلال أيام شهر رمضان، فقلت للعريف لابد أنك جائع الآن! دخلنا إحدى هذه المقاهي! طلبت الشاي ثم طلبت له صحن مخلمة (لحم بالبيض).

يقع المقهى في شارع مكتظ بالناس. انشغل العريف بالأكل بلهفة فانتهزت الفرصة وطلبت موافقته على شراء علبة سكاير من الدكان المقابل. فلم يرفض! وجدت نفسي وسط الشارع، ومرت أمامي ذكريات سجن الكوت والمجزرة الرهيبة التي أرتكبتها السلطة فيه، سجن بغداد وسجن بعقوبة وما جرى لي فيهما، الإبعاد إلى سجن نقرة السلمان،التعذيب في التحقيقات الجنائية، العذابات النفسية والفكرية،الأصفاد والسلاسل،التسفيرات المتواصلة، المصير المجهول،الحكم الذي سيصدر ومدة السجن وحاجة الحزب الملحّة. ركضت لأدخل الزقاق الذي طالما لعبت فيه في طفولتي وبيت أقاربي ورحت أركض بكل قوتي.

دخلت زقاق بيت عمي إبراهيم الحاج عيسى مقابل بيت صبيح البدر صديق طفولتي [١٤٢]. دخلت بيت صبيح بعد أن فتحت الباب إحدى أخواته.كان بيتاً كبيراً تزين واجهته (الشناشيل) ويبعد عن بيت عمتي التي شربنا الشاي عندها حوالي مئة متر. سمحت لي بالدخول، أخذتني والدتها بعد معرفتها بخبري إلى الطابق الثاني. أخذت مني الملابس العسكرية وأحرقتها في التنور بعد أن أعطتني ملابس مدنية. كان موقفاً شجاعاً ونبيلاً منها.

وبعد حوالي ساعة تناهى إلينا أصوات محركات السيارات وضجة كبيرة في

الشارع. فالعريف، بعد أن أكمل طعامه ولم أرجع إليه بلغ الانضباط العسكري والشرطة بهروبي. صعد أخو صبيح، تلميذ الابتدائية، إليّ فزعاً، فطلبت منه مراقبة الشارع. عاد بعد برهة ليقول إن سيارة مملوءة بالانضباط العسكري والجنود ومعهم ضابط دخلوا بيت عمتي لتفتيشه وهم منتشرون في الأزقة القريبة. طلبت منه مرة أخرى بمتابعة المراقبة، فعاد ليخبرني بأنهم أخذوا عمتي معهم! [١٤٤]

جاء صبيح في المساء وتصافحنا بحرارة لأننا لم نكن قد التقينا منذ سنوات الدراسة. تحدثنا كثيراً. قلت له: إنني لا أريد أن أثقل عليهم وعليّ المغادرة. فامتعض وقال يجب أن تبقى هنا، لكنه تراجع أمام إصراري على الخروج وبعد أن أقنعته بأن لا خطر علي فالجميع الآن في البيوت للإفطار.

ودعتهم، لكنه دس في جيبي بعض النقود. توجهت إلى الكراج لأسافر إلى أبي الخصيب حيث معارفي. أمضيت بضعة أيام في ضيافة أقاربي.

بعد أن هدأت الأمور اتصلت بالمنظمة الحزبية في البصرة، واكتشفت أن لهروبي صدى كبيرفي المدينة. كما رتبت الأمر للقاء الأهل.التقيت بالرفيق (ناصر عبود)، العامل في مؤسسة الميناء، فاصطحبني إلى أحد أكواخ مدينة البصرة القديمة. فنزلنا ضيوفاً على أبي طه وأمه. يعمل أبو طه عاملاً في مصلحة نقل الركاب في الصباح وحارسا في المساء. ليس في الكوخ سوى سرير للنوم مصنوع من جريد النخل وصندوق أسود قديم لحفظ الملابس. أصيبت أم طه بالماء الأسود وعميت و تجاوز أبو طه الستين ولكنه يكابر من أجل لقمة العيش [١٤٥].

وبقيت ما يقارب العشرين يوماً مع هؤلاء الناس الطيبين.وفي آخر مرة، حين زارني فيها ناصر أخبرني بأن الرفاق في قيادة الحزب يريدون قدومي إلى بغداد فتملكتني فرحةعارمة. زرت عائلتي ليلاً والتقيت مع أخي عادل وكان الأقرب لي، فهويشاركني أفكاري وقد جهز لي هوية وملابس. زودت بالعناوين في بغداد ومواعيد اللقاء رافقني أخي عادل إلى كراج سيارات بصرة- بغداد. ولحسن الحظ كانت السيارة تنتظر راكباًواحداً وعليها تابوت، وأهل الميت الثلاثة يجلسون في المقاعد الخلفية. أغلب المسافرين لا يحبذون السفر مع جنازة.

انطلقت السيارة وعند مدينة القرنة عبرنا أول نقطة تفتيش ولم نقف، بل قدم

الجنود والشرطة في النقطة التحية للجنازة. وهكذا اجتزنا كافة نقاط التفتيش في العمارة والكوت وعلي الغربي وبغداد. نزلت بغداد في حين واصلت السيارة إلى مدينة النجف. ذهبت إلى الفندق المحدد في علاوي الحلة، وفي اليوم الثاني جاءني الرفيق صالح دكلة (أبو سعد)، فأخذني إلى مشتمل صغير لأسكن مع إحدى العوائل النازحة من العمارة. يعمل رب الأسرة مقاول بناء ثانوياً مع زوجة وولدين صغيرين وبنت رضيعة.كان يخرج من الصباح الباكر ليعود في المساء محملاً بالخضراوات والفواكه والأطعمة.

كنت أنتظر مجيء أبو سعد بفارغ الصبر لكي التحق بالعمل، وأمضي وقتي بقراءة ما يتيسر من الكتب والصحف. كان الوقت يمر بطيئاً وثقيلاً.

وبعد مرور أسبوع جاء الرفيق أبو سعد ومعه رفيقة [١٤٦]، وبعد عدة أيام جاء الرفيق دلي مريوش وهو زوج تلك الرفيقة.. وبقينا نحن الثلاثة لمدة شهر.

حين جاء الرفيق صالح دكله شرحت له بانفعال ما فعلت من أجل الالتحاق بالحزب لمواصلة النضال، ولم أتحمل تلك الصعاب لأكون متفرجاً. هدأ من خاطري وأخبرني بأن هناك بعض الأمورالفنية التي حالما تنتهي سيكون كل شيء على ما يرام.

بعد بضعة أيام جاءت امرأة متشحة بالسواد وطلبت مني الذهاب معها. لم يكن شكلها غريباً علي [١٤٧]. استأجرت سيارة تاكسي وأوقفت السيارة بعد جسر الصرافية بمسافة. دخلت عدة أزقة ثم في شارع فرعي وبعد تأكدها من أننا غير مراقبين فتحت باب بيت في منطقة العطيفية. كان في البيت الرفيق أبو علي (جمال الحيدري) الذي كان يزورنا قبل اعتقالنا وأخت أم فاضل وجيهة وولدا أم فاضل: فاضل ونظمي.

في دار المطبعة من جديد

استقبلني الرفيق جمال استقبالاً حاراً وتعانقنا طويلاً. أخبرته بالتفصيل عن قصة هروبي حتي لقائي به.

في اليوم الثاني أطلعني الرفيق على الحروف وغرفة العمل والمطبعة.

كانت الحروف مبعثرة ومخلوطة ببعضها، والرفيق يعاني من ترتيبها وأخبرني أنه أصدر عدداً من البيانات بمفرده إضافة لعمله السياسي خاصة وأن الرفيق سلام عادل كان مسافرا إلى خارج العراق في تلك الفترة.

وكانت أم فاضل وفاضل ونظمي يقدمون المساعدة له.

كان عمر فاضل لا يتجاوز العشر سنوات ونظمي يصغره بسنة. وبسبب ذلك العمل كادت أصابع نظمي و أم فاضل أن تقطع بالماكنة. كانت هذه العائلة الشجاعة خلية نحل تعمل بصمت إضافة إلى الطبخ والتنظيف والعمل السياسي.

البيت الذي يتكون من غرفة استقبال وغرف نوم ومخزن صغير أشبه بغرفة يقع تحت السلم، خصص للمطبعة لأجل أن لا يصل صوت الماكنة إلى الجيران، والبيت محاط بحديقة. كانت المطبعة تعمل بواسطة مولد كهرباء صغير، لكنه سريع بحيث لا نستطيع اللحاق به. ولذا جرى التخلي عنه والالتجاء إلى العمل اليدوي.

كانت مهمتي صعبة فرغم تعلمي المبادئ الأساسية للطباعة كانت تنقصني الخبرة الفنية، إضافة إلى عملنا الجماعي، لكن العمل بمفردي سيجعل المهمة صعبة جداً. بدأت العمل في طبع بيانات الحزب، وكان فاضل يساعدني بتحريك عجلة الماكنة وأنا أطبع وحينما يهده التعب يناوبه نظمي، وبهذا خففت عن كاهل أبو ليلى وأم فاضل مهام الطباعة.

عاد الرفيق سلام عادل، الذي اختار إسم (مختار) كما أتذكر. وكان من الواضح من سياق حديثه عن موسكو ودمشق أنه قضى فترة خارج العراق. طلب مني أن أحدثه عن اعتقالنا وعن عملية الهروب. بعد أن أكملت حديثي عن تفاصيل القصة علق الرفيق جمال (أبو ليلى) :"كان صمودهم رائعاً وأن أبو يوسف (المقصود أنا) أضاف بهروبه بهارات إلى العملية كلها ".

كان الرفيق سلام عادل قلقاً جداً حين سمع باعتقالنا وهو في دمشق، لكن الرفيق خالد بكداش طمأنه قائلاً بأن الحيدري مازال موجوداً في بغداد! حدثته عن مقابلتي مع قائد الفرقة الأولى عمر علي وما أعرفه عن الجيش.

القسم الثالث

ثورة ١٤ تموز وفترة قاسم

الفصل التاسع

التهيؤ لثورة ١٤ تموز المجيدة ١٩٥٨

كان الرفيق سلام عادل يزور أبا ليلى باستمرار لمناقشة الوضع السياسي معه. أما الرفاق سليم ولطيف ورضية ووردة فقد قدموا إلى المحكمة، فنال كل منهم حكما بالسجن فترة ثلاث سنوات بالتداخل. سنة ونصف ترويج وسنة ونصف انتماء مع سنة مراقبة من قبل الشرطة، وأودع الرفيقان في سجن بعقوبة المركزي. أما الرفيقتان فأودعتا سجن النساء المركزي في بغداد.

كانت الأوضاع في تلك الفترة مشحونة بالتوتر والغليان الشعبي، وعجلة مطبعتنا تدور لتطبع الجريدة والبيانات الثورية التي تنذر بوقوع العاصفة، منها بيانات لفلاحي الديوانية المنتفضين الذين قدموا مذكرتهم يوم ١٩٥٨/٦/٢٥ يطالبون المناصفة في الأرض.

لم تكن ثورة تموز حادثا عرضيا وإنما حدث مهد له الحزب الشيوعي العراقي والقوى الوطنية الأخرى في جبهة الاتحاد الوطني، وكانت الظروف الموضوعية والذاتية مهيأة للثورة. ناهيكم عن إضرابات العمال المتلاحقة، انتفاضات الفلاحين، إضرابات الطلبة، وحركة المثقفين الديمقراطيين التي لعب الحزب دوراً بارزاً فيها، ضد سلطة عاتية متجبرة ربطت نفسها بعجلة الاستعمار كما حصل في حلف آيزنهاور وحلف بغداد وعجلة الإرهاب والاعتقالات لم تتوقف. وكأن الشعب يتمرن على النضال. وفي عام ١٩٥٢ فجّر انتفاضة عارمة في وثبة كانون ١٩٤٨ وانتفاضة ١٩٥٦ لمناصرة مصر...إلخ. كانت كلها بروفات للثورة القادمة،إضافة إلى أنها قد أنهكت الحكومة وعزلتها عن الشعب.

ولم يكن الجيش بمعزل عن هذه التطورات ؛ ففي ١٩٣٦ قامت حركة بكر صدقي

و١٩٤١ حركة رشيد عالي، كما جرى إجباره على قمع التحرك الشعبي،كما جرى في انتفاضة ١٩٥٢ و ١٩٥٦ أو ضد الحركة الكردية، إحياء الاتحاد الهاشمي مع الأردن وإرسال جيش إلى لبنان لمساعدة القوى الرجعية، إضافة إلى لتطورات الهامة في العالم العربي بعد تأميم قناة السويس والهجوم الثلاثي الفرنسي الإنكليزي الإسرائيلي على مصر، جعلت الجيش في خضم الصراع الوطني والسياسي [١٤٨].

كان للحزب تنظيمه العسكري الخاص منذ تأسيسه، وتم تشكيل منظمة باسم (اللجنة الوطنية لاتحاد الجنود والضباط) التي أصدرت جريدة (اتحاد الوطن) التي لعبت دوراً هاماً في رفع ونشر الوعي بين الجنود والضباط. كما شكل الضباط لجنة خاصة بهم بإسم (اللجنة العليا لحركة الضباط الأحرار) وانضم إليها الكثير من القادة العسكريين من الوحدات الفعالة، والتي كانت تنسق مع الجبهة الوطنية.هذا إضافة إلى الانتصارات التي حققها المعسكر الاشتراكي وتسليح مصر بالسلاح السوفييتي وانفتاح عالم جديد أمام الحركة الوطنية العربية التحررية.

وتنبأت جريدة الحزب " اتحاد الشعب" في أحد أعدادها قائلة:"إننا حقاً على أبواب نصر قريب فعندما تبدو أستار الظلام وهي ترتعش أمام مواكب النور الزاحفة مع الفجر فلابد للشمس أن تطلع لتبدد بسياط شعاعها الباهر ظلمات الليل البهيم."

وأمام هذا المد الثوري والسخط الشعبي كان من الصعب على حكام العراق المحافظة على سلطتهم بأساليب القمع والسجن والقتل وكما يقول الشاعر:

تباً لدولة عاجزين توهموا
إن الحكومة بالسياط تقام

أصدر الحزب بياناً في ٢ تموز عام ١٩٥٨ إلى فلاحي الديوانية طبعناه باليد.

ولا أريد الخوض في أسباب قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ والنشاطات التي سبقتها، لقد كتب الكثيرعنها، إلا أن ما أود قوله هو أن حزبنا الحزب الشيوعي العراقي كان واحداً من المساهمين الأساسيين في الثورة ونجاحها إلى جانب الأحزاب الأخرى وحركة الضباط وحركة الجنود الذين كانوا يشكلون القاعدة الأساسية للجيش وأكثريتهم من أولاد الفلاحين والعمال والكادحين.

كان عبد الكريم قاسم القائد الفعلي للثورة وهو من أخبر الحزب بقيامها عن طريق كمال عمر نظمي. إذن فالحزب على علم تام بما كان يجري.

كان نوري السعيد يزعق في البرلمان أن :"دار السيد مأمونة!" [١٤٩] ولم يعلم أن هذه الدار ستغرق في لجة الأحداث المتسارعة.

تكررت زيارات الرفيق سلام عادل للرفيق جمال. وفي يوم ١٩٥٨/٧/١٢ صدرت توجيهات توضح وجهة الحزب في حالة قيام الثورة، منها:

الانسحاب من حلف بغداد والاتفاق الثنائي مع بريطانيا ومقاومة مبدأ آيزنهاور.

إطلاق الحريات الديمقراطية لجماهير الشعب وإطلاق سراح السجناء والموقوفين السياسيين.

تبني إجراءات فعالة لحماية ثروتنا واقتصادنا الوطني... الخ.

تأليف حكومة تتبع سياسة عربية وطنية مستقلة.

وصدرت توجيهات حول:

ضرورة تجنب الشعارات المتطرفة.

إظهار حذر أكبر تجاه المؤامرات والمكائد وعملاء الإمبريالية.

وتم إيصالها إلى منظمات الحزب لرفع يقظة الجماهير وضمانة توجهاتها بالشكل الصحيح.

وفي يوم ١٣ تموز حضر الرفيق سلام عادل إلى البيت والتقى مع أبي ليلى وكانت أم فاضل منشغلة بإعداد الطعام وفاضل بيده كتاب من القصص السوفييتية ونظمي شبه نائم ووجيهة في المدرسة وأنا في غرفة تنضيد الحروف.

دار النقاش بينهما طويلاً وهادئاً، وأتذكر بعد أن جلسنا للغداء، أنهما كانا متماسكين يتبادلان النكات، ولم تَبْدُ عليهما أية مظاهر غير عادية. سلماني بعد الغداء بياناً لطباعته

وكان من الذين يأتون للقاء الرفيق جمال الرفيقة (زكية شاكر) التي توفيت مؤخراً في السويد.

كان الليل يزحف بظلامه بعيدا ليكشف بزوغ فجر جديد.

صعد الرفيق سلام عادل وسلم عليّ ونظر إلي طويلاً. شعرت أن نظراته غريبة، ثم خرج كأنما يريد أن يقول شيئاً. كما أعتقد أن الرفيق جمال لم ينم تلك الليلة. كانت هناك حالة من الرهبة تخيم على البيت.

في الساعة الخامسة صباحاً من يوم ١٤ تموز رن جرس التلفون وكان المتحدث (كمال عمر نظمي) ممثل الحزب في الجبهة لينبئ الرفيق جمال بنجاح الثورة دون مقاومة كبيرة. وبعد مدة جاء للبيت والتقى مع الرفيق جمال وخرجا سوية، بعد أن ترك الرفيق جمال توجيهات لمنظمات الحزب كتبناها أنا وأم فاضل باليد وبعد إكمالها أخذتها أم فاضل وخرجت لإيصالها.

حشد الحزب كل طاقاته ونزل إلى الشارع.. أكثر من مئة ألف مواطن.. تفجرت كل الطاقات المكبوتة للجماهير وتبدد اليأس وانجلت الهموم من قلوب الأمهات.. الناس لا تصدق أنها انتصرت.. أزيل تمثال مود، وتمثال الملك فيصل الأول وقتل عبد الإله وباقي العائلة المالكة.

وهرب نوري السعيد واختفى في بيت الاستربادي في الكاظمية وفي اليوم الثاني لبس العباءة النسائية حين أراد الانتقال إلى مكان آخر، إلاّ أن أمره قد كشف وتمت تصفيته.

وكل من فتح الراديو صباحاً ليسمع أخبار الثورة لم يصدق أذنيه. لقد كانت معجزة أن طار حلف بغداد والاتفاقية الثنائية مع بريطانيا ومشروع النقطة الرابعة، ومشروع آيزنهاور بضربة واحدة فيما بعد.

لقد اهتز العالم لنبأ ثورة تموز وأطار صواب القوى الاستعمارية انتصارها. وكان ذلك درسا بليغا للقوى الاستعمارية، وأصبح العراق يهدد مصالحها. (لذا جاءت بحزب البعث إلى السلطة مرتين). لقد ألهب نوري السعيد والحكم الاستعماري في العراق ظهر الشعب بالسياط ولكنه انهار بساعات وسينهار الحكم الدكتاتوري البعثي ويصبح أثراً بعد عين في لحظات.

إن نضالنا لم يذهب هدراً،وكذلك نضال الأحزاب والقوميات المضطهدة.مئات الألوف من الناس تعبر عن فرحتها بإزاحة الحكم الملكي وإعلان الحكم الجمهوري وهي تعلن استعدادها للدفاع عنه بأرواحها على أن يفتح لها الطريق لتحقيق الوطن الحر والشعب السعيد.

بقيت لمدة شهر بعد الثورة دون أن تعرف عائلتي عن مصيري ولم أتصل بهم بسبب انغماري بالعمل. وكان والدي قد مرض بسبب قلقه عليّ معتقداً أني قد قتلت في الأيام الأولى من الثورة وأن الأهل يخفون الأمر عنه. وصل الخبر وأبلغني الرفيق جمال بضرورة السفر إلى البصرة لأن مهمتي قد انتهت في بغداد.

سافرت في اليوم الثاني، في آب ١٩٥٨، بالقطار وأنا حر طليق بدون شرطة أو جنود حراس. .بدون قيود وسلاسل تربطني بكرسي العربة أتنقل من عربة لأخرى دون رقيب. أتحدث للجالسين قربي من المسافرين دون أن يمنعني أحد.. ذاهب إلى البصرة لعائلتي وليس للسجن أو للغرف الانفرادية، فشعرت كم من الناس ضحوا في سبيل حرية أوطانهم ومن أجل حريتهم وإنسانيتهم.

توقف القطار في الديوانية وتذكرت الفرقة الأولى والجنود والدراجة الهوائية والحروف وقائد الفرقة الذي أراد أن يجلدني.

وبعدها انطلق القطار بنا بسرعة نحو مدينة الناصرية وتوقف في هذه المدينة التي أنجبت الكثير من المناضلين وسميت مدينة فهد.

وأخيراً توقف في مدينة البصرة في محطة القطار في المعقل. كانت فرحتي عارمة.. وصلت مدينتي البصرة ذات التاريخ المجيد.. تلك المدينة التي غرست فيّ الوطنية وحب الشعب.. مدينة عمال النفط والسكك والميناء.. البصرة، شط العرب،النخيل والفلاحين. .شوارعها التي طالما عرفتها ولعبت في ساحاتها وألقيت بسنارتي في شواطئها لصيد السمك.

فوجئت عائلتي ومعارفي بوصولي وكانت فرحتهم لا توصف.

بعد فترة قدمت طلباً للرجوع للعمل في شركة نفط البصرة لمساعدة عائلتي وللعمل

في إنشاء نقابة النفط في البصرة. وافق رئيس دائرة التوظيف مستر (باكيت) على رجوعي للعمل.

خلال أيام عقد اجتماع لمجموعة من العمال، كهيئة مؤسسة للنقابة، بعضهم كان في الحزب الوطني الديمقراطي، وآخرين مستقلين، في دار كبيرة قديمة تقع في العشار بداية الطريق المؤدي إلى البصرة القديمة، استخدمه الإنكليز دائرة للتشغيل بعد الحرب العالمية الثانية قرب نادي Y.M.C.A. جرى نقاش مطول تحدثت فيه بضرورة تقديم الطلب لإجازة النقابة وغيرها ولكن عبد الأمير، من الوطني الديمقراطي، منعني من الحديث فرد عليه الحاضرون دعه يتكلم وانتهى الاجتماع دون أن نتوصل إلى نتيجة. ثم عقد اجتماع ثانٍ للهيئة المؤسسة حددت فيها أهداف النقابة وقبل أن ينتهي الاجتماع حضر مجموعة من ضباط الجيش، كان أحدهم برتبة رئيس ركن وأخذوا يهددونا باعتقال الهيئة المؤسسة قائلين إنها غير قانونية... إلخ. إلا أن العمال لم يأبهوا لكلامهم واستمروا في اجتماعاتهم.

لم تتجاوز الثورة فترة حتى احتدم الصراع بين القوميين، الذين رفعوا شعار الوحدة الفورية مع مصر ومع القوى الديمقراطية التي طالبت بالاتحاد الفيدرالي. زار عبد السلام عارف البصرة وبدأ بسلسلة من الخطابات والاجتماعات. كان الشعار والمطلب الاتحاد الفيدرالي شعاراً أكثر واقعية وإمكانية آنذاك بين الدول العربية، أما شعار الوحدة فكان من أجل المزايدة لعدم إمكانية تحقيقه، وهو شعار استراتيجي بعيد، ولم يتحقق حتى اليوم.

اجتمع عبد السلام عارف في ساحة ملعب الجمهورية بالبصرة وقد أحاط به مجموعة من المؤيدين له، وبينهم المذيع قاسم نعمان السعدي المعروف بتأييده لعارف، يرددون شعار الوحدة الفورية. تجمع في الساحة مئات الناس وبدأ عارف بخطبته (العصماء) وطالب بالوحدة مع مصر والوحدة العربية... إلخ، وكانت الأكثرية الساحقة تطالب بالاتحاد الفيدرالي وكان شعارها (اتحاد فيدرالي - صداقة سوفياتية) وكلما تكلم عبد السلام كانت الجماهير تقاطعه ففقد أعصابه وزعق بالجماهير المحتشدة (خلونا نأكل خرا!)، أي دعوني أتكلم ثم ترك الاجتماع وخرج من الساحة.

بدأت بالتردد على نادي الاتحاد الرياضي الذي انتقل من مدرسة الأمريكان إلى خلف سينما الحمراء قرب جامع المظفر. كان النادي ملتقى للكثير من الشباب التقدمي، الذي تدربت فيه كثيراً قبل أن أسجن، والذي تحول بعد انقلاب شباط ١٩٦٣ إلى معتقل للتعذيب.

ولما كان مطلب إطلاق سراح السجناء والموقوفين السياسيين مطلباً أساسياً، فقد أطلق سراحهم بعد شهرين من قيام الثورة، ومنهم صبيح وسليم ولطيف ورضية ووردة وغيرهم من الرفيقات والرفاق..أخليت السجون من السجناء والموقوفين السياسيين.

الفصل العاشر

العودة والعمل في بغداد

لم تدم إقامتي في البصرة طويلاً. فقبل المباشرة بالعمل، أبلغتني المنظمة بالتهيؤ للعودة إلى بغداد. وكجندي، وبدون مناقشة، أو أخذ رأي عائلتي ومدى حاجتها لي وقصر مدة لقائي بها، ومن دون تلكؤ أو مناقشة عزمت على السفر.

كانت مدينة البصرة في أوج نشاطها الجماهيري.. مظاهرات.. اجتماعات.. ندوات في كل مكان. العمال يناقشون تأسيس نقاباتهم التي ناضلوا وضحوا من أجلها طويلاً، الفلاحون يناقشون مسألة تأسيس الجمعيات الفلاحية والحصول على الأراضي التي حرمهم منها الملاكون وخطفوا من أفواههم وأفواه أطفالهم لقمة العيش وتعرضوا للجلد والقتل من أجلها، الطلبة والشباب والمثقفون والنساء يعملون من أجل منظماتهم وجمعياتهم التي توحد جهودهم ونضالهم من أجل حقوقهم المشروعة.. الخ.

بغداد كانت هي الأخرى تعج بالحركة الملتهبة النشاط والحماس من أجل حياة جديدة وهي تنزع ثوبها البالي المثخن بالآلام والدماء والسجون والضحايا.. بغداد الرصافي والجواهري.. بغداد الإضرابات ومعركة الجسر ووثبة كانون وانتفاضة ١٩٥٢.. بغداد ١٩٥٦ تعج بالحركة الثورية من أجل مستقبل زاهر.

ذهبت إلى بيت الرفيق جمال، بيت المطبعة. المطبعة التي كانت بدورانها تزرع الثقة والأمل في نفوس الشعب، كانت مركونة في تلك الغرفة الصغيرة وهامدة. لقد حل محلها ما هو جديد. ولكن ليس كل ما هو قديم بلا نفع.

التقيت مجدداً بالرفاق الذين خرجوا من السجن (صبيح ولطيف) وكاظم، الذي كان موجودا في البيت، وكذلك مع الرفيق سلام عادل.

وعند مجيء الرفاق، وخاصة صبيح، تحسنت الأوضاع كثيراً. فالماكنة التي كنا

نطبع بها قبل الثورة والمحرك الذي كان يعيقنا ولا نستطيع تنظيم حركته جرى إصلاحه بحيث صارت المطبعة تعمل بشكل منتظم.

خرجت مظاهرات هزت بغداد في ٥ آب ١٩٥٨، حيث انفجرت الجماهير المكبوتة، كمن يرفع الغطاء عن قدر ماء يغلي فيتدفق البخار بقوة بحيث لا يمكن السيطرة عليه.. الجماهير تجوب الشوارع من الصباح حتى الصباح معلنة تأييدها للثورة.

كان عبد السلام عارف يتصرف بشكل فردي ويعلن عن موقفه بالوحدة العربية بشكل أهوج، وتزامن ذلك مع مجيء عفلق إلى العراق يوم ٢٤ تموز ١٩٥٨ وإعلان الوحدة بين مصر وسورية في شباط عام ١٩٥٨ (الجمهورية العربية المتحدة)، فزادت كل هذه الأحداث من حماس القوميين والبعثيين من أجل رفع شعار الوحدة العربية الفورية. وهذا ما جعل الانقسام بين الجماهير واضحاً في الشارع ولم تستفد منه غير القوى الإمبريالية والرجعية [١٥٠] بعد ذلك.

بعد لقائي مع (صبيح) قال لي: قبيل اعتقالنا وبعد أن ألقي القبض عليك كنت قد أجرت غرفة في الشورجة [١٥١].

كان الوضع أشبه ببحر متلاطم الموج. وبعد حركة الشواف في آذار عام ١٩٥٩ التي سحقت، انتقلت بعض الأحزاب كحزب البعث والاستقلال إلى العمل السري والتآمر لإسقاط ثورة تموز.

برزت قوى الشعب المملوء حماساً وحيوية إبان مظاهرة أول أيار عيد العمال العالمي عام ١٩٥٩،إذ شارك فيها حوالي نصف مليون في بغداد وحدها وعمت كل أنحاء العراق.

بقيت مع الرفيق جمال في البيت لعدة أسابيع، بعدها طلب مني أن التقي مع سكرتير منظمة بغداد وكان حينذاك الرفيق صالح دكلة (أبو سعد). كان مكتب المنظمة يقع في شارع المتنبي وتحته يقع مكتب الشاعر محمد مهدي الجواهري الذي كان يصدر جريدة (الرأي العام)، وإذا لم أجده أسأل الأستاذ مهدي الجواهري عن آرا أخاجادور لأنه يعرفه!!

كانت فرحتي كبيرة لأنني سأنضم إلى المنظمة في بغداد.صعدت إلى الطابق الثاني والثالث فلم أجد مكتب المنظمة، نزلت لأرى لوحة عليها أسم (جريدة الرأي العام) واسم

الشاعر الكبير الجواهري. دخلت عليه وكان عنده ضيف أعتقد أنه كان من السفارة الهندية.. خرج الضيف وسألته عن مكتب (آرا) فالتفت إليّ وقال (شنو آرا؟ أنس.. جنس ؟!) فخرجت مسرعاً وقدرت أن سؤالي ليس في مكانه، وعدت أبحث عن المكتب. وجدت المكتب وكان هناك الرفيق صالح دكلة سكرتير منظمة بغداد. رحب بي، وبعد حديث طويل طلب مني تقديم طلب للعمل كموظف في وزارة الإسكان.

فاجأني الطلب وقلت له إن الوقت الذي أقضيه في الوظيفة أقضيه لخدمة الحزب وشعرت بمرارة لأني بعد كل هذه السنين من العمل في التنظيم الحزبي أشتغل كاتباً في وزارة الإسكان! وقلت أنا أفضل العيش بـ ١٥ دينار شهرياً واحتراف العمل الحزبي، على أن أعمل موظفاً في دائرة حكومية.

قررت العودة إلى البصرة وحين علم هادي هاشم، الذي كان سجيناً معنا، قال لي بأنه استأجر بيتاً في الكاظمية قرب (خزان الماء) وطلب مني الانتقال معه. بعد أيام انتقلت معه، وبعدها استقدم عائلة مصطفى خوشناو [١٥٢]. بعدها تزوج (زكية فرج) وكان لديها بنتان وولد، وكانت زوجة الرفيق مصطفى خوشناوالسابقة.

بعد فترة أصبحت عضو منطقة بغداد ومن ثم مسؤول اللجنة العمالية للمشاريع الصغيرة وأكثريتها من معامل القطاع الخاص كانت تضم معامل المياه الغازية ومعامل الأحذية ومعمل الزيوت والميكانيك وغيرها، وكان الرفيق حميد الدجيلي مسؤول اللجنة العمالية للمشاريع الكبرى. بعده جرى تشكيل التنظيم النقابي المركزي (لتنم) وهو مرتبط بالمكتب السياسي، وكنت وحميد أعضاء فيه، مع حسين علوان وأبو شلال وصادق الفلاحي وآرا وكان يقوداللجنة الرفيق محمد حسين أبو العيس ومن ثم عزيز الشيخ [١٥٣].

أما منطقة بغداد فكانت تضم حسين الوردي، علي حسين الرشيد، أم إيمان (زوجة سلام عادل) حميد الدجيلي، محي الدين خضير، سلام الناصري وكان مسؤولها مؤخراً عزيز الشيخ.

وفي هذه الفترة بلغت الحركة الجماهيرية أوج مجدها، وبعد أخذ ورد مع السلطات غير المتجانسة أجيز اتحاد النقابات، وخاصة بعد إحباط مؤامرة الشواف بالموصل. في تلك الفترة حقق الحزب وطبق أعظم تكتيك في الثورة الوطنية، إذ استطاع أن يكسب

الطبقة العاملة بدون منازع وكان حقاً حزبها. فكل نقابات العمال تحت قيادة الشيوعيين وكانت تظم حوالي ٢٥٠ ـ ٣٠٠ ألف عامل. إلى جانب اتحاد العمال تأسست الاتحادات والجمعيات الفلاحية وانتشرت في كل الريف العراقي، من شماله إلى جنوبه وضمت حوالي(٤٠٠) ألف فلاح. وانتعش الاقتصاد الفلاحي تحت قيادة الشيوعيين حيث كان الشيوعي المعروف (كاظم فرهود) هو رئيس الجمعيات الفلاحية. وضم اتحاد الشبيبة في عضويته حوالي (١٢٠) ألف شاب وشابة إلى جانب اتحاد الطلبة العام ورابطة المرأة التي عقدت مؤتمرها الأول ببغداد وضمت في عضويتها حوالي (٤٠) ألف امرأة، كما تشكلت لجان المقاومة الشعبية المسلحة، ولجان الدفاع عن الجمهورية وأنصار السلام ومنظمات اجتماعية متنوعة ونقابات المهندسين والأطباء والاقتصاديين وجمعيات الكسبة والحرفيين والنوادي الرياضية. إضافة إلى نمو عضوية الحزب في الجيش والشرطة من مختلف المراتب إضافة إلى تشكيل محكمة الشعب بقيادة المهداوي لمحاكمة رجالات العهد الملكي.كما أطلقت حرية الصحافة وخاصة اتحاد الشعب التي كان يوزع منها كما أتذكر أكثر من (١١٠) ألف نسخة يومياً.

وفي إحدى المرات خرجت مع هادي هاشم في وقت متأخر من الليل ولم نكن نحمل هويات شخصية فأوقفنا ضابط كان خفر حراسة وطلب هوياتنا، فأخرج هادي الجريدة ولما رآها الضابط سمح لنا بالمرور.

ولكن هذا التكتيك الذي طبقه الحزب لم يكن مربوطاً بستراتيجية واضحة المعالم، من أجل حكم ديمقراطي حقيقي أو استلام السلطة السياسية التي يهدف كل حزب سياسي أو تنظيم ثوري إليها. لم يفرز الحزب قوته عن قاسم وسلطته فكانت الصورة غير واضحة.وكأن الأفضل للحزب أن يكثف الاهتمام بقواه الذاتية ويحمي نفسه وجماهيره وأن يعقد مؤتمره.. إلخ بدلا من ربط مصيره بحكومة قاسم والدفاع عنه وإطلاق شعارات مثل (يا كريم انطينا سلاح باسم العامل والفلاح). لقد شل الصراع الطبقي، بإيقاف إضرابات العمال باسم حماية الإنتاج الوطني مع العلم أن العمال يعانون من الضائقة المعاشية، وهوشبيه بالخطأ الفادح الذي ارتكبه المكتب السياسي (م.س) بتحريم الإضرابات أيام الجبهة الوطنية مع حزب البعث، وعدم العمل في الجيش...إلخ، بعد عام ١٩٧٣، حينما أوقف الحزب الإضرابات العمالية وشل الصراع

الطبقي وعقد الجبهة مع البعث بعد أن توهمت القيادة بأنها تستطيع الوصول لبناء لاشتراكية سوية مع حزب البعث ذي الارتباطات المشبوهة!

رفعت الجماهير شعارات غير ضرورية ولا أدري كيف نزلت إلى الشارع مثل: (ماكو زعيم إلا كريم) (وعمال السكك فدوة لابن قاسم).

كان قاسم عسكريا ذا نزعة فردية متذبذبة، لم تكن لديه خبرة بالحكم، ولم يكن حزبياً مارس الحياة السياسية والحزبية، ولذا فقد كان من السهل أن يحول توجهاته بشكل غير متوقع، خاصة وأن مجلس وزرائه وحكومته كانت هي الأخرى غير متجانسة بتركيبتها.

كان قسم ليس قليلاً من الشيوعيين والمؤيدين لهم يؤيد قاسم لموقفه الإيجابي في البداية من الحزب، وكان قسم من مؤيدي قاسم يؤيدون الحزب لمواقفه المبدأية، و لكن كان من المحتمل أن يتراجع قاسم ويضرب أويحجم المد الجماهيري. وهذا ما حدث بعد محاولة اغتياله في ١٩ تشرين الأول ١٩٥٩.

فخطابه في كنيسة "مار يوسف" كان أشبه بالضوء الأخضر للهجوم على الحزب والحركة الديمقراطية. وكان يتخبط بمواقفه ويحاول الموازنة واللعب على القوى الديمقراطية والقوى القومية لمصلحته الخاصة.في ١٩٥٩/٧/١٤ أجاز اتحاد النقابات العمالية، وفي ١٩٥٩/٧/١٨ أوعز بغلقه ورمي قادة العمال في السجن. ثم أعاد إجازته مرة ثانية مطلع عام ١٩٦٠. وعلى ذات المنوال ذات، جرى تزوير الانتخابات العمالية والجمعيات الفلاحية،كما عطل المقاومة الشعبية وكثيراً من المنظمات الديمقراطية وحكم على الكثير من الشيوعيين والديمقراطيين بالإعدام والسجن. و يمكن الرجوع لكتابات الرفيق زكي خيري وحنا بطاطو وغيرهم، ممن فصّل في هذا الشأن.

كان من المفروض أن يعقد الاجتماع الموسع للجنة المركزية في البيت الذي كنا فيه أنا وهادي هاشم. حضر عدد من الرفاق إلا أنه لأسباب أجهلها عقد في مكان آخر. وبعد فترة سكن معنا الرفاق عزيز محمد ونافع يونس وأخته. كانت من الأخطاء الجسيمة غير المبررة هو النقد الذاتي الذي صدر بجريدة اتحاد الشعب في آب ١٩٥٩. وعمقت ل.م هذا التراجع الخطير، وبدأ الهجوم المركّز ضد الحزب، فقد أعطت قيادة الحزب مبرراً مهماً لتركيز الحملة ضد سياسته من قبل السلطة والقوى الرجعية واليمينية، وسمي هذا النقد الذاتي (بالجلد الذاتي).

أتذكر أنه، عند اشتداد الحملة ضدنا، بدأ الإعداد لإجراء انتخابات للنقابات العمالية. هيأنا أنفسنا لها بشكل جيد، إلا أن تدخل الجيش والأمن والعناصر المعاديةضدنا، والتزوير السافر لها، أدى إلى وصول هيئات إدارية لا تمثل مصالح العمال وغير معروفة لديها.

كان الرفيق سلام عادل في بيت الكرادة ينتظر نتائج الانتخابات وكنت أنا على صلة برفاقنا العمال النقابيين، فأبلغت بخسارتنا وعن تدخل الجيش والأمن وعمليات التزوير فحزنت كثيراً وذهبت حيث الرفيق سلام عادل وأبلغته بعمليات التزوير واعتقال قسم من رفاقنا وتدخل الجيش والأمن. فتغيرت سحنته. وما جرى للعمال جرى للجمعيات الفلاحية وجيء (بعراك الزكم) رئيساً للاتحاد بدل كاظم فرهود. وما جرى لنقابات العمال والفلاحين جرى للشباب والطلبة والنساء وغيرها.

فتغيرت اللوحة السياسية، من الهجوم والمد إلى التراجع والجزر وبدأت مرحلة جديدة، مرحلة تميزت بهجوم السلطة وتكريس الحكم الفردي وتراجع غير منظم في البداية وانحسار غير متوقع. وكان للعناصر اليمينية داخل المكتب السياسي واللجنة المركزية دور كبير في خروج هذا التقييم وجلد الحزب لذاته، وأغلقت جريدة الحزب اتحاد الشعب في ٢٨/٧/ ١٩٦٠.

استعاد العملاء والقوميون نشاطهم وكذلك الشرطة السرية من عملاء التحقيقات الجنائية في العهد المباد، الذين كانوا يقومون بأعمال مخزية ويلصقونها بالشيوعيين. كانوا مثلاً يلصقون صورة الرئيس جمال عبد الناصر على جسم راقصة عارية ورأس الرئيس الراحل تيتو على جسم بقرة، وكنت أراهم في الليل وهم يقومون بهذه الأعمال المشينة في شوارع بغداد وخاصة في شارع الرشيد. وقد نشطوا مرة ثانية إذ لم يمسهم التطهير وبقوا في مواقعهم وكانوا يلجأون لتمزيق القرآن ويلطخون جدران المساجد وصور رجال الدين بالقاذورات ويتهمون الشيوعيين بها، أو يرفعون شعار (ما كو مهر بس ها الشهر) وكأنما الشيوعيين بهذه البساطة وهذه السذاجة.

كما امتلأت السجون والمواقف برفاق وأصدقاء الحزب وإحالة عدد كبير من الضباط المخلصين الى التقاعد و نقلهم لوحدات غير فعالة أو للتحقيق.

في يوم ١٢ تموز ١٩٥٩ وأنا عائد لسكني في الكاظمية - وكان النشاط الرجعي

على أشده، وتحولت منطقة الكرخ الجعيفر والأعظمية مركزاً مقفلاً للقوى الرجعية - ركبت الباص من باب المعظم الذاهب إلى الكاظمية. وعند وصوله إلى جسر الأعظمية توقف عند نقطة التفتيش فصعد ثلاثة من الانضباط العسكري ومعهم شرطة أمن وراحوا يطلبون هويات الركاب. كنت جالساً في نهاية الباص ولم تكن لديّ هوية، كانت معي حقيبة صغيرة فيها أوراق عادية ومسدس. ولما رأيت أنهم يفتشون الحقائب والحقائب اليدوية، نزلت من الباب الخلفي للباص باعتباري قد وصلت إلى المنطقة التي أريدها في الأعظمية. جلست في أحد المقاهي ومن ثم توجهت لعبور الجسر مشياً. لمحني أبو فارس، أحد مفوضي التحقيقات أيام العهد الملكي، وكان قد لبس عمامة القومية العربية وربما كان عضواً في حزب البعث، فأرسل بعض الانضباطية وشرطة الأمن نحوي. حاولت النهوض والدخول في الأزقة، إلا أنهم ألقوا القبض عليّ ولكن الانضباط العسكري منعوهم من ضربي. اقتادوني إلى مركز شرطة الأعظمية. وعندما فتشوا الحقيبة عثروا على المسدس غير المرخص. وبدأ الاستنطاق س و ج. ووجهت لي تهمة حيازة سلاح ناري بدون ترخيص. قلت إني أسكن في البصرة وجئت لزيارة الكاظمية، وعن المسدس ذكرت بأني استعرته لأن هناك مشاكل عشائرية وأخشى من القتل لوجود أعداء كثيرين لي ولعائلتي.

أصدر الحاكم العسكري أحمد صالح العبدي صبيحة ١٤ تموز من عام ١٩٥٩ قراراً بإطلاق سراح الكثير من الموقوفين بكفالة. أي بعد يومين من توقيفي وكنت مشمولاً بالكفالة. فذهبت مع شرطي إلى عكد (حي) الأكراد حيث مقر نقابة سائقي السيارات وكنت مسؤولاً عنهم، ورئيسها رفيقنا (ماهود السكوتي) فأخبرته بالأمر. أرسل معي أحد العاملين في النقابة لكفالتي فأطلق سراحي بعد أن صادروا المسدس والحقيبة وما فيها، على أن يجرى تحديد يوم المحاكمة. كنت أخرج من البيت من الصباح حتى المساء أعمل في مكتب المحامي الأستاذ (عبد اللطيف الشواف) في شارع الرشيد.

كانت قراءة التقارير والمحاضر واللقاء مع الرفاق أعضاء (اللجنة العمالية) تأخذ معظم وقتي، بيد أن العمل بين العمال كان يسعدني وله أهمية خاصة عندي. ويمتاز العمال بالانضباط والنظام والثورية العالية واليقظة الثورية والطاعة الواعية وهذه

الصفات يكتسبونها من العمل ذاته. أبرز صفة لديهم ابتعادهم عن روح الأنانية، والتمسك بالروح الجماعية والديمقراطية وهي صفات لا تتوفر جميعها في الطبقات والفئات الأخرى. ولابد أنه سيكون لهم دور متميز في تحرير الشعب من الدكتاتورية ووضع حد للآلام في وطن حر حقاً وشعب سعيد، ولن يبقى هناك من يطرق باب دارك لينتزعك من أحضان عائلتك ويزج بك في سجن مظلم وجلاد وسجان يقف فوق رأسك أو أنت تشاهد والدك أو والدتك وزوجتك تحمل بيدها أطفالك عند باب التوقيف أو السجن لمقابلة قد لا تتم، حيث يزجرهم هذا الشرطي أو ذاك السجان ويطردهم ويضربهم أمامك ولا تستطيع أن تعمل شيئاً. وليس هناك من يطلق عليك الرصاص حين تشترك في مظاهرة أو إضراب.. إنه حلم جميل ولكن لابد للمناضلين تحقيقه ولابد أن الشعب ينتصر يوماً ما على أعدائه.

عدت إلى بيت الكاظمية وبعد فترة سافر هادي هاشم مع زوجته، وذهب الرفاق عزيز محمد ونافع يونس إلى مكان آخر. بقيت مع الأطفال الثلاثة أولاد زكية فرج إلى أن جاء خالهم وأخذهم معه الى مدينة السليمانية.

بعد أحداث كركوك جاء عدد من الرفاق إلى بغداد بينهم عميدة وأخوها عادل (أبو سرور) وزوجته وأقاموا عند كاظم علي جعفر في شارع الكفاح وكنت أزورهم.

كانت المناقشات محتدمة في منطقة بغداد، حول الأزمة السياسية في البلاد والتدهور الذي يحصل يوماً بعد يوم وازدياد أحكام الإعدام والاعتقالات وضرورة مقاومة المد الرجعي والسياسة التي يتبعها قاسم والخطورة التي تهدد الشعب واستقلال البلاد. كان هناك تذمر من السياسة التي يتبعها الحزب عموماً. قلت إن الحزب أوقف الإضرابات وفقاً لسياسة حماية الإنتاج الوطني مع العلم أن أوضاع العمال كانت تسوء يوماً بعد آخر.

وبعد أن تدهورت الأوضاع سحب هذا الشعار، وحينما أضرب عمال الزيوت والسكاير تصدت الحكومة للإضرابات بالدبابات!!.

طلبنا إشرافاً على لجنة المنطقة من قبل سكرتير الحزب لتدارس الوضع. فعلاً حضر الاجتماع الرفيق سلام عادل، وسمع الآراء المعارضة لسياسة الحزب والمطالبة بتنظيم حملة سياسية ومقاومة إجراءات السلطة والعمل على إيقاف التدهور في الوضع.

كانت الحركة التآمرية تشتد يوماً بعد آخر وسماء العراق تتلبد بالغيوم السوداء ضد قاسم والجمهورية وضدنا بالذات.

وضعت خطة طوارئ في حينها وشكلت هيئة من مسؤولي التنظيمات المختلفة، إلا أن هذه الهيئة لم تضع أية إجراءات لمقاومة أية حركة محتملة، ولم تدرس التفاصيل، بيد أنها كانت تعقد لقاءاً كلما دق ناقوس خطر المؤامرة في دار في المسبح، كما أعتقد، وتكون صلة المنظمات الحزبية للدفاع ومقاومة أية مؤامرة ضد النظام الجمهوري.

ومرة سمعت الرفيق سلام عادل يقول: (أن الدفاع عن الجمهورية لا يعني الدفاع عن قاسم) كان صراعاً حاداً بين المكتب السياسي (م.س) واللجنة المركزية (ل.م.) حول الموقف من قاسم وحول سياسة الحزب والأزمة السياسية التي تتعقد يوماً بعد آخر.

قررت قيادة الحزب التراجع أمام هذا الوضع إلا أن السؤال يبقى قائماً ؛ هل كان التراجع صحيحاً ؟ وهل يصح التراجع من أجل التراجع؟! هل كان ذلك من أجل تنظيم الصفوف لشن هجوم جديد وإنقاذ الشعب من الكارثة التي ستحل به،أم أن القوى الرجعية انتصرت؟ في تلك الأثناء تم سحبي من منطقة بغداد وكلفت بعمل آخر.

التقيت بالرفيق سلام عادل وأبلغني بضرورة أخذ الاحتياطات اللازمة وإعادة ترتيب الأمور. أجّرت بيتاً في العطيفية قرب جسر الصرافية. ونقلنا إلى البيت المطبعة التي كنا نعمل بها قبيل ثورة تموز والوثائق الحزبية في إطار تدابير صيانة المطلوبة.

"الحرب كر وفر"، انكسارات وانتصارات كما هو معروف. وبعد المد الجماهيري الذي وصل عنفوانه خلال الأشهر الثمانية الأولى من عمر الثورة بدأ الآن يتراجع. أغلقت الجريدة واكتظت المواقف بالمعتقلين والموقوفين من أعضاء الحزب وأنصاره،اشتعلت الحرب في كردستان واشتد التآمر الرجعي وتنشطت عصابات الردة وعملاء المخابرات الأجنبية وخاصة الأمريكان. وخشية من أن توجه ضربة للحزب اتخذت هذه الإجراءات، أي توفير بيوت سرية للكادر. اختفى أكثرية الرفاق ونشئت عدة مطابع سرية للاحتياط.

كان الوحيد الذي يعرف البيت الجديد ويتردد عليه هو الرفيق سلام عادل.

إذن عدنا للاختفاء والسرية في العمل والحرمانات والمطاردات من جديد. بقينا ما يقارب ستة أشهر في هذا البيت مع الرفيقة أم سلام.

هذه الإجراءات التراجعية تختلف عن الإجراءات التي أتخذها م.س إبان هجوم البعث على الحزب عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ حيث لا مطابع ولا بيوت احتياط وعلى كل رفيق أن يدبر نفسه بنفسه مما أدى إلى اعتقال وتشريد أعداد غفيرة من الرفاق وتفكيك عشرات المنظمات الحزبية.كانت أشبه بالهزيمة منها إلى التراجع والمقاومة لإجراءات البعث.

جاءت أم عواطف للسكن معنا وكذلك الرفيق صبيح. بدأنا بنصب المطبعة. التقينا مجدداً بعد أن كان كل منا يعمل بعيداً عن الآخر وبين فرحتنا بأننا رجال المهمات الصعبة وبين الصعوبات التي سوف تعترضنا كان حماسنا للتصدي لتلك المصاعب يتأجج. وبدأنا طبع البيانات. وفي أحد الأيام خرج الرفيق صبيح ولم يعد. لقد ألقي القبض عليه وكنا متأكدين من صلابته [١٥٤].

طلب منا الرفيق سلام عادل الانتقال من البيت. تركنا البيت فترة من الزمن. فككت الرفيقة أم عواطف الماكنة وأحرقت الأوراق الزائدة ونقلت كافة الحاجيات الضرورية. وبعد ليلتين عدنا للتفتيش عن بيت يصلح للعمل السري. وجدت بيتاً قرب معمل زبلوق للأحذية في تل محمد وكان وكأنه صمم لعمل المطبعة. منعزل ومحاط بحديقة، فيه غرف عديدة واسعة منعزلة بجدران ملونة.. أحمر وأخضر وأبيض.. كانت فرحتنا كبيرة بعثورنا على ذلك البيت.

نقلنا المطبعة وكافة اللوازم الضرورية وجاءت الرفيقة أم سلام مع أم عواطف معنا.

كانت لدى الحزب مطبعة تدعى " دار الساعة " وكان يعمل فيها عدد من العمال التقدميين وأخو الرفيق سلام عادل. كما كانت هناك مطبعة أخرى في عكد النصارى، وهي "دار الوفاء". كانت الظروف أسهل من زمن العهد الملكي، سواء من حيث التنقلات أو شراء الاحتياجات الضرورية. وبعد أن انتقلنا إلى البيت الجديد ونقلنا المطبعة معنا وعانينا كثيراً في تركيبها وتشغيلها.

أبلغني الرفيق سلام عادل عن مطبعة دار الساعة التي كانت تضم مطبعة كبيرة تعود للحزب مهداة إلينا من ألمانيا الديمقراطية وقال عليك بنقلها إلى هذا البيت وتشغيلها. ذهبت إلى لمطبعة للتأكد منها وتعرفت على العاملين فيها. في اليوم الثاني ظهراً ارتديت ملابس عمال وأجّرت سيارة (بيك آب) وذهبت لدار الساعة ونقلت المطبعة بعد أن غلفتها ببطانيات وقماش. كانت عملية نصب وتشغيل هذه المطبعة صعبة ومعقدة وتحتاج إلى عامل فني لنصبها.أفلحنا أنا والرفيق هاشم بإعادة نصب

الماكنة وحاولنا تجربتها، إلا أننا لم نستطع ضبطها، مما اضطرنا أن نستدعي أحد الرفاق الفنيين من عمال المطابع لتنظيمها. تعلم الرفيق هاشم بسرعة تنضيد الحروف وتوزيعها بالاستفادة مما امتلكه من خبرة في ذلك المجال.

كنا بحاجة لرفيق جديد لمساعدتنا في العمل فجيء برفيق كنا نسميه "هاشم" كان مطاردا ومختفيا، ولكنه رفيق جيد وملتزم من الموصل.

في تلك الفترة عاد الرفيق محمد صالح العبلي من الخارج بعد أن أكمل دراسته. وقد جاء إلى البيت ومعه الرفيق جورج تلو. بعد عدة أيام أخذ زوجته و ابنه سلام لينتقلوا إلى بيت آخر. إلا أنه بقي يتردد علي البيت باعتباره من العاملين في المطبعة سابقاً وأصبح مسؤولاً عن البيت مع الرفيق سلام عادل.

كما جيء برفيقتين من العوائل المعروفة من بيت الحكيم.

عقد قراني وأم عواطف في ١٩٦١/٥/١ [١٥٥].

نظمت القوى المتآمرة إضراب سائقي السيارات احتجاجاً على الزيادة في أسعار البنزين. حضر الرفيقان سلام عادل والعبلي ومعهما مسودة بيان ضد الإضراب وكان مستعجلاً. وبسرعة تم تنضيد البيان وطبعه. في الصباح وضعته في صناديق من الكارتون ونقلته إلى السيارة لتسليمه لمنطقة بغداد الحزبية. وحوالي الساعة الثامنة صباحاً وقرب مديرية الأمن العامة عند القصر تعطلت السيارة وانطفأ محركها، حاولت تشغيلها عدة مرات وفشلت. أصبحت كالبغل الذي يقف على حافة الجبل ماداً برأسه صوب الوادي السحيق وصاحبه على ظهره، لا يدري أي ساعة سيهوي هو والبغل.كان رجال الأمن يتراكضون عبر الشارع للوصول لعملهم في مديرية الأمن العامة.إن التفاتة من أحدهم سيلقى القبض عليّ وأكون فريسة سهلة، وستذهب كل الجهود سدى خاصة وأن أكثرية رجال الأمن هم من رجالات العهد المباد، من رجال التحقيقات الجنائية الذين يعرفونني جيداً، أرجعهم عبد الكريم قاسم للخدمة لأنهم متمرسون في محاربة الأحزاب وخاصة الحزب الشيوعي. كنت كلما أرى واحداً منهم قادماً عبر الشارع أختفي خلف السيارة المحملة بالبيان حتى جاء أحد سائقي التاكسي وساعدني بتشغيلها وانطلقت بأقصى سرعة وأوصلت المطبوع للمنظمة.

وأذكر أن الرفيق جورج تلو[١٥٦] زار البيت مع العبلي. أصبح البيت معروفاً لعدد من الرفاق وهذا يتنافى والعمل السري والصيانة، مما اضطرنا أن نفتش عن دار جديدة

وتحديد الرفاق الذين يترددون على البيت. ودارت دورة التفتيش عن بيت جديد. عثرت على واحد مناسب في منطقة الجندي المجهول، بيت قديم واسع تحيط به حديقة من كل جوانبه، لم يؤجر منذ فترة، فيه مواصفات ضرورية لعملنا.

نقلنا المطبعة والأثاث لهذا البيت وخصصنا غرفة مطلة على الحديقة الواسعة للمطبعة لم نكن نعرف أن البيت الذي بقربنا هوبيت دعارة تديره (أم شوقي) [١٥٧].

بدلاً من الرفيق هاشم والرفيقات بتول وآمنة الحكيم، جاء الرفاق علي الوتار الذي تزوج من أخت أم عواطف ووجيهه الصفار ليسكنوا معنا، ولنصبح عائلة واحدة.

بدأت بتدريب علي الوتار[١٥٨] كغيره من الرفاق الجدد على تنضيد الحروف والعمل الطباعي.

ذات يوم من أيام الصيف بقيت لساعة متأخرة من الليل فسمعت صوتاً غير طبيعي في الغرفة الأخرى المجاورة. أوقفت العمل وأطفأت نور الغرفة وأغلقتها بالقفل وبقيت انتظر. فتشت البيت خاصة الشبابيك التي على واجهة بيت أم شوقي. فلم أر شيئاً غير اعتيادي وتأكدت أيضاً من باب البيت، ثم صعدت للنوم. كان الهواء عليلاً هواء ليلة صيف، وكنت مجهداً ما دعانا أنا وزوجتي وعلي وزوجته أن نغط في نوم عميق.

نزلت منذ الصباح الباكر إلى ساحة البيت لأرى أبواب الغرف مشرعة وبعض الملابس منثورة على الأرض.لم تمس غرفة المطبعة لأني كنت أقفلها وابقي المفتاح معي.طال العبث غرفة نومنا وغرفة علي وزوجته. فتشت الغرف جيداً لأرى حديد أحد الشبابيك منزوعا وأن لصاً دخل من هذه الفتحة وسرق البيت. ويبدو أنه كان في عجلة من أمره فاكتفى بما وجده. وكانت غالبية حاجياتنا، هدايا زواجنا وزواج علي وزوجته، قد سرقت. فصعدت وناديت على علي فاستغرب الأمر، وبسرعة أبلغنا أبو إيمان وبعد فترة ألقي القبض على اللص وأعيدت إلينا أكثر المسروقات.

في هذه الحالة لابد من الانتقال من البيت والتفتيش عن بيت جديد.فالجريدة والنشريات والإعلام عموماً له أهمية قصوى للحزب وللجماهير ومن هذا المنطلق كنا نحن العاملين في هذا المجال نتحمل أقسى الظروف.

كانت مدينة الكاظمية محطتنا وبعد لف ودوران وجدت بيتا يلبي المواصفات المطلوبة. قابلت صاحب البيت ودفعت له الإيجار. الكاظمية كانت منطقة آمنة، نستطيع التنقل والحركة فيها بحرية أكبر.

وفي يوم من أيام تموز اللاهب، شددنا الرحال.. المطبعة والأثاث مستفيدين من خبرتنا في الماضي إلى البيت الجديد. انتقل الرفيق علي الوتار وزوجته وفاتحت الرفيق صبحي جواد وهو عامل فني ليحل محلي فانتقل هو وعائلته معهم. أخذنا وأنا وزوجتي بيتا احتياطيا آخر في منطقة الحرية ومعي في البيت كانت مطبعة يدوية احتياطية وبعض الوثائق المهمة. كانت أم عواطف حاملاً بعواطف في تلك الفترة.

اتخذ الحزب في تراجعه ذلك كافة الإجراءات الاحتياطية بشكل جيد آخذاً بنظر الاعتبار انتكاس ثورة تموز واحتمال الانقلاب الرجعي، ولكنه لم يفكر جدياً باستلام السلطة.

كان الرفيق جمال الحيدري المسؤول عنا وكنت مسؤولاً عن بيت الكاظمية. وكان الرفيق محمد العبلي (أبو سلام) يزورنا باستمرار في بيت الحرية، فاقترحت عليه أن يفتش لنا عن عائلة جيدة تسكن معنا ولتدريبها على العمل. بعد فترة جاءنا الرفيق بعائلة من زوج وزوجته الحامل. مكثا معنا شهرا أو أكثر ثم سافر ولم يعد. إذ ربما أخافته المطبعة حينما شاهدها، وبعد أسبوع لحقته الزوجة. كان اختياراً غير موفق.

كان اسم المطبعة والعمل فيها يثير الرهبة عند بعض الرفاق وسبق أن قلت: ليس كل رفيق جيد يصلح لهذا العمل. روى لي الرفيق محمد صالح العبلي هذه القصة عندما كان في المحلة [١٥٩]. ان سفر ذلك الرفيق وزوجته، جعلنا في حيرة، وفرض علينا منطق العمل السري أن ننتقل من البيت.

لم يتمرس الرفاق الذين انضموا إلى صفوف الحزب بعد ثورة تموز، أثناء المد الثوري،ولم يمروا بمدرسة النضال السري أيام الحكم الملكي ولم يتعرضوا للسجون والتعذيب والاضطهاد. فكان البعض منهم يهتز منهم أمام أول عاصفة وينقلب ولاء قسم آخر تحت أول ضربة.

اضطررنا إلى الانتقال إلى بيت في بغداد الجديدة. كان جارنا أحد القوميين من مدينة سامراء، كان يبنؤنا عن قرب نهاية هذا الوضع، ويقصد حكم قاسم!!

استقر الرفاق علي الوتار وصبحي في بيت المطبعة المركزية وأخذوا يطبعون الجريدة المركزية. وكانت هناك مطبعة أخرى تطبع جريدة للفلاحين ومطبعة ثالثة للعمال يديرها الرفيق (أدمون يعقوب) [١٦٠].

أصبحت مسؤولاً عن المطبعة المركزية. وكنت أساعد الرفاق عند الضرورة في عملهم والمطبعة أصبحت تعمل بانتظام وسرعة معقولة.

الفصل الحادي عشر

الشرطة تداهمنا ولكن؟

ذهب الرفيق علي الوتار وزوجته لزيارة والدته العجوز، بعد انجاز طباعة الجريدة. وكنا أنا والرفيق صبحي ننضد حروف بيان طلب الرفيق جمال طبعه. بقينا حتى ساعة متأخرة من الليل وقد نامت زوجته وأطفاله. كانت زوجتي في زيارة لوالدتها. صعدنا لسطح الدار. أيقضنا من النوم صوت جرس البيت وكان يرن بشكل متواصل مع طرق شديد على الباب الخارجي. نهضنا فزعين. ألقينا نظرة من ثقوب سطح البيت لنرى سيارة لاندروفر محملة بالشرطة وكان معهم معاون شرطة هو الذي كان يضغط على الجرس ويضرب باب الحديقة المشرعة المفتوحة حتى نهايتها. تبادر إلى ذهننا بأننا قد كبسنا وجاءت الشرطة لإلقاء القبض علينا. كان الأطفال يغطون في نوم عميق وأمهم، زوجة صبحي، إلى جانبهم. أذهلتنا المفاجأة. قلت لصبحي سأنزل وأفتح الباب لمعرفة غايتهم. وقدرت، لو أنها كانت كبسة لما تورعوا بكسر الباب والدخول عنوة واحتلال البيت ولابد أن هناك خطأ. طلبت من صبحي أن يهيئ نفسه والعائلة للهرب بالعبور إلى البيت المجاور. سحب سكيناً كانت تحت رأسه وقال لن أخرج ونتقاتل معهم. قلت له أنهم مسلحون بمسدسات وبنادق.

قابلت معاون الشرطة وأنا أرسم ابتسامة على وجهي وسألته عن الأمر.

فقال بأنهم يأسفون لذلك الإزعاج، وسبب قدومهم هو مشاهدتهم باب الحديقة مفتوحاً وقدروا أننا ربما تعرضنا لسرقة أو حادث وكرر أسفه على طرق الباب بتلك الصورة وتلك الساعة المتأخرة من بعد منتصف الليل. ضحكت من الرد المفاجئ وقلت له ربما نسي الأطفال أو الفلاح غلق الباب، وإننا لم نتعرض للسرقة وشكرته كثيراً لحرصهم على سلامة المواطنين. كان مؤدباً جداً ثم دعوته للدخول وشرب الشاي فاعتذر وقال إن الوقت متأخر.

كان العمل على إسقاط قاسم يتصاعد يوماً بعد يوم ويلتقي القوميون والبعثيون وبعض رجال الدين بدعم من الحكومات العربية والخليجية. وتُجري لقاءات معهم المخابراتُ الأمريكية والإنكليزية من خلال بعض البعثيين، ويجري التنسيق المترابط والمتكامل لإسقاط النظام الجمهوري، وعبد الكريم قاسم مستمر على نهجه وتصريحاته من مثل: (عفا الله عما سلف) (وأن جمهوريتنا أمنع من عقاب الجو) ولا يدري أن عقاب الجو يمكن أن يقتل بصاروخ موجه أو طلقة من صياد ماهر. وتضج الإذاعة بخطبه وأقواله يومياً [١٦١]، رغم تحذيره من مغبة ما قد يحدث.

وقال الجواهري قصيدته المحذرة:

تصور الأمر معكوساً وخذ مثلاً
ماذا يجرونه لو أنهم نصروا
أكان للرفق ذكر في معاجمهم
أو عن كريم وأصحاب له خبر
والله لاقتيد زيد باسم زائدة
ويصطلي عامر والمبتغى عمر
فضيق الحبل واشدد من خناقهم
فربما كان في إرخائه ضرر

وعجلة مطابعنا تدور محذرة والجماهير يائسة ومتذمرة. كان الماء يجري من تحت قدمي قاسم ومن حوله دون أن يشعر.

بعد أن سافر الرفيق أبو ليلى وتزوج أم فاضل نهاية ١٩٥٩ رجع للعراق. وفي سنة ١٩٦٢ في ١٢/١٧ رزقا ببنت أسمياها ليلى وفي ٤/٢٠ رزقنا ببنت سميناها عواطف، وبعد رجوع أبي ليلى للعراق انقطع عنا الرفيق العبلي وأصبحت صلتي مباشرة مع الرفيق أبو ليلى.

نلتقي جميعاً في أيام العطل ونجتمع في بيت الوالدة [١٦٢]. وكان لا يعرفه أحد سوى أبو ليلى وأنا والعائلة وهو من البيوت القليلة التي سلمت بعد انقلاب شباط ١٩٦٣.

بلغ التآمر ضد قاسم أوجه في عام ١٩٦٢، وكان يتحمل مسؤولية غير قليلة من هذا الوضع بسياسته غير المتوازنة (أنظر كتابي بطاطو وزكي خيري).

صدر قرار من الحزب يوجه كافة الهاربين ومن عليهم قضايا أن يسلموا أنفسهم للسلطة. كنت على علاقة صداقة مع الرفيق فاضل الخطيب (أبو عطا، الذي صدر بحقه أمر إلقاء القبض) وكان يسكن في منطقة بغداد الجديدة (كراج الأمانة). كان محامياً بيد أنه اشتغل في الأعمال الحرة. وكان أبو إيمان سلام عادل وجمال الحيدري خارج العراق. فسلم أبو عطا نفسه وحكم بالسجن كما سلم الرفيق حمزة سلمان وآخرون أنفسهم أيضاً. كان قراراً خاطئاً. وظلوا محتجزين حتى بعد انقلاب ٨ شباط، حيث قتل البعثوين بعضهم مثل حمزة سلمان ومهدي حميد. اما أبو عطا فنال حكم سنة ونصف وطلب مني أن أسلّم نفسي إذ كنت محكوماً سنة ونصف غيابياً بعد اعتقالي في الأعظمية فرفضت واعتبرت أن من الخطأ أن يسلم الرفيق رقبته وبإرادته إلى الجلادين.

كيف نجونا من الموت

في أحد الأيام من أيام الصيف كان الرفيق جمال في مكتبه في البيت وكنت في زيارة له. بعد حديث مطول حول الأوضاع السياسية طلب مني زيارة بيت الوالدة. كانت لدينا سيارة لادا. ركب إلى جانبي وانطلقت باتجاه البيت. كانت ليلة شديدة الظلام معتمة، وكانت هناك سكة حديد في الشارع العام قرب قناة الجيش. كنت مسرعاً بعض الشيء وبمجرد أن أصبحت عجلات السيارة الخلفية على سكة الحديد فوجئنا بمقدمة القطار تتجه صوبنا بسرعة، من دون أن تعطي أي إشارة أو تشعل أنوارها.ولولا السرعة التي أنقذتنا من موت محقق لدهسنا القطار. لحد الآن لم أجد تفسيراً لهذه الحادثة.

حدد الرفيق جمال موعداً لي مع الصحفي اللامع عبد الجبار وهبي[١٦٣]، الذي كان عليه أمر إلقاء القبض من قبل أجهزة قاسم فالتقيته في الشارع وذهبت معه إلى بيت الرفيق فاضل الخطيب.

الانحراف التام

كان جرس الخطر يدق على الأبواب بقوة والنار تلتهم الكثير من المكتسبات التي تحققت في الثمانية الأشهر الأولى من عمر الثورة، فالقوى التي تضررت مصالحها

بثورة تموز ترفع عقيرتها وتبث سمومها وتلف بدخانها الأسود كل ما هوجميل وناصع. وتشكلت جبهة عريضة في الداخل والخارج من ؛ الإقطاعيين والأغوات وبعض التجار الكبار ورجالات العهد الملكي المباد من الذين خسروا مواقعهم وبعض رجال الدين الرجعيين ودعاة القومية من بعثيين وناصريين [١٦٤] وحزب الاستقلال ورجالات التحقيقات الجنائية من رجالات الأمن، وأولئك الذين يرون أن في سياسة قاسم انحرافا.

ولعبت السياسة المتذبذبة التي سلكها قاسم بمحاولة الموازنة بين القوتين الرئيستين وتصريحه حول الكويت، وإشعال الحرب ضد الكرد وميل هؤلاء للتعاون مع اليمين، دورا هاما في مفاقمة الوضع. وكانت أكثرية الدول العربية ودول الخليج والدول الإقليمية كتركيا وإيران وكافة الحكومات التي تسير في ركب أمريكا وانكلترا تنسق فيما بينها لتغيير الوضع في العراق.

في تلك الأثناء أصدر الحزب نداءً لإيقاف الحرب في كردستان وجمع مئات الألوف من التواقيع حول ذلك الشأن.

كانت البلاد تئن تحت ظل أزمة عامة ثقيلة، تنذر بخطر جسيم. والنشاط التآمري والتنسيق يزداد وأحكام الإعدام تزداد ومئات الموقوفين والحزب مكبل بأثقال سياسته.

دخلت في صراع داخلي وتغير مزاجي وكنت من الذين يطالبون بتبديل الأوضاع حتى على حساب إسقاط قاسم ومن المعتقدين بأن بقاء الوضع على ما عليه سيؤدي إلى كارثة.

لا ينكر المرء الإجراءات والخطوات التقدمية التي أنجزتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وتفجيرها لطاقات الشعب من مثل الخروج من حلف بغداد والنقطة الرابعة ومن دائرة الاسترليني وسياستها النفطية وإجراءات الإصلاح الزراعي التي أرعبت الإقطاعيين والأغوات ومعاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفييتي ومحاكمة رجالات العهد الملكي من عملاء الاستعمار، وإتاحة الفرصة أمام الشعب بتنظيم نفسه بنقابات وجمعيات والمقاومة الشعبية وتحسين الظروف المعاشية للجماهير نسبياً... إلخ ولم تكن هذه الإنجازات بمعزل عن نضال الشعب وطموحاته. لكن التراجع عن هذه الإجراءات يعني الهزيمة أمام قوى الإمبريالية وحلفائها.

بعد الجلد الذاتي (النقد الذاتي) الذي أصدره م.س و ل.م. جرت إجراءات ضد سلام عادل وجمال الحيدري وآخرين.

حينما كنت مسؤولاً عن التنظيم العمالي، التقاني الرفيق سلام عادل وطلب مني تهيئة الكوادر العمالية للاجتماع بهم وتقديم نقد ذاتي أمامهم من قبله خاصة بعد طرح شعار مشاركة الحزب الشيوعي بالحكم، في مظاهرة أيار ١٩٥٩. كنا في مقر اتحاد النقابات في شارع الرشيد وحضر الرفيق سلام عادل معنا وطرح هذا الشعار فتلقفته الجماهير بسرعة هائلة. وعندما حضرت الكوادر العمالية حضر الرفيق سلام عادل وبدأ حديثه حول "التراجع" فتضايقت من الحديث غير المبرر.

كان هذا بضغط من العناصر اليمنية في م.س ونتيجة الاستياء الذي ساد داخل منظمات الحزب وإلحاحها بضرورة التغيير. طلب من المنظمات ومن الرفاق تقديم دراسة ومعلومات عن الوضع في الجيش بعد أن تغيرت أشكال التنظيم كل حسب موقعه في المعسكرات. فقدمت معلومات كاملة عن الوحدات العسكرية والمشاجب والقوى الحزبية وحالة الجنود والضباط النفسية وغيرها و عن كيفية قلب الحالة بضربة واحدة تنهي كل شيء، ولكن لم تتخذ أية إجراءات وجرى كما علمت تجميد العمل. وأعلن الزعيم قاسم أن الجيش فوق الميول والاتجاهات... إلخ.

وفي المطبعة كانت تصلنا أحياناً بيانات ملتهبة وتنتقد الوضع وسرعان ما تسحب وتغيرليكون المضمون مع قاسم.

خلقت تلك السياسة غير الواضحة الكثير من التذمر واليأس لدى المنظمات والكوادر الحزبية.

من الإجراءات الاحتياطية التي اتخذتها قيادة الرفيق سلام عادل إرسال عدد كبير من الكوادر الحزبية للخارج للدراسة أوالعلاج.

كيف اعتقلت في البصرة عام ١٩٦٢

كانت عواطف قد أصبح عمرها ٤ أشهر حين أبلغت في شهرآب بالتهيؤ للسفر إلى بلغاريا للدراسة. سافرت إلى البصرة لزيارة أهلي ومن ثم التحقت بي زوجتي وابنتي. وكان قد اتفق معي الرفيق محمد صالح العبلي (أبو سلام) أن يأتي هو أيضاً خلال بضعة أيام. وفعلاً التقينا لتدبير أمر سفري عبر إيران إلى بلغاريا.

كما التقينا مع سكرتير المنطقة الجنوبية آنذاك (عبد الحسين خليفة) وكذلك مع شخص يسمى عباس، وهو إيراني الجنسية[١٦٥] الذي شرح لي طريقة السفر وحدد موعده. ودعت الأهل والعائلة. كان موقفاً عاطفياً مؤثراً لا زال عالقاً في مخيلتي. ركبت سيارة أجرة صاحبها معروف لدى منظمة البصرة ومعه شخص آخر على أساس أنه مراسل يرافقني بالسفر اسمه محمد علي، وكان عضواً في الحزب ووكيلاً للأمن العراقي وربما كان وكيلاً للسافاك الإيراني أيضاً، و يعمل مراسلاً بين المنطقة الجنوبية للحزب وحزب توده. وقبل سفري أعطاني عباس الإيراني جواز سفر أردنياً صادراً من منطقة الزرقاء، قديماً ومزوراً، وزودوني بأسماء ومناطق قال يجب أن تحفظها، وأعتقد أنها كانت وهمية لا صحة ولا وجود لها.

انطلقت بنا السيارة نحن الثلاثة أنا والسائق والمراسل محمد علي تتبعنا سيارة (فوكس واكن) كان فيها عبد الحسين خليفة.سارت السيارة في شارع الكورنيش وسرعان ما اختفت سيارة (الفوكس واكن). انعطفت السيارة بنا نحو اليمين بعد أن عبرت جسر الخورة باتجاه أبو الخصيب. وهناك في المنطقة كانت تقف سيارة أمن (لاندروفر) وفيها ٤ أشخاص أحدهم كان المفوض المعروف (فاضل الأسود). كانوا قد نصبوا لي كميناً. أوقفوا السيارة أنزلونا من السيارة وأكملوا المسرحية بأن شتم فاضل محمد علي وضربه للتمويه وضرب السائق وأطلق سراحهم. وبدأ التحقيق معي.

وهكذا تم تسليمي للأمن يدا بيد وبدون معاناة بواسطة غفلة سكرتير المنطقة وبواسطة هؤلاء العملاء. ومنها بدأ مسلسل جديد مضحك مُبْكٍ. جرى تفتيشي وعثر المفوض فاضل الأسود على جواز السفر وكمية من النقود وصور لعائلتي وأخي عادل الذي يعرفه فاضل الأسود ـ حاولت إقناع فاضل أن يأخذ الفلوس التي معي ويطلق سراحي. وعندما رأى الجواز سألني هل أنت أردني فأجبته بنعم، ثم سألني عن وجهتي، فقلت بأني أحاول العبور إلى إيران بعد أن انقطع رزقي في العراق وأن إقامتي انتهت منذ زمن.

رفض عرضي عليه وقال لنذهب إلى مديرية الأمن (في البصرة). كان مدير أمن البصرة في ذلك العام إسماعيل شاهين. أدخلني فاضل عليه مباشرة. كانت تجلس في الغرفة أمام المدير إحدى القوادات المعروفات وقد ملئت يداها بالأساور الذهبية وفمها

بالأسنان الذهبية وعلى المنضدة أمامها حزمة من الدنانير تريد تسليمها لمدير الأمن!!
فوجئ المدير بدخولي [١٦٦] عليه. وسألني عن أسمي وعملي... الخ ثم خرجت وبقيت القوادة معه. أودعت التوقيف وكان عبارة عن كراج سيارات. غرفة نتنة رطبة صفيحة التبول في بابها، فيها عدد من الموقوفين العاديين. ولم يعلم أهلي باعتقالي بعد.

بدأ التحقيق معي في صباح اليوم الثاني فقلت للمحقق بأني أردني من مدينة الزرقاء جئت إلى العراق قبل ثورة ١٤ تموز وكانت لدي إقامة، إلا أنها ضاعت مني ولم أراجع مديرية الإقامة بشأنها، وأنا أشتغل بائعاً في الشورجة ولي صلة ومعاملات مع بعض التجار. وعندما ضاقت بي السبل قررت الخروج من العراق للعمل في إيران أو دول الخليج، جئت للبصرة منذ يومين وسكنت في محلة يسمونها الجمهورية... إلخ لم يقتنع المحقق بكلامي ثم ضغط على الجرس وطلب الشرطي المخضرم من العهد المباد المدعو (جعفر أغائي) وطلب منه مرافقتي لمعرفة المكان أو البيت الذي كنت فيه في الجمهورية. كنت لا أعرف المناطق الجديدة في البصرة بسبب غيابي عنها سنوات عديدة. كانوا يلفون بي في أزقة الجمهورية ويسألونني عن البيت وأنا أقول بأني لا أعرف. أخذوني إلى بيت مختار الجمهورية. قال المختار لهم لا أعرفه وبعد أن طافوا بي كل أزقة الجمهورية قلت لهم إن المناطق متشابهة ولا أستطيع تمييزها. ولا أستطيع معرفة البيت الذي كنت فيه. ولما عجزوا أرجعوني إلى مديرية الأمن. كانت يداي مربوطتين بالكلبجات. وعندما نزلنا من السيارة حاول أحد الشرطة السرية أن يضربني ففاجأته بضربه على رأسه فانهزم من أمامي. أودعت غرفة التوقيف مرة ثانية.

اقتادني في المساء أحد رجال الشرطة إلى غرفة مدير الأمن، وقبل أن يدفعني للغرفة قال لي (كن رجلاً واصمد). كان المدير جالساً خلف مكتبه ومعه ثلاثة من الشرطة،أحدهم يحمل سوطاً من الجلد مشابه للسوط الذي ضربني به فرج زيا عام ١٩٥٧ أمام مدير أمن بغداد (رفيق توفيق) عندما ألقي عليّ القبض مع الحروف والدراجة الهوائية ببغداد.

سألني المدير وطلب أن أعترف. قلت له: أنا أعطيت إفادتي ولا جديد عندي.

طرحني الشرطة أرضاً ووخلعوا حذاءي وشدوا قدمي بشريط البندقية ورفعوهما وبدأ الذي بيده السوط بضربي بكل قوته حتى كاد الدم يقفز من بين أصابع قدمي

ولكنني لم أستجب ولم أصرخ وكنت أحبس ألمي وقلت لنفسي يجب أن أفوت عليهم الفرصة كما فوتها على أمن بغداد عام ١٩٥٧. وتذكرت مجازر السجون والعذابات التي مرت عليّ وعلى رفاقي. ولو كانت حياتي هي الثمن لن أسلم بيت جمال الحيدري أو زوجتي.هل اعترف على مطبعة الحزب في الكاظمية وهل أدوس على كل تاريخي بسهولة أمام هؤلاء الصعاليك. وبعد أن عجزوا مني قادوني مع سلسلة من الشتائم إلى غرفة الموقف.

ما أشبه اليوم بالبارحة حكومة نوري السعيد وحكومة قاسم تقوم بتعذيبنا نحن الذين أعطينا زهرة شبابنا للنضال الوطني. وكان هذا يجري في ظل الجمهورية التي ناضلنا طويلاً من أجل قيامها بعد أن تخلصنا من حكم العملاء والخونة.

أثناء نصب الكمين لي وإلقاء القبض عليّ وأثناء التفتيش وجدوا عندي مجموعة من الصور تعود لعائلتي وفيها صورة لأخي عادل ومكتوب عليها اسم الاستديو (استديو قاسم). وكان فاضل الأسود يعرف أخي عادل ويعرف انتماءه السياسي. كان ذلك خطأ مني، فمن المفروض أن لا أحمل أي دليل يدل على عائلتي أو شخصي. في اليوم الآخر ألقي القبض على أخي عادل وجيء به للأمن ثم جاءوا بوالدتي وأختي أم رياض التي أنكرت معرفتها بي في البداية. فأراد مدير الأمن أن يضربها ويوقفها وهددها ولكنها أصرت على عدم معرفتها بي، ولكن والدتي لعدم علمها بالقضية قالت إنه ابني سليم. خطرت ببالي بعدها قضية (فرج الله الحلو)[١٦٧] عندما قتلته المخابرات السورية في عهد (عبد الحميد السراج). بعد التحقيق الذي دام أياماً أخبرني المحقق بأن هناك شيوعيا يريد التحدث إلي. قادني الشرطي إلى غرفة صغيرة. رأيت شخصاً، لا أعرفه، جالساً فيها. قدم نفسه على أنه (إبراهيم صياح)[١٦٨] وبدأ يتكلم معي كأي وكيل منهار: أن الحزب قد انتهى... إلخ نظرت إليه ولم أرد على كلامه حتى خروجه من الغرفة. وبعد انتهاء التحقيق معي في الأمن اقتادوني إلى موقف مركز شرطة العشار.كان هناك عدد من الموقوفين بضمنهم الرفيق عبد الخالق طاهر [١٦٩] كان الوقت صيفاً،غرفة صغيرة حشرنا فيها حشراً مع مجموعة متهمة بالاختلاس وموقوفين سكارى... إلخ كانت الحاجّة أم عبد الخالق تزوره للموقف جالبة معها الطعام وهي متعودة منذ سنوات على هذه الأمور كما كان والدي يزورني ويجلب لي الفطور صباحاً.

وكان عبد الخالق يعلق على بعض الموقوفين فيقول لهم هل أنت (سياسي) أو (سيّاسي) [170] قضيت بضعة أيام في مركز شرطة العشار الذي يقع في ساحة أم البروم نقلت بعدها إلى مركز شرطة البصرة القديمة.

فرأيت في التوقيف الكثير من الرفاق منهم جبار ناصر المصارع المعروف وعمانوئيل الأرمني الذي رشحته عام ١٩٥٨ وعباس المظفر وعدداً آخر من الموقوفين بتهم ملفقة من قبل الأمن.

كان هناك أكثر من ١٤٠ موقوفا آخر موزعين في مواقف الزبير وأبو الخصيب وسجن البصرة،والحملة تزداد يومياً على منتسبي النقابات والجمعيات ومنظمات الشباب والطلاب ولم تخل السجون من النساء، في وقت كان يجري العمل لقيام مؤامرة ضد الجمهورية. واشتدت حملة الاعتقالات ليس في البصرة وحسب وإنما في كل أنحاء الجمهورية. ضمت غرفة الموقف التي أدخلوني إليها عددا قليلا من الموقوفين السياسيين والقسم الأكبر من أصحاب قضايا الجرائم ، أما غرفة التوقيف المقابلة فكان فيها رفاقنا وأصدقاؤنا. أرسلت خبراً إليهم بأنني موقوف على قضية عادية: تزوير جواز ومحاولة اجتياز الحدود، وربما أحاكم بمحكمة جزاء ويمكن أن أخرج بكفالة.

ولم يستقر بي المقام حتى جاء الرفيق عمانوئيل، وهو مصارع أيضاً، ليسألني إن كنت أحتاج لشيء قلت له إني متهم بالتزوير، وإني لا أحتاج شيئاً. في اليوم الثالث من وجودي في مركز شرطة البصرة جاء المفوض المسؤول عن التحقيق معي ومعه شرطي أخذوني إلى الأمن وكان أخي عادل قد أطلق سراحه في اليوم نفسه. سفرت في المساء إلى مديرية الأمن العامة في بغداد.

كان الوقت صباحاً عندما وصلنا إلى مديرية الأمن العامة. فتح الشرطي الكلبجة من يدي وأدخلني غرفة مملوءة بالمحققين من معاونين ومفوضين وبعضهم ممن كان في التحقيقات الجنائية مع بهجت العطية في العهد الملكي. فأخذوا ينظرون إلي بحقد دفين وعين الانتقام ولم يتمالك طه السامرائي نفسه، وكان أبيض ممتلئ الجسم، فقام من وراء مكتبه واعتدى عليّ بالضرب وهو يردد كيف تشهدون علينا في محكمة المهداوي!! [171] سوف ننتقم منكم؟

هكذا أطلقت يد من كانوا بالأمس يعذبون الناس ويحمون النظام العميل، يد

المرتزقة والخونة للانتقام ! هذا هو الحقد وليس "عفا الله عما سلف!"، العبارة التي أطلقها عبد الكريم قاسم! وبعد هذا الفاصل من الاعتداء أدخلت على مدير الأمن العام (عبد المجيد جليل) فتكلم بشكل لم أفهم منه شيئا ثم أخذ يهاجم سياسة الحزب، ولم تدم المقابلة إلا بضع دقائق وأرسلت بعدها إلى الموقف العام لأرى عشرات الموقوفين. وقبل دخولي للموقف رأيت الشخص المدعو فوزي الذي كان موقوفاً لعدة ساعات في التحقيقات الجنائية عام ١٩٥٧ وهو يرتدي دشداشة حرير بيضاء ويدخن سكاير روثمان ويتجول بحرية.عندما سألت أحد الموقوفين عنه قال إنه بعثي وقد ضبطت بحوزته قائمة بأسماء ضباط وعسكريين ومحاضر. كان يصول ويجول ويأمر!! فقلت (جان هاي مثل ذيح خوش مركة وخوش ديج) [١٧٢] .

كان الحزب يتابع تحركاتي وتنقلاتي. وبعد ٣ أيام في الأمن العام سفّرت إلى مديرية أمن البصرة وبعدها إلى مدينة القرنة ومنها إلى مدينة (المْدَيْنة).

كان الوقت ظهراً عندما وصلت إلى مركز شرطة ناحية المدينة، سلمت للشرطة وسجل اسمي في دفتر الموقوفين ثم قادني رئيس عرفاء المركز وهو شخص طويل، ممتلئ، إلى غرفة مظلمة فيها سريران وهي التي ينام فيها الشرطة، في وسطها غرفة صغيرة أشبه بقفص حديدي لترويض الحيوانات في حديقة الحيوانات، بحجم مترين مربعين وارتفاع ثلاثة أمتار، في وسط الجهة المواجهة للباب، والمتكون من قضبان حديد، باب صغير، بقفل كبير. كان في تلك الغرفة ٤ موقوفين. في سقفها فتحة شباك حديدي صغير للتنفس. أدخلني العريف هذا القفص. سلمت على الموقوفين الأربعة،ألقيت حقيبتي الصغيرة السوداء على الأرض، فرشت البطانيات العسكرية قربها لأحدد مكاني في الغرفة. المركز كبير ذو أبواب حديدية تغلق ليلاً.كان أشبه بقلعة حصينة بنيت في العهود الوسطى. حضر في اليوم الثاني معاون المركز وهو يحمل (٣ نجوم) على كتفه ويرافقه رئيس عرفاء وعريفين وشرطي أول وأربعة أو خمسة أفراد شرطة.

نستيقظ مبكرين ونذهب لدورة الحمامات. الفطور عبارة عن خبزتين صغيرتين لا تسد رمق طفل مع كوب شاي وقطعة صغيرة من الزبدة أو من الجبنة. بين الثانية عشرة ظهراً والواحدة يفتح القفص الحديدي مرة ثانية ونخرج لدورة المياه. وجبة الغداء عبارة

عن رغيفين صغيرين أيضاً وثلاث أو أربع قطع من سمك الزوري (نوع من السمك الصغير) المشوي على النار. ثم تتكرر العملية مساءً، والعشاء عبارة عن خبزتين مع قطعة من الجبن أو قطعة صغيرة من الكباب أو قطعة جبن.

والمركز مخصص للمشاكل التي تحدث في الريف وما أكثرها، تتعلق أكثر المشاكل بالأرض، بين الفلاحين وكبار الملاكين والسراكيل، هذا عدا عن مشاكل اجتماعية أخرى تدور حول النساء (النهيبة)[١٧٣] والزواج والطلاق، ومشاكل الرعي وصيد السمك والقتل وغيرها. تمارس في هذا المركز مختلف صنوف وأشكال الاحتيال والسرقة لنهب مافي جيوب الفلاحين الفقراء من قبل المعاون ورئيس العرفاء والشرطة وعملائهم في سوق المدينة.

كتبت عن أحداث هذا المركز وما يجري فيه ومشاكل الفلاحين ومعاناتهم وصراعاتهم وتخلفهم والقتل والأحداث التي تسببها هذه المشاكل في قصة في مكان آخر.

امتلأ الموقف بعد فترة بعد أن زج بخمسة أو ستة من فلاحي (أم الشويج)[١٧٤] على أثر صراع بينهم وبين الرعاة المستأجرين للأرض[١٧٥] المسماة (شاة مرعى). ثم جيء بالفلاح وصياد السمك " كشيّش" الذي نهب امرأة من بيت الإمارة. جيء بعدها برجل اعتدى على زوجته بالضرب. ثم جيء بشخصين أطلقا الرصاص على ابن عمها، الذي نهب واحدة من بناتهم، في يوم زواجها. ثم جيء بشخصين قتلوا ٤ آخرين أثر مشادة حول صيد السمك.

زارني والدي ووالدتي في ذلك المركز جالبين رسائل من زوجتي.علمت من الرسائل أنها انتقلت من البيت الذي كنا فيه قبل سفري للبصرة إلى بيت المطبعة المركزية مع أختها وزوجها علي الوتار كما أنهم انتقلوا من بيت الكاظمية إلى منطقة أخرى.

جلب لي والدي في إحدى الزيارات جريدة اتحاد الشعب ففرحت بها كثيراً. وبعدما غادر وضعت الجريدة مع الحاجيات التي جلبوها، لكنها سقطت مني داخل التوقيف دون أن أعرف وخرجت. كان الجميع خارج الموقف. عدت إلى الموقف بعد أن اغتسلت فجاءني نائب العريف ودس الجريدة في جيبي قائلا إنها سقطت مني وطلب مني الحرص على أن لا يراها أحد. ولم يبلغ عنها. إن تلك الحادثة تدل على أن الكثيرين كانوا يتعاطفون معنا. وكنت أسمع قصص هؤلاء الفلاحين وأطلع على مشاكلهم وأصبحت على إلفة معهم. لقد كانت فرص الهرب من التوقيف غير ممكنة بل عصية حقاً.

القسم الرابع

انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وحكم العارفَيْن

الفصل الثاني عشر

انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣

كانت خيوط وسيناريو الإعداد للانقلاب تجري على قدم وساق تحاك خيوطها في السفارات الأجنبية والدول المعادية وفي إطار القوميين العرب.

وأعاد قاسم من خلال سياسة التوازن بين الشيوعيين والديمقراطيين من جهة وبين جبهة القوميين والمتآمرين عليه من جهة أخرى، وعن طريق الأجهزة الإدارية والأمنية، أعاد كبار العسكريين،من المعروفين بعدائهم له، إلى الخدمة العسكرية، كما جعل بعض المعسكرات المهمة بأيديهم ومسرحاً لعملياتهم.

ولم تفد كافة التحذيرات التي قدمها الحزب له، ففي ٣ كانون الثاني ١٩٦٣ أعلن الحزب الشيوعي العراقي في بيان له عن وجود معلومات مؤكدة تشير إلى أن الوحدات المدرعة في معسكرات بغداد ولواء المشاة التاسع عشر قد أصبحت مراكز لنشاط عدد كبير من الضباط الرجعيين والمغامرين الذين يأملون بتحويل هذه المراكز إلى قواعد انطلاق لانقضاض مفاجئ على استقلال البلاد، وأنهم حددوا موعداً بعد آخر لتحقيق هذا الغرض. وحذر البيان من الأهمية القصوى للوقت الراهن، بحكم خطورة الأزمة السياسية الراهنة وعدد الزيارات التي يقوم بها كبار الجواسيس الأمريكان لبلدنا.

وسبق أن انشق الأمين العام السابق لحزب البعث فؤاد الركابي ومجموعته عن الحزب واتهموا عناصر من القيادة القومية (بإقامة اتصالات مع الاستخبارات البريطانية)!!.

كما شن الأكراد حربهم وتعاونوا مع الانقلابيين لإسقاط الحكومة.

وكان إضراب الطلبة، الذي قادته الجبهة القومية عام ١٩٦٢ وإضراب سائقي السيارات والمظاهرات واستغلال الاحتفالات بالمولد النبوي وإقامة الندوات بمثابة

بروفات لتنفيذ الانقلاب العسكري. ومما ساعد على نجاح التآمر والانقلاب هو تردي الأوضاع الاقتصادية، وعدم التخطيط الجيد من قبل الحزب للتصدي للمؤامرات، وعدم وضع خطة تفصيلية كما فعل الطرف الآخر. وفي المحافظات أيضاً لم تدرس هذه المسألة بشكل جدي وبقيت الآمال معلقة على قاسم وحكومته! هذه المسألة تحتاج لدراسة متكاملة، وما تصريح علي صالح السعدي (إننا جئنا بقطار أمريكي) إلا شكل من التواطؤ، كما أن بعض الدراسات تقول إن عفلق [١٧٦] عميل مخابرات أمريكية. كما يبدو لي أن صدام حسين ورهطه هم من صنع المخابرات الأمريكية ولازالوا. وأن ما يجري حالياً بالعراق هو اتفاق أمريكي - إنكليزي - بعثي - إسرائيلي. وما معاداة الأمريكان من قبل حكام بغداد إلا لذر الرماد في العيون[١٧٧].

صبيحة ٨ شباط ١٩٦٣ ارتبك الوضع داخل مركز شرطة المدينة وأغلقت أبوابه وتسلح جميع أفراد الشرطة فجأة وكان هناك راديو بعيد نسمعه يذيع أخباراً وأناشيد حماسية. دخل أحد أفراد الشرطة وكان من فلاحي شيوخ الإمارة يصرخ بأعلى صوته عملها الشيوعيون. كان الكثير يتوقعون أن الحزب الشيوعي قادر على استلام السلطة، وأنه هو الذي قام بالانقلاب. خيم الوجوم على وجوهنا. وسرعان ما توضح الأمر عندما فتح نائب العريف الراديو الكبير قرب غرفة التوقيف، وسماعنا لبيانات تصرح بالإجهاز على عبد الكريم قاسم وبيانات ونداءات قومية. ساد الصمت الرهيب والخوف والوجوم على وجوه الموقوفين خاصة بعد سماعهم بمقتل عبد الكريم قاسم، واستيلاء البعث على السلطة. فالجمهورية التي قال عنها قاسم إنها أمنع من عقاب الجو أخذت تتفكك وتنهار. أصابني الذهول من سماع هذه الأخبار. وتساءلت كيف استطاع هؤلاء الاستيلاء على السلطة؟ إنها مؤامرة مدبرة ومطبوخة جيداً هيأت لها كما ذكرت بشكل جيد المخابرات الأمريكية والإنكليزية والإسرائيلية والعربية. يذكر الملك حسين في أحد أحاديثه التي وردت في كتاب (حنا بطاطو) (الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار) عن علاقة البعث وعدد من القيادة القومية بالمخابرات الأمريكية والإنكليزية [١٧٨].

وأصابني الحزن والألم الشديدين عندما سمعت بيان رقم (١٣) المشؤوم بإبادة الشيوعيين [١٧٩].

كانت ليلة حزينة لم أعرف طعم النوم فيها. جاء في اليوم الثاني عدد من الموقوفين من القرنة ليحدثونا عن نجاح الانقلاب.

ونزلت الجماهير للشوارع، للدفاع عن الجمهورية ولكنها كانت بدون سلاح ولا تعرف ما العمل.

فكرت كثيراً، وأنا بين أربعة جدران داخل هذه الغرفة ولا أصدق ولا أريد أن أصدق ما يجري.لا يمكن لمثل هذا الوضع أن يستمر بهذه الصورة ! حتماً سيصطدم بمقاومة من قبل الجيش والجماهير، والحزب يملك قوة كبيرة، وأنها سحابة عابرة ومغامرة غير مدروسة ولو انتصر هؤلاء حقاً ماذا سيحل بالعراق؟ وماذا سيكون مصير آلاف الرفاق والديمقراطيين والقاسميين من ضباط وجنود ؟ وماذا سيكون مصير القوانين والإجراءات التقدمية التي سنتها الحكومة؟ ماذا سيكون مصير مئات الموقوفين والمسجونين والمحكومين بالإعدام من الذي حكمتهم محاكم (الزعيم الأوحد!) وقدم رؤوسهم وحياتهم هدية للانقلابيين ؟ماذا سيكون مصير آلاف العوائل؟ ماذا سيكون مصير عائلتي وزوجتي وطفلتي ومصير آلاف الأطفال؟ كنت حتى ذلك الوقت لا أدخن وبدون وعي مني أخذت سيكارة من علبة أحد الموقوفين،ثم أخذت الثانية والثالثة وهكذا بدأت التدخين في ذلك اليوم المشؤوم، ٨ شباط ١٩٦٣[١٨٠]. قلت إن سيل الموقوفين بدأ يتدفق على المواقف. ومن جملة من جاءوا به همام المراني فحدثني عن جماهير البصرة التي قاومت الانقلاب ولكنها كانت مجردة من السلاح. واحتل الضابط (ثامر الإمارة)، مع عدد قليل من الضباط المحافظة، وبدأوا التحقيق مع المناضلين. وكل ما يمر يوم تحمل الأخبار المزيد من المقاومة والمزيد من الاعتقالات والمزيد من القتل والاستباحات والإعدامات وانتهاك أعراض النساء، التي يقوم بها شراذم من حثالة المجتمع، أطلقوا عليهم اسم (الحرس القومي).

كنت أسمع اعترافات بعض الرفاق في الراديو.فلو أن القوى الديمقراطية والحزب هم الذين بادروا للقيام بالانتفاضة لحافظوا على حياة قاسم وحياة الجماهير ولتبدل وجه المنطقة كلها. ولكن؟ وبعد حوالي ٥ ـ ٦ أشهر من توقيفي في مركز شرطة المدينة قابلت معاون المركز وطلبت منه النظر في قضيتي وطلبت منه أن يسأل عن مصيري وإلى متى أبقى موقوفاً هناك.

بعد عدة أيام جرى تسفيري إلى مديرية أمن البصرة،فرأيت عشرات الموقوفين بعضهم ممن حاول العبور إلى إيران وألقي القبض عليه كالدكتور (فيصل حبه) أخ

الرفيق عادل حبه والبقية فلاحون حاولوا الهرب إلى إيران أيضاً وألقي القبض عليهم من قبل الحرس القومي.

نقلت بعد يومين إلى مركز شرطة البصرة،الذي سبق وأن زرته، وقد حشر فيه عشرات الموقوفين وآثار التعذيب التي تلقوها في مقرات الحرس القومي بادية على وجوههم وأجسامهم.كانت أغلبيتهم من رفاق الحزب الذين اعتقلهم الحرس القومي أو ممن سبق وأن كانوا موقوفين قبل الانقلاب، أعرف قسما منهم وأجهل البقية بسبب غيابي عن البصرة مدة ليست بالقصيرة،كانوا من مختلف أنحاء البصرة من العشار، البصرة القديمة، الزبير وأبي الخصيب، السيبه والقرنة. كان ما يميزهم هزال أجسادهم.

يمكن الحديث كثيراً عن الجرائم التي ارتكبها الحرس القومي [١٨١].

حشرت في القاووش مع الموقوفين، وكانوا خليطاً من غير السياسيين، أوقفوا لجرائم عادية، تتراوح أعمارهم بين١٥ و ١٦ سنة، وسياسيين من منطقتي السيبه وأبو الخصيب.

قدمت بعد عدة أيام إلى محكمة الجزاء في البصرة بتهمة محاولة عبور الحدود بجواز سفر مزور، وقد حضر والدي ووالدتي وأخي وقسم من أقاربي المحاكمة. صدر الحكم بسجني ستة أشهر وإطلاق سراحي إن لم أكن موقوفاً عن قضية أخرى. وبما أنني قضيت في التوقيف أكثر من ستة أشهر طلبت من معاون الأمن إطلاق سراحي بأمر من الحاكم. قال لنذهب إلى مديرية الأمن وهناك يتقرر وضعك.

كنت موقناً بأن سراحي لن يطلق رغم قرار المحكمة. وضع المعاون الكلبجات بيدي واقتادني من أمام أهلي والدموع تنهمر من عيونهم خشية ما قد يحل بي، إلى أمن البصرة، إلى ذلك الكراج النتن. هناك رأيت أخي عادل وقد كسرت أسنانه وابن خالي يحيى وآثار الضرب على جسده. أخبراني عن سبب اعتقالها. قال عادل بأنهما حاولا السفر من البصرة إلى الكويت بالاتفاق مع مهربين. وأثناء محاولة خروجهما تتبعهما الحرس القومي وأطلقوا الرصاص صوبهما، فهربا باتجاه الصحراء، إلا أنهم نجحوا في إلقاء القبض عليهما. أطلق سراحهما بعد عدة أيام. نقلت مرة أخرى إلى موقف شرطة البصرة.كان المركز يغص بالموقوفين.

الحرس القومي هو الحاكم لمركز الشرطة تحت إمرة شخص يدعى "ماهر أبو حديبة" وهو قصير القامة وأحدب يقال أنه كان خياطاً للمومسات. يأتي الحرس القومي في أواخر الليل فيوقظوننا ويخرجوننا من الموقف ليلقي علينا أحد المنهارين خطباً ومحاضرات حول انهيار الحزب...، كما يجري تشخيص بعض الموقوفين للاستنطاق والتعذيب في نادي الاتحاد الرياضي [١٨٢].

كنا أكثر من (٤٠) شخصاً في الغرفة نتبول في صفيحة من التنك، نبدو وكأننا علب السردين خاصة حينما نتمدد لننام. النوم على بطانيات عسكرية رثة. وحينما يريد الشخص منا أن يبدل الجهة التي ينام عليها ،عليه أن ينهض حتى ينام على الجهة الثانية. بعد منتصف الليل، كان يزج في غرفتنا بالقوادين والشقاوات واللصوص والسكارى. كانو يبقون جلوساً حتى الصباح لعدم وجود مكان للنوم. والمركز مخصص للمومسات والقوادين سابقاً لأنه يقع على مقربة من بيوت الدعارة.

في إحدى الليالي ألقت الشرطة القبض على مومس وهي سكرانة وقادوها لمركز الشرطة وهي تكاد تكون شبه عارية ملفوفة بعباءتها السوداء فدخلت للحمامات واغتسلت وكانت تشتم آمر الحرس القومي الذي كانت على معرفة به. تقدمت بعدها نحو غرفتنا لتنظر من فتحة الشباك ونحن شبه نيام، فلطمت خدودها وقالت (أشوف رزقنا مقطوع! أكثرية الشباب هنا!) ثم جاء العريف أبو غازي وسحبها. وبعد ساعات حضرت القوادة وأخرجتها بعد أن دفعت "المقسوم" للمركز. وفي إحدى المرات والحرس القومي موجود جاؤوا باثنتين من المومسات وقد تشاجرتا ومزقتا ثياب بعضهما والشرطة تتفرج والحرس القومي يضحك ثم خرجتا بعد أن تصالحتا في المركز!

وكانت تدور الكثير من هذه الروايات في المركز!! الحرس القومي منع كل شيء عنا، حتى السكاير. كمامنع الشرطة والانضباط العسكري من شراء أو جلب أي شيء لنا.

كان الطعام رديئا جداً، ونعثر فيه أحياناً على المسامير أو الصراصر، مما دعانا إلى إعلان الإضراب والامتناع عن تسلم الطعام. ذهبت مع إثنين من الموقوفين إلى مفوض المركز وعرضت حال عليه سوء التغذية وعتمة الغرفة والقذارة التي فيها وطول مدة الاحتجاز، والهزال الذي أصابنا. كانت عوائل الموقوفين تتجمع عند باب المركز منذ

الصباح، و تحمل الأمهات والزوجات والآباء الطعام لأبنائهم. وكان عريف المركز أبو غازي يمنعهم ويصرخ بهم ثم يطردهم، خاصة عندما يكون أفراد الحرس القومي، الذي يمنع دخول أي شيء للموقوفين، حاضرين، ويتسامح العريف أحياناً عندما يكون أفراد الحرس القومي غير موجودين.

كثيراً ما كان جميل نوري [183] وأخوه يناقشان الحرس القومي حول أفعالهم وأهدافهم... إلخ. فكان رد الحرس إما الزجر أو التغاضي والإهمال.

زارني والدي في مركز شرطة البصرة ونقل لي أخبار زوجتي، وكيف أنه حصل من الحاكم العسكري تصريح لزيارتها في سجن النساء هي وأخواتها وبناتهن معهن. وقال إن عواطف بصحة جيدة وهي في السجن مع أمها. ولكن لم أعرف كيف تم اعتقالهما[184].

كان الحراس يفتحون لنا باب الموقف في الخامسة صباحاً. في صباح أحد الأيام أغلق باب الموقف وباب المركز. وأخذ أحد الشرطة يصرخ من هنا من هنا هرب. كان أحد الموقوفين العاديين قد هرب من فوق الحمامات إلى الشارع العام واختفت آثاره، فجن جنون الشرطة والحرس القومي لهروبه.

حاولت الهرب وفكرت مرات عديدة ولكن لم تسنح لي الفرصة، ورغم أن الهروب مجازفة خطيرة قد تؤدي بحياتي [185].

مساء أحد الأيام جاء أحد أفراد الحرس القومي وأطل علينا من باب الموقف وكاد يبكي وصوته مرتجف ويسب ويشتم الأكراد والملا مصطفى البارزاني. استغربت منه وقلت لماذا تشتمهم؟ إنه حليفكم!!.

قال: لقد حملوا السلاح ضدنا وبدأوا بمحاربتنا. فهمت أن شرخاً كبيراً قد حدث بين الأكراد بقيادة الملا مصطفى البارزاني والبعثيين، وهذا سيؤدي حتماً إلى إضعاف السلطة الفاشستية وربما سقوطها، وربما يلتحق رفاقنا بالجبل.

ومن الطريف أن (صدام) مراسل الآمر بالشعيبة الذي كان يراقبنا كان موقوفاً معنا، اهتز الموقف بغتة وأغلقت الأبواب وارتبك الوضع ولبست الشرطة جاهزية القتال وتحرك الحرس القومي بارتباك وخوف و معهم الانضباط العسكري الذي كان في المركز، ثم دخل شرطة البادية بكوفياتهم الحمراء وسحنتهم السمراء المتميزة وأخبرونا بالتهيؤ

للنقل. كـان ذلك في يـوم ٣ تموز ١٩٦٣. تسـاءلت يا ترى إلى أين سـوف ينقلوننا؟ ولماذا؟ ماذا حدث؟ ولكن وجود شرطة البادية يعني أنهم سينقلوننا إلى نقرة السلمان، ولابد أن هناك وضعاً غير طبيعي قد حدث في بغداد.

بعد الظهر حوالي الساعة الثانية دخل شرطة البادية والحرس القومي ومعاون المركز والانضباط العسكري، وبدأوا يقرأون أسماءنا، وكنت من ضن المنقولين. أخرجونا من باب المركز والسيارات الخشبية واقفة في الباب بانتظارنا.

عشرات الأهالي من نساء ورجال وأطفال ورجال كبار في السن آباء وزوجات وأمهات يحملن أطفالهن الرضع ووالدي بلحيته البيضاء وكوفيته وعقاله من ضمن المنتظرين، يقف مع الجموع ينظر إليّ بألم وسمعته يقول (الله ينتقم منكم، الله يسلط عليكم!) وكان أغلب النسوة يصرخن ويبكين، والناس في السوق القريب ينظرون إلينا بألم ويبكون وترى الحقد بأعينهم على تلك الزمرة المكروهة من الحرس القومي.

وبدون شعور بدأنا نقرأ نشيد:

السـجن ليس لنا نحن الأباة

السـجن للمجرمين الطغاة

كنا غير آبهين بما سيحل بنا. قبل نقلنا جمعوا الموقوفين من معظم المواقف و من سجن البصرة، ومن جملة من جاؤوا به الرفيق (شاكر محمود). انطلقت السيارات مع عويل وصرخات وآهات العوائل، رأينا سيارتين خشبيتين كبيرتين محملتين بالعسكريين من ضباط وضباط صف وجنود، أكثرهم من ضباط القاعدة البحرية ممن ألقي عليهم القبض في معسكراتهم دون مقاومة، والكثير منهم استسلم دون أن تخرج طلقة من سلاحه.

وانطلقنا جميعاً وأمامنا كانت سيارة مسلحة فيها شرطة مدججين بالسلاح يقودهم مفوض شرطة. وللآن لم أعرف سبب نقلنا. تحرك الرتل باتجاه مدينة الزبير باتجاه الصحراء. كانت الشمس محرقة، والرمال تتلهب ناراً تحت أقدامنا عندما فقد الدليل الطريق وعلقت السيارات في الرمل، وأنزلنا من السيارات لدفعها. أرتبك مفوض الشرطة والشرطة الذين معه ودار بينهم نقاش وهمس لي أحد الضباط الموقوفين معنا بأن هناك نية مبيتة لقتلنا جميعاً وتركنا في الصحراء. وبعد أن دفعنا الباصات بالاتجاه

الصحيح وأخرجناها من كثبان الرمال وصلنا إلى نقطة منطقة (البصية) منطقة صحراوية عارية مكشوفة فيها عدة آبار مالحة المياه وهي مورد للابل والماشية.كانت المياه عكرة، ورغم ذلك،هجمنا على تلك المياه الآسنة لنروي غليلنا من العطش. وبعد فترة استراحة انطلقت الباصات الخشبية تملأ الصحراء بغبارها في وسط ظلام دامس نحو سجن نقرة السلمان.

عند مكان قرب حديقة الواثق في شارع (٥٢) وبدل الرفيق صبحي جاء الرفيق (حميد ضامن) الذي تعلم الطباعة، للعمل كمساعد مع علي الوتارفي المطبعة. ومع اشتداد حدة التآمر أصدر الحزب بياناً تحت عنوان: "اليقظة واليقظة.." شرح به عملية المؤامرة المدبرة بالتفصيل والمعسكرات التي ستنطلق منها الحركة... إلخ.

وعلمت فيما بعد من زوجتي التي كانت في بيت المطبعة أن الوحيد الذي يعرف البيت أبو إيمان. وفي يوم الجمعة ٨ شباط الساعة التاسعة صباحاً عندما فتح علي الراديو سمعوا بالانقلاب.

في ٢/١٠ حضر الرفيق سلام عادل إلى البيت وكان، كما قالت، هادئاً كعادته وتحدث إليهم قائلا:" سننسحب إلى الريف ومن هناك نبدأ الكفاح المسلح إذا لم تحدث خيانة!!" وأضاف : "فككوا المطبعة أو اتركوها على حالها! أحرقوا كافة الوثائق المهمة". وبقي معهم فترة قصيرة ثم خرج ولم يعد. وبعدها علموا باعتقاله يوم ٢/١٩ على أثر خيانة هادي هاشم الأعظمي، الذي كان يعرف بيت الرفيق سلام عادل، الذي انتقل إليه حديثاً. وأضافت بأنه في يوم ٢/٢١ تم اعتقالهم وأرسلوا جميعاً إلى مقر قصر النهاية.

وكان يرأس الهيئة التحقيقية (مدحت إبراهيم جمعة)، والذين يشرفون على تعذيب الموقوفين في قصر النهاية هم (هاشم قدوري وبهاء شبيب وخليل العاني وعبد الله السامرائي وغيرهم). في اجتماع للقيادة القطرية والقومية،كما علمنا، جرت مناقشة مسألة إعدام المعتقلين وتصفيتهم جميعاً. تم ربط جميع الموقوفين بالحبال من الساعة الرابعة مساءً حتى الساعة (١٢) ليلاً. كما أن رشيد مصلح الحاكم العسكري العام كان حاضراً مع الهيئة التحقيقية في قصر النهاية.

بعد الإجراءات الرسمية وتسجيل أسمائنا نقلنا الى سجن نقرة السلمان وكان هناك

العديد من المعارف والاصدقاء.. وبعد ساعات من وصولنا أخبرنا بعض العسكريين عن انتفاضة عسكرية بدأت في معسكر الرشيدقادها البطل حسن سريع [186] يوم ٣ تموز ١٩٦٣، وبعد فشلها نقلوا جميعاً بقطار سمي" قطار الموت " [187]. عند ذلك علمت بسر نقلنا من مركز شرطة البصرة والمواقف الأخرى ونقل العسكريين من القاعدة البحرية إلى نقرة السلمان لنكون بعيدين عن القيام بأي عمل مشابه لما حصل في معسكر الرشيد. وبعد أن تم نقلنا ونقل جميع العسكريين من بغداد وغيرها وكذلك سجناء سجن الرمادي وكان الرفيق صبيح سباهي بينهم، وبعدها استدعى إلى قصر النهاية وقتل في الأيام الأولى للانقلاب مثلما تم استدعاء البطلين، مهدي حميد والمحامي حمزة سلمان الموقوفين في زمن حكم قاسم والمبعدين إلى سجن النقرة وقتلهما من قبل الحرس القومي في بغداد.

بعد بضعة أيام من وصولنا، علمت من السجناء أن هناك أكثر من ألف سجين في النقرة وحدها، أغلبهم اعتقل بعد انقلاب ١٩٦٣ [188]، والكثير منهم كانت آثار التعذيب بادية على وجوههم وأجسامهم ومنهم من تعرض للموت، لكنه نجا بأعجوبة، ومنهم من كان يتمنى الموت من قسوة ووحشية التعذيب التي استعملها المحققون من البعثيين ضدهم، ومن ضمنهم المحامي المعروف أبو سعيد (عبد الوهاب القيسي). وكان في السجن أكثر من ٢٥٠ سجيناً سجنوا أيام عبد الكريم قاسم منهم عبد الوهاب طاهر وزوجته، التي كانت في سجن النساء.

كان الموقوفون الذين جلبوا من قصر النهاية و من قاعة محكمة الشعب و النادي الأولمبي و نادي الأعظمية وموقف الفضل والسجن رقم واحد العسكري وكتيبة الهندسة يصفون الحرس القومي كوحوش ضارية أفلتت من عقالها، متعطشة للدماء والتعذيب. من أين جاءوا بكل هذا الحقد الأسود!؟.كانوا يدفنون الناس أحياء في حفر جماعية أو يقتلونهم ويتركونهم في الصحراء أو يغرقونهم في مياه دجلة، أو ينتهكون أعراضهم، (كما يفعل عدي بن صدام حالياً بالفتيات).. إلخ.

وقسم من العسكريين مازالت الرصاصات في أجسادهم، مثل الرئيس الأول غازي [189] وسمعت قصصاً تقشعر لها الأبدان عن التعذيب والقتل الجماعي، نفذها من يدعون القومية والعروبة والوحدة والحرية والاشتراكية؟

لم يكن سجن نقرة السلمان غريباً عليّ إذ كنت سجيناً فيه عام ١٩٥٥ في العهد الملكي، بعد أن دبرت إدارة سجن بعقوبة بقيادة (علي زين العابدين) هجومها علينا ونقل أغلبنا إليه. والآن وبعد أحداث جسام أعود إليه في عام ١٩٦٣. القاعات العشر مملوءة بالسجناء والموقوفين،أكثر من ٢٥٠ سجيناً،سبق وأن صدرت الأحكام من محاكم قاسم ضدهم، فنقلوا من سجني الحلة والرمادي إلى نقرة السلمان، والبعض الآخر كان سجينا في نقرة السلمان قبل الانقلاب [١٩٠] بعضهم تم التحقيق معه والبقية محتجزين دون تحقيق. في البدء كانت شرطة البادية هي المسؤولة عن حراسة السجن، وغالبية أفرادها من البدو وبعض الشرطة الأكراد من المغضوب عليهم. كانت علاقة السجناء جيدة مع السجانين. ونتيجة لهذه العلاقة منع الحرس القومي دخول الشرطة للسجن نستغرب لذلك التناقض الذي حصل حتى بين الشرطة والحرس القومي. أصبح في سجن السلمان أكثر من (١٠٠٠) سجين بعد الانقلاب.

في العهد الملكي كنا نتمتع في سجن نقرة السلمان ببعض الحقوق، سبق أن ذكرتها.كان لدينا فريق لكرة القدم وآخر لكرة الطائرة والرياضة الصباحية ونقوم ببعض الألعاب المسلية ونقوم ببعض الاحتفالات ولدينا مكتبة وراديوات سرية نسمع الأخبار من خلالها. استمرت هذه الأمور بعد انقلاب شباط فترة قصيرة، ثم منع الحرس القومي الرياضة وصودرت الكرات وبعض الراديوات ومنعت الاحتفالات وأجبرنا على الخروج إلى الساحة للتعداد اليومي المصحوب بالإهانات. علماً أن تعداد السجناء يتم في القاعات. ثم جرى حجزنا في القاعات وأقفلوها وصارت الأبواب تفتح ثلاثة مرات في اليوم فقط من أجل الاغتسال والذهاب إلى الحمامات ولفترة محددة لهذا العدد الضخم من السجناء. كأنك في مركز للشرطة أو في مديرية الأمن. كان من بين الحرس القومي بعض الفلسطينيين [١٩١]، يحملون البنادق الأتوماتيكية "الكلاشنكوف" ليراقبوا هذا الجيش من الموقوفين والسجناء من الرتب العسكرية المختلفة ويفتشون القاعات متى شاءوا ودون إنذار. ذكّرني ذلك بالأفلام السوفييتية التي تعرض تصرف الجنود الهتلريين إبان الحرب العالمية الثانية في معسكرات الاعتقال.

وعندما يخيم الظلام على السجن وتقفل الأبواب، يحتلون الربايا ونقاط الحراسة بدلا من الشرطة، أو أنهم يتجولون في الساحة بعد منتصف الليل وهم يضربون على

الصفائح قرب شبابيك القاعات ويبدؤون بشتمنا وشتم (ستالين والملك حسين والملك فيصل ملك السعودية والرفيق فهد... إلخ) ويطلقون رشقات من بنادقهم الأتوماتيكية في الهواء لإرهابنا وإزعاجنا. صباحاً يفتحون الأبواب بالتتالي ويتراكضون بعد سحب أقسام بنادقهم المحشوة بالرصاص، لو صادف وعثر أحدهم بحجر فإنه سيتسبب في مقتل عدد كبير منا. كانوا يتابعون، وتصلهم الأخبار عن الوضع، وكلما سمعوا خبراً سيئاً وليس من مصلحتهم يدخلوننا للقاعات ويقفلونها وهم يضربون على زجاج الشبابيك ويتوعدون ويهددون بإعدام الجميع.

حالة من القلق والخوف والترقب تسود السجن. كنا أكثر من ألف سجين، وليس في السجن سوى عشرة مرافق مما يضطر السجناء الوقوف في طابور طويل ينتظرالدور.

في يوم مشمس فتحت جميع الأبواب والكل ينتظر دوره للاغتسال. وبشكل مفاجئ دخل حوالي عشرة من أفراد الحرس القومي وأيديهم على زناد الكلاشنكوف وطلبوا منا، وهم يشتموننا، الدخول إلى القاعات فوراً حتى أن أحد الرفاق العسكريين كان يغسل ملابسه فتعرض للضرب من قبل الحرس القومي. [١٩٢]

إن الرفاق الذين رجعوا للقاعة كانوا أبطالاً حقاً، بعد أن تعرضوا للتهديد بالقتل، كان لموقفهم هذا أثر كبير بنفوس المعتقلين والسجناء. ثم جاء آمر الحرس القومي وفتح لنا الأبواب وتوالت الأحداث.

كانوا أبطالاً حقاً.

بدأ الانقلاب في الساعة الثامنة من صباح ٨ شباط ١٩٦٣ من معسكر أبو غريب وتحركت الدبابات لضرب وزارة الدفاع مقر عبد الكريم قاسم وكذلك معسكر الرشيد ومحطة الإذاعة ومعسكر الوشاش. وكانت ساعة الصفر، اغتيال جلال الأوقاتي، الشيوعي قائد القوة الجوية، وشل الطيران في معسكر الرشيد وتحطيم الطائرات وقتل الضباط الشيوعيين والقاسميين واعتقال قسم منهم، والسيطرة على محطة الإذاعة في الساعة ٩٫٤٠ وأذيع البيان الأول للانقلابيين.

منذ اللحظات الأولى أعلن الحزب الشيوعي مقاومته للانقلاب. وفي الساعة العاشرة أصدر بيانه الأول ضد الانقلاب "إلى السلاح لسحق المؤامرة الاستعمارية الرجعية." مطالباً الجماهير ومنظمات الحزب لتشكيل اللجان في كل معسكر ومحلة ومؤسسة وقرية للدفاع عن استقلال البلاد!

استنفرت كل منظمات الحزب وهيئاته وخرج الألوف من الجماهير الكادحة إلى الشوارع عزلاً إلا من إيمانها وأحاطت بوزارة الدفاع وسدت الشوارع واحتلت الجسور في محاولة لصد زحف الدبابات بأجسادها وهي تطالب بالسلاح ولكن دون مجيب. أصدر الحزب بيانه الثاني ليطالب فيه مهاجمة مراكز الشرطة والاستيلاء على السلاح من أي مصدر كان. وانتهت معركة الدفاع باعتقال عبد الكريم قاسم وفاضل المهداوي يوم ٩ شباط. استولت الجماهير المنتفضة على سلاح شرطة القوة السيارة بعد معركة شجاعة. ورغم إذاعة بيان رقم (١٣) في مساء ٨ شباط ومجيء قوة إضافية للمتآمرين من الحبانية إلا أن المقاومة البطولية للجماهير استمرت في الكاظمية وأساسها عمال النسيج وكادحو المدينة والنساء ليستمر القتال ثلاثة أيام. كانت معركة غير متكافئة أبديت فيها بطولات منقطعة النظير ستبقى جذوتها محركاً ملهماً، وهي تبين بطولات الجماهير الكادحة وشجاعة العراقيين.

ثم تم الانسحاب بقيادة الشيوعي البطل (سعيد متروك)، الذي قتل لاحقا على أيدي المتآمرين، كما جرى ذلك في حي الأكراد بقيادة البطل (محمد صالح العبلي). كان السلاح شحيحاً و حاول المقاومون رغم ذلك الاستيلاء على مركز شرطة باب الشيخ لكنهم لم يفلحوا. استولوا على سيارة عسكرية معتقدين أنها محملة بالسلاح إلا أنها للأسف كانت فارغة. كان كادحو باب الشيخ في حي الأكراد يقاتلون من أجل مستقبلهم من أجل غد مشرق يحدوهم إيمان عال بالانتصار.طوق المتآمرون الحي بدباباتهم واحتلوه يوم ١٠ شباط، واستباحوا كل شيء، كأنهم جيش من المحتلين الهمج. نزلوا قتلاً بالناس وانتهكوا جميع الحرمات. اندلعت المقاومة في كل مكان، لكنها لم تحقق النتائج المرجوة منها.

ولم تهدأ المقاومة فكانت ملحمة ٣ تموز في معسكر الرشيد، التي فشلت لأسباب فنية، (أنظر كتاب الرفيق زكي خيري وسعاد خيري دراسات من تاريخ الحزب الشيوعي المجلد الأول) حيث التفاصيل الكاملة عن حركة حسن سريع، والمقاومة الشعبية لانقلاب ١٩٦٣.

كان العراق ولازال مصدر خطر وقلق للإمبرياليين ولعملائهم في المنطقة. وليس غريباً أن يصرح كيسينجر (أن شعب العراق يشكل خطرا دائماً لمصالح الدول الغربية

في المنطقة.) لذلك ليس من الغريب أن يكون البعثيون والقوميون أداة بيد المستعمرين وخاصة الأمريكان لسحق الشعب وتجويعه وإركاعه بحجة مكافحة الشيوعيين. هكذا كانوا أداة طيعة بيد أسيادهم ونفس هذه السياسة يطبقها (صدام حسين) ورهطه الآن.

ومما زاد في ألمنا ومأساتنا هو سماعنا خبر إعدام الرفاق جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي والصحفي الموهوب عبد الجبار وهبي (أبو سعيد)، بعد تعذيبهم تعذيباً وحشياً. وكان ذلك في يوم ٢١ تموز ١٩٦٣. لقد كانت أمالٌ كبيرة معلقة على وجود هؤلاء الرفاق خارج السجون، لإعادة بناء الحزب، لما يمتلكون من خبرة ودراية وتاريخ طويل في العمل السياسي. لقد شكل اعتقالهم صدمة كبيرة، خاصة وأنني عملت معهم وأمضينا أوقاتاً لا تنسى في خضم العمل التنظيمي المشحون بالمخاطر. لقد كان اعتقالهم وإعدامهم نكبة كبيرة حلت بالحزب وكان الحيدري والعبلي مع سلام عادل يشكلون العمود الفقري للحزب، يمتازون بتجربة غنية واتجاه سليم. و تعرض الحزب بعد إعدامهم إلى العديد من النكبات، على أيدي من حل مكانهم. إنها أشبه بنكبة ١٩٤٩ حين أعدم الرفيق فهد وقادة الحزب المجربين.

كان في السجن معنا عزيز الشيخ، عبد القادر إسماعيل، علي حسين الرشيد، عبد علوان الطائي، وغيرهم. كانت (اللجنة الحزبية) في السجن تلعب دوراً هاماً في إدارة الأمور المعيشية للسجناء وتشحذ الهمم وتنظم الحياة في السجن خاصة وأن نزلاء سجن السلمان من فئات ونوعيات ونفسيات مختلفة،لا كما كان عليه السجناء في العهد الملكي.

أحداث في الذاكرة

كانت مجموعة من الراديوات الترانستور صغيرة الحجم مخبأة في أماكن سرية في السجن، وكان عدد من الرفاق مكلفين بالإنصات لنشرات الأخبار وكتابتها وتوزيعها على مسؤولي القاعات وتداولها بين عدد من الرفاق.

وصلت في إحدى المرات النشرة الأخبارية إلى أحد الضباط المنهارين، فسلمها للحرس القومي. وصل الخبر للرفاق المسؤولين. فأوعزوا بإخفاء الراديوات. حصلت ضجة، وبدأ الحرس القومي يزبد ويعربد ويهدد. طلب أحد الرفاق المسؤولين من الرفاق

تسليم عدد من الراديوات ووضع الباقي في مخابئ يصعب كشفها، لتلافي الموقف. وكانت حكمة من المسؤول. ولولا ذلك لتعرض الكثيرون للتحقيق. ورغم أن الحرس القومي قام بتفتيش المخزن وبعض القاعات إلا أنهم لم يعثروا عليها.

في ذكرى ثورة ١٤ تموز أوعز التنظيم لجميع مسؤولي القاعات العشر الاحتفاء بذكراها الخامسة. بدأت لجان كل قاعة في المساء، وبعد خروج الحرس القومي، بدأت لجان كل قاعة، حسب إمكانياتها ووضعها بالاحتفال، مثل توزيع الشوكولاتة، وقد وضعت في داخلها شعارات تمجد ثورة ١٤ تموز والتذكير بنضالات الشعب العراقي.. إلخ. التحدي الكبير كان في القاعة رقم (٩): فأثناء قيام أحد السجناء بتوزيع الشوكولاتة، دخل بشكل مفاجئ، إثنان أو ثلاثة من الحرس القومي. ارتبك أول الأمر ثم قدم لهم الشوكولاتة وقال لهم إنهم يحتفلون بعيد ميلاد الطفل محمد ابن فلان.ودس الرفاق السجناء الشوكولاتة قبل خروجهم في جيوب أفراد الحرس. وعندما فتحوها رأوا الشعارات التي فيها. في اليوم الثاني قالوا إنكم كنتم تحتفلون بثورة ١٤ تموز.

حتى المسنين من الناس لم ينجوا من إرهاب السلطة البعثية. ففي القاعة رقم ـ ٧ ـ كان ثمة رجل مسن يسمى (عبد القادر) من كركوك [١٩٣]. وممن كان معنا في المعتقل المربي الفاضل المعلم القدير (يحيى ق)، الذي توفي في سجن الحلة بعد نقله إليه. كان كثيراً ما يدخل في نقاشات مع الحرس القومي حول سلوكهم الفاشي وهو يشبههم بهتلر وموسوليني. كان يقول لهم إن مصيركم ليس بأحسن من مصير هؤلاء، وإن الدنيا لا تدوم لأحد... إلخ.

كانت لجنة السجن الحزبية السرية تعمل في ظروف معقدة ليس بسبب تحديها للإرهاب وحسب، بل بسبب عملية تنظيم الطعام،الغسيل، والحمامات. الأنشطة الثقافية، مساعدة عوائل السجناء.. إلخ. كما ذكرت سابقاً ساعدت الحياة المنظمة داخل السجون، عندما كنا في سجون الكوت وبغداد وبعقوبة ونقرة السلمان، السجناء السياسيين كثيراً في تلافي والسلبيات التي يسببها اختلاف الأعمار وعملت على توجيه وتربية عدد كبير منهم. كانت السجون سابقاً تضم الشيوعيين ومؤيديهم وقليلاً من أعضاء الأحزاب الأخرى. وكان أي معارض للحكومة يتهم بالشيوعية. لم يكن

هناك قوميون أو بعثيون. ولكن بعد عام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ جرى اعتقال بعض القوميين أو المستقلين أو البعثيين، وعلى طول الخط كان هناك الأخوة الأكراد من غير الشيوعيين أيضاً، خاصة من البارزانيين. كانوا في زنزانات خاصة في سجن بغداد وسجن البصرة. بعد ثورة تموز كان هناك شيوعيون وبعثيون ومستقلون بالدرجة الرئيسة. امتلأت المواقف والسجون بعد شباط ١٩٦٣ بالشيوعيين والقاسميين والديمقراطيين ومن مختلف فئات الشعب ؛ عمال وفلاحين، معلمين وطلبة، مهندسين، أطباء، أصحاب الشهادات العليا في الاقتصاد والعلوم، فنانين وعسكريين من مختلف الرتب. ولا تتميز سجون النساء عن سجون الرجال بشيء، فامتلأت بالرفيقات وغير الحزبيات. لقد طبق البعث الاشتراكية تماماً إذ ساوى بين كل طبقات الشعب وفئاته في السجن فقط !

أما بعد مجيئهم للحكم بقطار أنكلو- أمريكي في ١٩٦٨ فإن الأمر قد تغير وتغيرت طبيعة الاعتقالات والسجن. فالإعدامات نزيف لا يتوقف. يذيبون الناس بالتيزاب، يدفنون الناس بقبور جماعية تخلصاً من سجنهم !! صاروا يستخدمون الأسلحة الكيماوية في القتل المركز والعشوائي، بنوا سجوناً تحت الأرض واختفى آلاف السجناء، وغدا فقء العيون وتقطيع الأوصال والاغتصاب شريعة ثابتة. لقد طوروا أساليبهم التي استخدموها ضد أبناء الشعب في ٨ شباط ١٩٦٣، لتكون أشد وحشية !! ولا يعرف أغلب أهالي المعتقلين شيئا عن مصير أبنائهم إذ اختفت آثارهم، كما حصل لـ الدكتور صباح الدرة وعايدة ياسين ومئات غيرهم.

والتطوير الذي أجرته قيادة البعث هو أنها نقلت هذه المواقف والسجون من فوق الأرض إلى تحت الأرض لا أحد يعرف مكانها ولا حتى أبوابها. وصار بعض السجناء الذين أطلق سراحهم يسألون عن البكر بعد سنوات من موته [١٩٤] و لا يعرف بعضهم باندلاع الحرب حرب بين العراق وإيران. كانوا في باستيل العراق.

لقد تغيرت طبيعة السجناء بعد انقلاب ٨ شباط إذ أصبحت ذات صفات مختلفة واتجاهات سياسية عديدة ونفسيات وطبيعة غير منسجمة.

أصبحت قيادة هذا العدد الهائل من الناس والأمزجة المختلفة، صعبة وتحديد تطلعاتهم أصعب، ويجب مراعاة ذلك وفق الظروف الملموسة. فصيغة التنظيم السابقة غير ملائمة مع الكم البشري وهذ التنوع [١٩٥]. أذكر واحدا من الأمثلة التي كان قد

ذكرها الرفيق سلام عادل. كان السجناء متساوين، الأستاذ مع الطالب، العميد الركن مع الجندي... إلخ. أما بعد ذلك فصار العميد الركن اللاحزبي يميز نفسه عن الجندي العادي أو صاحب الرتبة الأقل، والعسكري ليس كالمدني... إلخ وإذا أخذنا الهزيمة الكبيرة التي منيت بها القوات المسلحة والشعب على يد هؤلاء بنظر الاعتبار، لتوضح لنا حجم المشكلة، إضافة إلى تصرفات أفراد الحرس القومي المشينة، وأقلها الشتم والإهانة الموجهة إلى قادة الجيش العراقي وخيرة أبناء الشعب. كانت فاجعة كبيرة للجميع.

كانت تصلنا أخبار شتى عن طريق بعض الموقوفين[١٩٦]، من الذين يذهبون للمحاكمة ويرجعون للسجن مكبلين بسنوات من الحكم، تتحدث عن وجود خلافات كبيرة، وأن الحركة المسلحة الكردية التي شن الهجوم عليها في ١/ حزيران ١٩٦٣ شكلت عامل ضغط كبير على النظام وأصبحت هناك ضغوط كثيرة على النظام من جهات مختلفة.

وكان النظام مهددا بالسقوط لكثرة ما اقترفه من جرائم هذا ناهيكم عن احتمال قيام الجيش بتمرد. التحق العديد من ضباط الجيش ورفاق الحزب بالحركة المسلحة في كردستان تحت قيادة الملا مصطفى البرزاني، وهناك خلافات بين عبد الناصر والبعث... إلخ. ناقشنا في إحدى الجلسات تكتيكنا في مواجهة مختلف الاحتمالات، كما لو حدثت حركة مسلحة ضد البعث ونظامهم، وكيف يجب أن نتحرك ونستولي على السجن وعلى مركز شرطة البادية وننطلق إلى بغداد أو أي مكان للقيام بعمل مسلح. كانت تلك الأفكار تعبيرا عن رد فعل لما نعانيه من اضطهاد وتجسيد لأهدافنا الرامية لتحرير مئات العسكريين والمدنيين وإنهاء هذه المهزلة.

كنا نتابع الأخبار أولا بأول عن طريق الراديوات المخبأة. ونشطت منظمات الحزب في الخارج بشكل واسع لفضح الانقلاب وطبيعته والجرائم التي يقترفها بحق الحزب والشعب. لقد وقفت كافة الدول الاشتراكية آنذاك ضد الانقلاب. ففي ٢١ شباط شكلت لجنة الدفاع عن الشعب العراقي بينهم الشاعر محمد مهدي الجواهري ومحمود صبري وفيصل السامر وكمال فؤاد ونوري شاويس، وكان من أول أهدافها فضح الإرهاب. وقد أدانت الانقلاب شخصيات عالمية مرموقة مثل برتراند رسل الفيلسوف

البريطاني، ونشرت جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي مقالات مطولة عن الانقلاب ودافعت اللجنة عن حقوق الشعب الكردي وصارت إذاعة (پيك إيران) (رسول إيران) تبث برامج خاصة عن العراق.

ومن الأسباب التي أدت إلى انهيار حكم ٨ شباط ١٩٦٣ :

١ ـ اشتداد التناقضات الحادة بين القيادة.

٢ ـ لم يكن لها برنامج لقيادة السلطة، سوى تصفية الشيوعيين والقاسميين والديمقراطيين.

٣ ـ استحواذ البعث على ١٦ من مجموع ١٨ مقعدا في مجلس قيادة الثورة وتم إبعاد العناصر الناصرية والقومية الأخرى.

أيقظني صبيحة يوم ١٨ تشرين ١٩٦٣، الساعة السادسة صباحاً تقريباً، صوت نقر على زجاج النافذة التي كنت أنام تحتها. رفعت رأسي لأرى الرفيق هندال الجادر (أبو عيدان)[١٩٧] وهو يؤشر لي مرتبكا بأن أفتح النافذة. وبغفلة من الحرس القومي فتحت النافذة ليخبرني بحدوث انقلاب عسكري قام به عبد السلام عارف، وأن الإذاعة تبث الأناشيد العسكرية وأن قراراً صدر يطلب من أفراد الحرس القومي تسليم أنفسهم وأسلحتهم وعدم المقاومة. فركت عيني بقوة ولم أصدق في البداية ولكنه أكد الخبر. قلت له هل أخبرت الرفاق فقال سأبلغهم في الحال. ذهب مسرعاً باتجاه القاعة رقم (٥)، حيث كان فيها بعض من يعرفهم، وأبلغهم بالأخبار. أيقظت الرفاق بالقاعة وأبلغتهم النبأ. استيقظوا جميعاً وهم غير مصدقين. بعد عدة دقائق كان سليم الزئبق مسؤول الحرس القومي والفرات الأوسط، يمسك ورقة يبدو أنها كانت قرارات لتسليم أنفسهم وأسلحتهم. وبعد أن قرأها مزقها وداسها بحذائه. قدرنا أن الأمر خطير جداً.

طلب العسكريون في القاعة، بعد أن قدروا خطورة الوضع، وضع الأفرشة خلف باب القاعة وخلف أبواب الشبابيك خشية أن يتبادر إلى ذهن الحرس القومي بإطلاق النار علينا وقتل من يستطيعون قتله. وكنا نشعر بخطورة الموقف ولكن الأمور كانت تجري بسرعة فائقة[١٩٨].

كيف جرى تطويق الحرس القومي ونزع أسلحتهم

وصلت مديريةَ شرطة البادية بياناتُ الانقلاب والأوامر بتجريد الحرس القومي من أسلحتهم واعتقالهم. كان الحرس القومي يحتلون كافة نقاط الحراسة (الربايا) في السجن، بعد أن أبعدوا السجانين الرسميين (الشرطة) منها. دبرت مديرية شرطة البادية،بعد وصول التعليمات، خطة ذكية جداً وبدون إراقة دماء. بدأت بتطويق السجن بالسيارات المسلحة. وبعد مرور نصف ساعة تقريباً رأينا الشرطة تصعد للربايا، فأصبح في كل ربيئة ٢ حرس قومي مع شرطي ثم شرطيين يقفون خلف الحرس القومي ولازالت الدوشكات بيد الحرس القومي مع أسلحتهم الأخرى. كنا نراقب ذلك من خلف الشبابيك. الزمن يجري بسرعة.وتمت السيطرة على الموقف دون قتال فاستسلم أفراد الحرس القومي. بعدها نزل الذين كانوا في مواقع الربايا فجردوا من أسلحتهم في الحال. وبسيطرة الشرطة ونزع سلاح الحرس القومي جرى تجنب أي عمل طائش أحمق حقود قد يؤدي إلى قتل السجناء. وحاول سليم الزئبق عدم الاستسلام والهروب بسيارته بعد أن يئس من الوضع، إلا أن الشرطة العسكرية ألقت القبض عليه وجردته من السلاح وأشبعته ضرباً. بعدها تم تجريدهم من الملابس وسيقوا جميعاً إلى موقف شرطة السماوة ومنها إلى بغداد. فانزاح هم كبير عن صدورنا وصدر الشعب. ولأن الحكام الجدد، وعلى رأسهم عبد السلام عارف، قد انتصروا على حلفاء الأمس فقط، فلم نتوقع أن يحصل أي تغير بالنسبة لنا [١٩٩]. وعلمنا من الموقوفين في موقف شرطة السماوة أن رجال الشرطة أوسعوا الحرس القومي حينما وصلوا إليهم ضرباً.

هكذا وبهذه الصورة انتهى فصل من فصول المسلسل الدموي بقتل عبد الكريم قاسم وضرب الحزب الشيوعي وشن حرب ضد الكرد وضياع منجزات ثورة ١٤ تموز والتفريط باستقلالنا وسيادتنا الوطنية وتدمير القوى الوطنية. وضرب شعار (الوحدة والحرية والاشتراكية)، الذي طالما نادوا به، عرض الحائط. لم يكن الانقلابي المتآمر الوحدوي عبد السلام عارف أقل عداء للديمقراطية والشعب والحزب الشيوعي من سابقيه. إلا أنه كان مجبراً وليس مخيرا على التخفيف وتبديل بعض الأمور.

عادت إلى السجن تقريباً الأوضاع العادية وسمح للعوائل بالزيارات. وكما قلت سابقاً كان الكثير من العوائل يسأل عن أولاده المفقودين. وبعد أيام تكشفت حقيقة

الجرائم البشعة التي ارتكبها الحرس القومي منذ ٨ شباط حتى ١٨ تشرين الثاني [٢٠٠].

بدأت المحاكم العرفية تصدر أحكامها الثقيلة على ضحايا قاسم والحرس القومي وبدلاً من إطلاق سراحهم على قول أبو كاطع شمران الياسري (الفرس نفس الفرس بس الجلال (البردعة) تبدل!) وبدأت دوائر الأمن تلفق التهم ضد أعداء الأمس من الشيوعيين والديمقراطيين من العسكريين والمدنيين. وحكم على زوجتي وأخواتها لمدة ٦ سنوات سجن و٣ سنوات مراقبة لكل واحدة في البداية ثم خفض الحكم إلى أربع سنوات وسنتين مراقبة.

وكبلت بقية النساء بسنوات طويلة ومعهن أطفالهن.

ولم يتوقف نزيف الدم وإثارة الأحقاد السابقة. فبعد بضعة أسابيع اقتادوا " وعد الله النجار" ورفاقه ليعدموا في الموصل. و(عبد الله رشيد وكريم حسين) اللذين أعدما في مديرية الميناء في البصرة، انتقاماً منهما [٢٠١].

حمل الحكم الجديد بذرة تناقضاته منذ البداية، كان ائتلافاً هشاً بين القوميين والناصريين والبعثيين، الذي كان يمثلهم حردان التكريتي، الذي اغتاله صدام حسين في الكويت بعد أن استولى على الحكم وأصبح رئيس الجمهورية!!.

الفصل الثالث عشر

الهروب من مستشفى الديوانية
كانون الثاني ١٩٦٤

بعد أن أزيح الحرس القومي بانقلاب ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٤ ومجيء عبد السلام عارف ورهطه للحكم، خففت نسبياً من الممارسات التي كان يقوم بها البعثيون، وصدر الكتاب الأسود "المنحرفون" الذي كشف بعض ممارسات الحرس القومي في محاولة من قبل السلطة الجديدة لتبرئة نفسها من جرائمهم وكسب التأييد الشعبي.

كان عموم الحركة الوطنية في جزر تام، فالحزب الشيوعي يعاني التشتت وفقدان الكثير من قادته المجربين وكادره الأساسي، الذين قتلوا أو اعتقلوا على يد انقلابيي ٨ شباط، ويعاني أيضاً من تخبط فكري على أثر الانتكاسة التي حلّت به، والشلل كان بادياً في تنظيمات الأحزاب الأخرى، ما عدا الحركة القومية الكردية التي حافظت على قوتها، رغم الضربات العسكرية، بفضل تحصنها في جبال كردستان المنيعة وهكذا فعل رفاقنا الشيوعيون الكردستانيون الذين رفعوا السلاح جنباً لجنب مع القوميين الأكراد.

ورغم الإرهاب الدموي للبعث، فإن الكثير من كوادر حزبنا استطاعت الإفلات من القتل والاعتقال لتواصل عملها السري بصبر وتحد وتفلح في جمع شتات الحزب في بغداد ومدن العراق الأخرى.

انعكس الوضع بعد انقلاب عارف على السجناء، وأصبح وضعهم داخل السجن أفضل بما لا يقاس عما كان عليه أيام البعث.

أخذت فكرة الهرب من السجن والالتحاق بالحزب تلح على تفكيرنا، إدراكاً منا لحاجة الحزب الماسة لأمثالنا.

كانت همومنا كثيرة وكبيرة داخل السجن، والأكثر منها الوضع المأساوي الذي آل

إليه حزبنا والذي يتطلب التعجيل بإعداد خطة ناجحة لهروبنا. وفكرنا أن المستشفى هي أفضل طريق للهرب.

نقطة البداية تبدأ بفحصنا من قبل رفاقنا الأطباء في السجن وتشخيص بعض الأمراض التي تحتاج إلى العلاج في المستشفى، عند البعض منا. وعندما زار السجن أحد الأطباء الحكوميين عرضنا أنفسنا عليه، فوافق على نقل مجموعة منا إلى مستشفى السماوة ومجموعة أخرى إلى مستشفى الديوانية [٢٠٢].

وضعنا في مستشفى الديوانية في ردهة كبيرة. كنا حوالي ١٢ سجيناً وموقوفاً من مدنيين وعسكريين. أمام باب الردهة التي تقع في ظهر المستشفى خيمة ينام فيها عدد من أفراد الشرطة للحراسة. وكان العريف آمر الحرس ونائب العريف كرديان. أما أفراد الشرطة الآخرون فكانوا من العرب ومن أهالي الديوانية بالذات. كان نائب العريف يقظاً جداً، وقد شكّل عقبة جدية أمامنا. كانت الردهة مقسومة إلى قسمين، يضم القسم الأول كلاً من شاكر محمود وعبد النبي جميل والرائد غازي شاكر والملازم خالد حبيب والملازم الطيار موفق مجيد والنقيب أنيس ومحسن العلي.

وكان هناك تعاطف كبير معنا من قبل الأطباء والممرضات والعاملين في المستشفى وحتى أفراد الشرطة. كانوا يتحدثون عن جرائم الحرس القومي، ومن بين ما أخبرتنا به إحدى الممرضات أنهم وجدوا فتاة مقتولة وعلى جسمها آثار التعذيب وقد جرى اغتصابها أيضاً.

بعد عدة أيام من إقامتنا في المستشفى زارنا الأهل والأقارب، لكن هاجس الهرب كان مسيطراً على عقولنا ويجب تنفيذه بأسرع ما يمكن، قبل أن يداهمنا الوقت وينتهي علاجنا ويعاد بنا إلى السجن.

توصلنا إلى إمكانية إحداث فتحة في الشباك الحديدي للردهة، المطلة على الجهة الخلفية للمستشفى حيث لا توجد حراسة، فيسهل علينا الخروج دون صعوبة.المهم الحصول على منشار لقطع تلك القضبان، وهذا يعني انتظار المواجهة.

توفرت لدينا مجموعة من المناشير وبدأنا العمل. تم الاتفاق أن يكون الطريق مفتوحاً لمن يريد الهروب معنا. قطعنا شوطاً في عملية القطع، وخشية من سماع صوت المنشار كنا نرفع من صوت راديو الترانستور لسماع الأغاني.

كان معنا في الردهة ضابط برتبة رئيس أول هو غازي شاكر وكان مصاباً بعدة إطلاقات لاتزال مستقرة في جسده، وقد حاول انقلابيو شباط قتله، لكنه نجا من الموت بأعجوبة.

أفصح هذا الضابط عن معارضته لعملية الهرب وقدم لنا شروطاً لخروجه، وهي إحضار هويات وسيارة تنتظر في باب المستشفى، وتوفير بيوت للذهاب إليها، وتدبير جوازات سفر.. إلخ. وكان من المستحيل علينا تلبية هذه الشروط التعجيزية، فطلب منا التوقف عن العمل وإلا أخبر طبيب المستشفى، وهذا ما أثار استياءنا وخصوصاً العسكريون منا.

أصبحنا في موقف حرج جداً، وترتب علينا ترك العمل في الشباك الذي ينام تحته غازي. وبعد مشاورات تقرر أن نبدأ العمل وبسرعة في القسم الثاني من الردهة لاسيما وأنها بعيدة عن الأنظار وتضم مجموعة يعتمد عليهم.

كان يوم أربعاء عندما دعيت لإجراء فحص بالأشعة بالنظر لادعائي الإصابة بالقرحة. في الصباح أكلت قطعة صغيرة من الخبز رغم التوصية بعدم تناول أي طعام، فظهرت بقعة على جدار المعدة كأنها قرحة.

كان باب الردهة يفتح كل يوم لنخرج للتمشي والتعرض لأشعة الشمس تحت مراقبة الحرس. لاحظنا أن الضابط غازي يتفقدنا ويبدو أنه لاحظ أن قسماً منا يتأخر في الخروج للتمشي، فدخل الغرفة الثانية وراح يتفحص الشبابيك فرأى أحدها على وشك الانتهاء من قطع قضبانها.

كان الرفاق الذين يتأخرون يعملون ليلاً في نشر القضبان وينهضون متأخرين في النهار.

هددنا غازي مرة أخرى بإبلاغ الطبيب إذا لم نكف عن العملية وعن محاولة الهرب.

كان يوم خميس عندما فوجئنا بقدوم الطبيب المشرف على ردهتنا وإبلاغنا بأن نجهز أنفسنا للخروج من المستشفى والانتقال إلى موقف شرطة الديوانية تمهيداً لتسفيرنا إلى سجن "نقرة السلمان". حاولنا مع الطبيب، الذي كنا نشعر بتعاطفه معنا، أن يمنحنا فرصة البقاء حتى يوم السبت لأننا أرسلنا بطلب زيارة عوائلنا من بغداد

والبصرة والموصل، إذ يصعب عليهم زيارتنا في سجن نقرة السلمان، وتذرعنا أيضاً بأن نتائج الفحوصات التي أجريت لنا لم تظهر بعد.

استجاب الطبيب لطلبنا وغادر ردهتنا.

الهروب

في المساء، قدمت الممرضات الأدوية لنا، تناولنا وجبة العشاء، ثم أقفل باب الردهة وذهب الحرس إلى الخيمة. تبدلنا النظرات، أنا، شاكر، خالد، عبد النبي، طاهر، موفق، عبد عون، العلي.. الكل كان على قناعة بأن غازيا، ضابط الاستخبارات السابق، الذي نجا من الموت بأعجوبة ولاتزال ثلاث رصاصات تستقر في جسمه، كان وراء التبليغ الصادر عن طبيب الردهة. نمنا تلك الليلة دون مواصلة العمل في الشباك.

استيقظنا صباح الجمعة التالي، كان يوماً مشمساً، كل شيء هادئ، المستشفى تكاد تكون فارغة، تناولنا الفطور ثم الدواء. وكعادتنا أنا وشاكر كنا نلبس يومياً البنطلون، شاكر تحت دشداشته، وأنا تحت البيجاما في حين يرتدي عبد النبي بنطلون الجينز والقميص.

وفوجئنا بزيارة عوائل عدة عرفت منهما زوجة الزعيم عبد القادر محمود الملقب بـ (عبد القادر جعب) وزوجة مهندس يعمل في شركة نفط البصرة وأطفاله. وفي ذلك اليوم كان العريف الكردي ونائبه في إجازة، ولم يبق من الحرس سوى واحد كان الرئيس العلي يتحدث معه ويقدم له الطعام.

كان عبد النبي يتمشى في الممر، وشاكر محمود يحمل طفل المهندس ويلاعبه، خالد حبيب بعد شعوره بأن طريق الهروب بات موصداً، أخذ صفيحة ماء ساخن وذهب ليغتسل في الحمامات القريبة، أنا وأنيس جلسنا في الردهة مع البقية. دخل أحد الضباط وهمس في أذني قائلاً: "عبد النبي تسلق سياج المستشفى وهرب!" فما كان مني إلا أن أخرج مسرعاً من باب الردهة باتجاه سياج المستشفى يتبعني أنيس. رأينا شاكر وهو يترك الطفل ويأتي خلفنا. بيسر تسلقنا سياج المستشفى لنرى أنفسنا في الشارع. كنت الوحيد الذي يرتدي البيجاما، فنزعتها ووضعتها في حفرة قريبة.

كان الشارع خالياً من المارة ما عدا ثلاث نساء طاعنات في السن كن جالسات

عند باب أحد البيوت المتناثرة خلف المستشفى. علمت فيما بعد أن أحد الفلاحين كان ماراً قرب سياج المستشفى وعثر على ملابسنا فأخذها ليبيعها في السوق فألقي القبض عليه باعتباره متعاوناً معنا. بعد مرورنا من أمام تلك النسوة بخطوات، حثثنا السير ثم بدأنا بالهرولة، دون تحديد الوجهة التي نريد الوصول إليها. المهم الابتعاد عن المستشفى. سرنا في طريق خال من المارة يفضي إلى بساتين، يحدونا الأمل، والفرحة بالخلاص ويمتلكنا أيضاً شعور بعدم النجاة بعد.

كنا قد تزودنا بأسماء عوائل بعض الذين استشهدوا من رفاقنا على يد الحرس القومي والسجناء من أهالي الديوانية، مثل عبد الأمير وشاكر، ولكن أين نعثر على بيوت هؤلاء؟ فكنا نعزي النفس بالمثل القائل (اللي يسأل ما يضيع).

زاغ عنا في منعطف أحد الشوارع الرفيق شاكر محمود. كان اليوم يوم جمعة.. الشوارع شبه خالية من المارة.. دلفنا أنا وأنيس أحد الأزقة الضيقة، فوقع نظرنا على باب مفتوح. وجدنا امرأة تعد الطعام حين دخلنا الدار. بهتت حالما رأتنا وصاحت: "من أنتم؟" أجبتها: إننا جنود يطاردنا الانضباط العسكري، ورجوناها أن تبقينا في الدار حتى المساء، فصرخت بأعلى صوتها:" لا.. لا، يكفينا ما نحن فيه.. يكفينا ما رأينا من الحرس القومي"...

فخرجنا مسرعين خشية افتضاح أمرنا، ويبدو أنها إحدى العوائل المنكوبة من قبل الحرس القومي وما أكثرها. سرنا مسرعين بلا هدف محدد. لاح لنا فتى بحدود الخامسة عشرة من العمر بيده كراسة يقرأ فيها، عندما رآنا سألنا مبتسماً عن من نسأل. أجبته: "بيت عبد الأمير[203] نحن أصدقائه، قال الفتى:" هو سجين،لكني أعرف بيته، هل تريدون أن أرشدكم إليه؟" قلت: "نعم".

تبعنا خطى الفتى ونحن نمني النفس ببارقة الأمل التي لاحت في الأفق لتنجينا من المأزق الذي نحن فيه.

لم يطل بنا المسيرحتى دخلنا زقاقاً ترابياً في نهايته بيت مبني من الطين. وقف الفتى أمامه وأشار بيده قائلاً: "هذا هو البيت".

عندما دخلناه لم نجد أحداً. وبعد دقائق دخلت امرأة ملفعة بالسواد لها وجه صارم يوحي بالقوة والشجاعة. بعد أن رحبت بنا اتجهت نحو الموقد لعمل الشاي. أخبرتنا بعد

لحظات صمت أن زوجها سجين وهي وحيدة في البيت. وبعد أن أخبرناها بحقيقة وضعنا، قالت: "أنا لا يهمني شيء ولكن إذا ما عرفت الشرطة بهروبكم فإن أول ما يخطر ببالهم هو تفتيش بيوتنا، وهذا خطر عليكم"، كانت تعبر فعلاً عن حرصها علينا ثم أردفت قائلة: الأفضل أن تذهبوا إلى بيت (فلان).. إنه في السجن، ولكن زوجته موجودة رغم أنه تركها وتزوج غيرها.

لاحظت أنها تتحلى برباطة جأش وشجاعة، فهي ظلت على هدوئها حتى بعد معرفة من نحن، والخطر الذي يتأتى من وجودنا في بيتها. ذكرني مرآها بزوجات وأخوات عمال النفط والميناء في البصرة في عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٣ أيام المظاهرات والإضرابات وكيف كنّ يخرجن وهنّ يربطن عباءاتهن على خصورهن وهن يهتفن مع المتظاهرين.

لم يطل مكوثنا طويلاً، خرجت المرأة وتحدثت إلى الفتى الذي رافقنا والذي بقي واقفاً ينتظر في باب الدار. عادت لتقول لنا إن هذا (الولد) سيرشدكم إلى البيت الآخر.سار بنا الفتى عبر عدد من الأزقة وتوقف عند أحد البيوت، وأشار قائلاً: "هذا هو البيت." طرقت الباب عدة طرقات ولم يفتح، ثم عاودت الطرق ففتح من قبل امرأة كانت غضبى.. يبدو أن الطرق المتكرر للباب قد أزعجها.

كانت شابة هزيلة، معالم الفقر والبؤس بادية على وجهها، تحمل طفلاً رضيعاً. تطلعت بوجوهنا وقالت بعصبية: "ماذا تريدون؟ زوجي بالسجن، وأنا وحدي في هذا البيت." وقبل أن تكمل كلامها دخلنا البيت وأغلقنا الباب خلفنا، بادرتها بالسؤال: "أنت زوجة فلان؟" قالت:" نعم!" كان الارتباك بادياً على وجهها الهزيل. أضفت قائلاً: "إننا من أصدقائه". لاح لي أثناء حديثي معها، وأنيس يحاول أن يهدئ من روعها، رأس إنسان يطلّ علينا من سطح الدار.كان رأس الرفيق شاكر محمود، الذي سبقنا في الوصول إلى البيت، وعندما سمع الطرق على الباب صعد إلى السطح ليهيئ نفسه للهرب عبر سطوح بيوت الجيران، إذ قدر أن الشرطة هي التي تطرق باب البيت. وعندما رآنا نزل ضاحكاً، فسردت عليه قصة وصولنا إلى بيته.

كان البيت في حالة بائسة، محتوياته تنم عن فقر مدقع، إذ لا أثاث فيه سوى حصران وأفرشة بالية. كان زوجها السجين هو المعيل الوحيد، أعطيناها بعض النقود

لتشتري لنا خبزا وجبنا. كان الجوع يعصرنا عصراً. أخبرتنا بعد ذلك أنها سوف تستعين بأحد أقربائها ليأخذنا في المساء إلى مكان أكثر أمناً.

كان الوقت يمرّ ثقيلاً والمرأة مشغولة بطفلها الرضيع. أخبرتنا عن زيارتها الأخيرة لزوجها في السجن، وعن كيفية اعتقاله من قبل أفراد الحرس القومي. طرق باب الدار، فنهضت المرأة لتفتح الباب، ونحن في حالة من التوجس والتهيؤ للاسراع نحو سطح الدار. دخل شاب في الثلاثين من عمره ذو شاربين سوداوين. قالت لنا بأن هذا هو الشاب الذي حدثتكم عنه. سلّم علينا وصافحنا. كان رابط الجأش ومنظره يوحي بالثقة.

بعد حديث قصير عن الوضع الذي نعيشه بادر الشاب بالقول: "يوجد بيت فارغ خارج المنطقة يملكه أحد معارفنا، هو عامل سكك، تستطيعون البقاء فيه حتى نجد وسيلة آمنة لتسفيركم.

عندما خيم الظلام ودعنا صاحبة البيت وشكرناها على حسن ضيافتها، وطلبنا منها أن تنقل تحياتنا إلى زوجها، وصعدنا إلى سطح الدار وعبرنا سطحين، يبدو أنهما لمعارفهم، ثم نزلنا إلى الشارع عن طريق آخر. حث الشاب المسير ونحن من خلفه حتى وصلنا إلى كوخ من الطين، مهجور. كان فارغاً من أي شيء، أرضه من الطين، فيه غرفة واحدة خالية تماما. وفي ساحة الكوخ كمية كبيرة من سعف النخيل.

قال الشاب: "إذا جاء صاحب الكوخ أو أي شخص آخر قولوا له بأنكم استأجرتم البيت من "..."، وغادرنا.

كنا في حيرة من أمرنا: كيف نتصرف. سمعنا طرقاً على الباب عرفنا بعدها أن ذلك من أطفال، انهالوا على الباب بالحجارة وهم يصرخون: "اخرجوا من البيت!" وولوا الأدبار. وبعد برهة طرق الباب من جديد ولكن بقوة. كان ثلاثة رجال، ومعهم سبعة أطفال، أحدهم كما يبدو من ملابسه أنه حارس ليلي والثاني يرتدي بدلة عمال والثالث فلاح. طلبوا منا إخلاء الدار فوراً. وعندما عرضنا عليهم تأجيره، قال أحدهم، ويبدو أنه مالكه: "أنا لا أؤجره، وعليكم أن تخرجوا منه فوراً !" وأثناء حوارنا مع الرجال الثلاث. غادرنا شاكر باتجاه الشارع ولم يكن أمامنا، أنا وأنيس، غير مغادرة المكان وفي الاتجاه المعاكس الذي ذهب إليه شاكر، صوب البساتين. كنا نخشى أن يجري الإبلاغ عنا للشرطة. ربما ساورهم شك بأننا لصوص أو ما شابه.

كان الجو ماطراً والأرض مبتلة رخوة وتنتشر هنا وهناك حفر مملوءة بالمياه.

عدنا مرة أخرى نسير في طريق مجهول لا نعرف نهايته وأنيس يسير بجانبي. كان ضعيف البنية، ذو وجه أفغاني، يدخن بشراهة بطيء الخطى و يلاقي صعوبة في السير مما اضطرني إلى مساعدته. بدأ الظلام والبرد يشتدان، والجوع والعطش يأخذان منا مأخذاً. بعد عدة ساعات من السير وصلنا قرب الشارع العام الذي يربط مدينة الديوانية بمدينة (عفك). أضواء السيارات التي تتوالى أمام أنظارنا.. سمعنا صوت صهيل خيول، وصوت غير مفهوم يأتيان من مسافة بعيدة.

اختبأنا في ساقية لم تجف مياهها بعد. بعد مرورهم من مسافة قريبة منا عرفنا أنهم من الشرطة الخيالة. لم يمرّ وقت طويل حتى تواروا عن الأنظار، فواصلنا المسير من جديد في عتمة الليل. لاح لنا من بعيد ضوء خافت، كان لنا بمثابة بارقة أمل. توجهنا صوبه. وبعد مسير حوالي نصف ساعة وجدنا أنفسنا أمام خيمة من الشعر تبرك أمامها ناقة تجتر طعامها و عيونها تلمع في الظلام. داخل الخيمة ثمة رجل طاعن في السن يرقد جنب موقد خبت ناره وامرأته تغط في نوم عميق وهي تحتضن طفلين. نهض الرجل كالملسوع عندما سمع وقع أقدامنا، تحركت الناقة في مكانها ونهق الحمار الذي كان خلف الخيمة.

سلّمنا على الرجل فردّ السلام. ومن لهجته عرفنا أنه بدوي. بادر بالقول: "أهلاً بالضيوف!" ثم نهض وأيقظ زوجته قائلاً لها "عندنا ضيوف!"

نهضت المرأة من رقادها وأشعلت الموقد وهيأت الخبز والشاي، استمتعنا كثيرا بأكل الخبز الحار مع الشاي والدفء قرب موقد النار بعد السير المضني في ذلك الليل الموحش.

لم يسأل الرجل المضيف من نحن وماذا نريد، وهي عادة عربية متأصلة قديمة!، فالسؤال يأتي بعد ثلاثة أيام من إقامة الضيف، تذكرت معايشتي للبدو في مدينة (نقرة السلمان) عام ١٩٥٦ عندما كنت مبعداً (منفياً) هناك.

قبل أن نخلد إلى النوم توجهت إلى مضيفي قائلاً: "لدينا صديق حميم في ناحية

الشنافية وقد تأخرنا في الوصول إليه، ثم سألته: "أين نحن؟" أجاب: "أنتم بالقرب من ناحية عفك، والشنافية بهذا الاتجاه." وأضاف: " شمرة عصا !" تبادلنا أطراف الحديث بعض الوقت وأستأذناه بالنوم حتى نبكر في النهوض.رحب بالمقترح قائلاً: "الصباح رباح!" توسدنا أحذيتنا واستغرقنا في نوم عميق. استيقضنا في حوالي الساعة الرابعة صباحاً على نباح الكلاب البعيدة ونهيق الحمار المربوط خلف الخيمة. كان مضيفنا قد سبقنا بالنهوض وأشعل النار في الموقد.

كان الجو بارداً ونسائم الصباح تلسع وجوهنا. تطلعنا من حولنا، فوجدنا أنفسنا وسط منطقة شبه صحراوية منعزلة أقام فيها هذا البدوي خيمته. كان الجو صحواً والسماء صافية مازالت بقايا نجوم تتلألأ في كبدها. تناولنا فطورا من خبز شعير وشاي. شكرناه على ضيافته بعد أن أشار لنا على الاتجاه الذي يؤدي إلى مدينة الشامية..

كان الرجل يرتدي ثلاث دشاديش ويلف رأسه بكوفيتين، فما كان منه إلا أن خلع اثنتين من الدشاديش الثلاث وإحدى الكوفيتين وقدمها لي. وبدوري قدمت له البنطلون الذي كنت أرتديه. يبدو أنه قدر أن لبس الدشداشة والكوفية هو الأنسب في الريف ولا تلفت النظر.

قرر أن يصاحبنا، فسرنا وراءه. وبعد نصف ساعة التفت إلينا قائلاً: "تمشون بهذا الاتجاه"، وأشار بيده، "الشمس دائماً أمامكم".. أودعكم. شكرنا له ضيافته ونخوته وقدمت له بعد الإلحاح مبلغ ثلاثة دنانير. ثم قال: "شمرة عصا وتصلون! "

كان الطريق زراعياً، تتناثر فيه برك المياه، وقطعان الأغنام تسرح هنا وهناك والنسيم كان عليلاً منعشاً والسماء صافية وقبرات تطير وتحط وهي تطارد الجراد، قطرات الندى لازالت معلقة على وريقات الشجر، بين حين وآخر يقفز أرنب ويجري مسرعاً، الأرض المبتلة، والشمس تشع بنورها فتبعث الدفء في أجسادنا. لم نصادف بشراً أثناء سيرنا إلا بعد ساعتين، حيث شاهدنا فلاحين منهمكين في عملهم. كنا بعيدين عنهم ولم يعيرونا أي انتباه. لاحت لنا بيوت طينية متناثرة. وقفنا برهة لنراقب المنطقة. كانت أشبه ما تكون بقرية صغيرة. كنا نخشى أن يكون فيها مركز للشرطة،

وأن يكون خبر هروبنا قد وصل إليهم. رغم كل تلك الهواجس اتجهنا صوب واحد من تلك البيوت. طرقنا الباب فخرج علينا شاب في العشرين من عمره، أخذ يتفرس في وجوهنا وبادرنا بالسؤال: "من تريدون؟" أجبته على الفور بأننا نسأل عن جبر[٢٠٤]، ودون أن يعقب بشيء سمح لنا بالدخول إلى البيت.

كان هناك شيخ حسن المظهر بلحية بيضاء يجلس أمام موقد كانت ناره على وشك أن تخبو. يدل مظهره على أنه رئيس عشيرة أو فخذ. وبعد السلام جلسنا أمامه. الغرفة الطينية كانت دافئة بعض الشيء سألنا الشاب: "هل تعرفون جبر" أجبته: "نعم!"

قال: "إن بيته قريب من هنا".

بدأ الشيخ بحديث عن السياسة وأخذ يلوم الأحزاب وفشلها ويقرن حديثه بآيات قرآنية. لفتت نظري أسنانه البيضاء كأنها أسنان شاب في العشرين من عمره. كنت أتطلع إليه وهو يضع إبريق الشاي في الموقد وأحاول أن أقرأ صفحة وجهه. ترى هل أن خبر هروبنا وصل اليهم؟ تجنبنا قدر الإمكان الدخول في مناقشة سياسية معه.

على حين غرة التفت الشيخ إلى الشاب قائلاً: "اذهب وخبّر جبر بقدوم الضيوف!".غاب الشاب بضع دقائق وعاد ليصحبنا إلى جبر. سرنا في طريق زراعي ثم توقف وأشار بيده قائلاً أن جبرا يسكن هناك، وتلك هي أخته التي تكسر عيدان الحطب.

بعد أن تركنا الشاب جلسنا على الأرض نرقب أخت جبر وهي تكسّر عيدان الحطب: كانت شابة، ممشوقة القوام، في وجهها مسحة من الجمال.

سألت الشابة عن بيت جبر، فأجابت بغضب "لا أعرفه! " قلت: "هل يمكن أن تستضيفونا؟ " أجابت: " لا نضيف أناس مثل أشكالكم !" ثم غادرتنا وعادت بعد لحظات لتكسير عيدان الحطب. الملابس التي أعطانا إياها البدوي كانت رثة، وسخة تلفت النظر. جاءت بعد دقائق امرأة شابة تحمل طفلاً تركض نحونا وهي تصيح: " أهلاً بالضيوف.. تفضلوا" لاحظنا أن أخت جبر الغضبى قدْ تغيرّت سحنة وجهها ولاحت

الابتسامة على شفتيها. قادتنا المرأة حاملة الطفل إلى كوخٍ طيني يملؤه الدفء، وبعد جلوسنا دخل علينا شاب مرحباً ودار بيننا حديث مجاملة. كان ودياً معنا، سألته أثناء احتسائنا الشاي عن جبر فأجاب الشاب: "إن جبر غير موجود، سافر ولا نعرف متى يعود، ذهب لزيارة أمه المريضة".

أسعدنا الجواب وكدرنا في الوقت ذاته. أسعدنا لأننا اهتدينا إلى الشخص المطلوب، وكدرّنا لأن جبرا غير موجود ولا ندري متى يعود.

أسدل الليل ستاره على القرية ولازلنا نتجاذب أطراف الحديث في الكوخ المضاء بالفانوس. دخل علينا رجل في الأربعين من العمر، مفتول العضل، لوحته أشعة الشمس، يحمل بندقية على كتفه، سلّم علينا وجلس يتفرس في وجوهنا وفي ملابسي الرثة. توجهت إليه بالكلام بعد أن طال سكوتنا "أنت الأخ جبر"؟ وبهدوء أجاب: "نعم" قلت: هل يمكن أن أحدثك في الخارج على انفراد" قال: "تفضل".

خرجنا ووقفنا خلف الكوخ. بادرت في القول: إننا وطنيون شيوعيون هربنا من مستشفى الديوانية! "، ثم سردت له قصتنا. وبعد أن أكملت أطرق رأسه إلى الأرض ثم قال: "أنا لا علاقة لي بالسياسة والأحزاب ولا أستطيع أن أعمل لكم شيئاً، قلت له: أيها الأخ جبر أنك الآن أمام المسؤولية وإن الرفيق... أعطاني اسمك وعنوانك، لهذا التجأنا إليك، الخطر قريب منا ولا نعرف المنطقة، لذا نطلب مساعدتك بالوصول إلى مدينة النجف أو الكوفة. أطرق الرجل برأسه مفكراً ثم أخرج من جيبه كيس التبغ ولفّ له سيكارة، أشعلها، ثم سألني عن أنيس: هل أنت واثق منه وتعرفه جيداً ؟ أجبته: "إنه سجين معناوهرب معنا"، عندها قال جبر: " هيا ندخل الدار والصباح رباح".

أنا أعرف الفلاح العراقي وعاداته وتقاليده، أعرف شهامته ونبله، أعرف كرمه لضيفه ومن يلجأ إليه يحميه ويفتديه بحياته، إذا اقتضى الأمر.

جاءت زوجة جبر بعد دخولنا الكوخ ، كانت تحمل الطفل وتحمل صينية الطعام. كان وجهها طافحاً بالفرح وتنظر إلينا بحنان كأنها تعرفنا منذ زمن. أكلنا بنهم بعد أن اعتصرنا الجوع وشربنا الشاي ثم جلب لنا جبر الأفرشة وتركنا لننام. نعمنا بالدفء في

هذا الكوخ الطيني، فاستسلمنا لنوم عميق. أغلب الظن أن جبر لم ينم بل ظل يحرسنا نحن الغرباء الهاربين من السجن والمطاردين من قبل الشرطة.على أصوات البلابل والعصافير والخراف والبقرة استيقظنا. طوينا أفرشتنا اغتسلنا وتناولنا فطورنا. قال جبر بعد الفطور: " تذهبون معي إلى مكان قريب.. إلى بستان يعود لنا، تمكثون هناك، ثم أذهب لشراء ما تحتاجون إليه وأعود إليكم في المساء. وإذا سألكم متطفل عن وجودكم في المكان تجيبون بأننا أقرضنا جبر نقوداً وجئنا لنتحاسب معه ووعدنا أن يأتي إلى هنا. أعطيت جبراً مبلغا من المال ليشتري لي ملابس جديدة بدلاً من هذه الملابس الرثة.

بعد أن غادرنا الرفيق جبر، جلسنا في ساقية جف ماؤها. كان الهواء منعشاً، والأرض تنبعث منها رائحة زكية، وشمس الخريف تسطع في السماء لتبعث الدفء في الأرض.

بدأت أفكر بمصير الرفيقين شاكر محمود وعبد النبي جميل، وماذا حل بهم! هل وصلوا إلى برّ الأمان، وماذا عن هروبنا ؟ أكيد أن هروبنا قد انكشف، وأن الشرطة استنفرت وهي تفتش عنا في كل مكان. ماذا حلّ برفاقنا المرضى الذين لم يهربوا هل لازالوا في المستشفى أم عُجِّل في إرجاعهم إلى السجن؟ هل وصل نبأ هروبنا إلى رفاقنا في السجن؟ لابد أنهم فرحوا لهروبنا حالما وصلهم الخبر، وسيصل الخبر إلى زوجتي السجينة في سجن النساء ببغداد وكذلك إلى الحزب! وأنا في هذه الدوامة من التفكير مرّت من أمامنا امرأة متوسطة العمر تشد عباءتها على وسطها، كانت ترعى خرافها،نظرت إلينا بفضول ثم قالت وبلهجة احتجاج "لماذا تجلسون هنا"، ومن تريدون؟ أجبتها: إننا نطلب جبر نقوداً وجئنا لاستردادها، لم تقتنع بالجواب، إلا أنها تركتنا وذهبت. وبعد برهة جاء شاب وجلس إلى جانبنا وبعد أن سلّم علينا قال: "إنكم في أمان هنا!" ومن حديثه فهمنا أنه يعرف قصتنا.ثم أضاف :" أنا أيضاً من جماعتكم وصديق لكم." أيقنت أن خبرنا قد انتشر في القرية، وبعد قليل تركنا مبتسماً وانصرف.

جاوزت الساعة الثانية عشرة ظهراً، ونحن نعاني مرارة الانتظار، وكان الوقت يمرّ بطيئاً ثقيلاً خاصة بعد الكلام الذي سمعناه من الشاب، فنحن لم نزل لما نصل إلى مكان آمن.

جاءتنا فتاة بعمر الثانية عشر بصينية مغطاة بقطعة قماش - يبدو أنها ابنة جبر - وضعتها أمامنا وانصرفت.

جاوزت الساعة الرابعة عصراً ولم يأت جبر وعيوننا على الطريق حتى الساعة السادسة. لاح لنا وهو يحمل صرة من القماش متوجهاً صوبنا. قال مبتسماً: "هيا نذهب إلى البيت." خمنت أنه تأكد من صحة أقوالنا، وكان قد اشترى لنا الملابس المطلوبة. في البيت طلب منا جبر أن نغيّر ملابسنا ونحلق ذقوننا استعداداً للمغادرة في صباح الغد. وعندما سألته إن كان بالإمكان السفر الآن أجاب: "إن الوقت متأخر وطريقنا طويل إلى الكوفة." ثم سألته :"هل شاع أمر هروبنا بين الناس؟" فأجاب: "لم أسمع شيئاً."

حضر إلى المنزل بعض من أقاربه وظلوا يتسامرون معنا حتى ساعة متأخرة. كانت ثقتي كبيرة بالرفيق جبر. تحدثنا أنا وأنيس عما لمسناه من كرم وشهامة وإيثارلديه، وعللنا النفس بأننا في القريب سنكون في أحضان الحزب [٢٠٥].

في الصباح الباكر من اليوم الثالث لهروبنا أيقظنا جبر لنغادر البيت في الساعة السادسة صباحاً مشياً على الأقدام. مررنا بطرق زراعية وعبرنا أنهاراً وشطآناً وعندما حل المساء دخلنا داراً فيها مضيف معد للزوار يعود لأحد الفلاحين الميسورين. جاءنا صاحب الدار وتحدث مع جبر ثم قدم لنا الطعام، لم يسأل كالعادة من نحن ومن أين جئنا وأين هي وجهتنا.

في صباح اليوم التالي واصلنا المسير ولمدة ثلاثة أيام متواصلة نمشي من الصباح حتى المساء، ننام في بيوت الفلاحين. وبعد مرور ستة أيام من هروبنا وصلنا ليلاً قرية كبيرة تكثر فيها معامل الطابوق تقع على أطراف مدينة الكوفة. قادنا الرفيق جبر إلى بيت صديق له في العقد الثالث من العمر، شاب أشقر ذي شاربين كثيفين. رحب بنا

وتعانق بحرارة مع جبر، اختلى جبر معه مدة.يبدو أنه أحاطه علماً بوضعنا. رحب بنا صاحب البيت مرة ثانية وأبلغنا بأنه سيصحبنا غداً إلى مركز مدينة الكوفة.

في صباح اليوم التالي غادر جبر عائداً إلى أهله. ودعنا هذا الإنسان الرائع ابن الريف الذي قدم لنا خدمة لا تنسى.

بعد مغادرة جبر طلب "محمد "صاحب الدار منا التحرك فوراً. سرنا في طريق طويل تنتشر على جانبيه الكُوَر (معامل الطابوق) وتقف في الشارع شاحنات الطابوق. دخلنا مدينة الكوفة.لأول مرة بعد مرور أكثر من سنتين تطأ قدمي أرض مدينة وأتجول بين الناس، بعد أن كنت أنتقل من معتقل إلى آخر ومن سجن إلى آخر.

قال محمد: " تستطيعون من هنا ركوب السيارة إلى مركز مدينة الكوفة، ومن هناك تقلكم السيارة إلى النجف. ودعنا مرافقنا وشكرناه على مساعدته. فكرت أننا نخاطر في دخول مدينة بدون هوية أو دفتر الخدمة العسكرية، ولكني استدركت بأن المجازفة مطلوبة في مثل وضعنا، فالمهم الوصول إلى الهدف، ولقد اجتزنا خلال ستة أيام مسافات شاسعة لا تخلو من مخاطرأيضاً.

ركبنا سيارة مكتظة بالجنود الواقفين وكنت قد هيأت الإجابة في حالة السؤال عن الهويات.عند نقطة التفتيش وقفت السيارة وأطل أحد الجنود برأسه ثم أمر السائق بالتحرك وهكذا اجتزنا نقطة الخطر.

دخلنا مدينة النجف بسلام، هذه المدينة ذات التاريخ الحافل والمجيد، موطن الثورة والثوريين من أمثال كاظم العلي وحسين الشبيبي وحسين الرضي وعطوان العدنان وحسن عوينة. ها إني أزورها من جديد. آخر مرة زرتها في عام ١٩٦١. إذ أن زوجتي " أم عواطف " من هذه المدينة. كانت المدينة مكتظة بالناس والزوار القادمين من مختلف مدن العراق.. المقاهي مزدحمة بالرواد.كان رفيقي أنيس ابن النجف، وهو يعرف مداخلها ومخارجها جيداً. اجتزنا عدة أزقة ضيقة ثم توقفنا أمام أحد البيوت طرق أنيس الباب لينفرج عن وجه امرأة شابة يبدو على محياها الحزن والكآبة. كان البيت كبيراً إلا أنه خال من الأثاث وقد فرشت أرضيته بالحصران.

رحبت المرأة بنا ولم تتضايق من وجودنا. سألتُ أنيس لمن هذا الدار ومن هي تلك المرأة أجابني: أن المرأة هي زهوري (زهرة الحكيم) زوجة الرفيق الشهيد حسن عوينة ثم عرفها بي، وكانت تعرف زوجتي وعائلتها.

بعد أن استرحنا قليلاً، طلب أنيس من صاحبة البيت أن تأتي بزوجته. وجاءت زوجته وهي تحمل على صدرها وليدها الرضيع، كانت فرحة وخائفة في آن.

حدثته كثيراً عن المآسي والآلام والمظالم التي حلّت بالناس على أيدي حكام البعث، أضافت بأن البعثيين سيعودون من جديد للحكم مرة ثانية ونحن سنتشرد. ما قالته كان نبوءة تحققت فعلاً.

اتصلت أنا بأهل زوجتي وذهبت إليهم وذهب أنيس مع زوجته، ولم أسمع عنه بعد ذلك شيئاً.

أفلحت بعدها بالاتصال برفاقنا في منطقة النجف، الذين أوصلوني إلى قيادة المنطقة في ريف الفرات الأوسط، ومن هناك سافرت إلى بغداد لأواصل العمل في صفوف الحزب.

الفصل الرابع عشر

الالتحاق بالحزب من جديد

كنت أريد أن ألتقي بأحد الرفاق من منظمة النجف، كيما ألتحق بالحزب لأواصل العمل بعد هذه الفترة العسيرة.

بعد يومين التقيت بأحد أقاربي، كما التقيت بالرفيق جواد العطية.استطاع بعدها الرفيق جواد [٢٠٦] الاتصال بمنظمة الفرات الأوسط ثم أعلمني بأن الرفاق ينتظرونني. ذهبت مع أخته إلى الموعد.استلمني أحد الرفاق حسب الموعد. ودعتها وانطلقنا إلى عمق الريف. كان مرافقي قصير القامة سريع الحركة ويحمل بندقية كلاشنكوف.

كان عليّ الصبر وتحمل الصعوبات كما ينسب إلى الإمام علي:

واصبر على ما يأتي الزمان به
صبر الحسام بكف الدارع البطل
واسترشد الحلم في كل الأمور ولا
تسرع ببادرة يوم إلى رجل

بعد مسير طويل في طرق زراعية متنوعة، توقف مرافقي أمام أحد الأكواخ وقال الآن قد وصلنا. دخلنا الكوخ لأرى قيادة الفرات في داخله، فملأت السعادة كل جوارحي.. لقد استطعت الفوز بالنجاة.

بعدها التقيت بالرفيق (كاظم الجاسم) [٢٠٧] (أبو قيود).مكثت عدة أيام مع الرفاق ثم سافرنا باقر إبراهيم وأبو قيود دليلنا وأنا متجهين إلى بغداد. كان أبو قيود يعرف أهالي المنطقة والقرى المجاورة التي مررنا بها مساء. توقفنا عند أحد الأكواخ للمبيت وقد أنهكنا التعب. كان الكوخ مظلماً، بابه من القصب. طرق أبو قيود الباب،فخرجت امرأة بيدها طفل. يبدو أننا أيقظناها من نوم عميق. سألها كاظم عن زوجها فقالت إنه

غير موجود وسيعود بعد ثلاثة أيام. تحركنا رغم أنها طلبت منا الدخول والاستراحة، إلا أن أبو قيود اعتذر منها. عندها سمع صوتها ينادينا وهي تكاد أن تبكي وتتوسل وتقول لا يصح أن تذهبوا في هذا الوقت أنا بدل زوجي أنا موجودة.

رضخنا لتوسلاتها ودخلنا الكوخ الذي يشبه (الجباشة) في الهور.

كان أطفالها ،الذين يغطون في نوم عميق، يفترشون الأرض وقد تدثروا بأسمال بالية.

قدمت لنا ما عندها من خبز ولبن وشاي، ثم خلدنا للنوم.

الشيوعيون يتمتعون بسمعة طيبة في الريف، لسمو أخلاقهم وتضحياتهم واحترامهم لعادات وتقاليد الفلاحين.

شكرنا المرأة على كرمها و شهامتها وعزة نفسها.

بعد مسيرة ثلاثة أيام على هذا المنوال، وصلنا أطراف مدينة الصويرة في محافظة الكوت وأمضينا ليلتنا عند أحد المعارف. ودعنا أبو قيود صباحاً وانطلقنا نحن إلى وسط المدينة. ركبنا سيارة متوجهة إلى بغداد. كنت أحمل هوية عملتها بنفسي ولازلت أحتفظ بها. كما كانت لدى (أبو خولة) هوية مزورة أيضاً. نزلنا قبل جسر ديالى، حيث كانت سيطرة ومفرزة من الجنود تفتش السيارات الخاصة وسيارات التكسي. ومن أجل تلافي الموضوع والعبور بسلام، ركبنا باص مصلحة نقل الركاب. وكان مزدحماً بالفلاحين والنساء والأطفال. ثم مررنا بلا مشاكل بمعسكر الرشيد رغم وجود مفرزة للتفتيش. وعند مرورنا بمعسكر الرشيد ،الذي شهد أروع البطولات التي قام بها حسن سريع ورفاقه الأبطال، الذين انتفضوا بوجه الانقلابيين في ٣ تموز ١٩٦٣ ، تذكرت بفخر بطولاتهم ومسعاهم النبيل لإنقاذ الوطن.

دخلنا بغداد بسلام ليبدأ فصل جديد من الكفاح. ومرت الذكريات سريعة والكم الهائل من الأحداث التي مرت بالعراق وبالحزب وما يقارب السنتين من الاعتقال منذ عام ١٩٦٢. الاعتقال في البصرة والمرور بمديرية الأمن في البصرة، التعذيب ومركز شرطة العشار، ومديرية أمن بغدد. التنقل بين مراكز شرطة البصرة و شرطة المدينة ثم انقلاب شباط الأسود في ٨ شباط ١٩٦٣ ، وضياع الكثير، وحركة حسن سريع ونقرة السلمان، ثم الهروب من مستشفى الديوانية.

أي جلادين كنا نواجه. أي إرهاب وظلم عانى شعبنا على يد المجرمين من حكامه، وأسيادهم الأمريكان والإنكليز ومن مد يده للتعاون معهم. نعود لبغداد المفجوعةمرة ثانية لنواصل عملنا. بغداد أم الانتفاضات والإضرابات العمالية.. قلب العراق النابض التي استباحها أيتام هولاكو وهتلر وموسليني وفرانكو من جلادي الشعوب.. دمروا كل ما هو جميل خلال أشهراستيلائهم عليها ولتستمر شلالات الدم على أيدي القوميون والبعثيون لإرجاع بلادنا الجميلة إلى عهود قديمة مدعين الوحدة والحرية والاشتراكية المزيفين.

دخلنا بغداد التي أصابها الذهول والألم والكل يقول من هنا مرت عصابات الحرس القومي.

طريق الشعب تصدر من جديد

(ماذا عن أتحاد الشعب؟)

كانت حكومة عبد السلام عارف غير متجانسة وتحمل تناقضاتها معها رغم أنها قامت بالقضاء على شركاء وحلفاء الأمس.

انقلب عبد السلام الذي خان الزعيم عبد الكريم قاسم وأعدمه ورفاقه، اشتهر بسياسة إعدام الشيوعيين، وانقلب على حلفاء الأمس البعثيين، لكنه لم يوقف نزيف الدم فأعدم جماعة البصرة والموصل من الذين ذكرتهم سابقاً. كانت المهمة الصعبة التي تواجه من تبقى من رفاق الحزب هي إعادة بناء الحزب، رغم القنوط واليأس والتذمر الذي يسود الأوساط الحزبية.صحيح أن كل نار تصبح رمادا، ولكن نار الحرية وجمرات النضالات الوطنية لشعب مضطهد لا يمكن أن تخمد. ومن هذا المنطلق رفع الشيوعيون راية النضال الوطني الديمقراطي لإعادة بناء حزبهم أولاً وتكملة طريق من استشهد من أجل الشعب والوطن.

ودارت عجلة العمل المثابر لإصدار جريدة الحزب وإصدار النشرات المكتوبة بخط اليد وعقد الاجتماعات وإقامة الصلات الخيطية. ولم تتوقف البطولات حتى أيام الحرس القومي؛ وأتذكر على سبيل المثال هذه الحادثة التي سمعتها وأنا في مستشفى الديوانية أنظرالهامش ٢٠٨.

افترقنا أنا وباقر. كانت كل همومي تنصب في إعادة بناء مطبعة الحزب وإصدار الجريدة والنشرات المطبوعة في هذا الوضع الشائك.

إن إعادة إصدار جريدة الحزب المركزية تعني إعادة الحياة والثقة مجدداً للحزب وإنعاش آمال الجماهير.

سكنت مع عائلة نازحة من ضواحي الموصل في مشتمل (دار ملحقة)صغير في الكرادة. عائلة كبيرة مكونة من سبعة أفراد. تتألف العائلة من الأب الذي يعمل فراش مدرسة والأم ربة بيت، والابن الكبير طالب والبنت الكبيرة متزوجة من جندي و تعمل كمربية لدى إحدى العوائل مع أطفالها الثلاثة. شكلت هذه العائلة، غطاءً مضموناً لعملنا، عائلة كبيرة غير معروفة في وسط مدينة كبغداد، والمشتمل ملاصق لدار عائلة بغدادية ثرية. والعائلة ليست لها علاقات اجتماعية مع جيرانها.

رغم الأزمة المالية التي كان يعاني منها الحزب إلا أن الرفاق استطاعوا تأجير هذا البيت. وبعد أن استقر بي المقام مع هذه العائلة الكبيرة، توجه تفكيري لشراء مطبعة وإيجاد عائلة تصلح للعمل. إن أكثر العوائل الحزبية المجربة دمرها الحرس القومي، والسجون مليئة بهم، ومنهم من ترك العمل الحزبي. كان من الصعب إيجاد عائلة بالمواصفات اللازمة للعمل في مطبعة الحزب، بعد الدمار الشامل الذي حل بمنظمات الحزب. كنت بعيداً عن المنظمات والحزب منذ عام ١٩٦٢، والذين أعرفهم إما في السجون أو استشهدوا على يد الحرس القومي في مراكز التعذيب.

وبعد أن تأكدت من وجود أحد معارفي، وهو الرفيق (م)، أرسلت إليه رسالة وطلبت منه تدبير وشراء مطبعة كهربائية تصلح للعمل السري، وشراء كمية من الحروف المستعملة والمستلزمات الطباعية المكملة. وجاءه الرد بوجود مطبعة بسعر خمسين ديناراً، أما الحروف والمستلزمات الأخرى فيمكن توفيرها وبالكميات المطلوبة. أرسلت له المبلغ وتم شراء المطبعة.

تم الحصول على بيت وعائلة استطاعت الإفلات من الاعتقال أيام الحرس القومي، ولكن لم يكن لديهم الخبرة الكافية للعمل في المطبعة. بعد حصولنا على البيت كان لابد من نقل المطبعة للبيت الجديد والاستعداد للعمل.

قمت بنقل المطبعة وكانت عواطف ابنتي معي في السيارة التي أجرها (ب). كانت

عواطف سجينة مع أمها إلا أنها كانت تخرج مع المواجهين من معارفنا لتبقى عدة أيام ثم تعود للسجن.

كانت المطبعة مغلفة بصندوق خشبي. جرى نقلها و بدأت بترتيب الحروف.

تحول المشتمل في الكرادة إلى محل للقاء الرفاق، من بينهم عمر علي الشيخ و(ك) الذي ساعدنا كثيراً.

كنت أمضي معظم وقتي في بيت المطبعة وأعود في بعض الأحيان للمبيت في بيت الكرادة.

تعلم رب العائلة تنضيد وتوزيع الحروف بصعوبة.. مواد العدد الجديد كانت جاهزة للطبع.

(أصدرنا أول عدد من الجريدة (طريق الشعب) بعد انتكاسة شباط ١٩٦٣. وكان له صدى واسع وشكل انتصاراً كبيراً للحزب ولنا. احتفلنا في بيت الكرادة بالجريدة المطبوعة وانتهى عهد الاستنساخ باليد والتوزيع المحدود أيام الحرس القومي. طبعنا كميات كبيرة مما ساهم بانعاش منظمات الحزب وجماهيره وزيادة ثقتهم بقدرة الحزب على مواصلة طباعته بهذه السرعة.

حادث ظريف

كان الظلام قد أسدل ستاره والوقت يقترب من الثامنة ليلاً، عندما قررت العودة إلى المشتمل في الكرادة. كنت أحمل معي قصة لمكسيم غوركي وأنا في طريق المسبح القريب من نهر دجلة. كانت هناك سيارة (فاكس واكن) بيضاء في داخلها شخصان لم أميزهما في البداية، تسير على مهل. وقفت السيارة فجأة إلى جانبي وسألني أحدهم عن اسم لا أعرفه ربما كانا يتصوران أنني من سكان المنطقة. تبينت أن في داخلها معاون الأمن المدعو لطيف والشخص الثاني (كريم فرج)[٢٠٩] مشيت مسرعاً وبقيا هما في السيارة. وبعد أن ميزني المعاون تحرك بسيارته خلفي وطلب مني الوقوف لإلقاء القبض عليّ وفتح باب السيارة وخرج منها، فأطلقت ساقي للريح وأنا الرياضي لاعب الكرة، فسبقته بمسافة طويلة، لم يعد للسيارة لملاحقتي بها، بل ظلّ واقفاً في الشارع وأخذ يصرخ بأعلى صوته :" أمسكوه أمسكوه !"وصادف وجود شابين في الشارع،

فاتجها نحوي للإمساك بي. فصاح المعاون لطيف إنه شيوعي، شيوعي أمسكوه، فلما سمع الشابان كلمة شيوعي، تنحيا جانباً فاسحين لي الطريق دون أن يتعرضا لي. واصلت الركض حتى الشارع العام للكرادة خارج في (عرصات الهندية). رأيت باباً مواربا في الشارع لبيت تتقدمه حديقة واسعة، فدخلت مسرعاً واضطجعت أول الأمرفي الساقية الموحلة المليئة بالمياه، المظللة بالأشجار والنباتات المتسلقة، واختبأت بعدها عند جدار الحديقة. كان السكون يعم البيت والشارع. ربما كان معاون الأمن، يفكر أنه سيكافأ على إلقاء القبض علي ولكن الطريدة أفلتت من يده، ولا أدري ماذا حصل للشابين اللذين رفضا الامساك بي، ربما اعتقلهما أو أهانهما. مرت بضع دقائق ولم تظهر أية حركة في البيت.. السكون يشمل الشارع والبيت. وفجأة سمعت صوت امرأة تنادي أطفالها وزوجها للإسراع بالخروج لأنهم تأخروا عن الموعد. كانت لهجتها تدل على أنها ليست عراقية رغم أنها تتكلم العربية (بلهجة مكسرة).. ربما كانوا مدعوين لحفلة عشاء فاخرة أو حفلة راقصة في أحد النوادي، وأنا جائع ونائم في ساحة الحديقة المبتلة بالمياه تحت النباتات المتسلقة التي شكلت ستاراً لحمايتي وتطاردني الشرطة. لا أعرف ماذا سيحل بي. خرج الزوج مع طفلين وركب الجميع السيارة ثم أقفلوا باب الحديقة خلفهم.

لم تمر فترة طويلة، بعد خروج العائلة حتى سمعت أصواتاً لم أفهمها جيداً وضجيج سيارات وصفارات قرب البيت في الشارع العام والشارع الفرعي الملاصق للبيت الذي كنت فيه. ولكن الظلام والعتمة تسودان البيت الذي خرج أصحابه. وكان من الصعب معرفة البيت الذي دخلته أو الطريق الذي سلكته ومرت ساعة من الزمن. ولازال الشارع يعج بضجيج السيارات.

أصبحت الساعة الحادية عشرة عندما هدأ الشارع وهدأت الحركة فيه. ولم أسمع سوى صفارات الحراس الليليين. كنت أرتدي بنطالاً وقميص أبيض. وبحوزتي كتاب مكسيم غوركي إذ عز علي تركه.

في الساعة الواحدة ليلاً سمعت باب الحديقة يفتح وصوت محرك السيارة يهدر، ليدخل أصحاب البيت الفيلا بسيارتهم وهم بمزاج رائق. تحدثوا قليلاً ثم دخلوا وأخلدوا للنوم. من المؤكد أنهم الآن على فراش وثير ومستمتعين بالدفء، وأنا في الساقية حيث

البعوض والرطوبة، يلسعني برد الليل ويعصر معدتي الجوع والعطش. عاد الهدوء مرة ثانية.

الحراس الليليون يتصايحون ويصفرون. أصبحت الساعة الرابعة صباحاً عندما سمعت صوت السيارات التي تنقل العمال إلى أعمالهم مع نجمة الصبح. وبدأت الحركة تدب في الشارع رويداً رويداً وكف الحراس عن صياحهم وهدأت صفاراتهم. لازالت بعض النجوم تتلألأ في السماء الصافية سماء بغداد الجميلة، وبدأت الطيور تطير وتغرد وتصدح بأصواتها مبشرة ببزوغ فجر جديد بعد سبات الليل. كانت الشمس خجولة وهي ترسل خيوط أشعتها.

تسلقت جدار الحديقة مددت رأسي. كان الشارع خاليا تماما تقريباً. قفزت إلى الشارع ونظفت ملابسي من بعض الأوساخ العالقة بها، عبرت الشارع العام والكتاب بيدي، لأدخل في أزقة الكرادة. كان بعض العمال أفراداً يمرون ويحملون بيدهم أكياس الطعام، وقدرت حينها لماذا أطلق الحزب الشيوعي البريطاني على صحيفته اسم (Morning Star) أي نجمة الصباح.

بعد أن تأكدت من عدم وجود ما يثير الشكوك وفراغ الأزقة من المراقبة اتجهت صوب المشتمل وكانت أم (ب) تستيقظ منذ الصباح الباكر لتهيئ الفطور لعائلتها. وعندما سمعت صوت الباب فتحت لي. استغربت لما شاهدت ملابسي الملطخة بالطين. لم أخبرها بما جرى. وصعدت لغرفتي لأخلد لنوم عميق بعد أن تخلصت من هذه المطاردة الليلية كما يحدث في الأفلام البوليسية. ولم أخبر أحدا بها.

كان يزورني عمر علي الشيخ (أبو فاروق) في المشتمل. و يأتي لاستلام ما أطبع، بعد أن سافر (ك.ر). في إحدى المرات جاء ظهراً، بسيارة (فوكس واكن) لأخذ كراس أنجز طبعه. الكراس معبأ بصناديق كارتون وعلينا نقله إلى السيارة وصاحبنا لديه موعد محدد لإيصال المطبوع.

كانت إحدى فتيات العائلة الساكنة في البيت المجاور تقف أمام باب الحديقة، وهي منشغلة بمغازلة أحد الشبان من نفس عمرها. كان علينا انتظارها لحين دخولها للبيت لكي نخرج الصناديق. إنتظرنا نصف ساعة، ولكنها مستمرة بإشاراتها وغزلها مع الشاب الوسيم الذي كان يغازلها. وكان أبو فاروق على عجل. فقلت لـ (ب) أخرج

وقف في الباب وحاول أن تغازل هذه الشابة وأشر واغمز لها فمن المؤكد أنها ستنزعج من تصرفك وتدخل البيت. وفعلاً عندما فعل ذلك انسحبت غضبى. وبسرعة نقلنا الصناديق المعبأة بالكراريس الأدبية إلى السيارة.

قررنا الانتقال من المشتمل وإيجاد بيت آخر للعائلة، لأنه لم يعد يصلح.

بعد استيلاء عبد السلام عارف على السلطة في ١٨ تشرين ١٩٦٣ وحل الحرس القومي، الذي تجاوز الحدود بهمجيته، شكل حكومة غير متجانسة، تضم الناصريين ومدعي الناصرية مثل عارف عبد الرزاق قائد القوة الجوية والزعيم الركن محمد مجيد مدير التخطيط العسكري والمقدم الركن صبحي عبد الحميد وزير الخارجية الذين طالبوا بوحدة فورية مع مصر. إلا أن ناصرية عارف كانت متلازمة مع الإسلام، الأمر الذي أبعد الناصريين عن عارف فيما بعد، كما ورد في ص٣٤٤ من كتاب الأستاذ حنا بطاطو الثالث "الشيوعيون والبعثيون".

"كان الائتلاف العسكري البعثي - العارفي - الناصري ائتلاف مجموعة متنافسة وبالتالي فقد كان غير مستقر بالضرورة، وكان من السهل أن يضرب عارف المجموعة البعثية العاملة معه بالتعاون مع الناصريين. وهكذا أزيح المقدم عبد الستار عبد اللطيف من الخارجية في ديسمبر ١٩٦٣، كما أزيح حردان التكريتي عن قيادة سلاح الطيران وفي كانون الثاني ألغي منصب نائب الرئيس ومنح أحمد حسن البكر مرتبة سفير في وزارة الخارجية.

وجاءت بعض الإجراءات التي اتخذتها حكومة عارف بالتقارب مع إجراءات عبد الناصر وحولت مقاليد سياسة العراق بصبر نافذ باتجاه القاهرة في كل الميادين. وتمت الحركة الأولى المهمة في هذا الاتجاه يوم ٢٦ أيار ١٩٦٤ بعد اتفاق حكومتي العراق والجمهورية العربية المتحدة على تشكيل مجلس رئاسي مشترك للتخطيط والتنسيق لعمل مشترك بين الطرفين في المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وتنفيذ كل الخطوات الضرورية المؤدية إلى قيام اتحاد دستوري بين البلدين. ونص الاتفاق كذلك على توحيد الحزب السياسي المصري الوحيد (الاتحاد الاشتراكي العربي) بتنظيم تديره الدولة الذي سمي (الاتحاد الاشتراكي العربي - الإقليم العراقي) يوم ١٤ تموز وضم، إضافة للحركيين، تجمعات قومية مختلفة قليلة الأهمية وبعض

الاستقلاليين والبعثيين من الذين تحولوا إلى ناصريين. وفي اليوم نفسه، وفي ضربه تهدف إلى أن يصبح الاقتصاد العراقي منسجماً مع الاقتصاد المصري، أممت حكومة بغداد كل المصارف وشركات التأمين واثنتين وثلاثين مؤسسة صناعية وتجارية كبيرة وأنشأت الهيئة الاقتصادية للمصارف المستقلة والتابعة للدولة لإدارة المصالح المؤممة"[٢١٠]."

أوقعت هذه الإجراءات غير المدروسة والاعتباطية الحزب في خط يميني انحرف عن السياسة الصحيحة فكان خط آب اليمني. وتخبط القياديون من حزبنا في سياسة يمينية ويسارية متطرفة.

جاءني أبو فاروق ومعه بيان أو نشرة داخلية. وطلب مني قراءته بسرعة وإعطاء رأيي به. لم أستطع دراسته بشكل جيد، لأن أفكاري كانت مركزة على المطبعة وصيانتها وعملية النقل... الخ وجاء في المساء أو في اليوم الثاني وأخذ المطبوع. وعلى ما أتذكر كان تأييداً لإجراءات عبد السلام عارف بالتأميم.

وجدنا داراً في بغداد الجديدة،أوسع وأحسن من حيث عدد غرف البيت والمرافق والإيجار وانتقلنا إليها. وضعنا المطبعة والحروف في صناديق، وأوصيت الرفيق الذي معي وعائلته بالحذر واليقظة، وذهبت أنا إلى بيت بغداد الجديدة.

ومرت القضية بسلام. إلا أن (ج) وعائلته وطدوا علاقتهم مع الجيران ودعوهم إلى البيت مساءا لشرب الشاي ولعب الورق. وعندما علمت بذلك منهم انتقدتهم على عملهم غير الحذر.

تم نصب المطبعة وإعادة ترتيب الحروف وكانت عملية مرهقة.

وفي أحد الأيام دق جرس الباب ونحن في غرفة العمل. جاء موظفان في مصلحة الكهرباء لقراءة عداد الوحدات الكهربائية وكان داخل البيت قرب غرفة العمل. ففتحت زوجة (ج) الباب وأدخلتهما دون أن نأخذ احتياطنا. كانت امرأة بسيطة لا تصلح لمثل هذا العمل ولكننا كنا مضطرين لبقائهم معنا.

عندما كنت في ثانوية العشار في البصرة كان معنا طالب اسمه (ج) يسكن في منطقة اسمها الكزارة، في نفس الصف معي. ومنذ اختفائي واعتقالي لم أره ولم أسمع عنه شيئا، وإذا به منتصب أمامي في البيت. كان هو أحد هذين الموظفين. رغم أنه يعرفني جيداً، فلم ينبس بكلمة وقد اندهش عندما رآني [٢١١].

قررنا الانتقال من هذا البيت. ووجدنا بيتاً قرب شارع الصناعة في بغداد.

وتبدأ عملية النقل الشاقة، فتح وتفكيك الماكنة ووضعها في صناديق وتنظيم الحروف وجمعها... إلخ. تمت العملية بسلام.

اقترحت على الرفاق إيجاد عائلة أخرى، لأن العائلة التي تسكن معي لا تصلح لعملنا. وكان الجواب لا بديل عندنا الآن.

نصبت المطبعة وأعدت تنظيم الحروف مجدداً وبدلا من عمر علي الشيخ جاء صالح الرازقي. وكان من الخطأ تكليف صالح بهذه المهمة.

عرف صالح بيت المطبعة وكان هذا لا ضرورة له وأخذ يتردد عليه كما عرف البيت الآخر وكان يتردد عليه أيضاً.

واجهت في البداية مشكلة مكان وضع المطبعة ؛ أأضعها في الغرفة القريبة من الحديقة والملاصقة لبيت الجيران أم في الحمام وفيه منزع للملابس؟ وكان الحمام كبيراً نسبياً وبعيداً عن الجيران.

نصبت الماكنة في الغرفة المجاورة للحديقة الملاصقة للجيران. وكلفت المرأة التي تسكن معنا أن تذهب إلى بيت الجيران بأي حجة وتحاول الإنصات لصوت المطبعة. وفعلاً ذهبت وعادت ولم أفهم منها شيئاً واضحاً إن كان الصوت مسموعاً أم لا؟ فقدرت أن الصوت كان مسموعاً، لأن الغرفة كانت كبيرة وهي شبه خالية من الأثاث. فاضطررت لنقلها إلى المنزع في الحمام.

لقد كانت هناك معاناة وتعقيدات كثيرة ومشاكل مختلفة، إلا أننا أنجزنا طباعة نشرات وكراريس عدة إضافة إلى الجريدة.[٢١٢]

كانت زوجة (ج) امرأة بسيطة لا تعي خطورة المهمة التي تقوم بها. ورغم تحذيراتي لها إلا أنها لم تأخذ القضية بشكل جاد، خاصة علاقاتها مع الجيران. تركت في إحدى المرات باب البيت الرئيس مفتوحا، وجلست في الحديقة تغسل الملابس. ومن دون سابق انذار دخلت الجارة عليها. كما كانت تفتح أبواب الغرف بدافع حب الاستطلاع. وبينما أنا وزوجها في الحمام، حيث المطبعة، وقد أطفأنا الضوء عندما سمعناها تتكلم مع مالكة البيت، فتحت أمرأة الجيران باب الحمام علينا. فدفعتُ باب الحمام بوجهها. ولما سألناها كيف سمحت لها بالدخول قالت إنها جاءت تطلب بعض

الكرفس، فاندهشت من جوابها. ولما جاء صالح الرازقي شرحت له الأمر، فلم يفعل شيئاً إنما قال: " ليس لدينا عائلة أخرى ! ".

استمر العمل بجهد ومثابرة لإنجاز المهمة، رغم أن المشاكل والخلافات كانت تسود الحزب، وخاصة في قيادته بعد أن برز الاتجاه اليميني. كان الحزب يترنح بين اتجاهين يميني ويساري متطرف. فترة ١٩٦٤ وما تبعها تحتاج لدراسة خاصة معمقة للاستفادة من تجاربها.

لقد كانت الخسائر الباهظة التي تكبدها الحزب والشعب بعد ٨ شباط الأسود فادحة جداً.

مشكلة النوّام

رغم التنبيه المستمر، ظل صالح على عادته في حبه للنوم والتأخر في المواعيد. وكنت على موعد معه لاستلام مواد للطبع. تأخر عن الموعد كثيراً. وانزعج عندما قلت له " إذا تتأخر عن المواعيد فإننا سوف نترك البيت!" ولما سأل عن العلاقة بين الإثنين، قلت :" العمل هنا حساس ودقيق ويجب احترام المواعيد. لسنا في الريف، بل في العاصمة بغداد وإذا تعودنا على عدم احترام المواعيد والتأخر، فإن يقظتنا وحذرنا يضعفان تدريجياً.. في الريف قد يتأخر المرء ساعة أو ساعتين.. إننا نعمل وسط غابة ملأى بالوحوش.. أمن واستخبارات وشرطة بأنواعها ومرتزقة ومنهارين ووكلاء. ومطاردات... إلخ، وقد يؤدي أي تأخر عفوي أو عارض إلى الاعتقال.. وسبق أن أدت حالات التأخر في المواعيد، وخصوصا في الشارع، إلى اعتقال بعض الرفاق. فالحذر مطلوب رغم الثقة العالية. انزعج مما قلت (وقد صدق حدسي)، لأنه اعترف بعد اعتقاله على بيت المطبعة.

ومرت الأيام وعجلة المطبعة السرية للحزب الشيوعي العراقي تدور وتصدر الجريدة السرية والبيانات والنشرات ولم يغب عن ذاكرتي الرفاق سلام عادل وجمال الحيدري والعبلي ولطيف الحاج ورضية الصفار وآمنة وغيرهم ممن عملوا في المطبعة السرية وكانوا مثال الحزم والالتزام.

الفصل الخامس عشر

المطاردة وإلقاء القبض على الجميع

كان بيت (ب) أشبه بمخزن للورق والحروف وكنت أذهب إليه عندما لا يوجد لدينا عمل في بيت المطبعة وأبقى لمدة يومين أو أكثر.

وصلنا كراس حول التطور (اللارأسمالي) لكاتبه الرفيق (بنماريوف) وانصرفنا أنا و (ج) لطباعته. طلبت سيارة من الرفاق لنقل الورق. اتجهت بها إلى بيت (ب) لجلب الورق. يقع البيت في زقاق طويل وضيق، يصعب الدوران فيه أو سير سيارتين متقابلتين. وصلت البيت وفتحت الباب الخارجي وأدخلت السيارة. رأيت أن الستائر بوضع غير طبيعي، مسدلة بشكل تام.. صمت على غير العادة.. العائلة كبيرة والأطفال يصخبون أثناء اللعب.. صياح الأم المرحومة الطيبة (حنًا) [٢١٣].. أطفأت محرك السيارة. وأنا في حيرة شديدة من هذا الوضع الجديد. انفرجت إحدى الستائر ليطل منها وجه رجل. تمعنته، فعرفت أنه شرطي أمن ممن كانوا في التحقيقات الجنائية في العهد الملكي واسمه (فخري). أطلقت ساقي للريح. كان من المستحيل الصعود إلى السيارة وتشغيلها والخروج بها من باب الحديقة، لقرب المسافة بيننا. ركضت بكل طاقتي وشرطة الأمن يطلقون الرصاص ويطلبون مني التوقف. حاولت تسلق جدار المدرسة والاختفاء داخلها ولكني كنت منهكاً والجدار عاليا فسقطت على الأرض، حاولت مرة أخرى ولم أستطع، فسقطت أرضاً لأرى إثنين من شرطة الأمن شاهرين مسدساتهم صوب رأسي مهددين بعدم التحرك. وسرعان ما انقضوا عليّ ووضعوا الأصفاد بيدي واقتادوني إلى مديرية الأمن التي كانت تقع مقابل القصر الأبيض.

كان عبد السلام عارف قد عين (رشيد محسن)، الذي كان ضابطاً في الجيش وذا ميول ناصرية، مديراً للأمن العام، كما أعاد للخدمة الأكثرية الساحقة من معاوني

وشرطة الأمن في العهد الملكي والذين كانوا في التحقيقات الجنائية، لخبرتهم في مكافحة الأحزاب والحركات الوطنية وبالأخص حزبنا الشيوعي، ومنهم (رفيق توفيق) الذي كان مدير أمن بغداد في العهد الملكي وغيره. وبعد وصولي إلى مديرية الأمن العامة أدخلوني مباشرة غرفة مدير أمن بغداد لأرى المدير نفسه (رفيق توفيق) وأكثر من خمسة عشر معاوناً ومفوضاً من تلامذة (بهجت العطية) جالسين في الغرفة بانتظاري. ربما أصبح جميعهم اليوم ناصريين! أو قوميين أقحاحاً، من دعاة الوحدة والحرية والاشتراكية أو اشتراكية عارف الإسلامية.. كان عارف يتستر وراء الاشتراكية الإسلامية!!.

أخذ هؤلاء ينظرون إليّ وهم صامتون سألني (رفيق توفيق) هل: "أنت شيوعي؟" قلت:" نعم أنا شيوعي."

قال :"كيف تشهد علينا وضدي أنا في محكمة المهداوي؟" [٢١٤]

قلت:" لم أشهد زوراً بل تكلمت الحقيقة. وقلت كل شيء في وقته." قال:" كيف؟"

قلت:" ألم يجر تعذيبي في غرفتك وأمام عينيك عام ١٩٥٧. ألم تشتم عبد الناصر؟" ضحك ونادى على الشرطي وقال أخرجوه.

أصبحت الحياة بالنسبة لي لا تساوي شيئا، بعد الأحداث التي توالت على شعبنا وحزبنا وكل الحركة الوطنية. فقد استشهد أقرب الناس إلي، ويرزح في السجون الآلاف وهم يقاسون العذاب، ولما يتوقف نزيف الدم، لذا قررت أن أتحدى الموت إن اقتضى الأمر، وجميع صنوف التعذيب القاسية التي سأتعرض لها على يد هؤلاء العملاء..

علمتنا الأحداث الكبيرة التي مرت بالبلاد دروساً مريرة، كما علمت هؤلاء المجرمين دروساً جديدة في أساليب انتزاع الاعترافات وعمليات التعذيب ومطاردة الوطنيين وخاصة الشيوعيون أعداؤهم التقليديون.

إن أذناب الاستعمار التقليدي والمخابرات المركزية الأمريكية والصهيونية والإنكليزية يهمهم أن من يكون في السلطة، يجب أن يحارب الحركات الوطنية والشيوعيين خاصة، الذين يهددون مصالحهم سواء العربية أو الغربية، وكبح جماح الشعب العراقي ومحاولة إركاعه كما يفعل حزب البعث الآن في العراق.

أدخلت في غرفة صغيرة وكان المعاون لطيف الذي طاردني قبل فترة وراء الطاولة. رمقني بنظرة عدوانية. وهو كما ذكرت من الذين كانوا يحققون معنا عام ١٩٥٧ وكان أشدهم شراسة ثم رفع رأسه وقال: "ألم يكن من الأفضل لك أن تأتي معي عندما رأيتك في منطقة المسبح؟"

دخل إثنان من العملاء السريين فأدخلاني في غرفة مظلمة صغيرة وشدا يدي من الخلف (بالكلبجات) وعلقاني بسلسلة طويلة في مسمار حديدي كان في الحائط، وأطراف أصابع قدمي على الأرض، ثم انهالوا عليّ بالضرب؛ وهي نفس الطريقة التي استخدموها عام ١٩٥٧ في التحقيقات الجنائية.

كان مدير الأمن الوحدوي الاشتراكي الناصري (رشيد محسن)[٢١٥] وكانوا رجال أمن العهد المباد هؤلاء يمارسون التعذيب في أيامه.

وبعد ساعات من التعليق أخرجت من هذه الغرفة لأودع في غرفة التوقيف الانفرادي. في المساء استذكرت الأحداث وحاولت أن أعرف سر كشف بيت (ب) ومن الذي اعترف عليه وكيف تم التوصل إليه. علمت فيما بعد أن (ب) هو الذي أوصل الأمن إلى بيته بعد اعتقاله وبعد تعرضه للضرب. ولكن من الذي وشى به وكيف ألقي القبض عليه؟ الرواية التي سمعتها فيما بعد لم أصدقها. كانوا مجموعة من الشباب يلعبون الورق ومن ضمنهم (ب) وبعد التحقيق معهم اعترف (ب) على بيته. وعندما جاء صالح الرازقي للبيت ألقي القبض عليه أيضاً. لم أستطع الوصول إلى الحقيقة لحد الآن.

في اليوم الثاني اقتادتني الشرطة لأخذ إفادتي من قبل المعاون لطيف.

ابتدأ قائلاً :" نحن الآن لسنا الأمن السابق. نحن الآن ندرس حتى الماركسية وأصولها، وندرس الأمميات الثلاث أيضاً ! ألا تحدثني عنها وماذا يقصد بها. لدينا امتحان بهذه المادة !" ضحكت مع نفسي مفكراً من يصدق أن هذا الشرطي العميل، الذي مهنته التعذيب وانتزاع الاعترافات والبراءات من المناضلين، يتحدث الآن عن الأمميات الثلاث. قلت له وماذا تفيدكم الأمميات الثلاث.

لقد دخلت الاستخبارات المصرية المتطورة ونقلت خبرتها الواسعة إلى الأمن والمخابرات العراقية. فعبد السلام عارف أراد أن يستفيد من تلك الخبرة.

جرى تشكيل مكاتب اختصاص ؛ مكتب مختص لمحاربة الحزب الشيوعي، وآخر مختص بالبعثيين وثالث مختص بالأحزاب والحركات الكردية، وغيره مختص بالقضايا الاقتصادية، وآخر بالمخدرات والسرقات والتهريب... إلخ.

بقيت جالساً للإدلاء بإفادتي. نفيت كل ما وجه إلي من اتهامات. ومن الطبيعي أنهم أخذوا السيارة التي كانت بحوزتي معهم عند مطاردتي ولم أعرف لمن تعود هذه السيارة.

أخذوني إلى غرفة ثانية. رأيت شخصاً يضع نظارات طبية على عينيه، جالسا أمام أحد المحققين.

قال المحقق: " تعرف هذا الشخص ؟" قلت:" لا!" وكانت الحقيقة. قال :"كيف لا تعرفه وهو صاحب السيارة التي كانت معك؟ اسمه أحمد السنجري." قلت لا أعرفه ولم أره سابقاً، فضحك المحقق. وانبرى يشتم الشيوعية والحزب الشيوعي والأكراد... إلخ فانبريت للدفاع عن الحزب وسياسته ومواقفه دون تردد.

رأيت أحمد مبهوراً، ينظر لي بدهشة وأنا أدافع عن الحزب، ينظر لي بإعجاب وهو يثبت نظارته على عينيه.. غير مصدق ذلك.

أمر المحقق بإخراجي، لأزج في الغرفة الصغيرة المظلمة مرة أخرى، تلك التي كنت معلقاً فيها.

سبق وأن قلت أن (ب) أوصل لي كمية من الورق قرب سوق كراج الأمانة وقد ذكر ذلك باعترافاته عليّ للأمن.

وإن (ب) وعائلته لا يعرفون أنني أعمل في مطبعة الحزب السرية ولا يعرفون مكانها ولا يعرفون شيئاً عن تحركاتي.

كما يظهر جاء صالح إلى بيت (ب) وكان الأمن قد نصب كميناً داخل البيت فلما جاء صالح اعتقل، ولم أعرف كم من الوقت تعرض للاستنطاق أو للضرب، أو أنه أنهار مباشرة بعد اعتقاله.

مغالطة

بعد يومين أو ثلاثة، وبعد سلسلة من التحقيق والإفادات والاستنطاق، جاءت في المساء مفرزة من الشرطة السرية (الأمن) وأخذتني إلى المكان الذي استلمت فيه الورق

من (ب). سألوني ما إذا كان بيتنا وبيت المطبعة في ذلك المكان. نفيت ذلك بإصرار. وبعد تجوال طويل، مصحوب بالشتائم البذيئة،في الأزقة والشوارع، أعادوني إلى مديرية الأمن العامة.أخذوني بعد ساعتين إلى رشيد محسن مدير الأمن. وأثناء صعودنا اليه، نزل أحد المعاونين وبيده ورقة تشبه المخطط. وبعد أن تكلم مع أحدهم قال لا داعي لمقابلة مدير الأمن تعالوا معي. أخذوني معهم بالسيارة متجهين إلى بيت المطبعة الذي يسكنه جورج يعقوب وزوجته.وبعد وقوفنا أمام باب الدار، سألني أحدهم فيما إذا كان هناك سلاح في البيت، فقلت لا أدري.

كانت لحظات قاسية ومرة وصعبة.. أن ينهار كل شيء أمامي بساعات، بعد الجهد الذي بذلته والصعوبات التي تحملتها وبعد عمل مضنٍ تحملت أعباءه.. وبهذه السهولة!.

نزلوا مسرعين وطوقوا البيت وبقيت أنا وإثنين من الشرطة في السيارة. جاءوا بجورج وزوجه مقيدين. أبلغوهم أنني أنا الذي اعترفت عليهم وأرشدت الشرطة للبيت. والدليل هو وجودي في السيارة. كانت لعبة ذكية وقذرة من قبل الأمن إذ أنهم ضربوا عصفورين بحجر.

فمن الذي أوصلهم إلى بيت المطبعة ؟ أوقعوا جورج وزوجته بالفخ واعترفوا عليّ وقالوا هو المسؤول عن البيت والمطبعة.. نفيت ذلك وقلت أنا لا أعرفهم وليس لي أية علاقة بما يقولون.

صالح فقط الذي يعرف البيت، فهل هو الذي انهار فعلاً ؟

وبعد هذه الجولة المريرة وضعت في زنزانة انفرادية. وبدأت أشتم الأمن بأعلى صوتي ثم رحت أنشد أناشيد وطنية مثل: "السجن ليس لنا نحن الأباة.." إلخ وضربت باب الزنزانة الحديدي بقوة بقدمي.كنت أتمزق من الداخل. وبسبب ما أثرت من صخب، خيم سكون قاتل على الموقوفين والتوقيف.

جلبت لي الشرطة بطانيتين عسكريتين قديمتين لألتف بهما حتى الصباح.

الزنزانة عارية جرداء سوى من صفيحة التبول. الغرفة مساحتها مترين مربعين لها باب حديد فيه فتحة صغيرة.

لم يغمض لي جفن، أفكر بألذي جرى بسبب هذه الخيانة. كيف؟ ومن؟ اللعبة

القذرة التي لعبتها شرطة الأمن معي! ولابد أن جورج وزوجته سيعتقدان ويبثان أنني أنا سبب اعتقالهما! من أفشى سر بيت المطبعة ؟ أخذت هذه القضية تؤرقني. لابد أن الخبر سينشر من قبل الأمن في الخارج، وسيصدق الرفاق والحزب بذلك، وكذلك زوجتي، التي ترزح في سجن النساء هي وأخواتها وكل من يعرفني.

وحينما وصلت امرأة (ج) إلى سجن النساء بدأت ببث الإشاعات التي لقنها لها الأمن وقد تصدت لها السجينات. في حينها تذكرت الفيلم الكبير الذي عرض في صالات بغداد "الأوراق الحمراء"[٢١٦]. وقد فكرت كثيراً أن الأيام القادمة ستكشف الحقيقة، المهم الآن الصمود بوجه الزوبعة وقد علمتني الحياة والسجون والتجارب السابقة أن الصمود وحده سيبدد كل الأقاويل.

هذه ليست أول مرة أدخل فيها التوقيف بقضية كبيرة كهذه، والمرور بغرف التعذيب، مرت أمامي صور الرفاق الذين استشهدوا، منهم من صعد المشانق ومنهم من استشهد في الشوارع والطرقات وهو يوزع جريدة أو بيان الحزب ومنهم من استشهد في المظاهرات والإضرابات الكبيرة والكثير استشهد أمامي في السجون ومنهم من استشهد حاملاً بندقيته في جبال كردستان أو في الأهوار. إن دماء هؤلاء تستصرخ كل إنسان شريف بأخذ الثأر والانتقام لهم. والصمود وليس الاستسلام هو الذي سيرجع حقوقهم التي استشهدوا من أجلها في هذه المعارك الوطنية. مرت أمامي صور فاضل ونظمي الصفار. استشهاد فاضل في ٨ آذار ١٩٦٣ في قصر النهاية أمام أنظار أمه. والذين استشهدوا في قصر النهاية ودفنوا في مقابر جماعية. لابد للقتلة أن ينالوا العقاب، وليس الاستسلام لهم.

وكانت هذه الأفكار والتصورات تدفعني يمنة ويسرة وتزدحم برأسي حتى غلبني النعاس، لأستيقظ على صوت الشرطي وهو يفتح باب الزنزانة الانفرادي ليقودني إلى المغاسل. رأيت جورج وكان ينظر لي نظرات ذات معان كثيرة. تذكرت أخاه أدمون الذي استشهد بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ على يد الحرس القومي. استشهاد الرفيق (حميد الدجيلي)[٢١٧] الذي أطلق عليه الرصاص وأخذ ينزف دماً حتى استشهد في الأمن العامة ولم ينقل إلى المستشفى للتداوي.

بعد الفطور وهو عبارة عن صمونة صغيرة مع قطعة صغيرة من الجبن وكوب شاي،

اقتادني الشرطي إلى غرفة مسؤول شعبة الشيوعيين في الأمن العامة المدعو المعاون (محمد صالح). بادرني بعدد من التهم، نفيتها جميعاً، خاصة علاقتي بالمطبعة وبالعائلة التي ألقي عليها القبض في المطبعة أو غيرهم.

أرسل في طلب (ج)، الذي كنت أشفق عليه كثيراً. وقف أمام المحقق وقال عندما سأله عني :" نعم هو مسؤول المطبعة وكل شيء وهو وهو... إلخ."

نظرت إليه طويلاً. ضحك المحقق وقال لي ماذا تقول؟ نفيت ذلك. أُخرج من الغرفة بعد أن أصبح شاهداً ضدي في القضية.

رجعت إلى غرفة (محمد صالح). قال إنكم تتهمونا تهم باطلة لتشويه سمعتنا مثل ؛ أننا قتلنا رفقيكم (عمر علي الشيخ).

قلت :" إنه مفقود منذ زمن." قال :" تريد أن تراه !" قلت :" نعم، إن كان هذا ممكناً." بعد عدة دقائق دخل الرفيق عمر[٢١٨] ففوجئت بوجوده. وأمام المحققين تصافحت معه. ثم دخل (مالك سيف) وبيده عدة فايلات. وقال إنكم تتهموني بالخيانة والتجسس، أنا موظف في وزارة التربية والتعليم (مع العلم كما قلت إنه كان في مديرية الأمن العامة).

قلت له وبنوع من التحدي. أنني التقيت بك في العهد المباد في التحقيقات الجنائية. وبعد ثورة ١٤ تموز اشتغلت مع السافاك في إيران، عدت بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣وتعاونت مع البعث، والآن في سنة ١٩٦٤ موجود في الأمن العامة، فأي شخص أنت؟ أتهمه الرفيق عمر بتسليم رقبة الرفيق (فهد) للمشنقة.

وكان المعاون محمد صالح ينظر إلينا بانتباه. غضب (مالك سيف) وتهجم عليّ. بعدها أخذوا (عمر) للموقف. وانتقاماً للكلام الذي وجهته إلى مالك، أمر بضربي ووضعت في الغرفة المظلمة.

ألقي القبض بعد بضعة أيام على الرفيق (لطفي حاتم)، وكان شاباً يافعاً تعرض للضرب عدة مرات. وفي إحدى جولات التحقيق مع لطفي، وكان موقفه صعباً، قال له أحد المحققين: "إن قائدكم صالح الرازقي اعترف على كل شيء وأنت لا تعترف؟!" وشاهد لطفي بعد فترة صالح الرازقي وقد وضع في غرفة خاصة و أحيط بالعناية من قبل الأمن.

وعندما أعيد لطفي إلى التوقيف أرسل يخبرنا بذلك. في اليوم الثاني خصصت غرفة من غرف التوقيف لصالح. اتضح أنه هو من اعترف على حميد الدجيلي.

انفرجت أسارير الرفاق في الموقف وتيقنوا من سلامة موقفي وصلابتي واحتفاظي بعهودي ومواقفي الحزبية السليمة. وثبت لهم أنني لم استسلم ولم أنْهَرْ وتغيرت نظرة (ج) لي بعد أن تأكد من اعترافات صالح وخيانته.

كانت مديرية الأمن تغص بالموقوفين في (العهد الاشتراكي الوحدوي) وخاصة الشيوعيين ومن ثم البعثيين والمستقلين ومجموعة (اللجنة الثورية) وعلى رأسهم المناضل الوطني المعروف (سليم الفخري) ومعه مجموعة من الضباط ومجموعة كبيرة من الجنود والمراتب حيث بلغ عددهم أكثر من (٣٦٠) عنصراً [٢١٩] في بغداد وحدها.

كانت في الأمن العامة ثلاثة مواقف تتألف من عدة زنزانات.

(١) الموقف الكبير وفيه عدد من الموقوفين.

(٢) في الجهة المقابلة زنزانة سليم الفخري ومجموعته وعلى يمينه المغاسل والحمامات.

(٣) خلف زنزانة رقم (٢) ثلاث زنزانات. فيها مجاميع من رفاقنا. ومنهم (عمر علي الشيخ. جاسم الحلوائي، توفيق أحمد، لطفي حاتم، سامي، بولص) أما أنا فكنت نزيل الزنزانة الأخيرة.

(٤) خلف زنزانة رقم واحد هناك زنزانتان. إحداها خصصت لصالح الرازقي.

تفتح أبواب قسم من الزنزانات، وليس كلها مرة واحدة، ثلاث مرات في اليوم. التبول في صفيحة داخل الزنزانة، الطعام يدفع من تحت الباب أو من الفتحة الدائرية في الباب الحديدي للزنزانة، المقابلات (المواجهة) ممنوعة. الصحف ممنوعة والراديوات كذلك. الكلام مع الآخرين ممنوع. فقط التعذيب والاستنطاق والاعترافات غير ممنوعة. تنام الشرطة داخل المجمع هذا بعد غلق الزنزانات، و كل هذا في عهد المؤمن الوحدوي (عبد السلام عارف) ومدير الأمن الناصري (رشيد محسن).

كنت وحدي في تلك الزنزانة الموحشة. وكلما ألقي القبض على رفيق، يجري استدعائي للتحقيق، أو التعرف عليه. مرّة، استدعيت من قبل معاون الأمن لطيف. كانت هناك امرأة شابة. وعندما رأتني سحبت سيكارة من حقيبتها اليدوية ودخنت

بشكل لا إرادي!! سألني المحقق فيما إذا كنت أعرف تلك المرأة، فنفيت ذلك. ومن ثم استدعاني (رفيق توفيق) قال:" أنت تعرفها، فهي تعرفك." قلت له إنني لا أعرفها ولا تعرفني. فقال الشرطي سيدي عندما رأته أشعلت سيكارة بعصبية ودخنت.

الحقيقة لم أكن أعرف تلك المرأة وعندما تكلمت شعرت من لهجتها أنها غير عراقية. ولا أدري ماذا حل بها بعد ذلك.

مرّة أخرى استدعاني مدير الأمن العام رشيد محسن، وأخذ يناقش معي المرحلة وبرنامج الحزب الشيوعي، ثم فتح أدراج مكتبه ليخرج منها مجلة سوفييتية اسمها (المرأة السوفييتية) وكانت هذه المجلة تصل العراق، ثم أخذ يقلبها. ثم عرض علي صورة كانت منشورة فيها. فيها أناس محتشدون في ساحة المدينة وبينهم يقف عبد الكريم قاسم، في (كازخستان السوفييتية)، وقال إنكم تنشرون موضوعات كاذبة.

قلت له إن هذه الصورة مدسوسة ونحن لا علاقة لنا بها وبالمجلة. وأنتم أعلم الناس باغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم على أثر انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣. فضحك وأخفى المجلة.

رغم الممنوعات كنا نتصل ببعضنا خاصة عندما تفتح أبواب الزنزانات للاغتسال.

شنت مديرية الأمن العامة حملة واسعة ضد البعثيين وتم اعتقال مجموعة كبيرة منهم.. يسارهم ويمينهم. وكل من يعتقل منهم يعترف على الآخرين. الاعترافات شملت الجميع. اعترفوا على تنظيماتهم، وعلى مخابئ الأسلحة والبيوت التي يعرفونها وكان يقود الحملة تلك المعاون (عز الدين لافي). وقد اعترف صدام حسين ومدحت إبراهيم جمعة وغيرهما. وقد اعتقلت المجموعة التي كانت في ٨ شباط تعذب الرفاق، سواء في قصر النهاية أو النوادي الرياضية، بينهم الذين عذبوا وقتلوا جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي والصحفي أبو سعيد. وقد أشادوا ببطولاتهم عند استشهادهم في التعذيب. كان البعثيون منشقين على بعضهم. قسم يدعي اليسار ويستنكر جرائم ١٩٦٣، رغم أنهم كانوا في الحرس القومي ذلك الوقت. والقسم الآخر يدافع عن ٨ شباط وينعت جماعتهم باليمنيين. ومن جملة من شملهم الاعتقال عبد الكريم الشيخلي ومرتضى الحديثي وحسن العامري.. إلخ.

كانوا منهارين تماماً، تمزقهم الخلافات. الروابط بينهم شبه مقطوعة. معترفين،

ممزقين، أحدهم يضرب رأسه في الحائط ندماً وخوفاً. كان بعضهم لا يريد النهوض من فراشه ليل نهار، لا يأكل، يبكي بحرقة، ينادي على زوجته، وآخرصامت، لا يتكلم مع أحد؛ كان قائمقام الأعظمية في انقلاب ٨ شباط.عندما كنت أشاهدهم وهم بهذه الحالة الجبانة المزرية استغرب كثيراً، فكيف ادعوا الثورية، ومن جاء بهم إلى السلطة؟ هل من المعقول أن هؤلاء قاموا بالانقلاب ضد قاسم والجمهورية؟! كانوا أداة لقتل الشيوعيين والقضاء على ثورة ١٤ تموز، رأيتهم كيف انهاروا في ١٨ تشرين وسلموا أسلحتهم واستسلموا بعد الانقلاب الذي قام به عبد السلام عارف.

تذكرت رفاقنا الأبطال وهم يتحدون الموت! تذكرت أبطال ٣ تموز حسن سريع وجماعته وموقفهم في المحكمة!

أعلنا مرات عديدة رفضنا للطعام لرداءته، طالبنا بدخول الصحف والراديو والخروج للتمشي في الشمس وغسل أجسامنا وتنظيف ملابسنا.أعلنا إضراباً عن الطعام، وبعد مداولات جرى تعهد من قبل الأمن بتحسين الطعام والخروج يومياً لمدة ساعة للتمشي. ورفض طلبنا بالصحف والراديو.

جلب المقاول لنا كبابا وخبزا وشايا وزيادة بالكمية. في الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمعنا أحد الموقوفين يضرب بقوة على باب الزنزانة منادياً الحرس لفتحها. ثم اشتد الضرب وأخذ الموقوفون بالضرب على باب الزنزانة الثانية ثم الثالثة ثم القسم كله والزنزانات كلها تصرخ بفتح الأبواب. كان الحارس في تلك الليلة يسمى (صيوان) وهو من أهل الجنوب، برتبة نائب عريف. ونهض مذعوراً على صوت الصراخ. لبس ملابسه بسرعة. رأى الجميع يمسكون بطونهم وهم يتلوون من الألم. خرج مسرعاً ليبلغ المعاون والخفر ويسمح له بفتح الأبواب، أمر المعاون بفتح الأبواب بالتناوب وأن لا تفتح كلها مرة واحدة وكان صيوان قد أكل من هذا الكباب المسوم فأصابه الإسهال أيضاً، فدخل أول واحد إلى الحمامات. أما الذين لم يصلهم الدور ولم تفتح لهم الأبواب فاستخدموا صفيحة التبول الموجودة في الغرف وأكياس النايلون. كان وضعاً مأساوياً مؤلماً..! لا يمكن نسيان تلك الليلة السوداء.

جلبوا في إحدى المرات زوجتي وأم فاضل من سجن النساء للأمن العامة لاستكمال التحقيق معهما. وقد طلبت زوجتي مقابلتي، فسمح لها.شرحت لها موقفي

عند إلقاء القبض عليّ. وعند خروجهما سألتْ أحد المعاونين عن من اعترف على المطبعة، فأخبرها بأنه صالح الرزاقي.

ومرت أسابيع وشهور وامتلأت الزنزانات بالموقوفين. وطالت مدة بقائنا في الأمن العامة. في عام ١٩٦٦ أصبحنا مع البعثيين في زنزانات مشتركة!! وكان هدف الأمن أن يضعوا البعثيين جلادي ٨ شباط معنا كي يوقعوا بيننا، ربما نتعارك يمزق أحدنا الآخر، ولكننا حاولنا الابتعاد عن هذا المنزلق الخطير[٢٢٠].

بعد ظهر أحد الأيام، أدخل الجميع إلى زنزاناتهم وأقفلت الأبواب وساد جو مربك وغير عادي. كان حينها، عبد السلام عارف مسافراً إلى الجزائر ومعه رئيس الوزراء عارف عبد الرزاق[٢٢١]، الذي كان سابقاً آمر القوة الجوية خريج لندن، وسبق له القيام بمحاولة انقلابية فاشلة وهرب بعدها إلى مصر.

جاء أمر الحرس يوم ١٣ أو ١٤ نيسان (أبريل) ١٩٦٦ بعد أن ضبط الأمور معنا وقال بأنهم في حالة الإنذار. وكان سبب ذلك هو احتراق الطائرة بعبد السلام عارف في البصرة[٢٢٢]. كان الشخص المسموح له بالزيارات هو المناضل الوطني سليم الفخري. إذ كانت أخته تزوره بين حين وآخر.

الفصل السادس عشر

قصص محاولات الهروب

محاولة الهروب من معتقل خلف السدة

بعد مرور شهور طويلة في الأمن العامة، جرى نقل الشيوعيين جميعاً إلى معتقل خلف السدة. يتكون المعتقل من عدة قاعات كبيرة مخصصة لنوم الشرطة، إلا أن كثرة الموقوفين من ضحايا الحرس القومي وعبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف دفع السلطات إلى جمع الكثير منهم في معتقل خلف السدة.

حشرنا في إحدى القاعات المليئة بالموقوفين، المحسوب أكثرهم على ملاك الحزب. وكانوا قد تعرضوا لشتى أنواع التعذيب والإهانات خلال فترة اعتقالهم. فقد البعض منهم أعصابه مثل (عبد الناصر الفيلي) نتيجة الاعتقال الطويل والتعذيب.

وضعنا أنا وأبو فاروق وأبو شروق وحسين علوان في قاعة واحدة والبقية في قاعات أخرى. أما صالح الرازقي فقد أطلق سراحه. أخذنا نتصرف بحذر لكثرة المنهارين المدسوسين من قبل الشرطة المتواجدين معنا. وبعد أن استقر وضعنا بدأنا نفكر بعملية الهرب من المعتقل وأطلق كل واحد منا لأفكاره العنان برسم الخطط حسب تجاربه وعرضها على الآخرين.

راقبت الوضع في المعتقل، حيث يبدأ يوم الشرطة بالتدريبات الصباحية التي يجريها عدد كبير منهم، ويدخلون بعد التدريبات إلى القاعات المخصصة لهم للراحة. في المساء يكون المعسكر شبه فارغ، ويكاد أن يفرغ يومي الخميس والجمعة باستثناء الخفراء من الشرطة. المعسكر محاط بسياج من الأسلاك الشائكة له بوابة رئيسة وإدارة وحراسات منتظمة وهو مركز تدريب للشرطة يقع خلف السدة وهي منطقة معروفة في بغداد.

الزيارات غير ممنوعة. الكثير من عوائل الموقوفين يزورونهم خاصة يوم الجمعة حيث العطلة الأسبوعية.

التزمنا بالحذر في تحركاتنا ولقاءاتنا مع الموقوفين ومع بعضنا البعض أيضاً. وبعد دراسة الحالة تبلورت لدينا فكرة الحصول على ملابس شرطة والخروج بها متنكرين، خاصة يوم الجمعة،حيث يفرغ المعسكر وتسهل عملية الدخول والخروج، وهي فكرة لم تطرأ على ذهن أحد.

زارنا الرفيق خضير عباس الذي كان سجيناً معنا في سجن نقرة السلمان عام ١٩٥٤. فوجئنا بزيارته ونحن لم نلتق به منذ سنوات طويلة.. أبدى استعداده لمساعدتنا.طرحنا عليه الفكرة إن كانت لديه إمكانية أن يحضر لنا أربعة طواقم من ملابس شرطة في الزيارة القادمة فأبدى استعداده وحماسته للفكرة وذهب.

الحياة روتينية في المعتقل، ولطول الفترة، وبسبب الضغط النفسي والحياة القاسية، وفقدان الأمل، تنتاب البعض ردود فعل مختلفة إزاء الوضع في المعتقل، وتداعيات انتكاسة الحركة الوطنية وما أصابها من ضرر، وتردي، وسقوط حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم. يلقي بعضهم اللوم على الحزب الشيوعي لعدم استلامه السلطة رغم أنه كان يمتلك القوة الكافية، ومنهم من يحمل الأكراد والملا مصطفى المسؤولية بسبب تعاونه مع شاه إيران وأمريكا وتحالفه مع البعث لإسقاط حكومة قاسم وشنه الحرب ضدها ، ومنهم من يحمل قاسم وسياسته وتخاذله أمام المد الرجعي، ومنهم من يحمل القوى القومية وعبد الناصر وأمريكا وبريطانيا وإسرائيل... إلخ.

كانت المناقشات حامية الوطيس في السجون والمعتقلات والمواقف لمعرفة أسباب انتكاسة الحركة الوطنية وما تجره وجرته من آلام.

في مثل تلك الأجواء المشحونة بالتوجس والاندحارات والانهزامات واليأس، كان على الرفاق الصامدين، إعادة الثقة بالنفس وبالحركة الوطنية لضحايا الإرهاب هؤلاء. كنا نردد " أن من هزم في معركة لا يعني أنه خسر الحرب كلها ". كان مثلنا مثل ربابنة سفينة تمخر وسط بحر هائج وسط عاصفة هوجاء تتلاطم الأمواج حولها من كل صوب فتزيد من ترنحها يميناً ويساراً، ولا يمكن السيطرة عليها بسهولة. أمامهم طريقان، إما النجاة بالسيطرة على السفينة وشد النفس والخروج بسلام من هذه العاصفة مهما كانت

الظروف والعواقب، وإما الغرق، رغم عدم وضوح كيفية الخروج بسلام من تلك العاصفة؟.

حضرخضير، ذلك الرفيق الجريء مع مرتبتي نوم (دوشكين)، قال إن في داخلهما ما نحتاج. كانت مجازفة كبيرة منه لكنها مجازفة شجاعة. لم تكن الفكرة جديدة بالنسبة لي، إذ حاولت استخدامها عام ١٩٦٣ عندما كنت موقوفاً في مركز شرطة البصرة ولم يحالفني الحظ لكثافة وشدة الحراسة من قبل الحرس القومي والشرطة المحلية.

استلم الأفرشة جاسم حلوائي وعمر الشيخ. كان من الصعب فتح الأفرشة وإخراج الملابس منها لازدحام المكان وعدم الائتمان لبعضهم. لذا، يجب أن تتم العملية في الليل عند نوم الجميع.

لم يدم الأمر طويلاً إذ جاءت الشرطة قبل أن يحل يوم الجمعة لينقلونا إلى قاعة مجاورة [٢٢٢]، فيها رفاقنا وقسم من جماعة الثوريين. كانت القاعة كبيرة تتسع إلى ٣٠ ـ ٤٠ شخصاً فيها شبابيك عديدة. لم أعرف لم تركوا الأفرشة في القاعة السابقة، ولم ينقلوها معهم!.

بدأنا نفكر بخطة جديدة بعد أن ترتب وضعنا في القاعة الجديدة. نزلاء القاعة من الموقوفين أكثر اطمئناناً من القاعة السابقة. كان يجري ختم يد الذين يأتون لزيارة الموقوفين من ذويهم بختم خاص. والزيارات تتم داخل القاعة. يغادر الزوار القاعة بعد انتهاء الزيارة، ويدخل شرطيان يقومان بحساب عدد الموقوفين، وبعد التأكد من صحة العدد يسمح للمواجهين بالخروج من الباب الرئيس بعد التأكد من وجود الختم الخاص بإدارة المعتقل على أيديهم.

جرى التفكير بالخروج مع الزوار بعد تزوير الختم الخاص بإدارة المعتقل بطريقة فنية. ولكن المسألة الأساسية هي الخروج من القاعة، هل يمكن الخروج مع الزوار من القاعة؟ تبدو تلك الطريقة غير مضمونة!

حاولنا في مستشفى مدينة الديوانية عام ١٩٦٤ قطع حديد الشبابيك، ولولا اعتراف أحد العسكريين على ذلك لتمت العملية بنجاح. إذن هنا يمكن تنفيذ نفس العملية للنفاذ والاختلاط مع المواجهين عند خروجهم من القاعة. وبدء العمل بقطع حديد

أحد الشبابيك. يبدأ العمل في الليل بعد أن ينام الجميع، ويفتح راديو للتغطية على الصوت. كان أشد ما نخشاه هو سماع صوت المنشار في سكون الليل. كنت أنام تحت الشباك مع مجموعة جيدة من الرفاق إلى أن مرت عملية نشر القضبان بسلام.

لقد كنت أعاني من مرض وألم في الأسنان منذ الطفولة، وكثيراً ما يسبب لي قلع السن آلاماً حادة، يتبعها نزيف دموي وتشقق اللثة مما يضطرني لخياطتها. وتفاقمت هذه الحالة بسبب سوء التغذية وكثرة التدخين والإرهاق والحالة النفسية وغيرها كلها عوامل مساعدة لأي مرض بما فيه مرض الأسنان.

اشتد علي ألم أحد الأسنان وبقيت أعاني من ألم حاد لمدة يومين، حتى مجيء طبيب الأسنان. بدأ بقلع السن فلم يستطع ذلك بسهولة، فأجرى شبه عملية لقلعه. وعندماحاول مرة أخرى قلعه تفتت وبقي قسم منه في اللثة. أعاد الكرة مرة ثانية، فقلع ما تبقى، إلا أنه مزق لثتي وحصل نزيف استمر لمدة يوم، فنقلت على أثر ذلك إلى المستشفى[٢٢٤].

استمر نشر الشباك. مكثت يومين في المستشفى. أعدت إلى المعتقل بعد أن خيطت اللثة وتوقف النزيف. في تلك الفترة وخلال مدة غيابي أكمل الرفاق قطع حديد الشباك وأصبح جاهزاً. كان العيد على الأبواب والموقوفون يستعدون لمقابلة عوائلهم والعوائل تهيء الطعام والفواكه والحلويات. الأمهات يهيئن الأطفال بملابس العيد لزيارة آبائهم. أتقن الرفيق عمر علي الشيخ الختم. اتفقنا أن نخرج على وجبتين، تضم الوجبة الأولى الرفيقين عمر وجاسم وتضمني الوجبة الثانية مع إثنين آخرين.

لا أدري إن كان قد تم الاتفاق مع الرفاق (الحزب) على إرسال مواجهين أم أن الأمر مصادفة، أم أنهم جاءوا بحكم تقاليد الزيارة في الأعياد. لقد جاء في ذلك اليوم عدد كبير جداً من الزوار، استلم قسم من الموقوفين رسائل من أحبائه ووصل قسم آخر منهم صور عن عائلته وأطفاله وزوجاته ونالت البقية ممن جاء أهلهم لزيارتهم طعام العيد، فكانت الفرحة تعم الجميع رغم ظروف المعتقل.

اتفقنا عند خروج الرفاق ونجاح العملية بسلام أن يرسلوا في اليوم الثاني من العيد أعدادا كبيرة من المواجهين إلينا كيما نخرج معهم.

كيف تمت عملية الهروب

إذا ما حجبت عن الإنسان حريته فإنه يعمل المستحيل من أجل استردادها. ونحن نناضل ونتحمل كل هذه الصعوبات التي قد تؤدي بحياتنا من أجل حرية وسعادة شعبنا المقيدة بسلاسل حديدية مفاتيحها بيد حكام بلادنا الرجعيين.

كل شيء مهيأ وجاهز.. الملابس، الختم، الشباك، كثافة الزائرين..الخ وبعد أن انتهت الزيارة، تجمع الزوار عند الشباك المخصص للخروج، فخرج الرفيقان عمر وجاسم وهما بالملابس المدنية وعلى يديهما الختم كأي زائر آخر واختلطا بالجمع. وقبل دخول الشرطة حشونا (بجامتي) نوم بالملابس ومددناهما على فراشي عمر وجاسم وجرى تغطية رأسيهما، لنوهم الشرطة بأنهما نائمان. تم التعداد لأكثر من مرّة، وكان العدد صحيحاً. سمح للزوار بالمغادرة ومعهم الرفيقان وتمت العملية بسلام. سادنا جو من الغبطة بأننا استطعنا تحرير رفيقين من الاعتقال وأنهما لابد سيكونان عاملاً مساعداً لتحسين العمل. علمت الأكثرية من الموقوفين بخروجهم لاحقا.

يبدأ التعداد المسائي عند العصر عادة. دخل رجال الشرطة وبيدهم أوراقهم وأقلامهم وبدأوا بعملية تعدادنا وكان العدد صحيحا وغير ناقص أيضاً. جلسنا في المساء نفكر بعملية يوم غد وكيف يتسنى لنا الخروج!

لم يحضر في اليوم الثاني غير عدد قليل الزوار، وذلك لا يسهل عملية خروجنا، إذ سرعان ما يتم كشفنا لو غامرنا بالخروج في مثل ذلك الظرف. جاءت الشرطة للتعداد بعد الزيارة وكان العدد صحيحا. وجاءوا في المساء وكان العدد أيضاً صحيحاً.

جلسنا وتداولنا الأمر. قلنا، ربما أن الرفاق لم يتصلوا بأحد عند وصولهم. ومر اليوم الثالث والرابع ولم يحضر أي زائر للمعتقل. ألقينا بكاهل القضية على الظروف. وصلتنا الأخبار عن أن الهاربين وصلا بسلام. رفعنا الأشباح بعد أن يئسنا من الخروج. طلبنا من جميع الموقوفين إنكار معرفتهم بالموضوع. عندما دخل رجال الشرطة للتعداد كان العدد ينقص إثنين. أعادوا الكرة مرة ثانية وثالثة فكان النقص في العدد إثنين، بعدها قرأوا الأسماء واحداً واحداً حسب لائحة تعداد المساجين. وعند قراءة اسم عمر علي الشيخ وجاسم حلوائي لم يردا. كرر الحارس مرة ثانية وثالثة...

اكفهر الوضع وبدأت تتصاعد التهديدات والشتائم. وأمطرونا بالأسئلة. وكل من سئل يجيب بأنه لا يعرف شيئاً عن الأمر (وكل شخص مسؤول عن نفسه). عندما

سئلت قلت بأنهم كانوا موجودين يوم أمس وكل شخص غير مسؤول عن الآخرين. خرج الشرطة يجرون خيبة الأمل والحزن طافح على الوجوه. وبعد مدة من الزمن حضر آمر المعتقل مع مجموعة من رجال الأمن العامة وبدأ التحقيق وفتشوا القاعة، فاكتشفوا الشباك وعرفوا الطريقة التي هربا بها. وجهوا الاتهام لي ولحسين علوان وتوفيق أحمد، ثم نقلونا إلى الأمن العامة وهناك بدأ التحقيق معنا، وألصقوا تهمة الهروب بنا.

أصبحت التهم الموجهة لي ثقيلة جداً ولو نفذت لقضيت جل حياتي بين جدران السجن.. محكوم غيابياً زمن قاسم للهروب من مستشفى الديوانية، إعادة بناء تنظيمات الحزب الشيوعي، مؤسس مطبعة الحزب عام ١٩٦٤ والعامل فيها، محاولة الهروب من معتقل خلف السدة، تزوير جواز عام ١٩٦٢... إلخ.

ومن سوء الصدف وجود العريف ذاته الذي كان حارسنا في الديوانية [٢٢٥]، وهو أحد المسؤولين عن الموقوفين خلف السدة.

بعد التحقيق معنا حول عملية الهروب أودعنا الزنزانات الانفرادية. كان عدد الموقوفين في الأمن العامة قد ازداد. وكان الرفيق (كاظم فرهود) مسؤول الجمعيات الفلاحية بعد ثورة ١٤ تموز في التوقيف وقد جرى تعذيبه بشكل لا أخلاقي. إلا أن موقفه كان مشرفاً وصموده بطولياً. عندما التقينا به كان متفائلاً جداً بالتغيير، إذ كان يتوقع بين حين وآخر حدوث انقلاب ديمقراطي على حكومة عارف. في إحدى المرات سمع صوت أحد أبواب الزنزانة يغلق بقوة فهب من مكانه قائلاً (صارت..!) (أي الثورة) وتصور صوت الباب مدفعاً. في تلك الفترة،كانت كل القوى تتهيأ لإجراء التغيير، بما فيها الحزب الشيوعي العراقي الذي كان ينسق مع الآخرين ويهيئ نفسه لذلك.

في تلك الآونة زادت اعتقالات البعثيين، وقد تم اغتيال معاون الأمن (عز الدين اللافي). وبعد طول مدة من مكوثنا في الأمن العامة، تم نقل الشيوعيين إلى سجن رقم واحد في معسكر الرشيد.

محاولة الهروب من سجن رقم واحد في معسكر الرشيد

حشرنا في سيارات الزيل العسكرية مروراً بشوارع بغداد إلى وزارة الدفاع في باب معظم، تلك الوزارة التي كانت شاهداً على أكبر المعارك البطولية عند الهجوم على عبد الكريم قاسم والتجمعات الجماهيرية في ٨ شباط ١٩٦٣.

بعد تسجيل أسمائنا في وزارة الدفاع نقلنا إلى سجن رقم واحد العسكري، في زنزانته المظلمة حشرنا جميعاً. نفس الزنزانة التي كنت موقوفاً فيها عام ١٩٥٧ عندما ألقي القبض عليّ مع الحروف المطبعية من قبل الأمن.

كل الزنزانات في السجن مليئة بالموقوفين من جماعة (اللجنة الثورية) ومنهم الجنود الذين أشعلوا نار انتفاضة معسكر الرشيد من رفاق حسن سريع البطولية [٢٢٦].

في ٣ تموز ١٩٦٣ عندما نقلنا إلى سجن رقم واحد كنا لا نملك شيئاً سوى الملابس التي كانت على جلودنا وأدوات حلاقة، بلا حقائب ولا نقود.

أطلعنا بعد أيام على الأوضاع في السجن، فكان من ضمن الموقوفين الرفيق الشهيد (عواد حريجية) ومجموعة صغيرة من القوميين،وأغلب الموجودين في سجن رقم واحد كان من العناصر التي انهارت سياسياً من شدة التعذيب ما عدا الرفيق (عواد حرَيجية) [٢٢٧].

كانت الزيارات (المواجهات) للموقوفين مسموحا بها كل جمعة من الصباح حتى بعد الظهر، فيخرج الموقوفون من الزنزانات بعد أن ينادى على من لديه زيارة ويتوجه إلى الساحة خارج الزنزانات ليلتقي مع عائلته. وبعد انتهاء الزيارة التي يحضرها الآباء والأمهات والزوجات والأبناء الرضع، والكبار منهم، والأخوات حاملين معهم الأطعمة والملابس، ترى عمق الشقاء والبؤس على وجوه المعتقلين. بعد انتهاء الزيارة يعود الموقوفون إلى الزنزانات يجرون معهم أحلامهم وتمنياتهم ومشاكلهم يلاحقهم بعد ذلك عريف وعدة جنود إلى باب الزنزانة كي يضبطوا النصاب. يقرأون الأسماء حيث ينبغي على كل من ينادى باسمه أن يعلن حضوره، ثم يكررون الأمر مع الزنزانات الأخرى. وما كانوا يسمحون للعوائل بالخروج إلا بعد التأكد من صحة العدد. كانت عملية سهلة إذن. استطعنا أن نوصل رأينا إلى الحزب في الخارج، وشرحنا لهم ما ننوي عمله. أردنا فقط الحصول على ملابس مدنية أو عربية (الكوفية والعقال) كي نخرج مع الأهالي المواجهين حين ينتهي وقت المواجهات. ثم نكلف بعض الرفاق، إذا ما نوديت أسماؤنا، أن يعلنوا حضورنا. هكذا كانت خطتنا بعد دراستنا للوضع.

أخذنا بنظر الاعتبار مختلف الاحتمالات وتوصلنا إلى أن انكشاف أمرنا قبل خروجنا مع الزوار لن يغير شيئا جوهريا في وضعنا، خاصة وأننا متهمون بعدة تهم كما أسلفت.

كنا ننتظر يوم الزيارة (الجمعة) بفارغ الصبر، ووطدنا العزم على ذلك وكلما مر يوم نبدأ بحساب اليوم الذي يليه.

عند حلول صباح الخميس، وبعد الفطور مباشرة كانت المفاجأة الكبرى لنا. نودي علينا لنقلنا إلى مكان آخر[٢٢٨] فمن المحتمل أن يكون وجودنا في سجن عسكري وفي وسط الجنود والضباط وفي معسكر الرشيد بالذات قد أثار قلق الدوائر الأمنية والاستخباراتية، لذا فكروا بنقلنا إلى مكان مدني، بعيداً عن الطائرات والدبابات الموجودة في معسكر الرشيد. فمن ذلك المكان اندلعت انتفاضة ٣ تموز عام ١٩٦٣. جاء أحد العرفاء مع شلة من الجنود ونودي علينا بالأسماء. كنا ما يقارب الـ ٢٥ معتقلاً، وسرعان ما أخرجنا من الزنزانات ووضعت القيود في معاصمنا وحشرنا في شاحنة عسكرية من طراز زيل. في طريقنا إلى الشاحنات شاهدنا مجموعة من البعثيين الموقوفين ومن جملتهم صدام حسين وهم يرتدون البيجامات والروبات الفاخرة وكانوا يتمتعون بالكثير من الامتيازات.

تم إيصالنا إلى وزارة الدفاع وكان كل إثنين منا مربوطين بقيد واحد. فك العريف يده من القيد، إذ كان هو وتوفيق أحمد بقيد واحد. حشرنا في قاعة صغيرة. يحمل العريف أوراقنا ليسلمها للاستخبارات ويخرجنا من ذمتهم. طلبت من العريف أن يفتح يدي أيضاً للذهاب إلى الحمامات. بقيت (الكلبجة) بيد الرفيق كاظم فرهود إذ كنا مربوطين بكلبجة واحدة. أخذ العريف أوراقنا وذهب ليقدمها للمسؤولين. كان إلى جانب القاعة حانوت صغير للمأكولات، (تكة..كباب..) والمشروبات... بعد ذهاب العريف لتقديم أوراقنا خرج توفيق أحمد وطلب من صاحب الحانوت أن يعمل له (تكة)[٢٢٩] وذهب بعدها إلى حمامات القريبة. ومن حسن الصدف أنه كان يرتدي ملابس نظيفة (قميص وبنطلون).خرج بعدها من الحمامات متجهاً لباب وزارة الدفاع.ولأن الكثير من المدنيين يراجعون وزارة الدفاع فلم يثر شكوك أحد من الحراس.

خرجت أنا من القاعة لأفتش عنه ونتفق على عملية الهروب سوية، فلم أجده. اتجهت صوب الحمامات وهممت بالمشي صوب باب وزارة الدفاع وإذا بالعريف يرجع وبيده الأوراق والأوامر بنقلنا. نادي عليّ، فقلت له بأني أريد الذهاب إلى الحمامات. أمسكني من يدي وقادني للغرفة حيث جماعتنا وأعاد تقييدي مع كاظم فرهود، قائلاً

ليس لدينا الوقت. أخذ يفتش عن توفيق لربطه معه. سأل :" أين هذا الأصلع الطويل؟" قلنا لا ندري أنه كان معك. أخذ يعدنا فرداً فرداً، ثم أخذ ينادي علينا بالأسماء وفق القائمة التي لديه ويركبنا الزيل فكان العدد ينقص واحدا.اشتد غضبه وأخذ يشتم ويسبنا، فقلنا إنه كان معك. انطلقت بنا السيارات تحت (حراسة مشددة) مخترقة شارع الرشيد صوب مديرية الأمن العامة. قرب القصر الأبيض التي قضينا فيها أشهراً طويلة.

كان رجوعنا إلى زنزانات الأمن العامة سيضعف أملنا ويقلل من إمكانية هروبنا.

بعد مرور ثلاثة ساعات تقريباً جاء مفوض الأمن وبيده أوراقنا وكان يتكلم مع أحد المفوضين: "من المستحيل أن أقبلهم مرة ثانية !"

فتح باب الغرفة ونودي علينا بالأسماء وصعدنا سيارات الزيل لتنطلق بنا في طريق خارجي لمدة ساعة تقريباً لتقف أمام معتقل جديد يسمى معتقل الفضيلية.

حفر نفق في معتقل الفضيلية

معتقل الفضيلية مكان واسع يشبه السجن ويقف قرب بابه الرئيسي حارس حيث تقع أيضاً إدارة المعتقل. وتتكون الإدارة من رئيس أول ومعاون شرطة، ويقابل غرفة الرئيس غرفة الحرس، بعدها باب حديدي مغلق يفصل المعتقل عن الإدارة ويقف عنده حارس. يقع الجناح، الذي سكناه، على اليمين ويتكون من أربع غرف وحمامات وغرفة صغيرة سيكون لها شأن في وضعنا، استخدمناها كمخزن لمواد الطعام، وهي قريبة من الشارع العام وفيها شباك خلفي، وساحة صغيرة للتمشي والنوم في الليل، ثم ممر يؤدي إلى الجناح الأكبر الذي يقع على اليسار و فيه غرف واسعة وساحة كبيرة للتمشي استخدمناها كساحة للعب كرة الطائرة فيما بعد. وهذا الجناح كان يسكنه (جماعة الثوريين) وهم خليط،منهم من تعرض للتعذيب واعترف على جماعته ومنهم من كان موقفه صلباً متحدياً. شباب بعمر الورود، حفزتهم انتكاسة ٨ شباط ١٩٦٣ فأرادوا القيام بأي عمل ثوري واستلام السلطة فشكلوا تنظيما أطلق عليه (اللجنة الثورية)، أكثرهم من العسكريين من ضباط الصف والجنود والرتب الكبيرة مثل (سليم الفخري) وغيره، إضافة إلى عدد من العمال والفلاحين والطلبة والمعلمين.

استطعنا تنظيم أنفسنا بسرعة وانضم إلينا قسم من جماعة اللجنة الثورية من ضباط احتياط وجنود. حصلنا على كرة وشبكة لكرة الطائرة، ونصبناها وسط الساحة. قسمنا العمل. نظم الرفيق كاظم فرهود دروساً وقراءة الصحف والأخبار. بددنا كآبة المعتقل بحياة جديدة، رغم جراحنا التي لا عد لها.

كان الزوار من ذوي الموقوفين يمدوننا بالمواد الغذائية والأخبار. شكلنا هيئة لإدارة أمورنا الداخلية. أصبحت مسؤولاً عن مراجعة إدارة المعتقل. كانت المناقشات حامية عن أسباب انتكاسة ١٩٦٣، في ٨ شباط.

جاءت أخت بولص (سميرة) لزيارته وأخبرته أن والدتهم قد توفيت حزناً وألماً عليه. فألم به حزن وبكى أمه ألماً وحسرة.

كان الزائرون يدخلون إلى داخل المعتقل وفي القاعات التي نسكنها ويبقون لساعات طويلة. وانبعثت من جديد فكرة إيجاد مخرج وطريقة للهرب، بعد هذا اللف والدوران في المواقف والمعتقلات ووجوه المحققين الكريهة. لا يمكن أن نمضي جل حياتنا وسط الحرمانات وبعيدين عن الحزب. فكرنا بإمكانية الخروج مع المواجهين عند زيارتهم إلا أن هذه الفكرة كانت تصطدم بكثير من العقبات ولا يمكن ولا يضمن نجاحها.

تخلينا عن هذه الفكرة.

درسنا فكرة الصعود إلى سطح المعتقل والنزول بواسطة الحبال، ثم اجتياز الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر. ومن أجل معرفة الأوضاع ودراسة هذه الإمكانية ذهبت إلى خارج المعتقل مع الرفاق الذين يرمون الفضلات (الأزبال).

كان هناك عدد من الربايا المتقاربة وأحياناً دوريات، ومسألة عبور الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعتقل ليست بالأمر الهين وتحتاج إلى وقت من أجل قطعها.

وبعد فترة من التفكير والتتبع للأوضاع استقر الرأي على حفر نفق من غرفة المخزن المطلة على الشارع. رغم أنه عمل متعب وصعب ومحفوف بالمخاطر إلا أنه الطريق الأسلم.

بدء عملية حفر النفق

التطلع للحرية وامتلاكها يفترض تضحيات كبيرة.

الغرفة التي استعملناها كمخزن تبعد عن الشارع العام ١٠ ـ ١٥ متراً. فيها

شباك يطل على الربيئة القريبة. وهناك أسلاك شائكة، تفصل المعتقل عن الشارع. وبعد الأسلاك مباشرة ساقية مياه. يجلس في الربيئة حارس دائم تقابله ربيئة أخرى فيها حارس أيضاً. المخزن مليء بالمواد الغذائية وأواني الطهو والصحون و(القاروانات) المصنوعة من الألمنيوم، التي يقدم لنا الطعام فيها، وأكياس من العدس والأرز والطحين وصفائح الدهن.. إلخ لم يكن لدينا مطبخ لطبخ الطعام بل هناك في باب المخزن فسحة صغيرة استعملناها للطبخ.

كان الطهو يتم على طباخ (بريمز) ذي أنبوبة طويلة، حينما يشعل يخرج صوتاً مزعجاً ومدوياً، صوتاً مرتفعاً جداً.

ولم تكن لدينا أدوات للحفر. أرضية المخزن من الأسمنت المسلح وسميكة.

بدأنا بتشغيل (البريمز) بصوته المدوي. وبدأت محاولة كسر الإسمنت بواسطة مفك (درنفيس) متوسط الحجم ومطرقة. بدأ الحفر من جهة الجدار الملاصق لساحة المعتقل وليس من جهة الجدار الذي يطل على الشارع والربيئة. كانت تلك الفكرة من إبداع (أبو قاعدة)، صاحب التجربة في حفر نفق سجن الكوت. استمرت عملية الحفر وكسر الأسمنت لمدة يومين. كانت البداية صعبة. ثم أصبحت هناك ثغرة وتوسعت بحيث يستطيع الإنسان الدخول منها. كانت الأرض تحت الأسمنت ترابية يسهل حفرها وإخراج التراب منها بواسطة أي آلة كانت حتى لو (جفجير) مغرفة طعام.بدأنا العمل بسرية تامة. كان الوقت صيفا وغالبية الرفاق ينامون في الساحة قرب المخزن. جرى تشخيص عدد محدود من الرفاق ممن يؤتمن جانبهم تماماً سواء للقيام بعملية الحفر أو نقل التراب. الحركة يجب أن تكون دقيقة. يبدأ الحفر من الواحدة ليلاً حتى الرابعة صباحاً. وتمكنا من إخراج التراب في البدء عبر النزول إلى الحفرة تحت الأسمنت والتخلص من الأتربة بإذابتها بالماء ومن ثم تسريبها عن طريق الحمام. وكان رفاقنا يراقبون الحركة في الربيئة من شباك المخزن. كما كنا ننظم حراسة ليلية وهي من العادات التقليدية للسجناء والموقوفين والمبعدين، للحفاظ على حياة السجناء من أي طارئ، كعمل تخريبي أو هجوم ليلي أو اندساس.. إلخ. كل واحد منا يحرس ساعتين وهي تشمل الكل بدون استثناء. أما بعد الساعة الواحدة ليلاً فيجري تكليف من يعتمد عليه بشكل تام بتلك الحراسة.

في الليل، حيث الظلام الدامس،عندما يخلد الجميع للنوم ويعم الهدوء تبدأ عملية

الحفر. ازداد الحفر عمقاً وتوغلاً بحيث أصبح من الممكن نزول شخص في الحفرة تحت الأسمنت ليملأ كيساً بالأتربة ويسحبها للأعلى. ويخرج على عجل لقلة الأوكسجين والحرارة. يستمر العمل حتى الساعة الرابعة صباحاً.

نمارس التمارين الرياضية في الصباح قبل الفطور. يدخل معاون الآمر ومعه الحرس بعد الفطور لإحصاء المعتقلين. ثم تبدأ الأعمال اليومية كالطبخ والغسيل..إلخ. في المساء يلقي أبو قاعدة محاضرة عن الفلسفة وهكذا ينتهي اليوم.

اختنقت بالوعات الحمامات وبدأ التراب الممزوج بالماء لا يتسرب منها ولازال أمامنا الكثير، إذ لازلنا في البداية ومسألة التخلص من الأتربة أمر ضروري. وبعد دراسة الأمر جرى التفكير بالاستفادة من سطح المعتقل. خاصة وأنه فارغ من الحراسة ونقوم بفرش الأتربة عليه، إذ نادرا ما يصعد الحرس إليه، كما أنه محاط بالأسلاك الشائكة لارتفاع يزيد عن المتر وليس من السهل الصعود إليه. المهم أنه لا يخطر ببال الحرس بأننا نستطيع الوصول إليه.

وبعد اختمار الفكرة لدينا، استدعينا بعض الرفاق العسكريين وطرحنا عليهم المقترح، فاستجابوا لها خاصة وأن أحدهم كان من فرق الكوماندوز. قالوا إن العملية تحتاج إلى حبال قوية يمكن الصعود بواسطتها إلى السطح وأدوات لقطع الأسلاك الشائكة، ثم يجري إعادتها إلى الوضع الطبيعي في النهار، بحيث لا يستطيع أحد كشفها. خلال أيام تم تجهيز كل شيء من حبال وأدوات القطع.. الخ. غيرنا أماكن نوم بعض الرفاق ممن كانو في مكان الصعود إلى السطح بغيرهم. ربط الحبل على شكل عقد كبيرة ليسهل عملية التسلق، كما يصنع جنود الكوماندوز. وقف ثلاثة رفاق أقوياء أحدهم فوق الثاني ورموا الحبل الذي كانت نهايته أشبه بسنارة كبيرة تشبه مرساة السفن.. رماه الأخير إلى السطح وتأكد من متانته. تسلق أحد الرفاق وبدأ بقطع الأسلاك الشائكة المحيطة بالسطح وأصبح مروره إلى السطح سهلاً.

استمرت عملية الحفر حيث تعبأ الأكياس بالتراب ثم تربط بشكل جيد بالحبل كي يتولى الرفيق (ص) سحبها وتفريغها على السطح. وهكذا تخلصنا من الأتربة الزائدة. كانت عملية صعبة ومغامرة لابد منها. كما يقول المثل: (فاز باللذات من كان جسورا).

لا تستغرق عملية الدخول إلى النفق والقيام بالحفر سوى بضع دقائق، بسبب

الاختناق والحرارة. سارت الأمور بشكل اعتيادي وبنجاح لمدة أكثر من عشرة أيام، وبدأ التوغل في الحفر، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، وكاد كل شيء أن ينهار بعد أن توغلنا في الحفر ولم يتبق أمامنا سوى عدة أمتار أخرى ونكون في الشارع. الحلم الذي راودنا منذ فترة اعتقالنا.. التحليق إلى الحرية..النضال من أجل الحرية والديمقراطية في الشارع.. هذا الحلم كاد أن يتبدد.

يوم الخميس حينما سمح للعوائل بالزيارة وكنت أنتظر هذه الزيارة بفارغ الصبر.. كنت أنتظر زيارة ابنتي بمصاحبة أحدى السجانات من سجن النساء لتبقى معي بضع ساعات. كان عمرها ٨ شهور والآن أصبح يقارب أربع سنوات، قضتها كلها مع أمها في سجن النساء. ربما لن أراها مرة ثانية إذا ما حققنا هدفنا بالهرب من النفق، أو نقلنا إلى سجن ناءٍ، كنقرة السلمان أو موقف آخر.

حينما يأتي الزائرون يدخلون الفرح والأمل إلى قلوب أبنائهم، المعتقلين ظلماً وعدواناً ومنذ سنوات. وإلى جانب ذلك يجلبون معهم الأطعمة والأخبار والحلويات والملابس. وكانت إحدى العوائل جلبت معها ديكاً كبيراً، تركه الرفاق في المخزن.

بعد أن أمضيت ما يقارب ٤ ساعات مع عواطف أخذتها الشرطية (السجانة) إلى أمها في سجن النساء.

وبعدما تنتهي المواجهات يتناقل المعتقلون الأخبار التي سمعوها. وكانت تصلنا بعض الصحف والنشريات.

في اليوم الثاني للمواجهة، بعد الفطور،عند التعداد طلب مني مدير المعتقل الدخول إلى المعتقل لتفتيشه. إذ كنت أنا المسؤول أمام الإدارة. فوجئت بذلك، وطلبت منه توضيح سبب التفتيش. هل هو للاستفزاز وإقلاق الموقوفين، أم لأمر آخر ؟

قال: "البارحة سمع الحراس حركة غير طبيعية في ساعة متأخرة من الليل في غرفة المخزن مما أثار شكوكهم." كان رد فعلي طبيعياً أمامه وحاولت استقبال الخبر بشكل اعتيادي رغم الوساوس والظنون التي اعترتني. ثم أضاف: "هذا من حقنا لقطع دابر الشكوك. واطمئنان الحرس."

دارت الأفكار برأسي يا ترى لماذا ؟ هل انهار كل شيء؟ هل أفشى أحد المعتقلين الأمر ؟.هل كشفوا التراب فوق السطح. وهل وهل.. إلخ.

قلت له وبهدوء أعصاب رغم أنْ أعصابي تكاد تتمزق :"هذا من حقكم وهو شيء

طبيعي وليس هناك مانع من التفتيش. ولكن دعني أدخل المعتقل لأبلغ الرفاق بالأمر درءً للمشاكل ولتسهيل عملية التفتيش. إن دخولكم بشكل مفاجئ يعتبر استفزازاً وقد يحدث ما لا تحمد عقباه." وبعد برهة صمت وافق على مقترحي بالدخول.

دخلت المعتقل وأبلغت أبو قاعدة والرفاق بأن إدارة المعتقل مصممة على تفتيش غرف المعتقل. وإني سأعود للإدارة للتحاور مع الآمر وإطالة الحديث معه لكسب الوقت، لحين إكمال تنظيف المخزن وترتيب الأمور وإبلاغي بذلك.

رجعت للإدارة ودخلت في نقاش مطول معهم حول الحرس القومي واغتيال عبد الكريم قاسم والأعمال الإجرامية التي ارتكبوها بحق الشعب والوطن... إلخ وكيف انهاروا، وبعد حوالي ربع ساعة جاء الرفيق (س) وناداني وأشار لي ليدخلوا. أبلغت الآمر بإمكانهم الدخول الآن والتفتيش. فتح باب المعتقل حالما بلغته بذلك، ودخل ما يقارب ١٥ شرطياً مع معاون الآمر وتوجهوا مباشرة إلى غرفة المخزن، فقفز قلبي من بين أضلعي وقدرت أنهم كشفوا العملية وسوف تذهب جهودنا سدى. وكاد كل شيء يذهب مع الريح والكل ينتظر النتيجة وما ستسفر عنه التحريات.

تصرف الرفاق بذكاء وعملوا خطة ذكية لم تكن بالحسبان.كانت الغرفة نظيفة جداً. إلا أن الرفاق كدسوا أكياس المواد الغذائية من رز وفاصوليا ء يابسة وأكياس الطحين وملابس قديمة، فوق الحائط القريب من الشارع، الموقع الذي يفكر الإنسان أنه الأصلح للحفر، وضعوا على فتحة النفق سلة مليئة بالباقلاء اليابسة وعدة رؤوس من البصل والثوم. فالفتحة كانت عند جدار المخزن الملاصق لساحة المعتقل. دخل الشرطة إلى المخزن هجموا على المواد المكدسة على الحائط القريب من الشارع، وراحوا ينقلون الأكياس والمواد المصفوفة على الحائط إلى الجانب الآخر بحيث سدوا بها فوهة النفق وغطوا الحائط الآخر.

كانوا مستعجلين جداً بنقلها. ولم يطرأ ببالهم أن يحفر نفق من الحائط الملاصق للساحة ليمر من تحت أرض الغرفة للشارع.

كنت أتحدث مع المعاون أثناء عملية التفتيش حول بعض مطالبنا كإدخال الصحف والسماح لنا براديو.

وبعد جهد، وعندما لم يعثروا على شيء، أخذوا يضحكون وانفتحت أساريرهم،عادت الفرحة لي ْوللرفاق ممن كانوا يراقبوا العملية داخل المخزن.

خرجت الشرطة من المخزن وكان الديك واقفا على أحد الرفوف يراقب العملية وهو ينقر بقايا حب مبعثر. دخلوا أول غرفة صادفتهم وفتشوا بقية القاعات ولم يجدوا أثراً لما كانوا يحلمون به ويظنونه.

فتشوا فقط الجناح الذي كنا نسكنه. بعد انتهائهم من عملية (التفتيش)، تجمعوا في الساحة فوزعت عليهم الحلويات من علبة جاء بها المواجهون لأحدنا.

قلت لمعاون الآمر أتدري ما هو مصدر الأصوات التي أقلقت الحراس يوم أمس وجعلتهم يشكون بالأمر؟ هذا الديك اللعين الذي جلبوه لنا يوم أمس. كان محبوساً مثلنا في غرفة المخزن وكان يقفز على الرفوف والأواني لينقر الحب المتساقط ويحدث أصواتاً سمعها الحراس ونحن أيضاً عندما كنا نياماً.

انتهى الأمر بسلام بعد أن كاد كل شيء يذهب سدى. والحقيقة، أن (س) كان في آخر وجبة حفر وهو الذي أحدث أصواتاً أثارت انتباه الحراس، إذ اصطدم عدة مرات بأواني الطبخ.

وبعد أن تخطينا هذه العقبة التي كادت أن تُفشِل عملنا، استمرت عملية الحفر ونقل الأتربة إلى سطح المعتقل بيقظة أشد. وتوغلنا بالحفر حتى وصلنا خارج الغرفة، قرب السياج المؤدي إلى خارج المعتقل. كنا نقيس المسافة المتبقية لنا كي نكون خارج سياج المعتقل في الشارع، بواسطة (شيش) من الحديد نغرزه في داخل النفق إلى السطح وفي نهايته نشد قطعة قماش حمراء. يوضح لنا كم من المسافة متبقية للخروج.

كان كل شيء هادئا واعتياديا في المعتقل، نمارس الرياضة صباحاً، ويعد الرفاق الخفر الطعام ونحن على وفاق مع الإدارة. إذ لم تحدث أمور تعكر الجو، وقبل العشاء نمارس لعبة كرة الطائرة..

جاءني في إحدى الليالي (أبو قاعدة) ليوقظني من حلم جميل ويخبرني بأن دوري في الحفر قد حان.كانت الساعة الثالثة صباحاً، واستمر الحفر حتى وصل قرب الأسلاك الشائكة. الساقية مليئة بالماء لإرواء الأشجار الصغيرة على جانبيها. لذا يجب الدقة والحذر في الفتحة النهائية للنفق إذ قد يؤدي أي خطأ إلى تسرب الماء إلى داخل النفق ويفسد كل شيء.

كم كانت فرحتنا كبيرة بإنجازنا ذلك العمل الشاق من أجل امتلاك حريتنا التي سلبها أعداؤنا منا.

صباحاً وبعد الفطور مباشرة، دخل عدة أفراد من حرس المعتقل ومعهم شخص بثياب مدنية. عرفه أحدنا وسلم عليه وقال إنه مقاول من محلتهم في الفضل. كان قد جاء ليصعد إلى سطح المعتقل ليجدد الأسلاك الشائكة. كانت بيده ورقة وقلم يسجل القياسات المطلوبة.

كارثة لم تكن بالحسبان.. فصعود الشرطة والحراس والمقاول إلى سطح المعتقل يعني كشف الأتربة المكدسة عليه، ويعني ذلك إعادة التفتيش مرة أخرى وهذا قد يؤدي إلى كشف النفق.

كلفنا رفيقنا الموقوف أن يتحدث مع صديقه المقاول لتأجيل الكشوفات لمدة يومين على الأقل. وأن يخبر الإدارة أنه أخذ فكرة أولية وأن الأمر يحتاج للدراسة والتخمينات وتهيئة المواد الأولية والعمال... الخ.

لم يكن المقاول يعرف شيئا عن الموضوع لكنه قدر الأمر، خاصة وأنه كان أحد ضحايا الحرس القومي في ٨ شباط. خرج مع الشرطة ليخبر الإدارة بتأجيل الكشوفات، قائلاً إنه سيعود بعد يومين. وغادر المعتقل.

أزيحت عقبة كبيرة، وارتبك وضعنا وأصبح عملنا محفوفا بالمخاطر. عقدنا اجتماعاً طارئاً وقررنا إكمال العمل في ذات الليلة وكذلك الخروج من النفق قبل كشفه، وحددنا من الذي سيخرج في الوجبة الأولى.

سارت الأمور بشكلها الطبيعي اليومي حتى المساء. والساعة تدق دقائقها الاعتيادية الثامنة مساءً، التاسعة، العاشرة... الثانية عشرة. بدأ العمل بالحفر في الواحدة ليلاً. حتى وصل إلى خارج سياج المعتقل وأصبحنا على حافة ساقية الماء، وأصبح كل شيء جاهزا للخروج للشارع حيث الحرية.

أثناء مراقبتنا المستمرة لحركة الحراسة من خلال شباك المخزن، وخاصة الحارس في الربيئة المنتصبة أمام المخزن وتلك المجاورة له وجدنا أن الحارس كان يترك مكان حراسته ويذهب للسمر وشرب الشاي مع أقرانه من الحراس في الربيئة الخلفية البعيدة نسبياً عن المخزن ومكان الحفر. أما الربيئة الأخرى فإنها بعيدة وكثيراً ما ينام الحارس داخلها خاصة عندما يهب هواء الساعة الثانية صباحاً المنعش.

كانت خطتنا هي أن نمد سلكاً كهربائياً على امتداد النفق متصل بمصباح كهربائي لإنارة النفق. كما كلفنا الرفيق (أ - ن) بمراقبة حارس الربيئة فكان عليه أن يطفئ الضوء حالما يرى الحارس قد غادر الربيئة أو نام، كي نعلم أن طريق الخروج أصبح سالكا ومأموناً.

وقبل التنفيذ كنا ننتظر مرور الوقت بفارغ الصبر. أصبح كل شيء جاهزا الآن. غيرنا ملابسنا، دخلنا النفق، أربعة أشخاص، تمددنا؛ أبو قاعدة في الأمام وأنا خلفه ثم الرفيق (ن - ح) والرفيق (ي - م). المصباح لازال مشتعلاً. الساعة أصبحت الثانية ليلاً. الهواء البارد المنعش يدخل إلينا من فتحة النفق المطلة على الشارع.

مرت ساعة.. الساعة الثالثة ونحن ممدودون على الأرض الباردة بانتظار إشارة الخروج. انطفأ المصباح فجأة.. همّ (أبو قاعدة) بالخروج وأخرج رأسه. كانت الطبقة التي تغطي الفتحة، هشة فانهدمت به. رجع محاولاً إخراج رأسه مرة ثانية وسرعان ما أعاده إذ أن الضوء الكهربائي اشعل معلناً عن رجوع الحارس، وفشل العملية كلها. قال أبو قاعدة :" لقد انكشفنا وعلينا العودة بسرعة !" انسحبنا الواحد تلو الآخر. بعد برهة سمعنا الحارس ينادي الحراس الآخرين بالتجمع، ويصفر بصفارته معلناً عن الخطر وأنه رأى إنسانا يخرج من تحت الأرض ويعود إليها مرة ثانية:" رأس إنسان، إنسان والله إنسان !" بدأ الحارس بالصياح، فلم يصدقه أقرانه وقالوا له أنك تخرف، قد يكون رأس كلب، أو أنك قد تحلم والنعاس في عينيك. عندما رأى الحارس (أبو قاعدة) الأسمر وشعره الأسود يخرج من الأرض ثم يعود إليها فزع وبقي عدة دقائق يرتجف من الخوف والبندقية ترتجف بيده. وبعد أن أفاق من المفاجأة أخذ ينادي على بقية الحراس. هكذا أخبرنا الرفيق الذي كان في الشباك للمراقبة. خرجنا الواحد تلو الآخر وتمددنا في أفرشتنا بانتظار ما سيحدث بعد أن كشفت فوهة النفق.

ولم يمر وقت طويل حتى تعالت الصفارات وكثر اللغط وتزايدت الضجة. نادى الحراس على معاون الآمر وتجمعوا عند المكان الذي خرج الرأس منه. وعندما انبلج الصباح ، بانت فوهة النفق.

ألقى معاون الآمر حجراً في الفوهة فتدحرجت داخل النفق. بعد ذلك دخل شرطي الفوهة ليخرج في غرفة المخزن داخل المعتقل. ثم عاد إلى المكان الذي دخل منه. وهكذا باءت أكبر عملية، كلفتنا وقتاً وجهداً كبيرين، بالفشل.

في الصباح جاء مدير شرطة بغداد وعدد من ضباط مديرية الأمن العامة ومديرية السجون العامة ومعهم عدد من حراس المعتقل، وفحصوا النفق وسجلوا ملاحظاتهم وخرجوا.

كنا قد قدرنا فيما إذا ما فشلت العملية وألصقت التهمة بنا نهائياً، أن تضاف عدة أشهر لمحكومياتنا. لذا قررت مجموعة منا أنه، إذا ما جرى التحقيق معنا وسؤالنا عن حفر النفق ومن شارك فيه، أن نتحمل مسؤولية حفره وتبرئة ساحة الآخرين ممن لا علاقة لهم، وأن ينفي من يستدعى للتحقيق معه، من غيرنا، علمه بالموضوع.

انعقدت الهيئة التحقيقية في غرفة آمر المعتقل. و نودي علي باعتباري ممثلاً للمعتقلين. وكان من بين هذه اللجنة آمر ومعاون المعتقل. وعندما سألني عن النفق ومن حفره قلت أنا من ساهم بحفره. وسأل آخر لماذا قمتم بحفره، فقلت إن أغلبنا من ضحايا الحرس القومي وانقلاب ٨ شباط الأسود، وكثير من الموقوفين منا لفقت أو ألصقت بهم تهم باطلة ؛ من قراءة منشور أو جريدة سرية أو من اتهم بالمشاركة في مظاهرة أو دفع تبرع... إلخ من التهم ومنذ أكثر من سنتين ونحن موقوفون نجوب المواقف من الأمن العام إلى وزارة الدفاع إلى سجن رقم (١) إلى خلف السدة ثم الأمن العام والآن في معتقل الفضيلية ولا ندري إلى متى نبقى على هذه الحال، لذا أعتقد من حقنا أن نعمل ما نراه صحيحاً كي نمتلك حريتنا، وليأتي بعد ذلك الطوفان، وأغلبنا لو قدموا للمحاكمة لأطلق سراحهم.

وعلى نفس الوتيرة تكلم أبو قاعدة والآخرون. أما البقية من المعتقلين فقد نفوا علمهم بالعملية. بعد أن استدعي الجميع للتحقيق أغلقت القضية.

وبسبب الأوضاع القاسية وغير الصحية في المعتقل،أصيب أحد الرفاق بالتدرن الرئوي (السل) وبدأ يبصق دماً، مما اضطرنا لعزله. كان الموقوفون يخافون التقرب منه لإصابته بهذا المرض الخبيث. طلبت من الإدارة إرساله للمستشفى للعلاج فوافقوا على ذاك. قلت له وأنا أودعه: "يا (نعيم) أتمنى لك الصحة قد لا نلتقي مرة ثانية!" ولكني التقيته بعد بضع سنوات، وكان آنذاك موظفاً في إحدى المستشفيات، وقد ترك العمل السياسي.

ساد المعتقل جو كئيب ومنعنا من ممارسة لعبة كرة الطائرة بعد حادث النفق، وضيقوا على عوائلنا ومنعوا من الزيارات. وصل خبر حفر النفق إلى كل مكان. بعد عدة أيام قيدوا مجموعة منا بالحديد (الكلبجات) ونقلونا بالباصات إلى سجن نقرة

السلمان بعد مرورنا بموقف شرطة مدينة السماوة، الذي كان يغص بالموقوفين من متهمين بالانتماء للأحزاب ومتهمين عاديين من الفلاحين.

الهروب من السيارات في طريق سجن نقرة السلمان

فارقت سجن نقرة السلمان في سنة ١٩٦٤ بعد انقلاب عبد السلام عارف، حينما هربنا من مستشفى الديوانية ؛ الطيار عبد النبي جميل والرفيق شاكر محمود وأنيس وأنا. أعود إليه نهاية عام ١٩٦٦، كما كنت فيه عام ١٩٥٥ ـ وكما كنت أقضي فترة مراقبة الشرطة لمدة سنتين في قرية قضاء السلمان. وسبق أن وصفت ذلك.

كانت الحياة منظمة بعض الشيء، الرياضة الصباحية. الفطور، الدروس، التمشي الحفلات بالمناسبات الوطنية والأممية، كان السجناء يعرفون الهدف من إبعادهم إلى هذا السجن الصحراوي البعيد.

(اللي ما يزور السلمان عمره خساره) وتدلل هذه العبارة صمود وبسالة السجناء في هذا السجن الصحراوي النائي سجن (كلوب باشا) القائد الإنكليزي الشهير.

استقبلنا رفاقنا في السجن استقبالاً حاراً. وزعنا على القاعات العشر. بعد عدة أيام من وصولنا أخبرَنا الرفاق بأنهم قد بدأوا منذ فترة من الزمن بحفر (نفق) تحت الأرض، وأنهم مازالوا يواصلون عملية حفر النفق إلا أنهم يصطدمون بأرض صخرية صلبة يصعب الحفر فيها، رغم أنهم قريبون من الجدار الذي يفصل السجن عن الخارج، وهم يحفرون بواسطة مثقب (دريل)، وأنهم مشتاقون للنضال مع رفاقهم خاصة في تلك الظروف الصعبة التي مرت على الحزب والشعب.ولا رجاء ينتظر من تلك الحكومات الدكتاتورية.

حدثناهم عن تجاربنا في حفر نفق الفضيلية وكيف فشلت عملية هروبنا عن طريق صدفة سيئة.

القضية الصعبة والأساسية في سجن نقرة السلمان ليست حفر نفق تحت الأرض والخروج منه، بل هي أكبر من ذلك، في كيفية الوصول إلى المدينة عبر حوالي ٨ ساعات بالسيارة وعبر صحراء رملية قاحلة، فكم سيستغرق مشياً ومن دون دليل ؟ ذلك يشكل أكبرعقبة أمام عملية الهروب، ابتداء من قرية سجن السلمان أو من السجن مباشرة. إنها عملية كبيرة تحتاج لإمكانيات هائلة. كما يجب أن تخضع لدراسة مفصلة ومساعدة من الخارج (الحزب) بتهيئة سيارات أو حيوانات أو أي واسطة نقل والاعتماد على أدلاء

يعرفون الطرق خاصة وأن في منتصف الطريق يقع مركز شرطة (العميد) وأن أي سيارة تدخل نقرة السلمان تمر عليه. لذا لم نتحمس للأمر ولمشروع الرفاق.

سارت الحياة في سجن نقرة السلمان بشكل عادي رغم المشاكل السجنية المألوفة. بعد بضعة أشهر أبلغت مجموعة الفضيلية بالنقل إلى بغداد للمحاكمة.

في اليوم الثاني من تبليغنا حشرنا مع عدد من الموقوفين والمسجونين من المدنيين والعسكريين المنقولين إلى سجن الحلة في سيارات حصينة مشبكة. بعد أن ودعنا رفاقنا، ووعدناهم بأننا لن نعود إليهم وسنحاول تحرير أنفسنا بأية طريقة والالتحاق بالحزب، الذي هو أحوج ما يكون إلينا في هذه الظروف. ومن الجيد أننا أخذنا معنا آلات الحفر ومقصاً لقطع الأسلاك الحديدية. انطلقت بنا السيارات و كنا أكثر من خمسة عشر شخصاً. جلس السائق وعريف في صدر السيارة في حين اختار نائب عريف من الشرطة أن يجلس معنا في الخلف مع شرطيين يجلسان متقابلين. كان أحدهما الشرطي الحارس الكردي في مستشفى الديوانية، حين كان برتبة نائب عريف آنذاك، أما الآن فهو برتبة شرطي أول بخيط واحد.

كانت السيارة محملة بأدوات طبخ وحقائب وأفرشة وحاجيات أخرى، تعود كلها للسجناء المنقولين إلى سجن الحلة، مكدسة وسط السيارة.

كانت الحسرة تملأ قلبي عندما أرى الرفاق يمضون سنوات طوال من عمرهم بين جدران السجن وهم في عنفوان الشباب، يضحون بزهرة حياتهم للشعب والوطن.. تلك القدرات والكفاءات الكبيرة محبوسة بين أربعة جدران في صحراء نائية ومنذ سنوات طويلة! هل أن قدرنا هو السجون والقتل فقط ؟ ألا يحق للشعب العراقي أن يعيش كبقية شعوب العالم حراً ديمقراطياً، خاصة وقد قدم من الشهداء والتضحيات والدماء الكثير؟! متى تبزغ شمس الحرية وتفرغ السجون من الأحرار، ويرفع الظلم عن كل مظلوم وصاحب حق، ويعيش العراقي في أمان ؟ لمن هذه التضحيات التي نقوم بها، ماذا تحقق؟ لم كل هؤلاء الشهداء ؟ أكي يسموننا حزب الشهداء ؟! نحن نستشهد ويستلم الحكم غيرنا، كما يقول المثل (يكد أبو كلاش ويأكل أبو الجزمة !) أو مثل لطم شمودة (تلطم مع الكبار وتأكل مع الصغار) ؟

وتوصلت لاستنتاج أن يكون لنضالنا هدف، من أجل شيء محدد، بالاستفادة من تجارب الماضي المرير.

السيارات تقطع عباب الصحراء والغبار والرمل يملأ داخلها، وعيون الرفاق تقدح في تلك الظلمة والشرطة يلفون وجهوهم بالكوفيات (اليشامغ) الحمر، والقدور والصحون والطسوت تصيح وتتألم من كثرة الحركة وتخرج أصواتاً متنافرة، ورغم ذلك فقد استغرق بعض السجناء في النوم، وعلي بيده الكتر (المقص) يقطع به حديد السيارة ويضيع صوت القطع بصوت أواني الطبخ. وبدأ الظلام يسدل ستاره على الصحراء الرملية ويختلط الظلام بالغبار داخل السيارة، وعلي لم يكلّ عن العمل، حتى أنجزه.

كل شيء أصبح جاهزاً للنفاذ من قفص السيارة الحديد. عند مركز شرطة منطقة (العميد) توقفت السيارات الثلاث. وبعد فحص قدرتها على المواصلة، تحركت السيارات خائضة ما تبقى من الصحراء باتجاه مدينة السماوة.

غربت الشمس وفرض الظلام نفسه علينا، السيارة معفرة بالأتربة، الشرطة أنهكهم التعب وهم شبه نيام، والسائق ومن إلى جانبه من العرفاء، في صمت تام.

نهض ثلاثة من الرفاق وجلسوا فوق الأفرشة المكدسة وسط السيارة وسدوا الرؤيا أمام الحارسين.

لقد انتهت عملية حفر نفق في الفضلية بالفشل بسبب انهداد الفتحة، ولكن هذه المرة لا يمكن أن تنهدّ الفتحة بالسيارة كما حصل في فتحة النفق، وليس من حارس يقف في الربيئة، بل يجلس الحراس معنا وعلى مقربة عدة خطوات. إنها مجازفة ولكنها مطلوبة وهي محاولة كبقية المحاولات للتحليق نحو الحرية.

جلس أحد الرفاق إلى جانبي وهمس في أذني بأن كاظم (أبو قاعدة) نزل من فتحة السيارة. قمت من مكاني وجلست إلى قرب الفتحة وبحركة رياضية خرجت منها وانبطحت على الرمال. أجتازت السيارة المكان بحركتها البطيئة. رجعت باتجاه (أبو قاعدة) ولكني لم أعثرعليه أو أسمع صوته، ربما أنه ينزف دماً، ربما كسرت رجله أو ذراعه عندما نزل. أبتعدت عن المكان لأرى (علي) أمامي. قال :" لا تلومني ! فأنا كما تعلم محكوم بعشرين سنة، ورأيت الطريق مفتوحا أمامي فنزلت. وما يصيبكم يصيبني، وليكن ما يكون!" قلت له ليس وقت عتاب الآن. دفنت الرسائل التي كانت معي في الرمل. سألته فيما إذا كان غيره نزل من السيارة، فقال بأنه لا يدري.

ركضنا، باتجاه نور فانوس ضعيف وهزيل بان لنا عن بعد. قد يكون الأمل في

نجاتنا ونحن أشبه ما نكون في سفينة تمزقت أشرعتها وضلت الطريق وسط بحر لا قرار له، وفجأة تبرز أمام ملاحيها جزيرة. وبدون تفكير طويل يتجهون صوب الجزيرة. ونحن في صحراء رملية قاحلة لا ندري ماذا يخبئ لنا ذلك الليل البهيم، وأمامنا بصيص نور وأمل.

وقبل أن نصل، تأكد لنا أنهم رعاة. رحبوا بنا.. وشرحنا لهم وضعنا.. طلبنا مساعدتهم فأعطونا ملابس وطعاماً. أخبرناهم بأن رجال الشرطة سيعودون للتفتيش عنا بعد أن يصلوا إلى المدينة ويعلموا بهروبنا. تحركنا بصحبة شابين مسلحين. شاهدنا، ونحن نحث السير، سيارات الشرطة وقد عادت تبحث عنا. تحدثوا مع صاحب ماكنة السقي ثم واصلوا سيرهم. بعد أن ابتعدت سيارات الشرطة، واصلنا نحن الأربعة حتى سكة حديد البصرة ـ بغداد. ودعنا الشابين ونمنا حتى الصباح في إحدى السواقي الجافة، يلسعنا برد الصبح حتى بزوغ الفجر. توجهنا إلى أول قرية صادفتنا. سلمنا على امرأة كانت تغسل ملابس عند حافة النهر، فرحبت بنا وأخذتنا إلى بيتها. تكاد القرية أن تكون خالية من الناس وكأنها مهجورة. قدم إلينا، بعد بزهة، كهل فقلنا له بإننا جنود فارون ونريد أن يرشدنا لمدينة النجف. أخبرنا بأن شباب ورجال القرية دخلوا في معركة مع عشيرة أخرى وأن أكثرهم في التوقيف.

بعد أن أفطرنا أرشدنا الكهل إلى طريق زراعي بعيد عن دوريات الشرطة المحتملة. سلكنا ذلك الطريق فوصلنا إلى قرية. وأول ما لفت أنظارنا، امرأة تخبز في تنور. رحبت بنا وأخذتنا إلى بيتها، ثم جاء زوجها. بعد تناول الغداء أرشدنا الزوج إلى أحد معارفه في مدينة الخضر. تحركنا صوب الخضروبعد مسير طويل حتى حلول المساء وصلنا إلى الرجل المقصود.. رحب بنا.. طلبنا مساعدته فأبدى استعداده. نمنا عنده.

في اليوم الثاني داهمتنا الشرطة بسياراتها المسلحة مما اضطرنا الهرب إلى البساتين حتى وصلنا إلى شاطئ النهر. وبعد أن فشلت الشرطة في العثور علينا، ساعدنا أحد الفلاحين بعبور النهر. بعد رجوع الشرطة، كنا في الجانب الآخر. وأخذنا ذلك الفلاح الشهم وسار بنا لحين غروب الشمس، ثم ودعنا عائداً بعد أن اطمأن على سلامتنا. عبرنا نهراً صغيراً وسرنا في طريق كله شوك، حتى وصلنا إلى خيمة من الشعر لعائلة من الرعاة. رحبوا بنا وبقينا عندهم حتى الصباح. في الخامسة صباحاً جاء أحد الأخوين وأخذنا معه حتى أوصلنا مشارف عشيرة الشريفات. عاد على فرسه بعد

أن أعطانا (دسكرة) رسالة إلى أحد معارفه في قرية الشريفات. في تلك القرية، علمنا من خلال ابنة رئيس العشيرة، أن الشرطة قد ألقت القبض على الرفيق كاظم فرهود. ففي طريق عودتهم من بغداد، حيث ذهب الأب لمعالجة عينيه، سمعوا خبر اعتقال الرفيق في القطار.

تم إيصالنا إلى أخ الرجل المذكور، وكان يرعى غنمه، فسلمنا عليه، وسألناه عن أخيه. فأخذنا معه إلى بيته. لم يطل مكوثنا طويلاً حتى جاء شاب طويل نحيف القامة يحمل بندقية على كتفه. علمنا أنه الشاب المعني بالرسالة فسلمناها له. أثناء حديثنا، حتى بعدما جاءت امرأة ونادت عليه باسمه(سيد خضر) وسألته فيما إذا كان الضيوف سجناء هاربين من السجن أم جنود فارين من الجيش. فإن كانوا جنوداً هاربين لا خوف عليهم. وإن كانوا سجناء هاربين فإن ثلاثة سيارات مسلحة محملة بالشرطة نزلت في ضيافة الشيخ وهم يبحثون عن سجناء هاربين. وأن ثلاثة شرطة،من عشيرة الشريفات كانوا مع المساجين، موقوفون حالياً، ولا يطلق سراحهم إلا بعد إلقاء القبض على السجناء. قال الرجل والله لا أدري إن كانوا مساجين هاربين أو جنوداً فارين. ثم أخذني الرجل وسألني إن كنا جنود أم مساجين هاربين. فقلت له إننا مساجين هاربون والأمر يعود لك. فقال الرجل بكل رجولة ونخوة، رغم عويل أمه واضطراب عائلته :" تأكلون وتشربون وبعدها نتحرك."

وتحركنا نحن الثلاثة في طريق رملي صحراوي. كان يهتدي بالنجوم ببنات نعش. استمر مسيرنا حتى صباح اليوم الثاني.

دخلنا في الرابعة صباحاً خيمة أحد معارفه بعد أن نادى على صاحب الخيام واستغرقنا في النوم. بقينا بضع ساعات، ثم ودعنا رفيق دربنا ومنقذنا من الأزمة والورطة التي كدنا أن نقع فيها، وهو يوصينا: " ضعوا الشمس أمامكم وأنتم تصلون إلى مشارف مدينة الناصرية."

كان إنساناً نبيلاً وشجاعاً وغيوراً. انطلقنا واضعين الشمس أمامنا ماشين في ريف لا نعرف أوله من آخره..طريق مجهول لا نعرف إلى أين سيقودنا ! في المساء وصلنا إلى مشارف قرية، يبدو على أهلها أنهم أقرب إلى أهل المدن منهم إلى أهل الريف، الفلاحين، ويبدون كأنهم زراع من ناحية ومالكي أرض، وأصحاب سيارات نقل، تبدو عليهم ملامح النعمة. استقبلنا أصحاب الدار التي طرقنا بابها ورحبوا بنا كضيوف.

قلت لصاحب البيت، إننا جنود هاربون من الحرب نطلب مساعدتكم في الوصول إلى مدينة الناصرية ومنها نريد التوجه إلى مدينة البصرة.

بعد فترة وجيزة حضر رجل يبدو عليه أنه بدوي، ذو لحية بيضاء قصيرة وشاربين. اتفق مع صاحب البيت على أن يأتي في الصباح. بعد نوم عميق، حضر البدوي وأخذنا معه، بعد أن ودعنا أصحاب الدار وشكرناهم على موقفهم معنا. سرنا حتى الظهر وقد كلت أقدامنا من المسير. وصلنا لأحد البيوت التي تقع في منتصف الطريق. حاولنا أن يأخذنا صاحب البيت بسيارته لمدينة الناصرية أو البصرة. في البداية وافق على الطلب ثم تراجع قائلاً إن الشرطة تفتش كافة الطرقات والسيارات وحتى جنائز الموتى ولا نعرف السبب؟ وأنا لا أستطيع المجازفة بسيارتي خاصة وقد أشتريتها بمبلغ كبير وبالأقساط. ولما سمعت كلامه قدرت أنه قد علم بهروب سجناء من سجن نقرة السلمان وأن الشرطة تفتش عليهم. وربما أخذ يشك بنا بعد أن تفحصنا جيداً. تركناه والدليل معنا ومشينا حتى غروب الشمس لنصل إلى مجموعة من الخيام. قال دليلنا: " يمكنكم المبيت هنا وسوف أذهب للمدينة لمعرفة الأخبار وإيجاد واسطة لإيصالكم. أعود إليكم صباحاً." حدد المكان الذي سوف نلتقي به يوم غد وذهب.نزلنا من التلة. دخلنا خيمة كبيرة فيها أفرشة ودلال لصنع القهوة وموقد مطفأ وإلى جانبها خيمة صغيرة مخصصة للعائلة. الفلاح، صاحب المكان ترك عمله في أرضه وجاء للترحيب بنا واستضافتنا. بعد العشاء استسلمنا لنوم عميق حتى مطلع الفجر. هيأنا أنفسنا للرحيل بعد أن أفطرنا عند الرجل الكريم. ودعناه وذهبنا إلى المكان الذي حدده لنا دليلنا ورفيق طريقنا. طال انتظارنا في منطقة لا نعرف مسالكها. بعد برهة أطل علينا الرجل لينقل إلينا أخباراً غير سارة ,فهو لم يحصل على واسطة نقل وأن الشرطة مستنفرة وتفتش دواخل ومخارج المدينة وجميع الطرق والقطارات، ولا يستطيع المجازفة. أخذنا معه وسرنا إلى مكان آخر ربما يستطيع الحصول على واسطة من أحد معارفه لمساعدتنا. كان الرجل صادقاً معنا. سرنا خلفه حتى الظهيرة وقد أخذ التعب والجهد منا مأخذاً، لنصل إلى منطقة منعزلة فيها قبة لضريح.

قال الرجل تجلسون هنا وسوف أعيد المحاولة، عسى أن تكون الأمور قد هدأت. ثم طلب منا دينارين يعطيها كعربون في حالة عثوره على واسطة نقل لنا.

وبعد دخولنا الضريح علمنا أنه لـ (سيد خضير). وهو مزار تؤمه النساء ويقدمن

النذور إليه لطلب شفاعة أو رجاء، والمسؤول عن رعايته زوجان فقيران يسكنان الضريح مع أطفالهما شبه العراة.

جاءت إلينا المرأة فقلنا لها إن كان بالإمكان أن تعطينا خبزاً وشاياً، وأعطيتها ربع دينار ثمن الخبز والشاي.

انتظرنا عودة دليلنا البدوي، بدأ القلق ينمو في داخلنا. وبعد أن تناولنا الخبز والشاي،قلت لعلي بأنن قد أخذنا قسطاً جيداً من الراحة، لنخرج علنا نجد مخرجاً من ذلك المأزق. قاربت الساعة الرابعة عصراً ودليلنا لم يعد. رجعنا مرة أخرى للضريح. عند جلوسنا داهمتنا المرأة وهي تسأل :" لم رجعتم ؟ يظهر أنكم غرباء عن المنطقة (ومصاروة) !" ولم نفهم ماذا تقصد بمصاروة هل نسبة إلى مصر، إلى منطقة في العراق نجهلها. وقالت إذا لم نخبرها بقصتنا ستخبر الشرطة عنا. ثم أضافت قبل أيام جاء إلى المكان فلسطينيون، فشككت بأمرهم وأبلغت مركز الشرطة عنهم فاعتقلوهم.

حديثها وهجومها المباغت أربكنا حقاً.فبعد كل الجهود والمشقة التي مررنا بها، نقع في ذلك المطب على يد امرأة بسيطة، تسلمنا للشرطة بكل سهولة نحن الذين دوخنا الشرطة طيلة تلك الفترة !

بدرت من (علي) فكرة غير متوقعة ! وعلي كان عاملاً فنياً يسكن مدينة البصرة إلا أن انحداره فلاحي ومن عائلة أصلها من ريف البصرة.

بادرها بكلام هز كيانها وبدل موقفها، ذاكراً لها بأن أختنا منهوبة وسمعنا أنها تتردد على الضريح وعسى أن نلتقيها! قالها بصوت مرتبك ومؤثر.

تغيرت سحنة ولهجة المرأة (القائمة على الضريح، وضربت كفاً بكف. دمعت عيناها المتعبتان. أثناء ذلك مرت من أمامنا مجموعة من النساء يحملن (صواني) فيها (حنة وأغصان الياس وشموع وحلويات) يبدو أن لديهن (نذر) يردن الوفاء به، أو يطلبن نذر (من سيد خضير). فما كان من صاحبتنا إلا إخبار النساء الداخلات للضريح وهن يحملن الصواني على رؤوسهن، عن أن أولئك الشباب قد نهبت أختهم وهم يريدون العثور عليها. فأخذت النساء المنذورات ينظرن إلينا بعطف.

وبهذه الأكذوبة التي دبرها علي استطعنا البقاء.

لم يدم بقاءنا طويلاً في ضريح سيد خضير. خاصة وأن الليل بدأ يرسل خيوطه. وإن مكوثنا هناك لا يجدي نفعاً؛ ولربما نتعرض لمخاطر نحن في غنى عنها.

خرجنا من الضريح، وفتشنا عن طريق يؤدي بنا إلى النجاة. على الجهة اليمنى كانت تقع سكة الحديد وصحراء قاحلة، وعلى اليسار تقع المدينة.إن ذهابنا عن طريق سكة الحديد الصاعد للبصرة قد يعرضنا لعدة مخاطر خاصة وأن الليل بدأ يزحف ونحن لا نحمل أي سلاح أو هوية، وربما نتعرض لهجوم الذئاب أو نتعرض لحادث اغتيال على يد لصوص. سلكنا الطريق المؤدي إلى المدينة تاركين الضريح والأخت المنهوبة وصاحبة الضريح خلف ظهورنا. وصلنا قرب القاعدة البحرية في الناصرية التي كانت تقع على الجهة الثانية من الفرات. استمر بنا المسير على الساحل الغريني للشط، حتى خيم الظلام.كنا حفاة وكثيراً ما غطست أقدامنا في الطين. اتجهنا صوبكوخ القصب الذي لاح لنا من بعيد في بستان على الشاطئ. شاهدنا رجلاً ينشر شباك الصيد.

محطة جيدة لاستراحتنا بعد الغوص في طين الشاطئ. سلمنا على الرجل فرحب بنا وقادنا إلى الكوخ. وعندما فرغ من نشر شباكه جلس إلينا محدثاً.من خلال حديثه فهمنا أنه كان يعمل في الجمعيات الفلاحية وأنه من مؤيدي ناجي طالب[٢٣٠].

فاتحته إن كان يستطيع مساعدتنا للوصول إلى مدينة البصرة، فوعدنا خيراً وذهب.

ومع زقزقة عصافير الصباح وتغريد البلابل استيقظنا مبكرين. بعد الفطور أخبرنا الرجل أن سيارات مصلحة نقل الركاب الحكومية تمر عبر الشارع العام ذاهبة إلى قضاء (سوق الشيوخ)[٢٣١] بإمكاننا ركوبها وهي رخيصة ولا يوجد فيها تفتيش. ومن هناك نستطيع السفر إلى البصرة سواء عن طريق السيارات أو عن طريق السفن الشراعية (المهيلة).

خرجنا إلى الشارع العام، وركبنا حافلة نقل الركاب إلى سوق الشيوخ. إن ركوب سيارة بعد هذا المسير الطويل الشاق والمطاردات يعتبر قفزة نوعية كبيرة. تذكرت أغنية كوكب حمزة "أتاري العمر محطات."

في سبيل الوصول إلى الحزب اجتزنا كل تلك المصاعب ومررنا بكثير من المحطات والمطبات. وتذكرت طرفة :"عساها بختك رفيق لينين!"[٢٣٢].

وصلنا سوق الشيوخ بسلام. حركة السفن الشراعية متوقفة عندما اتجهنا إلى الشاطئ. الحمالون ينوؤون بخصافات التمر (الحلانات) وهم ينقلونهاعلى ظهورهم إلى (المهيلات)، الناس في حركة دائمة. النقل إلى البصرة متوقف. دوريات الشرطة والجمارك تفتش الشاطئ. سألنا أحد الحمالين قال بعد ثلاثة أيام سوف يتحركون صوب البصرة. اتجهنا نحو سوق المدينة علنا نجد واسطة نقل أكثر أمناً. جلسنا في أحد

المطاعم.طلبنا كباباً ولبناً. كانت هناك باص خشبي متجه للبصرة. قلت لدلال الكراج بأننا جنود فارين وليس لدينا دفاتر خدمة أوهويات إذ قد تركناها في المعسكر في الشمال، وهل توجد إمكانية لمساعدتنا. قال تعالوا بعد نصف ساعة وسوف أدبر أمركم. وبعد نصف ساعة كان الباص الخشبي المحمل بأكياس الرز "وخلال مطبوخ" (وهو نوع من الرطب المطبوخ المجفف). في الساعة الثالثة انطلقت السيارة. مررنا بعدة صعوبات. وصل الباص في الساعة الخامسة من صباح اليوم الثاني إلى مدينة الزبير، حيث غادره أغلب الركاب. ولم يبق سوى مؤجر الباص والسائق وأنا وعلي. نزل علي في محلة البصرة ونزلت أنا في منطقة العشار. البصرة ثغر العراق الباسم وميناءه المطل على الخليج حيث طفولتي وشبابي. تذكرت ساحات كرة القدم ومدرسة الأمريكان وكمب الأرمن وأم البروم الساحة التي لا تنسى وصيد السمك على شط العرب وأيام الدراسة مررت بمناطق فارقتها منذ زمن طويل.

توجهت إلى بيتنا في العشار.كان شكلي يدل على أنني فلاح متدين نزل لتوه إلى المدينة. لحية سوداء طويلة، ملابس عربية عقال وكوفية ومسبحة طويلة سوداء ونعل وعصا.

كل أوصافي التي يعرفها محسن، أحد أقاربي، قد تبدلت. عندما هممت بالدخول إلى البيت وقد صادفته في الباب،إذ كان متوجهاً إلى عمله، منعني من الدخول، قائلاً ماذا تريد أيها الرجل من أنت؟ ظنني متطفل أو متوهم بالعنوان. قلت له دعني أدخل وسوف تعرف من أنا.

ولما منعني أزحته برفق ودخلت للبيت. عندما تميزني أخذ يبكي وضمني فرحاً وحزناً[٢٣٣].

حزنت كثيراً لوفاة والدي، الذي وافاه الأجل وأنا سجين في نقرة السلمان بعد ٨ شباط ١٩٦٣. مات كمداً وقهراً ذلك الذي دأب على أن يزورني أينما حللت وفي أي سجن وضعت. لا أنسى كلماته التي كان يرددها دوماً بعد ٨ شباط (الله ينتقم منهم ومن علمهم).

استقبلتني والدتي وهي بملابسها السوداء حزناً على رفيق عمرها، الذي فقدته في ظروف هي أحوج ما تكون إليه.

بعد كل ذلك الغياب وذلك الزمن العصيب بدأ فصل جديد، صفحاته ملأى بصعوبات ومشاق جديدة، تعكس معاناة المناضلين من أجل الحقوق الديمقراطية ومن أجل لقمة العيش الهنيئة، ذلك الصراع المتواصل ضد الحكام الرجعيين والدكتاتوريين.

القسم الخامس

مسيرة الأعوام القادمة

الفصل السابع عشر

المسيرة خلال الأعوام اللاحقة

بعد أن أمضيت مايقارب الشهرين مختفياً في البصرة، بعد هروبنا أنا وعلي من سيارة الشرطة في طريق نقرة السلمان، ونحن في طريقنا للمحاكمة، سافرت إلى بغداد مع أخي عادل.

كانت زوجتي قد أكملت مدة سجنها البالغة ٤ سنوات في سجن النساء في بغداد ولديها ٣ سنوات أخرى تقضيها تحت مراقبة الشرطة، وعليها أن تذهب مرتين في اليوم إلى مركز الشرطة لتوقع إثباتاً لوجودها.

التقينا في ظروف صعبة، أنا هارب من السجن وهي قد خرجت لتوها من السجن ولازالت تحت مراقبة الشرطة، لا بيت يجمعنا؛ إذ كنت أتنقل مختفياً من بيت لآخر. كنا مشردين بعد أن نهب الحرس القومي كل شيء منا.

بعد طول معاناة التحقت بمنطقة بغداد للحزب ونسبت للعمل فيها. استأجرت داراً في منطقة قريبة من منطقة الحرية الأولى، والتحقت زوجتي بي. كانت تخرج في الصباح إلى بغداد الجديدة للتوقيع في مركز الشرطة فشعرت في أحد الأيام أن هناك من يراقبها. وبعد أن تأكدنا من ذلك اضطررنا للانتقال من البيت وأصبح كل منا يسكن في مكان آخر.

منذ انهيار ثورة ١٤ تموز وما جرى للحزب والشعب بعد انقلاب ٨ شباط الأسود من تصفية لقيادة الحزب وكوادره واستباحة كل القوانين والأعراف، واستمرار الحكم العسكري اللاديمقراطي للقوميين في عهد العارفين اللذين حكما العراق. لم تتوقف عملية الإعدامات، ولازال المئات من الشيوعيين والديمقراطيين في السجون، وملاحقة الديمقراطيين لم تنحسر، خاصة وأن الكثير من عملاء العهد الملكي، خدم الإنكليز،

عادوا ليرفعوا رؤوسهم وأصبح لهم دور في الأوضاع السياسية. كانت الخلافات على أشدها داخل الحزب. فأكثر كوادر الحزب وقاعدته ضد القيادة اليمينية وضد خط آب. وكان الصراع على أشده في عموم الحزب وخاصة في منطقة بغداد، حيث يتراشق الرفاق بالتهم وتبدأ النقاشات قبل الاجتماع وتستمر بعده. وكانت هناك فكرتان:

(١) العمل العسكري وما سمي (بالعمل الحاسم).

(٢) خطة إثارة الحرب الأهلية بواسطة مفارز مسلحة صغيرة وتستبعد دور الجيش واشتراكه لحسم الأمور، باعتباره من الأدوات القمعية والعمل الحاسم هو الاعتماد على الجيش باعتباره القوة الضاربة الرئيسة، ولا تعتمد هذه الخطة على حركة الجماهير المنتفضة الواسعة. وبهذا لا يتم الاعتماد على قوانين تطور الثورة وعلاقات الإنتاج والتناقضات بين الفئة الحاكمة والشعب... إلخ وهي ما تعرّفة المادية الديالتيكية. وأن اللعب بالثورة يعني الموت مقدماً.

كانت الخطتان نابعتين من روح اليأس ورد الفعل لما آل إليه وضع الحزب والشعب بعد انقلاب ٨ شباط الأسود. كما راود قيادة الحزب المتبقية الأمل بالتطور اللارأسمالي للبلد، كما في مصر والجزائر وأن تتحول البلاد إلى طريق الاشتراكية على يد عبد السلام عارف... إلخ.

الكل متذمر، الكل ساخط، الكل يعض أصابع الندم، لا أحد يصغي لرأي الآخر. كانت فترة عصيبة تماماً. كان رأيي بأن أي عمل عسكري إذا ما أحكم كما جرى قبل ثورة تموز فإن الشعب سيسانده إن كانت وجهته تقدمية وديمقراطية حقاً. كما أن أي انتفاضة جماهيرية إذا ما استكملت قوانينها وتهيأت ظروفها المسبوقة بإضرابات عمالية وانتفاضات فلاحية وحركة جماهيرية، كما كان عليه الوضع قبل ثورة ١٤ تموز، فإنها سوف تنتصر إذا ما حظيت بمساندة الجيش..

لقد تغيرت الأمور التي أعقبت شباط ١٩٦٣ كثيراً. كان من الصعب أن يقوم الجيش بانقلاب عسكري تقدمي بعد التصفيات التي جرت فيه. فالسجون والمواقف ملأى بالعسكريين ويحتاج ذلك لعمل استنهاضي دؤوب وصبور، إضافة إلى خلق التنظيم القادر على القيام بعمل حاسم. كما أن ثورة تموز سبقتها أحداث منذ ثورة العشرين حتى عام ١٩٥٨..إضرابات ومظاهرات واعتصامات..عداء سافر ضد

الإنكليز..انقلابات..تمردات عسكرية كحركة (بكر صدقي) و (رشيد عالي الكيلاني) والحركة المسلحة في كردستان العراق، هجوم وتراجع ومد وجزر... إلخ حتى نضجت الثورة التي قام بها الجيش بقيادة عبد الكريم قاسم. وليس هناك زر كهربائي تضغط عليه فتنزل الجماهير والجيش إلى الشوارع فتحدث الثورة. في حينها جرى اعتبار تلك الآراء لعبة لتعميق الجروح وبادرة خطرة لانشقاق الحزب.

عقد كونفرنس عمالي في عام ١٩٦٧ لمنطقة بغداد بعد الجزر الذي أصاب الحركة العمالية، حضره عدد من الكوادر العمالية وبعض المختصين في القضايا العمالية لوضع أسس للنهوض بالحركة النقابية والعمالية. وعقد الكونفرنس آنذاك في ظل حماية مسلحة. تمخض الاجتماع عن قرارات جيدة. ووضعت خطة للنهوض بالحركة النقابية والعمالية وصيانة التنظيمات وتطويرها.

بعدها حدث الشرخ الكبير من قبل الرفاق الناقمين على الوضع وعلى السياسة العامة للحزب وعلى بعض العناصر اليمينية باتجاه يساري، فحدث الانشقاق وتم الإعلان عن قيام قيادة وتنظيمات أخرى سميت بالقيادة المركزية، ليصبح وضع الحزب أكثر تعقيداً. جرى ذلك في ١٧ أيلول ١٩٦٧.

الكونفرنس الثالث

زادت الدعوة بضرورة عقد كونغرس أو مؤتمر وطني للحزب للنظر بالمشاكل التي تنتابه وضرورة استقرار سياسته. فجرت الدعوة لعقد الكونفرنس الثالث للحزب. دعي لحضوره كافة الكوادر المتبقية من الخارج والداخل. سافرنا إلى كردستان إلى منطقة (داربسر)، فانعقد الكونفرنس في بيت الكادر الشيوعي الفلاحي علي مولود في شهر كانون الأول ١٩٦٧ حضره (٥٥) مندوباً وعدد من المراقبين(؟) وأعضاء ل.م، من بغداد ومن المنطقة الجنوبية والفرات الأوسط وفرع كردستان وممثلين عن لجان الاختصاص.

وكانت نسبة العرب ٦٢٪ والأكراد ٣١٪ والأقليات ٧٪. وأقر الكونفرنس وثيقة تقييم سياسة الحزب من عام (١٩٥٦ ـ ١٩٦٧)، كما أقر الكونفرنس تحديد أسلوب الكفاح (العنف) كأسلوب رئيس وليس كما أعلن سابقاً بأن أسلوب كفاحنا هوسلمي

وليس عنفياً. كما أقر الكونفرنس البرنامج والنظام الداخلي على أن يعرض على أول مؤتمر للحزب. وانتخبت لجنة مركزية وأصدرت جملة من القرارات كما حرّم التحالف مع الجناح اليميني لحزب البعث.

كما اتخذ قرار مهم حول المسألة الكردية جاء فيه: "إن حركة الشعب الكردي الوطنية التحررية جزء من الحركة الديمقراطية الثورية في العراق"... إلخ.

إن اتخاذ مثل تلك القرارات لم يكن بمعزل عن الصراع الحاد في الكونفرنس، والموجه ضد الاتجاهات والعناصر اليمينية في الحزب. دام الكونفرنس، كما أتذكر، عشرة أيام.

كان السخط شديداً ضد العناصر التي اعتبرت رموزاً للخط اليميني إبان حكم قاسم وسبباً في عرقلة السياسة التي تبناها الرفيق سلام عادل وجمال الحيدري ومن معهم. وتوضح ذلك الرفيقة أم إيمان في الكتاب الذي أصدرته باسم سيرة مناضل (سلام عادل).

يكون الجو بارداً في كردستان في كانون الثاني ولهذا فقد تمت تدفئة قاعة الاجتماعات بواسطة مدفأة في المنتصف [٢٣٤] في بيت الرفيق علي مولود. كان أحد الرفاق يجلس بالقرب من المدفأة. فكان كلما ينهض يستعين بالمدفأة فتحترق يديه. وعلي مولود صاحب البيت يراقب ذلك.

ثم أن قاعة الاجتماعات كانت مضاءة (بالكوكسات). فنهض المرحوم الرفيق عامر عبد الله فضرب رأسه باللوكس وعلي يراقب المشهد. بعد الطعام الذي كان من (دبس وراشي) نهض عامر ليغسل فمه ويديه فضرب رأسه باللوكس مرة ثانية، و بعد برهة نهض لقضاء حاجة فضرب رأسه أيضاً، فصاح علي مولود: "كاكه ثلاث مرات يضرب رأسك اللوكس وهو مضاء ولم تراه فكيف ترى مشاكل الشعب الصغيرة؟!" فضجت القاعة بالضحك. كان أحد الرفاق يدون الملاحظات منذ أيام، فلما جاء دوره بالكلام أختفى صوته نهائياً ولم يستطع قراءة كلمة واحدة بعد كل ذلك الجهد!.

تكلم أحد الرفاق عن قضيته وكيف أزيح من مركزه وكيف كتب عدة رسائل وقد طال بالشرح مدة من الزمن بحيث ضاق صدر المندوبين. فقام له أحد الرفاق قائلاً له: "أشوف الحزب ما عمل ثورة، أتاري ملتهي بقضيتك! "

قلت إن الكونفرنس قد خرج بقرارات وتوجهات جيدة للعمل.

ونُسِّبت بعد الكونفرنس الثالث للعمل في المنطقة الجنوبية للحزب، التي تضم البصرة والناصرية والعمارة ونسب لمسؤوليتها الرفيق شاكر محمود، الذي كان قد عاد من الدراسة في الخارج. والرفيق أبو علاء ورفيقين آخرين لا أتذكرهما.

وبعد جهود مضنية أعدنا الارتباط بالعديد من الرفاق. وأعيد بناء المنظمات وتعززت روح الثقة بالمستقبل. وكان عام ١٩٦٨ مليئاً بالنشاط الدؤوب لإعادة بناء منظمات الحزب.

فكرنا، شاكر وأنا، بإصدار جريدة للمنطقة الجنوبية [٢٣٥]، وبعد أن حصلنا على حروف ومطبعة يدوية أصدرنا بياناً سياسياً باسم المنطقة الجنوبية.

انتدبت عام ١٩٦٨ للدراسة الحزبية لمدة سنة في موسكو. وتلك هي المرة الأولي التي أغادر فيها العراق للدراسة. كنت بحاجة ماسة للدراسة والإطلاع والراحة بعد تلك الدورة العنيفة من العمل والسجون والاعتقالات والتعذيب. سافرت عن طريق أحد معارفي في الكويت ومن هناك إلى لبنان ومنه إلى موسكو، بالباخرة عبر بيروت، الإسكندرية، وتركيا، بلغاريا ثم إلى أوديسا. كانت الباخرة محملة بالطلبة والمسافرين للاستراحة، كانت سفرة ممتعة رغم أنه قد أصابني دوار البحر؛ فتلك هي المرة الآولى التي أسافربها على متن باخرة لمدة طويلة.

كان وفدنا كبيراً وكان معنا الكثير من الرفاق[٢٣٦]، هذا إضافة إلى وفود من الأحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان وإسرائيل، أمريكا اللاتينية، وفرنسا وأسبانيا وفلندا.. إلخ.

في موسكو، كان وفدنا يحظى باحترام الهيئة التدريسية وكافة الوفود المشاركة. كما كان هناك عدد من الرفاق ممن سبقونا وأنهوا دراستهم، في طريقهم للعودة إلى الوطن.

وبعد إكمال المدة الدراسية التي طالت سنة، كنت أول العائدين للعراق.

توفرت في العراق حينذاك عوامل عدة للنهوض الثوري.فهناك تحرك جماهيري نتيجة النقمة على البعثيين والقوميين. فالقوميون؛ من القوميين العرب ومدعي الناصرية والبعثيين ارتكبوا أبشع المجازر ومارسوا شتى ألوان الاضطهاد بحق الشعب

العراقي وقواه الديمقراطية وأحزابه وتنظيماته السياسية وسودوا وجه القومية العربية، خاصة البعثيون، دعاة الوحدة والحرية والاشتراكية. وتمتد جرائمهم بين "الوحدة" التي حققوها باحتلالهم أرض الكويت والتآمر على البلدان العربية والحرية التي استعملوها وأدعوها ، بملء السجون والمعتقلات والقتل الجماعي وإبادة الشعب الكردي باستعمال الغازات السامة في حلبجة التي راح ضحيتها خمسة آلاف إنسان، وإلى جرائم الأنفال التي راح ضحيتها (١٨٠) ألف إنسان وتغييب خمسة آلاف بارزاني من الوجود. هذا ناهيكم عن انتهاك أعراض الناس، واستعمال المواد الكيمياوية السامة في منطقة بهدينان وفي شيخ وسان والتهديد باستخدام المواد الكيماوية بعد انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية. وحرق الأهوار والقتل الجماعي للفلاحين، ومصادرة الحريات الديمقراطية للأحزاب والتنظيمات الديمقراطية. أما الأشتراكية التي طبقوها فهي المساواة بالجوع والحصار وإغناء فئة من بطانتهم وملء خزائنهم بالذهب وبمليارات الدولارات وبناء القصور واحتلال الأراضي ونهبها من مالكيها و ضمان٥٪ من حصة النفط للرئيس القائد (حفظه الله) والحروب وفرض الحصار وإدامته وموت مئات الآلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتشار الدعارة والرشاوي والسرقات...

إن التاريخ لن يرحم أدعياء القومية والوحدة والاشتراكية والحرية هؤلاء، وسيعاقبهم الشعب يوماً على جرائمهم النكراء.

توضحت بوادر النهوض الثوري[٢٣٧] بعد نكسة حزيران والدعوة لحكم ديمقراطي وحل المسألة القومية للشعب الكردي. لقد ناضل الحزب طويلاً من أجل تمتع الأكراد بالحكم الذاتي وإيقاف الحرب ضدهم. ففي عام ١٩٦٦ مثلاً قدم الحزب رسالة للأحزاب الشيوعية والعمالية ذكر فيها معاناة الشعب الكردي. وفي ١٩٦٣ أسس قواعد عسكرية وقاتل جنباً إلى جنب مع القوى المسلحة الكردية.

وخشية تطور الحركة الوطنية باتجاه ديمقراطي قامت فلول البعث، بمؤازرة خارجية، في ١٧ تموز ١٩٦٨ بالإطاحة بحكومة (عبد الرحمن عارف) وبالتحالف مع كتلة (النايف ـ الداوود) العسكرية والاستيلاء على السلطة. ووفاء لعهودهم. (كما هم دائماً) أطاحوا في ٣٠ تموز بكتلة النايف ـ الداوود وانفردوا بالحكم.

إلى جانب انشقاق جماعة القيادة المركزية كما ذكرت سابقاً، حصل انشقاق جماعة

الكادر المتقدم الذي تزعمه إبراهيم علاوي وأصدروا بياناً يعلنون فيه انشقاقهم عن الحزب، (كانوا في البدء، ضد سياسة الحزب وضد القيادة المركزية ثم توحدوا معهم). بذلتُ جهوداً مع بقية رفاق لجنة المثقفين وخاصة الرفيق صباح الدرة (الذي ضيع البعث أثره بعد اعتقاله) بعدم جدوى الانشقاق حالياً، وأن الحزب يمر بموقف حرج بعد انشقاق القيادة المركزية فلم يقتنع. قلت له إن عملكم هو تخريب وانتهازية واستغلال ظرف غير صحيح وأن الحزب سينهض من جديد رغم الأزمات التي يمر بها. كان الجميع تحت تأثير الإخفاقات التي مرت على الحزب والشعب.

عند عودتي من الدراسة عملت ضمن المنطقة الجنوبية.

كانت المنطقة الجنوبية اسماً فقط واللجان والهيئات مفككة وضعيفة، وعدد أعضائها قليل، ولا توجد لجان محلية في الناصرية والعمارة بل بقايا رفاق مبعثرين. بذلنا جهداً لإعادة بناء اللجان المحلية، فتكونت نواة من التنظيمات الحزبية المحلية شكلناها ومن خيرة الرفاق. وبعد جهد ومثابرة تكونت اللجان المحلية في العمارة والناصرية وفي البصرة وكانت الأخيرة أكثرها نمواً واستقراراً. وتكونت اللجان الأخرى كاللجان العمالية والفلاحية ولجنة المثقفين وكانت اللجنة الطلابية في جامعة البصرة الأكثر نشاطاً وقوة.

واستطعنا في الانتخابات العمالية رغم التزوير والإرهاب والتهديد، الذي مارسه الأمن والبعث، أن نحصل على العديد من اللجان النقابية في الميناء، والسكك والنفط، ثم جرى حلّها من قبل البعث وجرى تزويرنتائجها واضطهاد العمال وضربهم!! كما فصل بعضهم من العمل وسادت النقابات بعض المظاهر المنبوذة اجتماعياً باسم البعث مثل الاعتداء على العمال (وخصوصاً الشيوعيين منهم) بالضرب والإهانات وطردهم وتهديدهم...الخ. كما استطاعت القوائم العمالية الديمقراطية الحصول على لجان نقابية في نقابة سائقي السيارات والخياطة والميكانيك.

استطعنا أن نجمع أوساطا جيدة من العمال النقابيين مثل (هندال الجادر) وغيره من الرفاق والأصدقاء ممن كانوا في السجون، وأصبحنا قوة في جامعة البصرة وامتد نفوذ اتحاد الطلبة ليشمل العديد من الكليات والثانويات. وكذلك في أوساط المعلمين والمنظمات الفلاحية، خاصة في أبي الخصيب والقرنه والسيبة، علاوة على إيجاد ركائز

فلاحية في الناصرية وخاصة في الرفاعي والشطرة. وأفلحنا أيضا في الناصرية بتشكيل بعض التنظيمات بين أوساط بعض المثقفين.

أصدرنا بياناً حول نتائج الانتخابات العمالية وتحسنت أوضاعنا المالية من الاشتراكات والتبرعات وفتح الكثير من أصدقاء الحزب بيوتهم لنا.

ورغم ذلك كان الناس، وهم على حق، متخوفين من البعث، لما قاسوه أيام ٨ شباط الأسود ١٩٦٣. وفي الانتخابات الطلابية سنة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ حصل اتحاد الطلبة العام على الكثير من المواقع، و هذا ما حصل أيضا مع رفاقنا في انتخابات المعلمين والاقتصاديين.

انتهج البعث سياسة الاغتيالات والإرهاب، والشعوذة ومحاربة القوى الديمقراطية. فجرى في يوم ٢٨ حزيران عام ١٩٦٩ اغتيال عضو اللجنة المركزية للحزب مسؤول التنظيم العسكري الرفيق (ستار خضير). وفي يوم ٢٠/٢١/آذار ١٩٧٠ اختطف الرفيق عضو لجنة منطقة بغداد (محمد الخضري) وتم اغتياله عربوناً للاعتراف بالحكم الذاتي الذي تم التوصل إلى صيغة له في ذلك العام. تم قبل ذلك اغتيال الكادر الشيوعي الدكتور (عبد الرزاق مسلم)، استاذ الاقتصاد في جامعة البصرة، وشيع جثمانه بمظاهرة طلابية وجماهيرية في البصرة. جرى إطلاق النار على العمال في مصنع الزيوت النباتية، وكذلك العمال المحتفلين بذكرة ثورة اكتوبر.. فتح قصر النهاية لتعذيب الرفاق من القيادة المركزية وقتل الكثير منهم تحت التعذيب.. عرض عزيز الحاج في ٣ نيسان ١٩٦٩ على شاشة التلفزيون.. وشنت حملة واسعة ضد الحزب الشيوعي. وفي١٩٦٩ـ ١٩٧٠ اشتدت الهجمة الوحشية على منظمات الحزب الجنوبية، بل أنها شملت أكثر مناطق العراق، واقحم العشرات بل المئات من الرفاق، سواء من (القيادة المركزية) أو من رفاق الحزب، في سجن قصر النهاية الرهيب.

ويمكن الرجوع إلى كتاب الرفيقين زكي خيري وسعاد (دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي) المجلد الأول الصادر سنة ١٩٨٤ للإطلاع على اللوحة السياسية قبل وبعد مجيء البعث ١٩٦٨ للسلطة مرة ثانية ومواقف الحزب.

وتحملت المنطقة الجنوبية للحزب عبئاً كبيراً بسبب الإرهاب المتواصل.

لم تكن لدى حزب البعث قاعدة جماهيرية ولا كادر حزبي معروف في المنطقة

الجنوبية، إذ اعتمدوا على عناصر غير معروفة ومنبوذة اجتماعياً وعلى الإرهاب لتوسيع قاعدتهم وتوسيع منظماتهم ونفوذهم وتبعيث الناس وشراء الذمم وتحت طائلة التهديد والترغيب.

شملت حملات التصفية لمنظمات حزبنا في ١٩٧٠ اللجان المحلية الفتية في البصرة والناصرية والعمارة وعموم المنطقة الجنوبية وجرى إسقاط العديد من الرفاق بالقوة، وشل العمل لفترة من الزمن، إلا أننا واصلنا العمل السري لإعادة بناء المنظمات. وما أصاب المنطقة من إرهاب شمل منظمات الحزب في بغداد والفرات الأوسط وكردستان أيضاً. إن حملات تصفية منظمات الحزب لم تتوقف.

المؤتمر الثاني آب - أيلول ١٩٧٠

كانت الإجراءات جارية من أجل عقد المؤتمر الثاني. تمت دراسة الوثائق في منظمات المنطقة الجنوبية وقدم الرفاق والمنظمات الكثير من الملاحظات والاقتراحات حول البرنامج والنظام الداخلي الذي أقره الكونفرنس الثالث.

حضر المؤتمر (١٠٢) مندوباً وتخلف عن الحضور (٣) رفاق هم ستار خضير ومحمد الخضري وعبد الأمير سعيد لاستشهادهم على يد البعث. ولأسباب فنية لم يحضر بعض آخر من المندوبين. كما حضر عدد من الرفاق كمراقبين.

انعقد المؤتمر في كردستان على سفوح جبل هندرين. زينت قاعة المؤتمر بالشعارات الوطنية والأممية. عشية عقد المؤتمر أعلن عن استشهاد الرفاق (كاظم الجاسم) الكادر الفلاحي المعروف والرفيق (عزيز حميد)، تحت التعذيب في قصر النهاية. حضرنا أنا وشاكر محمود وعدد آخر من المنطقة الجنوبية وساهم وفدنا بالكثير من النقاشات.

طالب المؤتمر بوقف الإرهاب وإطلاق سراح الموقوفين والمعتقلين، وأكد على حل القضية الكردية حلاً عادلاً وتطبيق اتفاقية آذار (١٩٧٠). وأيد الإجراءات التقدمية التي اتخذتها حكومة البعث وكل الإجراءات الوطنية الأخرى! مثل الاعتراف بألمانيا الديمقراطية، قانون الحكم الذاتي، معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفياتي،.....

وأكد المؤتمر على قضية الجبهة الوطنية وائتلافها من كافة قوى شعبنا الديمقراطية والوطنية، وعدم فرض شروط مسبقة لقيامها، وأقر مبدأ التكافؤ بين الأحزاب،

واستقلالية كل حزب تنظيمياً وإيديولوجيا. ودعا إلى عقد مؤتمر وطني عام يضم جميع الأحزاب والكتل الوطنية لمناقشة مسوغات عقد الجبهة. وأكد على استمرار الحوار مع حزب البعث. وأكد المؤتمر على النضال من أجل رفع المستوى المعيشي للجماهير، زيادة أجور العمال والمستخدمين وتخفيف البطالة.وفي المجال الفكري أوصى المؤتمر بالدفاع عن مبادئ الحزب ونظريته واستقلاله الإيديولوجي والدفاع عن سياسته وخططه، وتركيز النضال ضد الميول الانتهازية (اليمينية واليسارية) وحذر المؤتمر من محاولات المستعمرين فرض أنفسهم أو بدائلهم على العراق.

حمل البرنامج عنوان " لإنجاز الثورة الوطنية الديمقراطية من أجل الانتقال للاشتراكية، وقيادة الطبقة العاملة لها " حيث جاء في البرنامج، وهذا ما جرى التنازل عنه فيما بعد: (أن السير بالثورة الوطنية الديمقراطية حتى نهايتها من الانتقال المباشر إلى الثورة (الاشتراكية)، يتحقق في ظل جمهورية ديمقراطية ثورية تمثل إرادة الشعب وتلعب في سلطتها الطبقة العاملة وعلى رأسها الحزب الشيوعي الدور الطليعي والقيادي وتستند إلى مبادرة أوسع جماهير الشعب وتعتمد على تسليح الجماهير في حماية الثورة.)

إن قرارات المؤتمر والبرنامج الذي أقره حول الدور (الطليعي والقيادي) للحزب، جرى التخلي عنه فيما بعد لصالح البعث. وجاء بصدد الجبهة ؛ " يرفض الحزب أي شرط من شأنه فرض القيادة السياسية مسبقاً لأي حزب على الجبهة. إن الحزب القائد هو الذي يفوز بثقة الشعب "، جرى التنازل عنه!

كما جاء في البرنامج " إن مصلحة جميع قوى الثورة أن تتحالف في جبهة وطنية موحدة من أجل إنجاز الثورة الوطنية الديمقراطية!!"

إن يدي البعث الوالغة بدماء الشيوعيين وباقي أبناء الشعب وقواه الوطنية، حزب دموي لا يعول عليه لسير بالثورة الديمقراطية حتى بناء الاشتراكية وبناء الاشتراكية سوية كما ورد في برنامج الحزب في المؤتمر الثالث.

وأنقل لكم ما يلي للتأكد من هوية الحزب الذي يراد منه بناء الاشتراكية (سوية).

كتبت جريدة الحزب طريق الشعب في عددها الصادر في شباط ١٩٧١ "لقد اختار حزب البعث عملياً نهج الإرهاب الذي سلكه عام ١٩٦٣ مع تعديلات شكلية في

الوتائر والأساليب، فلقد أعيد بقصد مفهوم (قصر النهاية) الرهيب ليبقى رمز العلاقة بين الحكم والمعارضة الوطنية، كما استمر في التمسك بذات الأساليب المنكرة في اعتقال المواطنين وتعذيبهم وقتلهم وتشويههم سياسياً أو اغتيالهم، وأعيد تنظيم (الحرس القومي) التابع لمكتب العلاقات العامة في (مجلس قيادة الثورة). إن سياسة مكافحة الشيوعية ومحاولة إضعاف وتصفية الحزب الشيوعي تطبق بشكل حثيث كما تطبق سياسة تحطيم وشل القوى الوطنية لإكراهها على الخروج من ساحة النضال السياسي".

وفي حزيران ١٩٧١ استولت السلطة على جميع أجهزة الطباعة المركزية للحزب، وفي كردستان شنت حملة إبادة ضد الشيوعيين واختطفت في كركوك (علي حسين البرزنجي) مع أربعين رفيقاً وجرى نقلهم إلى قصر النهاية حيث تمت تصفيتهم مع عشرات المواطنين، معظمهم من الشيوعيين ومنهم المناضلين ماجد العبايجي ومشكور مطرود اللذين عرضت الحكومة على أسرهم تعويضات نقدية ثمناً لحياتهم، كما جرت تصفية حسين نادر وأحمد رجب وعبدالله صالح ومحمد حسين الدجيلي وجواد عطية.

وتضيف طريق الشعب:

"وقد اقترنت الحملة الإرهابية بعد المؤتمر الثاني بذات السياسة الاقتصادية والاستهتار بجميع الأعراف الدولية للاستئثار بالحكم والسيطرة على المنظمات الجماهيرية والمهنية، وتجاهل المعنى الحقيقي للحكم الذاتي.

وعلى النطاق العربي سحبت الجيش العراقي من الجبهة الشرقية وخذلت المقاومة الفلسطينية وابتعدت عن التضامن العربي... "إلخ. وبعد كل هذه التصفيات والمجازر البشرية يتكلم حزب البعث عن الجبهة. ويدعوا الحزب الشيوعي في طريق الشعب الصادرة في آب ١٩٧١ ما يلي: "عند إنهاء الإرهاب البوليسي المسلط على الأحزاب الوطنية وعلى جماهير الشعب وتقويض جهاز (الأمن القومي) والمسلخ البشري (قصر النهاية) وملحقاته واحترام حقوق الإنسان وكرامته وإشاعة جو من الطمأنينة وإطلاق الحريات السياسية والنقابية... إلخ يمكن الحديث عن التعاون والجبهة والوحدة."

كيف استطاعت أيادي البعض، بعد استباحة دماء الشيوعيين وهذه الموجات من التصفيات و٨ شباط ١٩٦٣ واغتيال أغلب قادة الحزب وضباط ثورة ١٤ تموز

١٩٥٨ ،أن لا ترتجف فتوقع مع هذا الحزب الدموي اتفاقية جبهة ؟ من يتحمل مسؤولية كل تلك الضحايا ؟ كان من الواجب تأييد الإجراءات التقدمية دون توقيع اتفاق جبهة ! إن العرّابين الذين ساروا وراء البعث، عرابي الجبهة، لم تهزهم دماء الذين استشهدوا.

هذا سر السخط والعزوف عن العمل وغيرها من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها قيادة الحزب وخاصة المكتب السياسي (م.س) والسكرتير الأول للحزب. ومن ثم اللجنة المركزية (ل.م)، إلى حد ما، حين أيدوا م.س.

لقد كانت قاعدة الحزب أوعى من قيادته بتشخيصها لحزب البعث وإيديولوجيته ونهجه. وكان خطأً جسيماً ارتكبته قيادة الحزب بعقد ميثاق جبهة موحدة مع حزب البعث.والخطأ الثاني القاتل (هو الدعوة للخروج من العراق) وتركه. كان بودي عدم الولوج في هذه المواضيع الشائكة وتركها للتاريخ ولكن الشيء بالشيء يذكر.

وسرعان ما جرى التخلي عن مقررات المؤتمر الثاني وعن الاستنتاجات التي توصل إليها وتبدلت القرارات دون الرجوع لمؤتمر أو كونفرنس. إن قيادة الحزب لم تكن مؤهلة لقيادة معركة الحزب والشعب من أجل انتقال العراق إلى بلد ديمقراطي حقاً وقيادة الثورة الوطنية والديمقراطية.

انتهز حزب البعث الفرصة، بعد حملة التصفيات والاغتيالات والإرهاب الذي فرضه على الأحزاب وخاصة حزبنا ومن كان وراءه والحملة العالمية لإيقاف الإرهاب في العراق، برسم تكتيك مرن من أجل فرض نظام ديكتاتوري إرهابي لتصفية الحركة الكردية المسلحة والأحزاب القومية العربية المعارضة. ففي الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات من أجل عقد الجبهة مع البعث كانت تجري عمليات التعذيب والقتل في غرف (قصر النهاية) والأمن العامة، والغرف الخاصة بالمخابرات لتصفية رفاق القيادة المركزية ورفاق حزبنا بعد عدة سنوات من ٨ شباط ١٩٦٣ وبعد القيام بحملات التصفية لكوادر الحزب ومنظماته بعد استلام البعث للسلطة السياسية ١٩٦٨. هؤلاء الذين جاءوا بقطار أمريكي وهم أصحاب قطار الموت ١٩٦٣ والقطار الأنكلو ـ أمريكي ١٩٦٨، وهم الذين غدروا بكتلة الداوود ـ النايف! يقول المثل العراقي "لو وضع ذيل الكلب ٤٠ يوماً في قصبة لما استقام".

إن عقد اتفاق الجبهة والتحالف مع أية قوة لا يعني الاستسلام والتنازل عن عملنا

في الجيش ولا يعني حل المنظمات الديمقراطيـة ولا يعني إبطال عملية الصراع الطبقي في المجتمع ولا يعني الركض وراء مكاسب آنية، خاصة وأن تجربة الحزب وربط سياسته بـ (قاسم) أدت إلى تجربة مريرة بسقوط الجمهورية (والزعيم عبد الكريم قاسم) ونحن معه.

غيَّر البعث بعض سياسته لمصلحته الخاصة ولبناء ترسانة من التسليح،إلا أن ذلك يشبه دس العسل بالسم. إذ قم مثلاً ببعض الإجراءات كسن قانون العمل الذي لم يطبق بشكل صحيح وسن قانون الحكم الذاتي لحل المسألة الكردية رغم اعتقادهم (أن الأكراد أصلهم عرب) وسن قانون رقم (٩٠) حول المسألة الزراعية، الذي لم يطبق، وأصبح لدى الحزب الشيوعي مقرات وأخذ يعمل بصورة شبه علنية، وأصدر صحيفة، ولكن دون إجازة رسمية وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي واعترف بألمانيا الديمقراطية (DDR) وحسن العلاقات مع الدول الاشتراكية.

بقينا نعمل من أجل لمّ شمل المنظمات. ثم سافر الرفيق شاكر محمود إلى بغداد في سنة (١٩٧٢) وتحملت أنا مسؤولية العمل ولم تمر فترة طويلة على وصوله بغداد حتى جرى اغتياله من قبل أجهزة الأمن الخاص، في الشارع وكان يحمل ابنته أماني على صدره، إذ ضربته سيارة الأمن وهو يريد عبور الشارع. استلمنا جثمانه بعد بضعة أيام، وقد حضر الرفيق (كريم أحمد) ليبلغنا بالتعازي. شيع بمظاهرة كبيرة في البصرة وتم دفنه في منطقة الزبير. باغتياله فقدت مدينة البصرة، رفيقاً من أصلب رفاقها وألمعهم في تلك الظروف الصعبة. وبعد فترة ماتت أمه وتشرد أطفاله. لم يكن شاكر يملك شيئاً سوى حبه لشعبه وحزبه.

حدد موعد ما من عام ١٩٧١ لعقد اجتماع موسع للجنة المركزية في كردستان (وكان الحضور للاجتماع بشكل سري)، وتمت فيه مناقشة الوضع السياسي. تضمن برنامجه انتخاب مرشحين جدد للجنة المركزية ووضعت أنا ومهدي الحافظ على قائمة المرشحين.

بقيت فترة مختفياً في بيت أحد الرفاق في بغداد وبعدها جاءت إحدى الرفيقات الكرديات من أربيل، وذهبت معها. وكانت السيارة مملوءة بالركاب، وعند وصولنا إلى أربيل جاء الرفيق (أبو سيروان) ليأخذني إلى مكان الاجتماع.

حضر الاجتماع، الذي عقد في مدينة (دركلة) الكردستانية، الرفيق أبو حسان (ثابت حبيب العاني) بعد أن أطلق سراحه، وقد تعرض، كما أفاد، للتعذيب على يد الضابط (زويني) وغيره واتهم بقيادة التنظيمات الحزبية في الجيش.وكان الحزب قد شن حملة واسعة من أجل إطلاق سراحه داخلياً وعالمياً.

وبشكل سري أيضاً، عدت إلى بغداد ومنها إلى البصرة لأتولى مسؤولية المنطقة الجنوبية.

نهاية سنة ١٩٧٢ سافرت أنا وزوجتي للعلاج في الاتحاد السوفييتي وأدخلنا للمستشفى وقد حصلنا على الرعاية التامة. بعد ها سافرنا إلى مدينة (سوجي) للراحة وإكمال العلاج.

كان من الصعب سماع صوت مذيع إذاعة بغداد. فرفعت صوت الراديو إلى أقصاه، وإذا به يذيع الاتفاق لعقد الجبهة بين الرفيق عزيز محمد وأحمد حسن البكر في يوم (....) من عام ١٩٧٣.

كان يجاور غرفتنا وفد ألماني من ألمانيا الديمقراطية جاء للاستراحة.كان صوت الراديو عالياً جداً، فاحتج الألمان علينا دون أن يعرفوا سبب الضجة.

من الطرائف التي صادفتنا في المصح أنه كان من المتبع عند دخول المصح أن يسجل تاريخ الولادة، وتاريخ ولادتنا ككل العراقيين ١/٧.دخلنا المطعم للعشاء وكان شغيلة المطعم وبعض الوفود يهنئوننا دون أن نفهم المناسبة، وكنا نرد عليهم أنا وزوجتي ببرود. جلسنا حول طاولة مزينة بالورود وقنينة شمبانيا، وبدلاً من صحنين كان هناك ثلاثة، اثنان لنا وواحدة للمشرفة على علاجنا التي جلست معنا.

فكرنا لماذا كل هذا: سألت زوجتي هل هناك مناسبة في العراق لم نتذكرها! فهي ليست مناسبة ثورة العشرين ولا ثورة تموز وذكرنا كل ما مر على بالنا من مناسبات فلم نتوصل إلى نتيجة. ثم سألتني زوجتي عن أيام الشهر فقلت لها اليوم ١/٧ فضحكت وقالت إنهم يحتفلون بعيد ميلادنا!

وبعد انتهاء الزيارة لمدينة (سوجي) الساحلية وقبل مغادرتنا للعراق جاء أحد أفراد الوفد الألماني واعتذر مني بعد أن سمعوا بعقد الجبهة مع البعث.

وتطورت الأحداث، وتم فتح مقرات للحزب واستأجرت محلية البصرة، و كان

مسؤولها الرفيق محمد طعمة (أبو زيتون)، الذي استشهد على يد البعث بعد ١٩٧٨، بيتاً في العشار قرب الكورنيش.

رغم ذلك بقيت متوارياً عن الأنظار. أجّرنا أنا وزوجتي بيتاً متواضعاً بعشرة دنانير في منطقة البصرة (نظران). كانت عواطف في الصف الثاني الابتدائي، ومدرستها في منطقة العشار (التميمية) ويتوجب عليّ نقلها يومياً على الدراجة الهوائية الى بيت عمتها والعودة بها للبيت بعد انتهاء الدوام. واستمر هذا الوضع أكثر من عام. ولا أنسى ذلك اليوم المطير، الذي انزلقت فيه الدراجة الهوائية لنسقط في الوحل، مما اضطرني للعودة إلى البيت لتغيير ملابسنا.

وفي إحد الأيام، وأنا عائد إلى البيت ليلاً، وكنت أسلك طريقاً خلفياً زراعياً بعد لقاء بأحد الرفاق المقطوعين من الحزب هو والخلية التي يقودها، وإذا بكلبة تهاجمني وتمزق (دشداشتي) ثوبي وتسقطني من الدراجة الهوائية وتعضني.

كانت هذه الكلبة نائمة في ساقية جافة مع أطفالها الرضع. وقد مررت بالقرب منها. وخوفاً على أطفالها هاجمتني بشراسة وأسقطتني عن الدراجة.

كانت الوجهة العامة للبعث هي الضغط على الحزب لكشف جميع كوادره وأعضائه عن طريق فتح مقرات عامة له. وقد استجابت قيادة الحزب لهذا الضغط وتم كشف كل الحزب تقريباً أمام أجهزة الأمن. وخلال سنوات (الجبهة) لم تتوقف عمليات إسقاط المناضلين، واستشهد من حزبنا في سنوات الجبهة فقط، أكثر من ١٠٠٠ شيوعي في الفترة بين ١٩٦٨ـ ١٩٧٩، وكذلك المئات من المقاتلين من الأحزاب الكردية وعشرات من القوميين والمختلفين سياسياً.

ومن الأخطاء الفادحة التي وقع بها المهيمنون على سياسة الحزب أيام الجبهة القومية، من المكتب السياسي واللجنة المركزية وسكرتارية ل.م. هو إغفال وتجاهل:

١- الخلفية الدموية الإرهابية لحزب البعث بعد استلامه السلطة في شباط ١٩٦٣ وما ارتكبه من جرائم بحق عبد الكريم قاسم والضباط الوطنيين وما ارتكبه بحق حزبنا وقتله قيادته والكثير من كوادره وأعضائه وجماهيره.

٢ ـ الممارسات الإرهابية قبل وبعد استلامه السلطة عام ١٩٦٨ وغدره بكتلة (النايف ـ الداوود).

٣ ـ قتل أكثر من ٤٠٠ شيوعي في الفترة بين ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦.

٤ ـ التنازل له عن الدور القيادي وعدم الالتزام بقرارات الكونفرنس الثالث والمؤتمر الثاني.

٥ ـ التنازل وتجميد عملنا في الجيش.

٦ ـ اللجوء إلى العمل العلني حتى بدون ضمانات رسمية وكشف كل كوادر الحزب تقريباً وذلك يخالف نظرية التكتيك التي تقول (إن الحزب يجب أن يكون ربعه علني وثلاثة أرباعه تحت الأرض، سرياً، خاصة إبان الحكم البرجوازي.)

٧ ـ ربط كل عمل الحزب بالجبهة والبعث الذي لا يؤتمن، والاعتقاد ببناء الاشتراكية سوية وإمكانية تطور هذا الحزب الدموي.

٨ ـ تجميد العمل في المنظمات الديمقراطية وإرسال قياديين للخارج للتثقيف بهذه الوجهة.

٩ ـ تجميد أي عمل جماهيري كالإضرابات والمظاهرات.

١٠ ـ سحب الأسلحة البسيطة الموجودة لدى الرفاق والتهديد بالطرد من الحزب في حالة عدم تسليمها.

١١ ـ التستر على أخطاء وممارسات البعث للرأي العام الداخلي والعالمي والاعتقاد بأن الجبهة أقوى (من كل الأعداء): المقال الذي كتبه باقر إبراهيم فيما بعد في "مناضل الحزب" (بأن جبهتنا أقوى من كل الأعداء).

١٢ ـ الجريدة كانت تبرز وتنشر إيجابيات البعث والتستر على أخطائه وإرهابه المبطن.

١٣ ـ الخلل في سياسة الجبهة مع العلم أن سياسة البعث تسعى لتصفية بقية الأحزاب والحركة الكردية. ومعروف أن اتفاقية الجزائر عقدت لتصفية الحركة الكردية.

١٤ ـ عدم وجود خطة واضحة للتراجع والحفاظ على عمل ومنظمات الحزب.

١٥ ـ إثر انهيار الجبهة، أثيرت الدعوة التصفوية لإفراغ البلاد من الشيوعيين: دعوة (كل واحد يدبر حاله) للخروج من العراق، وحالياً وصل عدد اللاجئين العراقيين (٤ ملايين) لاجئ. من استطاع الخروج ومن مات تحت التعذيب ومن أسقط سياسياً. ولازالت السجون ملأى بالسجناء والموقوفين.

هذه بعض الأخطاء التي وقع بها من اعتقدوا (أن الجبهة مع البعث أقوى من كل الأعداء).

وجرّت سياسة البعث الدموية البلاد، بعد إفراغ الساحة، إلى حربين مدمرتين.

وبعد تجريد الحزب من كل أسلحته ومقومات الحركة الوطنية أصبح وضعه كما الحال في تلك القصة الخرافية[٢٣٨].

الفصل الثامن عشر

الكفاح المسلح ١٩٧٩ - ١٩٨٠

بعد التغيرات التي جرت على اللوحة السياسية والتحول الكبير في سياسة البعث نحو (اليمين) والارتباك الذي انتاب قيادة الحزب وشعورها باحتمال توجيه ضربة للحزب وإعدام (٣١) شيوعياً بتهمة العمل التنظيمي في الجيش، عقد في بغداد آخر اجتماع للجنة المركزية، في مقر الحزب أوائل أو أواسط ١٩٧٨، تقرر فيه اتخاذ إجراءات صيانة وانتقاد لسياسة البعث اللاديمقراطية... إلخ وكان الجميع حاضراً.

بدأت مراقبة مقرات الحزب ونصبت كاميرات الدور المقابلة بعد أن أخليت من ساكنيها، لمراقبة وتصوير الداخلين والخارجين. وبدأت متابعة الرفاق ممن يدخلون المقرات أو الخارجين منها ومعرفة سكنهم أو الأماكن التي يترددون عليها.

في إحدى المرات، وبعد أن كنت أعمل في ل. منطقة بغداد، حيث كنت والرفاق (أبو كسرى): مهدي عبد الكريم، وأبو نغم وصباح الدرة وبشرى برتو، ممن يعملون ضمن مكتب لجنة منطقة بغداد، خرجت من المقر فتتبعني شخص من الأمن يركب دراجة بخارية وراح يتبعني مما أجبرني على العودة إلى المقر مرة ثانية وأتباع أسلوب آخر، فأخذت السيارة وغيرت الطريق.

في ١٩٧٨ أرسلت مع مجموعة من الكوادر للدراسة في ألمانيا الديمقراطية لمدة عام، في معهد (كارل ماركس). اشتدت حملة الاعتقالات والتنقلات والتصفيات الجسدية ضد الرفيقات والرفاق كما استمرت الاعتداءات المتكررة، بلا انقطاع، يوماً بعد آخر. وبدلاً من المقاومة ووجود وزيرين في الوزارة (عامر عبد الله ومكرم الطالباني) كان هناك نوع من الاستسلام للأمر الواقع.

كانت هناك خطة مبيتة من قبل قيادة البعث (وصدام حسين) الذي كان ينافس

(أحمد حسن البكر) على رئاسة الدولة، لإبادة الحزب الشيوعي (الحليف) وإفراغ العراق من الأحزاب والتنظيمات السرية والعلنية والانفراد بالسلطة. عقد اجتماع للجنة المركزية للحزب في الخارج تقرر فيه سحب الوزيرين الشكليين من الوزارة وتبني تكتيك حرب الأنصار والتهيئة للرد على عنف البعث بالعنف بعد فشل كل المحاولات السلمية والتنازلات للبعث. جرى تبني الكفاح المسلح من كردستان العراق بالتحالف مع الأحزاب الكردية المشتتة والمضروبة بعد اتفاقية الجزائر (التساومية) بين الحكومة الإيرانية (الشاه) و(الحكومة) العراقية آنذاك، على أن يتنازل العراق لإيران مقابل عدم مساعدة الثورة الكردية.

في الفترة ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ تعرض الكثير من العوائل ورفاق الحزب للاعتقال والاستدعاء والاختفاء والهرب من العراق.

بعد أن أنهينا العام الدراسي في ألمانيا الديمقراطية وصلت عائلتي بعد أن تعرضت لاعتداءات عديدة.

كان عدد المجموعة عشرة رفاق: (٧) منا غادروا ألمانيا إلى كردستان و(٣) تخلفوا بأعذار مختلفة.

سافرت إلى سورية ومنها إلى لبنان. كانت لدينا منظمة واسعة في بيروت مسؤولها الرفيق فخري كريم. وكنا بحماية ورعاية الرفاق اللبنانيين والمقاومة الفلسطينية بأكثرية فصائلها.

تشكلت هيئة من الرفاق بهاء الدين نوري وأسعد خضر (أبو نجاح) وأنا لإرسال من يرغب من الرفاق إلى كردستان.

كنت أجتمع مع الرفاق الراغبين بالذهاب إلى كردستان لأذكرهم بأن (الكفاح المسلح) ربما يؤدي إلى الاستشهاد. وهناك الجوع وقساوة الحياة والأفاعي والعقارب، وبالمقابل هناك النضال الحقيقي من أجل حرية وسعادة شعبنا... الخ. وإن القضية ليست إجبارية فمن هو مريض أو لا يستطيع تحمل الظروف الصعبة يستطيع البقاء.

كان رأي الأغلبية، يعبر عن الرغبة في الذهاب إلى كردستان، متحدين كل الصعوبات التي ستواجههم.

وبعد إرسال عدة وجبات من الرفاق سافر توما توماس (أبو جوزيف) وبهاء الدين

نوري وأنا إلى تركيا عبر القامشلي بجوازات سفر غير مزورة. جواز الرفيق بهاء الدين صادر من اليمن مهنته تاجر (خردة) فشك به ضابط الحدود التركي وحجزه لفترة من الزمن ثم أطلق سراحه. كان الجنود الأتراك يستولون على كل ما يعجبهم من حاجيات المسافرين.

بعد مسير شاق ليلاً وسط مناطق جبلية وعرة لا تنسى، أمضينا يومين في الأراضي التركية. كانت تلك هي البداية. وصلنا عصراً إلى (گلي كوماته)[٢٣٩].

البداية

لقد سبقنا عدد من الرفاق في إنشاء قاعدة عسكرية في منطقة بهدينان في (گلي كوماته). أما البداية فكانت في (نوزنگ) وهي منطقة منعزلة قريبة من إيران تم إنشاء قاعدة عسكرية فيها من رفاق (إقليم كردستان) وقد التحق عدد من الرفاق العرب والأكراد إليها.

يقع المكان الذي وصلنا إليه في گلي كوماته على نهر الخابور وعبر النهر كان الجندرمة الأتراك يتمترسون، (مناطق حراسة حدودية لوحدات من الجيش التركي) وبالقرب من الموقع مقر للحزب الديمقراطي الكردستاني، بقيادة الأخ (جرجيس) والمسؤول العسكري (هجر) الذي كان سابقاً معاون شرطة، وسيد حميد، وطبيب الموقع (سربست).كان التعاون بيننا جيداً نتبادل وإياهم "سر الليل". وقدموا مساعدة طيبة لرفاقنا في الأيام الأولى. كان الفرع الأول (للحزب الديمقراطي الكردستاني) بقيادة الأخ (سامي عبد الرحمن)[٢٤٠] ثم اختلف مع قيادة (حدك) (الحزب الديمقراطي الكردستاني، ثم عاد إليها.

كان العدد قليلاً، ولم يكن لدى الرفاق سلاح كافٍ للدفاع عن النفس، ولم تكن لديهم نقود تكفي لشراء التموين وخاصة الطحين والسكر والشاي، ولا تتوفر الألبسة الشتوية الكافية لاتقاء برد الشتاء القادم، فالجو كان دافئاً، إذ لازلنا في حزيران من سنة ١٩٨٠، انتصبت أمامنا مسألة تدبير الأموال اللازمة لسد حاجات الرفاق بحدة.

المكان الآخر الذي اختير ليكون مقراً لنا يقع تحت حافة جبل حصين بحيث لا تستطيع مدفعية الجيش، التي كانت تقصفنا كل يوم ثلاث مرات من الربايا القريبة، أن

تؤثر فيه. كانت القذائف العراقية تقع على الجانب التركي عبر نهر (الخابور). هذا النهر الذي انسجمنا وإياه فيما بعد رغم صوته المرعب وغضبه عندما يفيض. كنت أقرأ له هذه الأبيات، وبدلاً من "على اليرموك قف وأقرأ السلام.." أقول :

على الخـــابور قف وأقـــرأ الســـلامـــا
وكـلـمـــه إذا فـــــــــهـــم الـكـلامـــا
وقـل يـا نـهـــــر هـل هـاجـــــتـك ذكـرى
شـــــجـت قـلـبي وحــــركـت الـغــــرامـــا

وكان يرد الصدى بهيجانه وصوته الرهيب.

وتم بعد ذلك بناء قاعدة أمامية في منطقة (يك ماله) التي تعني البيت الوحيد، وقبالة هذه القاعدة المتقدمة وعبر النهر يوجد الجيش التركي، وهي تبعد عن گلي كوماته حوالي كيلومترين، يقيم فيها عدد قليل من الرفاق للحراسة والمراقبة.

كانت القاعدة في (گلي كوماته) ضيقة جداً إضافة إلى موقعها الموحش ونتوء صخور الجبال التي تحيط بها، إلا أن تدفق مياه النهر وخضرة أشجار الغابات الكثيفة وزغردة الطيور في الصباح وعند غروب الشمس تعطي المكان، إضافة إلى الحركة الدائبة، الاطمئنان والدفء والحيوية والأمان.

بدأ الرفاق والرفيقات بعد فترة من الزمن، وبعد أن نظمنا أمورنا، بالتدفق على القاعدة، كما وصلتنا كميات من الأسلحة الخفيفة وخاصة بنادق كلاشنكوف وعدد من المسدسات ودوشكا وأعداد قليلة من سلاح (RBG7) وبعض النقود.

بعد الخيبة التي أصابت الحركة والحزب تأسس موقف واضح لدى العديد من الرفاق ضد السياسة الخاطئة والمؤلمة التي جرّت الحزب من انتكاسة لأخرى، مما جعلهم يتحمسون لحمل السلاح رغم إدانتهم للسياسة التي سلكها الحزب مع البعث، بعقد الجبهة وما آلت إليه الأمور. ولذلك فإن الكثير تركوا دراستهم أو مراكزهم وقدموا إلى كردستان. ودعى العديد منهم إلى ضرورة عقد مؤتمر لتحديد المسؤولين عن تلك السياسة.

كان الجو العام للرفاق مفعماً بالحماس والإصرار.

وضعنا خطة لتحويل النقمة إلى إصرار على مواصلة النهج الجديد وانجاحه وتوفير

القناعات لذلك. والتثقيف السياسي والنظري مهم جداً في مثل ذلك الظرف. وكان لتواجد الكوادر السياسية والعلمية من الرفيقات والرفاق ممن توافدوا فيما بعد على القاعدة، دور فاعل في الأمر.

وتركز التثقيف على المواضيع الخاصة بالتاريخ النضالي للشعب العراقي قديماً، ثورة العشرين، الانتفاضات والإضرابات والانقلابات في العراق، وثورة ١٤ تموز، المبررات التاريخية لرفع السلاح، الخلفية الدموية للفئة الحاكمة في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية، الانتهازية اليمينية واليسارية المتطرفة، قضايا اقتصادية، قضايا بناء الحزب في المركزية الديمقراطية وغيرها. كان أغلب الرفاق المتواجدين ممن قدم من الدول الاشتراكية والرأسمالية ومن داخل العراق و قد حصل على تعليم عال. قطع قسم منهم دراسته والتحق بالجبل. وكان هناك قسم من العسكريين ومن الفلاحين من أهالي المنطقة (من الأكراد)، والآشوريين والأرمن.. إلخ.

أصدرنا جريدة " الجريدة الدفترية "؛ التي صدرت باسم " النصير الثقافي ". من محرريها : أبو قمر، آشتي، الشهيد د. عادل، أبو سعد، أبو وصفي..الخ ورسوم الفنان مهند العلاق !

وبعد حملة التثقيف وتواجد الكثير من الكوادر عقدنا كونفرنسا سياسيا عسكريا لوضع خطة لتحركنا اللاحق.

واستمرت عملية التثقيف حتى تعدل مزاج الرفاق والرفيقات. وبدأت طلائع مفارز الرفاق تنزل للقرى لدراسة طبيعة المنطقة وتعريف الفلاحين بنا وتواجدنا وكسبهم إلى جانب قضيتنا. وقدم الأخوان في الحزب الديمقراطي الكردستاني المساعدة في التعرف على القرى، خاصة وأنهم من المنطقة وسبقونا بحمل السلاح.

كان الوضع الاقتصادي سيئاً: الخبز والعدس والبرغل أساس غذائنا والسكر والشاي الذي لا يمكننا الاستغناء عنه. والحصول على هذه المواد الغذائية صعب جداً.

كان الزبد الصناعي التركي المتعفن (مركرينة) أو الجبن المخلوط بالأعشاب أو الثوم والمحفوظ في جلود الماعز، الذي يحبه الرفاق الأكراد (جاجيك) ورائحته تزكم الأنف، يشكل الفطور الرئيسي مع الخبز والشاي، وأحياناً العشاء. أطلق عليه الرفاق العرب اسم الاستخبارات لأنه أصبح مكروهاً جداً!

وما أشهى (المربى) الذي صنعته الرفيقة (دروك)[٢٤١] وسمي باسمها (مربى دروك). أما أكل اللحم فكان شبه معدوم.. أما الرفاق في الإقليم وفي قاعدة (نوزنگ) فكانوا يتمتعون بوضع اقتصادي أفضل بكثير منا. كان صيد السمك في تلك الفترة وشيه أو قليه هو الغذاء الممتع الوحيد.

أما طبخ (البزن) الماعز فكان مرة كل شهرين أو ثلاثة. ومن المصادفات الطريفة، انه كان كلما كنا نشتري بزناً ونذبحه أو نصطاد كمية من السمك يأتينا ضيوف من مناطق أخرى، وقد تكررت هذه الظاهرة بحيث أصبحت أشبه بالنكتة. فعند مجيء الضيوف يتوزع اللحم أو السمك بحيث يصيب كل فرد عدد قليل من الغرامات.

الرفيقات يخبزن على (الصاج) وكانت أمهرهن الرفيقة (أم عصام).

كانت الحياة منظمة في القاعدة. وتوزع الواجبات على كافة الأنصار مثل الخفارات الليلية والنهارية، وعدد من الأنصار في حالة طوارئ وهم بكامل ملابسهم العسكرية وسلاحهم، وكذلك واجبات الطبخ وتنظيف القاعات وتحطيب الخشب وتقطيعه.

عملية الالتحاق

اتخذت عملية الالتحاق نهجا مستمرا وصارت تزودنا بالرفيقات والرفاق والمال والسلاح.

بدأنا العمل بشكل متأخر لبناء قاعات إضافية للملتحقين الجدد وخاصة للرفيقات بدأ هطول الثلوج مبكراً في عام ١٩٨٠ـ ١٩٨١. وكان الشهيد أبو كريّم مهندس ولولب البناء. عملنا جميعاً في بناء القاعات الجديدة رغم هطول الثلوج وتجمد أصابع اليد. إضافة إلى التحطيب وجلب الأرزاق وشرائها من القرى والتي كانت من المهمات الصعبة وسط تلك الثلوج والبرد القارص. كانت البغال العصب والوسيلة الرئيسية للتنقلات ولنقل المواد الغذائية، وكان لدينا جهاز لاسلكي ورفيق متخصص به.

كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية قد بدأت منذ أشهر وشن العراق هجومه على الأراضي الإيرانية وكنا نتوقع سقوط النظام العراقي بعد اشتداد الحرب التي لا مبرر لها. عمليات التدريب على السلاح مستمرة.. الرماية وتسلق الجبال.

رغم البدايات الصعبة ومجابهة الموت وتحديات الطبيعة القاسية في تلك الجبال

الوعرة، ،كان هناك الإصرار والصلابة والجهادية العالية المعروفة لدى الشيوعيين العراقيين، والثقة الكاملة بالقدرة على تحمل وتخطي كافة التحديات والصعوبات، إذ كان يحدو الجميع أمل تحقيق الانتصار بعد الاخفاقات التي أصابت الحركة الوطنية والحزب. ولابد لهذه الحركة المسلحة أن تلهب وتؤجج الروح النضالية والمقاومة لدى شعبنا بعربه وكرده وأقلياته وطوائفه وأديانه.وإن جوهر الحركة هو الحفاظ على الحزب ووحدته من الشتات والضياع، كما ضاعت وتاهت الكثير من الحركات في دياجير الغربة والشتات.

لقد افتعلت حكومة البعث الكثير من المبررات (كما افتعلت الهتلرية حرق الرايخ لشن هجومها على الحزب الشيوعي الألماني) ، لشن هجومها على الحركة الوطنية العراقية والحزب الشيوعي كما افتعلت المبررات لشن حربها ضد الجارة إيران التي دامت ٨ سنوات أحرقت الأخضر واليابس. و لم يكل البعث من محاولة إزاحة كل الأحزاب والتنظيمات التاريخية العراقية والدوس على كل القيم، مفتعلا المبررات لشن تلك الحرب لإيقاف المد الديمقراطي الذي بدأ في أفغانستان وإيران وخلفهما الاتحاد السوفييتي الذي كان الحليف لحركات التحرر الوطنية. هذا المد الذي أثار رعب وخوف الدول الاستعمارية العظمى، كأمريكا وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل وغيرها إضافة إلى دول الخليج الرجعية وتركيا، من زحف مد الثورة، فأوعزوا للحكومة العراقية كي تشن الحرب على إيران وشجعوا البعثيين بمختلف الوعود على تحطيم الأحزاب وإيقاف اللهيب القادم من الشرق، خاصة وأن إيران كانت إحدى الركائز الأساسية للإمبريالية الأمريكية في المنطقة لكثافة سكانها وغناها لكونها دولة نفطية وعلى تخوم الاتحاد السوفياتي.

مع إشعال الحرب ضد إيران أعطى النظام العراقي لنفسه المبررات للقضاء على أي صوت معارض في الداخل وأصبح صدام حسين بطلاً قومياً لحماية القومية العربية والدين من الإيرانيين (الفرس المجوس). وبهذه الحجة أخذ النظام العراقي يبتز دول الخليج وجند الملايين من أبناء الشعب للحرب التي راح ضحيتها نصف مليون عراقي بين قتيل ومشوه ومفقود. وصرف عليها أكثر من ٨٠ مليار دولار وتحطمت قاعدة العراق الاقتصادية وانهار معها البناء التحتي والقاعدة الأساسية للجيش.

كان المستفيد الأول من هذه الحرب إسرائيل والدول الغربية الاستعمارية، التي كانت تلقي البنزين على النار، لشل القاعدة الاقتصادية والسياسية للثورة الإيرانية ولشل القدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية للعراق والقدرات العسكرية للبلدين وتمهيد الطريق لإسرائيل لاحتلال وإدامة الاحتلال للأراضي العربية.

و كما قلت كنا نتوقع سقوط حكومة البعث في العراق لولا الإسناد من دول الخليج والدول الاستعمارية وخاصة أمريكا وبعض الدول العربية ما عدا سورية التي وقفت إلى جانب إيران.

أصبح مقر (يك ماله) من القواعد الأساسية في المنطقة. وكانت علاقتنا جيدة مع (حدك) كما كانت لدينا علاقة طيبة مع الأحزاب الكردية التركية مثل حزب (كوك) الذي كان مسؤولوه ؛عبد الرحمن ودرباز وجليل وغيرهم. لم يكن في (بهدينان) و(گلي كوماته) بالذات وفي المنطقة غيرنا والديمقراطي الكردستاني.

أحداث

في صباح أحد الأيام ونحن جالسون تحت ظلال العريشة (الكبره)، علمنا بأن مجموعة من الرفاق والرفيقات في الطريق إلينا. كان بعض الشباب في القاعدة ينتظرون قدوم الرفيقات على أمل أن يخدمهم الحظ بالزواج قبل أن يفوت القطار أو ربما الاستشهاد.

كانت المجموعة القادمة تضم الرفاق الذكور فقط، وبينهم الرفيق (يوسف)، وهو شاب أسمر ذو شعر أسود طويل حليق الشاربين ويتمتع بصحة جيدة. وحين بانت طلائع القادمين الجدد ،كان في مقدمة المفرزة ثلاثة شباب أحدهم الرفيق يوسف المسرحي. فنهض الشهيد أبو هديل، الذي استشهد على نهر دجلة فيما بعد، وأخذ بندقيته صائحاً، جاءت الرفيقات ! وبعد وصولهم خاب ظن أبو هديل بعدما تبين له أنه رجل.

حل في الأيام الأولى في ضيافتنا أحد رفاق حزب (كوك) واسمه جليل. وكان ضمن مجموعة شكلت حزباً جديداً كردياً في تركيا بعد أن انشقت عن الحزب الديمقراطي الكردستاني، وكان للمجموعة الجديدة مشاكل مع قيادة (حدك). أخبرنا جليل بأن مجموعة من رفاقنا قادمون ومعهم أسلحة إلينا، وسيصلون بعد يومين أو ثلاثة أيام، كما عبر عن رغبته في مغادرتنا في أقرب وقت.

رافقته مجموعة من رفاقنا بعد الفطور لإيصاله إلى منطقة العبور الحدودية. جاءنا شاب من إحدى القرى التركية ليبلغنا أن القافلة القادمة من رفاقنا والمحملة بالسلاح محاصرة من قبل الجندرمة التركية وأن طائرات (الهيلوكبتر) تحاصرهم وتطلق الرصاص عليهم وأنهم محاصرون ومختفون في الجبل ويطلبون النجدة السريعة. هزنا الخبر فعملنا فوراً وخلال دقائق على تهيئة مجموعة من الرفاق تضم حوالي٢٥- ٣٠ نصيراً بكامل أسلحتهم وعدداً من قاذفات (B7) وانطلقوا مسرعين لنجدة رفاقهم المحاصرين. ولم يسيروا سوى (٢٠٠ ـ ٢٥٠م) متراً حتى اصطدموا بمجموعة مسلحة كانت قد احتلت أعالي الجبل ومنعطفات الطريق، ونصب أفرادها كميناً محكماً ومنعوا رفاقنا من الحركة. فوجئ رفاقنا بوجود (سيد حميد) من قياديي حدك، على رأس المجموعة المسلحة التي نصبت الكمين!!.

سحب أعضاء مفرزة حدك أقسام أسلحتهم وتهيأوا لإطلاق النار، طالبين من رفاقنا نزع أسلحتهم وتسليم أنفسهم وإلا فإنهم سوف يبادون جميعاً. فما كان من رفاقنا إلا أن سحبوا أقسام أسلحتهم بدورهم واتخذوا المواقع القتالية. هيأ رفاقنا الـB7 للرماية وطلبوا من حدك فسح المجال لهم وإلا فإن الأمر سيتطور بشكل خطير، ولا يصح للأخوة القتال. وقالوا لحدك بأنهم ذاهبون في مهمة لا تعنيهم وأن رفاقنا محاصرون في الجبل من قبل الأتراك. وسيسقط شهداء لا مبرر لاستشهادهم إذا لم يفسحوا لهم الطريق.

وصل الخبر إلينا في القاعدة بأن حدك (سيد حميد) قد نصبوا كميناً مسلحاً وأن مقاتليهم يحاصرون ويمنعون رفاقنا من الحركة وأن احتمال الصدام بينهما كبير! هرعنا (أبو جوزيف وأنا) ومجموعة من الرفاق لمكان الكمين الذي نصبه حدك. رأينا خطورة الموقف وقدرنا أن أي تصرف خاطئ سيؤدي إلى مجزرة غير مبررة مجهولة الأسباب ويروح ضحيتها عدد غير قليل من الطرفين، خاصة وأننا كنا في بداية طريق الكفاح المسلح ونعتبر (حدك)، رغم بعض التصرفات غير الودية من بعض مسؤوليه تجاهنا ،حزباً صديقاً.

حيرتنا الأسباب الموجبة لذلك التصرف ؛ فهل أنهم في الفرع متعاونون مع الأتراك؟! وهل يعلمون أن رفاقنا محاصرون في الجبال، وربما يلقي الأتراك عليهم القبض ؟

أبلغنا (سيد حميد) بعدم التحرك وطالبنا رفاقنا بتجنب الاصطدام معهم وقررنا الذهاب إلى قيادتهم في الفرع لاستجلاء الموقف.

رجعنا لقيادتهم وكان (هجار) مسؤولهم العسكري ودكتور القاعدة عضو الفرع موجودين. استفسرنا منهما عن سبب ذلك الكمين، فقال مسؤولهم العسكري :"إنكم تريدون تهريب العنصر جليل من حزب (كوك) الذي كان بضيافتكم. وهو قد انشق من حزبنا ونطلبه ونريد تسليمه إلينا. وفي عهدته رشاش أمريكي وحصان ومبلغ، أعتقد أنه كان ٨٠ ديناراً تعود لنا!" نظرنا أنا وأبو جوزيف الواحد بوجه الآخر مستغربين من حديثه،وقلنا له:" أولاً، إن جليل هذا في ضيافتنا وفي حمايتنا ولا يمكن تسليمه لكم وهذا خلاف التقاليد وعادات الضيافة. وإن مكان جليل وغيره معروف لديكم فيمكنكم من هناك إلقاء القبض عليه. وثانياً، إن مجموعة أنصارنا المحاصرة من قبلكم ذاهبة بمهمة أخرى لإسناد وإنقاذ رفاقنا المحاصرين من قبل الجيش التركي. وبعد مداولات انسحبت مجموعتهم من الكمين بسلام بعد أن كادت تسبب في هدر دماء الأصدقاء.

عاد رفاقنا إلى القاعدة بعد أن استطاع أنصارنا المحاصرون النفاذ بأمان. أخفوا الأحمال في الجبال واختفوا حتى هبوط الليل ثم سحبوا كافة الأحمال المخفية بالتعاون مع الأهالي في القرى المجاورة. وبعد بضعة أيام وصلوا سالمين فعمت الفرحة.

بدأ هطول الثلج مبكراً سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ واشتد البرد وسقطت أوراق الاشجار واختفت الطيور المغردة وغادرت المهاجرة منها إلى حيث الدفء.

كنا في أشد الحاجة لبناء قاعات جديدة خاصة وأن عددنا بدأ يتزايد. وببرقية من المكتب العسكري أخبرنا أن مجموعة من الحزب الاشتراكي الكردستاني (السوسيالست) جماعة (رسول مامند) سيكونون ضيوفاً علينا وسوف يسكنون بالقرب منا وبحمايتنا وما علينا إلا أخذ الترتيبات اللازمة لإيوائهم في منطقة (يك ماله)؛ التي كان فيها مجموعة من رفاقنا ومقرات وقاعات تابعة للحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك).

يبدأ الفلاحون الأكراد، عندما يريدون البناء، في الشهر الخامس (أيار) وينهون البناء في الشهر الثامن أو التاسع، أي قبل سقوط المطر والثلوج. فكانوا كلما يبنون قسماً يتركونه فترة لتجففه أشعة الشمس ويتماسك جيداً. ثم يقام السقف.

تعهد الرفيق أبو كريم (الأسطة) بالقضية لكونه عامل بناء في الأصل.

كانت الحاجة ملحة لبناء قاعة جديدة بعد زيادة العدد في (يك ماله) فبدأ أبو كريم متأخراً جداً. إذ حل الشهر العاشر وسيأتي موسم المطر والثلج الذي سيعيق عملية البناء ولكن أبا كريم أجبر على مواصلة البناء. كان الموقع يعد للاحتفال بثورة أكتوبر وللازدحام الموجود في القاعة القديمة قرر الرفاق الاحتفال بالقاعة الجديدة وهي رطبة وسقفت تحت وابل المطر. كنت جالساً على شاطئ نهر الخابور أمام قاعتنا وكان عدد من الرفاق منتشرين هنا وهناك للقيام ببعض الأعمال كتكسير الحطب وغيره من الأعمال، وكنت أقرأ كتاباً حول حرب الأنصار والمراحل التي تمر بها الثورة. الأنصار كمرحلة أولى.. والثانية.. والثالثة باحتلال المدن.... إلخ.

رفعت رأسي لألمح شخصاً. اعتقدت أنه فلاح تركي عابر سبيل أو شخص يبيع السجاير. كان ذلك في يوم ٨ أكتوبر أي في اليوم الثاني من الانتقال إلى القاعة الجديدة والاحتفال بثورة أكتوبر. كان من دون سلاح ومن دون قيافة النصير فلم أعره أي اهتمام. اقترب أكثر فصاح الحارس الشهيد عبد الحسين هذا أبو كريم فاستغربنا من شكله وناديت عليه ولما اقترب مني سألته عن سلاحه ولماذا هو بهذا الشكل والحالة التي عليها.

قال يوم أمس انتهينا من تسقيف القاعة الجديدة وكنا نتهيأ للاحتفال بثورة أكتوبر الاشتراكية. قال ابو كريم : بعد أن أكملنا بناء القاعة الجديدة و زيناها بالشعارات الوطنية والأممية الملونة. وبعد الانتهاء من العشاء، انتقل جميع الرفاق إلى القاعة الجديدة التي أكملت تحت وابل المطر ولازالت جدرانها رطبة، وبدأ المستشار السياسي بإلقاء كلمته الاحتفالية بجو يسوده الهدوء والانتباه وآذاننا مشدودة إليه وهو مسترسل بخطابه الحماسي هذا وحين عدد مناقب وأهمية ثورة أكتوبر بالنسبة للشعوب المضطهدة والظروف التي أدت إلى انتصارها وتأثيراتها العالمية وعندما قال أن ثورة أكتوبر الاشتراكية دقت أول مسمار في نعش الإمبريالية العالمية أنهار سقف القاعة على رؤوسنا فتراكض الأنصار خارج القاعة وهم في حالة بين الضحك والامتعاض والنكتة حاملين أسلحتهم ليهجموا على القصر الشتوي للقيصرية ويحتلوه. وكان أبو كريم يتكلم وهو يضحك، ولما سألته عن سر القصر الشتوي هذا قال إنه القاعة الجديدة الفارغة التي بناها فصيل حدك مؤخراً.

وأردف: في اليوم الثاني منذ الصباح استدعتني اللجنة العسكرية للفصيل لمحاسبتي وتجريدي من السلاح باعتباري المسؤول عن سقوط وانهيار سقف القاعة. وبعد مشادة كلامية تركتهم وجئت إلى هنا. وبعد سماع القصة أرجعت له سلاحه وبقي معنا في المقر.

كان (أبو كريم) شجاعاً وعاملاً يحب النكتة ويتحدث بصراحة شديدة. استشهد، بطلاً، في إحدى المعارك. كان يتحدث عن أبيه قبل مجيئه إلى كردستان عند زيارته له في سوريا. فطلب منه والده الرجوع إلى العراق لمساعدته. كان أبو كريم كغيره من الرفاق يحلم بالانتصار وتغير الحياة وخاصة للعمال فكان يعدد لوالده المكاسب التي يمكن تحقيقها بعد انتصار الشعب على أعدائه. فسأله أبوه هذا السؤال التقليدي. وأنت يا أبو كريم ماذا ستكون ؟ وزير؟ (طاح حظ الحكومة اللي أنت تكون فيها وزير !)

كان لدينا كلب اهتم بتربيته بعض الرفاق وهو رضيع. وحينما كبر صار حارساً أميناً يحسب له حساب.

من الغريب جداً أنه كان يعرفنا ويلعب معنا وعندما يزورنا إنسان غريب ينبح عليه بقوة و يحاول عضه.

كان مقر حدك لا يبعد عن مقرنا سوى بضعة أمتار. وكلما يأتي شخص منهم لتسليمنا سر الليل، وكنا نتبادل يومياً "سر الليل"، كان هذا الكلب يهجم عليه ويكاد يفترسه. وكانت هذه الحالة تتكرر يومياً. لكن هذا الكلب نفسه كان يستقبل الرفاق الجدد الوافدين إلى القاعدة بسرور هازا ذيله مرحباً وكأنه يعرفهم منذ زمن بعيد.

قلت إن المدفعية الحكومية كانت تقصف مواقعنا من الربايا. فكان حينما يسمع الكلب صوت المدفع والقصف يرتعد من الخوف ويعوي ويختفي في أحد الكهوف القريبة كأنه يشعر بالموت. في إحدى المرات، قمنا بتدريبات عسكرية وكان يصعد الجبل معنا. وعندما رأى مجموعة من جماعة حدك هجم عليهم ومزق سروال أحدهم.

كثيراً ما كان يذهب مع المفارز التي تتوجه إلى العمق لتوديعها ويسير معها مسافات طويلة ثم يعود. ذهب في إحدى المرات مع مفرزة من رفاقنا وفي طريق عودته وحيداً عثر عليه مقتولاً بعدة رصاصات ؟

أتذكر بعض الأحداث التي جرت مؤخراً عن بعض الكلاب التي قامت بدور الدليل والمنقذ في حالات عديدة. في معركة بشتاشان مع الاتحاد الوطني تفرق أنصارنا وضلوا عن الطريق في الجبال، فكان أن تولت الكلبة التي عندهم دور الدليل لإنقاذهم.

كان لدى الفوج الأول، حيث مقر قيادة الإقليم الذي يعمل فيه أبو نصير والملازم هشام، عدد من الكلاب.

كنا عندما نريد الذهاب إلى مقر قاطع بهدينان نعبر الشارع الحكومي ليلاً إلى قرية (سيكري) وفيها ننام الليل لنواصل في الصباح المسير أو بالعكس. كانت ليلة شتائية اشتد فيها المطر وهطل بكثافة وهبت عاصفة. وصلنا إلى الشارع العام بغية العبور وتسلق الجبل إلى قرية (سيكري)، تصحبنا كلبة صغيرة الجسم لونها أبيض وأسود. وضع كمين من قبل رفاقنا على جانبي الشارع لتأمين العبور. كان بالقرب من قمة الجبل وبعيد نسبياً عدد من الربايا تطلق طلقات تنوير حمراء للمركز القريب من الشارع لتؤكد وجودها. عبرت أول وجبة الشارع بأمان. بقيت الكلبة مع الوجبة الثانية وعندما عبرت الوجبة الثانية بدأ الصعود بتأنٍ شديد. يتقدم المفرزة عدد من الرفاق لتأمين الطريق. ركضت الكلبة أمامهم لمسافة ٢٠٠ - ٣٠٠ متر ولما تأكدت من سلامة الطريق عادت إلينا. ولما وصلنا بالقرب منها ركضت مرة ثانية وعادت لتؤكد أن الطريق سالك وعدم وجود مخاطر وهكذا استمرت بالاستطلاع حتى نهاية الطريق ووصول الجميع بسلام إلى القرية.

المعتاد أنه حينما تصل مفرزة من الأنصار إلى إحدى القرى يضع الأنصار الأحمال قرب الجامع ومن ثم يتوزعون على بيوت القرية، كل إثنين في بيت. يحملون بعد العشاء أفرشتهم للنوم في الجامع. حينما وصل الجميع بعد معاناة كثيرة، كانت الملابس مبتلة وملطخة بالوحل. أنزلنا حمل البغل قرب الجامع، فصعدت الكلبة فوقها لحمايتها من السرقة وكانت تنبح على من يقترب منها. وبقيت حتى مطلع الفجر على هذه الحالة.

من الشخصيات التي لا تغيب عن الذاكرة، الرفيق أبو مكسيم، الذي استشهد في

مجزرة بشتاشان. كان من الأنصار القدماء ويمتلك من الخبرة والدراية العملية ما يكفي. وهو من الرفاق اليزيديين، يحتل مركز آمر سرية، ويتميز بشدة إيمانه والتعلق بالحزب وتنفيذه الدقيق للتعليمات والأوامر التي تصدر إليه.

التحق أبو مكسيم بنا سَنة ١٩٨١ وكان معه في الطريق الذي عبره عشرون رفيقاً منهم الرفيق (أنور طه) من البصرة (أبو عادل الشايب). أسماه الأنصار بذلك تمييزاً له عن أبي عادل الآخر الذي أسموه أبا عادل السياسي، بالنظر لموقعه الحزبي كمستشار سياسي. وكان ذلك اللقب يغيض (أبو عادل الشايب) فكان يقول هل أنا (كرونجي)؟ أنا أيضاً سياسي!

كان أبو مكسيم آمر المفرزة الجديدة القادمة وأبو عادل؛ الرفيق (أنور طه)، مستشاره السياسي ومساعده. وبعد مسير عدة أيام أنهك الرفاق وأخذوا يتباطؤون بالسير ويتأخرون.لاحظ أبو مكسيم ذلك الوضع ولم يعجبه فعقد اجتماعاً للمفرزة قائلاً:" لقد أبلغت من قبل الحزب بأن نحث السير ونصل إلى قاعدتنا مبكرين ... إلخ" فقال له أبو عادل نحن نسير منذ عدة أيام في هذه الجبال الوعرة فأين التقيت بالحزب ليبلغك بهذه المعلومات يا رفيق أبو مكسيم. وبعد مسير أكثر من عشرين يوماً وصلت مفرزتهم للقاعدة.

تأثر أبو مكسيم كثيراً عندما قررنا النزول بمفرزة قتالية مشتركة مع الأخوان في الحزب الديمقراطي الكردستاني وبقاءه هو في القاعدة. وحينما تقرر يوم النزول في أواسط حزيران ١٩٨١ كما اعتقد، أقام الرفاق في القاعدة حفلة توديعية لنا، فلم يحضرها أبو مكسيم وظل نائماً في القاعة بالرغم من موقعه كآمر لسرية المقر.افتقدنا وجوده وخاصة الرفيق (أنور)، فذهب إليه ليجده في وضع لا يحسد عليه.

قال له أبو عادل بعد أن أيقظه من نومه كيف لا تحضر الحفلة يا أبو مكسيم والرفاق غداً يذهبون للداخل وربما لا يعودون وربما يستشهدون جميعاً ولن نراهم بعد ذلك... الخ. هزت تلك الكلمات أبو مكسيم (آمر السرية) فاقتنع بكلام أبي عادل وحضر الاحتفال. وبدأ يغني أغنية أسطورية قديمة دامت لساعات. وتقول الأغنية إن

رجلاً أحب امرأة وتزوجها ثم سجن لأمر ما وحكم عليه بالإعدام. فذهبت زوجته إلى مركز الشرطة وأخبرتهم ببراءته. نصحوها في المركز أن تذهب إلى حاكم البلدة فنصحها الأخير أن تذهب إلى مدير الشرطة وهذا نصحها أن تذهب إلى الوزير وهذا نصحها أن تذهب إلى رئيس الديوان وهذا نصحها أن تعرض قضية زوجها على الوالي ولما عرضت القضية على الوالي حن قلبه عليها وأصدر أمراً بإطلاق سراح زوجها. ولما خرج الزوج من السجن قتل زوجته الذي اتهمها بخيانته مع جميع هؤلاء من الذين عرضت شكواها عليهم. وقد قوبلت الأغنية بالكثير من التصفيق والتعليقات من قبل الرفاق.

الفصل التاسع عشر

جواسيس

من المعروف أن لدى جميع الدول أجهزة أمن ومخابرات وشرطة وجيش... إلخ وكثيراً ما تدس جواسيسها بين مواطنيها وترسل البعض منهم للتجسس على دول أخرى أو منظمات أو أحزاب المعارضة لجمع المعلومات والاغتيالات. وقد تطورت حرب الجاسوسية وفق تطور الدول وتطور تكتيك التجسس، ليشملا ميادين عدة مثل السياسة، الأمن، الاقتصاد، العلوم.... إلخ. وتطورت الجاسوسية في العراق تطوراً كبيراً على يد البعث واستخدمت أساليب تكتيكية عديدة لجمع المعلومات مستفيدة من خبرة الدول الرأسمالية والاشتراكية وغيرها، من ذلك التجسس على أحزاب وشخصيات المعارضة واغتيالهم، مثل اغتيال ستار خضير عضو ل.م. ومحمد الخضري وشاكر محمود وعشرات غيرهم ممن تم اختطافهم، وكذلك حردان التكريتي الذي جرى اغتياله في الكويت مثلاً.

كانت من جملة الأهداف التي وضعناها أمام حركة الأنصار زج وإرسال عدد من الكوادر الحزبية للمدن سواء المدن الكردستانية أو باقي المدن مثل؛ بغداد، البصرة والناصرية. وقد نجحنا بذلك إلى حد ما. وبالمقابل فإن أجهزة المخابرات في بغداد وغيرها كانت ترسل جواسيسها إلينا بطرق مختلفة. البعض تم اكتشافه والقسم الآخر استطاع أن يتستر على وضعه.

وصل إلينا في أحد الأيام عبر مفارز حدك شاب يزيدي ومعه شخص آخر. كان هذا الشاب صديقاً لبعض الرفاق. بعد وصولهما طلب هذا الشاب اللقاء مع (أبو جوزيف) " المسؤول العسكري في القاعدة " الذي يعرفه ويعرف عائلته وهو الذي كان قد كلفه ببعض المهمات كما يبدو من حديثه. إن ضمير هذا الشاب لم يطاوعه، فلم يستطع أن

يتستر على وضعه والمهمة المكلف بها من قبل أمن المنطقة. وإذا لم تخنِّي ذاكرتي كان من منطقة (بحزاني). قال الشاب إنه كان يوزع بيانات للحزب وتم إلقاء القبض عليه من قبل الأمن وتم تعذيبه بوسائل شتى وقد صمد بوجه التعذيب. وقد أرسلت دائرة الأمن على أمه وأخته وحاولت الاعتداء عليهما وتم تعذيبهما أمامه فرق قلبه واعترف وطلب الأمن منه التعاون معهم بهدف إرساله إلى الأنصار الشيوعيين في الجبل للعمل بين صفوفهم وتزويدهم بالمعلومات المطلوبة، وخاصة عن المسؤولين العسكري والسياسي و الكوادر الحزبية والأشخاص المتواجدين ونوعية السلاح، ومصادر التموين وطرق مجيء الأسلحة... إلخ، ثم يقدم طلباً (حسب طلب الأمن منه) باعتباره مريضا للذهاب إلى سورية لاكتشاف الطريق، وعندما يصل إلى سورية يرسل برقية لأهله يحدد فيه مكان إقامته. ويسلم أهله البرقية إلى الأمن في كردستان ليعرفوا مكان إقامته وكي يرسلوا شخصا من السفارة العراقية في دمشق للاتصال به وتلقي المعلومات منه. كان ذلك سنة ١٩٨٠ أو ١٩٨١، حينما كانت السفارة العراقية في دمشق في (أبورمانة) وكراً للتجسس والتآمر ضد سورية والمعارضة العراقية وعموم العراقيين في سورية وعن المساعدات التي تقدمها سورية للمعارضة... إلخ.

ولما سألناه عن الشخص الذي جاء معه قال؛ إنه رأى هذا الشخص لأول مرة في دائرة الأمن، وكان يتحدث مع مسؤول الأمن في الدائرة، وقد بلغني أحد معاوني الأمن بأن يذهب معي لمناطق الأنصار، وحدد لنا يوم السفر أوصلتنا سيارة الأمن إلى منطقة قريبة من إحدى القرى، وفي القرية كانت فيها مفارز (حدك) المسلحة التي يقودها (....) وطلبنا منهم إيصالنا إلى الشيوعيين دون أن يعرفوا عنا شيئاً.

وبعد التحقيق مع الشخص الآخر ظهر أنه عريف بالاستخبارات العسكرية جاء لجمع المعلومات والقيام باغتيال المسؤولين. كان شخصاً ذكياً يعمل في استخبارات الجيش في المنطقة الجنوبية على حدود إيران. و تم اختياره للمهمة لكونه يزيديا يجيد اللغتين الكردية والعربية، وربما لغات أخرى، وماهراً في لعب الشطرنج ومختلف الألعاب الأخرى وكتوم و يقظ. لذا تم إرساله الينا. وبعد مناقشة وضعه تم اعتقاله.

لم يكن لدى الأنصار في قاعدة كلي كوماته في سنة ١٩٨٠ سجن. وبعد معرفة وضعه تم ربطه بالحبال. فكان ينام ليلاً وهو مربوط أيضاً، في القاعة مع باقي الأنصار، ولكن تحت حراسة مشددة.

كيف هرب هذا العميل

كان الرفاق يعبرون نهر الخابور إلى الجانب التركي لقطع الحطب حيث الغابات وكانوا يأخذون هذا العميل المحنك معهم. كان خبيراً في تقطيع الأشجار والتحطيب كانوا يفكون رباطه ويعاملونه معاملة إنسانية كأنه واحداً منهم متأثرين بالعواطف والأحاسيس النبيلة التي تعلموها داخل الحزب، ولم يتعلموا بعد، الحقد على أعدائهم المرسلين لقتلهم، وأعدائهم الذين سجنوا وأعدموا وقتلوا رفاقهم.

إن جهاز الأمن عندما يرسل شخصاً من عملائه إلينا بدافع التجسس والقتل يخبرونه أيضاً بأن الشيوعيين لا يعذبون ولا يقتلون أحداً؛ ربما يقومون بضربه، ولكنهم إنسانيون!!.

تكررت عملية أخذه للتحطيب. في إحدى المرات، عبروا إلى الجانب التركي، وضعوا بنادقهم قرب شجرة، فكوا وثاقه وبدأوا بالتحطيب. فما كان منه إلا أن أخذ بندقية الكلاشنكوف وبدأ بفتح النار على الأنصار فأصاب (أبو أيار) في فخذه وأراد قتل الآخر إلا أنه ألقى بنفسه في النهر. وبعد أن هزمهم واستولى على البندقيتين هرب وكأنه (فص ملح وذاب) كما قال آمر المفرزة. ويبدو أنه قد استطلع المنطقة جيداً في المرة الأولى من التحطيب وعرف طرقها ومخابئها لذا اختفى ولم يعثر عليه، رغم الجهود التي بذلها الرفاق في البحث عنه.. تعلم الأنصار الإنسانيون درساً بليغاً من تلك الحادثة.

أبو كريم وأبو سحر

بعد أن أصبح للأنصار سجن يحتجزون فيه أعداءهم من العملاء والمرتزقة عملاء النظام والمجرمين، أصبح أبو كريم فترة من الزمن آمراً للسجن. وكان أبو سحر رفيقا من عمال أهالي الديوانية جاء من منطقة روست مع مفرزة إلى قاعدتنا لاستلام السلاح والعتاد، وهو صديق أبو كريم. كان الشهيد أبو سحر صاحب نكتة لا يقل عن أبو كريم. كثرت في تلك الأيام المطالبة بعقد مؤتمر للحزب لتقييم فترة الجبهة وأسباب الانتكاسة والمسؤولين عنها... إلخ ورسم رؤية مستقبلية. وكذلك الهدف من حركة الأنصار.

كان أبو كريم يسمع ذلك الحديث من أبو سحر وكان يعتقد أن الظروف ليست مؤاتية بعد لعقد المؤتمر. أصر الشهيد أبو سحر على موقفه فما كان من أبو كريم إلا أن يضع أبو سحر في السجن ولا يخرجه إلا بعد أن يكف عن المطالبة بعقد المؤتمر لقد كانت مداعبة لكنها ثقيلة بعض الشيء.ولا يستطيع المرء نسيان جوزيف وتكوينه وما يخزنه من الطعام.

زارنا في إحدى المرات ضابط تركي كبير، على أثر مشاكل بين رفاقنا والجندرمة التركية، إذ كان رفاقنا يضطرون عند نزولهم إلى العمق العراقي إلى دخول منطقة في الأراضي التركية، وكان ذلك يثير الجنود الأتراك، فجاء هذا الضابط لكي يحذرنا من ذلك. دعاه أبو جوزيف للقاء وتسوية القضية. وكان جوزيف حاضراً (لحماية الوالد) مع مجموعة من الرفاق. فلما رآه الضابط ظن أنه إنكليزي أو أجنبي ملتحق بنا. وأراد معرفة هويته، لكن أبو جوزيف تدارك الأمر وأخبره بأنه ابنه، فاقتنع الضباط أنه عراقي وليس أجنبياً.

كانت هناك قاعة صغيرة خصصت للقيادة ينام فيها أربعة. وكنت لا أستطيع النوم للعزف الموسيقي غير المتناسق الذي كان يخرج من (شخير) الرفاق. فكنت مضطراً أن أنام على صوت نهر الجدول الهادر.

نهر الخابور يجري صاخباً

حين يبدأ موسم الأمطار الربيعية التي تذيب الثلوج المفروشة كالسجاد على جميع أراضي المنطقة، ترتفع مناسيب الخابور، وخاصة في شهر نيسان، ارتفاعاً شديداً، فيجري الماء هادراً في نهر الخابور محطماً الجسور الخشبية جارفاً معه الخرفان والصحون والقدور محطماً الأشجار التي تعترض طريقه فيجرفها معه ويدوي دوياً مرعباً فيشل الحركة وتهرب الفئران والحيات المائية قبل أن تجرفها مياه الخابور الهادرة لمسافات بعيدة. وكثيراً ما جرف بعض الفلاحين عند محاولتهم تحديه. في تلك الفترة تتوقف حركة الأنصار حتى نزول مناسيب المياه وهذا لا يحدث في الخابور وفروعه فحسب، بل يشمل بقية الأنهر الكبيرة كالزابين الكبير والصغير ونهر الخزر والتفرعات النهرية الأخرى.

الأنصار وصيد السمك

أغلب من كان في القاعدة في البدايات من المناطق الجنوبية ؛ البصرة، الناصرية، العمارة والسماوة، إضافة لعدد آخر من سكان المحافظات الأخرى هم من محبي صيد السمك، ومن السباحين الماهرين.

قلت إن البدايات كانت صعبة، شحة في المال، شحة في الطعام، شحة في السلاح والعتاد وعلاوة على ذلك قساوة الطبيعة. لذا أصاب البعض الهزال ونقص الفيتامينات. كان رأس البصل يساوي كنزاً لمن يمتلكه، أما اللحم فهو شبه معدوم، فبين فترات تتجاوز الشهر نحظى بقطعة لحم لا تتجاوز المائة غرام.فلجأ الكثير من الأنصار وأنا منهم لصيد السمك. الصيد من هواياتي المفضلة. كنا نخرج مجموعة كبيرة لنصطاد السمك عن طريق رمي القنابل اليدوية، في بعض الأحيان. في إحدى المرات القينا قنبلة في النهر فاصطدنا كمية كبيرة من السمك ملأت كيسين كبيرين. وعندما رجعنا بسرور بالغ رأينا درباس ومجموعته ضيوفاً عندنا. ورغم ذلك وزعنا السمك على كل الوحدات.

كان الدكتور عادل (غسان عاكف)[٢٤٢] في شهر شباط حيث البرد والزمهرير يسبح ويغوص بعد إلقاء القنبلة فيخرج وسمكة في فمه واثنتين في يديه وواحدة في لباس السباحة. يتدفأ على النار فترة، ثم يلقي بنفسه مرة ثانية إلى النهر. وللدكتور عادل مناقب كثيرة وعظيمة أخرى لا يتسع المجال لذكرها.

وبعد الحفلة التي أقامها الأنصار للقوة التي ستعبر الخابور وتنزل إلى عمق أرض الوطن في حزيران ١٩٨١، وغناء أبو مكسيم في الحفلة، تم إعداد جميع المستلزمات. تحركت المفرزتان بعد الفطور ؛ مفرزة من أنصارنا والثانية من الأخوان في حدك وكان على رأسهم مسؤولهم العسكري الجديد، (سيد صالح) بعد أن هرب المسؤول العسكري السابق إلى تركيا، كما علمنا، وتزوج هناك أحد الأقطاعيين.

وفي العبور، الذي استغرق مدة من الزمن، كاد أحد الأخوان من حدك أن يغرق في نهر الخابور الجارف لولا إجادته للسباحة، كما جرف التيار (سيد صالح) وكاد هو الآخر أن يغرق لولا تمسكه بالخشبة التي كان راكباً عليها وهي تشبه (الكلك). غرقت في ذلك العبور،عدة بنادق وأشياء أخرى.

وللمرة الأولى في تاريخ الأنصار يتشكل فريق من النصيرات المدربات تدريباً جيداً والقادرات على تحدي الصعوبات وتقلبات الطبيعة القاسية وصعود الجبال الشاهقة وتحمل الجوع والعطش والمسير الطويل، يحدوهن الأمل في القتال والانتقام لأنفسهن ولعوائلهن من الذين جرى قتلهم وعذبوا حتى الموت سواء في الأمن العامة أو دهاليز المخابرات والأوكار الخاصة السرية للبعث، ولأزواجهن المفقودين ولأخوتهن وآبائهن وأمهاتهن ممن تغيبوا على يد البعثيين.

سرنا باتجاه قرية (نزور)، وبعد مسير عدة ساعات وصلنا إلى قرية (بيكوفا) مساءً. كان التعب والجوع القديم في القاعدة وجبن "الاستخبارات" (الجاجيك) ومربى (دروك) حديث الجميع.

كانت رائحة الخبز ورائحة الطعام الشهية تنبعث من القرية. أسقطت بعض الرفيقات كمية من الجوز الذي لم ينضج بعد، ورغم ذلك تناولنه من شدة الجوع.

توقفت المفرزة على قمم أحد الجبال وتم إنزال الأحمال وجرى تنظيم الحراسات ثم نزلنا وتوزعنا على بيوت القرية.

لم يصدق أهل القرية ومختارها بوجود هذا العدد الكبير من الأنصار، وخاصة أنصار الحزب الشيوعي والأسلحة وبينهم عدد من النساء النصيرات.هم يرون نساء مسلحات يلبسن ملابس الأنصار لأول مرة. فأخذت النساء القرويات يتسابقن لرؤيتهن واستضافتهن لمعرفة سر وجودهن مع الأنصار.

القرية يسكنها مسيحيون ومسلمون، ومختارها مسيحي، يعيشون بسلام ومودة ولا توجد مشاكل كبيرة بينهم.

وبعد أن بقينا بضع ساعات في القرية زودنا القرويون بالخبز والشاي والسكر والجبن. كانوا كرماء معنا، وهي من صفات الفلاح الكردي الذي يشبه أخاه الفلاح العربي: الكرم، الشجاعة وعزة النفس.

بعد عودتنا إلى الجبل قررنا الانسحاب. إذ من المحتمل أن أخبارنا وصلت الجيش المرابط في المنطقة، وقد نتعرض للقصف فجراً. ولابد أن في القرية من أوصل الخبر للجيش.

طلبنا من الأخوان في حدك الانسحاب معنا وحذرناهم من عواقب بقائهم، ولكنهم اعتذروا وقالوا إن لديهم بعض المشاكل وأنهم سينسحبون في اليوم الثاني.

وكما توقعنا،وبعد انسحابنا من القرية، حشدت قوة من الجيش و(الجحوش)[٢٤٣] في الشارع العام. وفي الصباح الباكر، في حوالي الساعة الرابعة صباحاً والظلام لازال مخيماً على المنطقة، زحفت القوة على المكان فيما كان أفراد مجموعة من مفرزة (حدك) نياماً، لا يعرفون بتقدم الجيش عليهم. وتوقع أحد أنصارهم، وهو (مام علي) كما اعتقد، وهو رجل كبير في السن، أن جماعته لازالوا متواجدين فاستدرجه الجيش ووقع في المصيدة (أسيراً) فقتل على الفور وتم سحله. وعند انجلاء الظلام كان قد تحشد عشرات الجنود والجحوش في القرية ونصبوا مدفع (٨٢ عقدة) وأخذوا يمشطون رؤوس الجبال. ولم تخرج الشمس من وراء الجبال حتى بدأت (٤) مروحيات مدرعة بقصف مواقع حدك ثم قرب الموقع الذي كنا فيه، مما اضطرنا للاختفاء تحت الصخور. كان الرعاة منتشرين مع أغنامهم في المنطقة فأودى القصف بعدد من الأغنام وتشرد قسم آخر في الوديان.

كانت لدينا دوشكا ومدفع ٦٠ ملم. نصبناهما باتجاه الشارع العام. كنا نرى الجنود والجحوش في الشارع العام، يحتشدون قرب بيوت القرية. أصدر المسؤول العسكري أمراً بعدم إطلاق النار لحين انجلاء الأمور.

كانت طائرات الهيلوكوبتر المدرعة تحوم فوق رؤوسنا وتطلق قذائفها مقتلعة الأشجار والأحجار.

امتنعنا عن إطلاق النار على الجيش والجحوش لأن قذائفنا ستقع في وسط القرية وتقتل الفلاحين وتهدم بيوتهم ونحن الذين جئنا نقاتل للدفاع عنهم ولتحريرهم وحمايتهم من ظلم السلطة.

وبعد صولات وجولات طياري المروحيات المدرعة وقذائف المدافع هرب الرعاة وتشردت الأغنام وقسم كبير من الأهالي.

انجلت المعركة عند الساعة الرابعة عصراً.انسحبت المروحيات بعد أن ألقت بقذائفها علينا وانسحب الجيش والجحوش معهم بعد أن دارت بعض المناوشات معهم.

نزل في الليل عدد من الأنصار إلى القرية لجمع المعلومات والتزود بالخبز. امتنع أهل القرية عن إعطائهم الطعام، وقالوا لهم بأنهم لا يستحقون الخبز والطعام. وبعد

حوار ساخن، قالوا لهم :" لماذا لم تدافعوا عنا؟ لماذا لم تضربوا الجحوش الذين احتلوا القرية ؟ لديكم الأسلحة وعددكم كبير. الجحوش أهانونا واعتدوا علينا وأنتم تتفرجون!"

فأخبرهم أنصارنا، بأن الجيش والجحوش قد تمركزوا في وسط وأطراف القرية بالقرب من بيوتهم، وأن فتح النار على تلك القوة يعني فتح النار عليهم، وهذا يعني ضربهم وقتلهم، وهو مخالف لهدف حمايتهم. وبعد أخذ ورد أقتنع أهل القرية بكلام الأنصار وزودوهم بالخبز.

انفصلت جماعة حدك عنا وسلكت اتجاهاً آخر رغم اتفاقنا معهم على أن نبقى سوية و أن ننفذ العمليات المشتركة!

التقينا مع مفرزة أنصار ثانية وأصبحنا قوة كبيرة. وكلما دخلنا قرية، وعرفت نساؤها بوجود نصيرات مسلحات معنا، زاد تسابقهن لرؤية النصيرات المقاتلات والترحيب بهن.

وعقدت النصيرات ندوات للقرويات، عن دور المرأة وحقوقها، وقدرتها على العمل ورفع السلاح والقتال، و كيف يقترن نيل حقوقهن بنضالهن إلى جانب الرجل بما فيه الكفاح المسلح.

قررنا الانقسام إلى مجموعتين والرجوع إلى القاعدة في (گلي كوماته) بعد أن تجولنا في المنطقة.

إن التواجد في مناطق جبلية وعرة ومقاومة الطبيعة القاسية أمر ليس بالهين وخاصة بالنسبة لأناس عاشوا في المدن سواء من العرب أو الأكراد.وفي طريق عودتنا بلغ التعب أشده خاصة لدى الرفيقات وبعض الرفاق الذين يعانون من بعض المشاكل الصحية.

كان الرفيق أبو يعقوب المسؤول العسكري للمفرزة وبدا حينها عصبياً معنا بفعل جهده وتعبه. (أبو عبود وأبو صلاح) وهم من العرب كانوا أدلاءنا. كما كان أحد الرفاق، المسؤول عن أحد البغال طياراً في حين أن ربط البردعة (الكرتان) والحمولة على ظهور البغال تحتاج إلى مهارة خاصة.

القينا أمتعتنا عند المساء قرب (گلي كوماته) في منطقة بهدينان لأخذ قسط من الراحة والمبيت في العراء حتى صباح اليوم الثاني. والرفيق ملاح طيارة (البوينغ) يشد حبال البغل الذي بعهدته. وبعد مسير نصف ساعة ارتخت الحبال وسقطت الحمولة على الأرض وتعطل السير، فاستشاط (أبو يعقوب) غضباً وقال مخاطباً الرفيق الطيار: أنتم المثقفين لا يمكن لكم أن تصبحوا ثواراً ولا أن تناسبوا الكفاح المسلح، تحسنون القراءة والتنظير فقط. خجل الرفيق الطيار وقال له أنا كنت طياراً وليس راعيا في زريبة بغال، لو عندك طيارة لحملتك أنت وحمولتك. انبرت لأبي يعقوب إحدى النصيرات (أم أمجد) وهي تدافع عن الماركسية والنظرية والمثقفين.

محاولة العبور

وصلتنا برقية من المكتب العسكري تفيد أن الرفيقين عمر علي الشيخ وبهاء الدين نوري تحركا إلى منطقتنا وأن هناك اجتماعا للجنة المركزية، وضرورة تهيئة الرفاق أعضاء ل.م لحضور الاجتماع في الخارج. تقرر أن يحضر ٣ رفاق من عندنا أنا وعمر الياس وأبو جوزيف، إضافة لبهاء وعمرعلي، وبقاء أحد الرفاق في القاعدة للطوارئ.وصلتنا المفرزة عصراً وهي قادمة من منطقة (نوزنگ) الحدودية مع إيران.

تم الاستعداد للسفر بعد أن أخذ الرفاق قسطاً من الراحة.

كان أدلاء المفرزة المغادرة النصير أبو وسن ورفاقه الأبطال من مفرزة الطريق.كان ذا معرفة بالطرق عبر تركيا ولم يستغرق مسيرنا إلا بضع ساعات حتى اختلى به أبو فاروق وراح يدقق معه تفصيلات الطريق والمراحل التي سنقطعها يومياً وساعات المشي..وكيف ينبغي أن نصل خلال يومين إلى المكان الفلاني.. فقال له أبو وسن هذا متوقف على طبيعة المشي. نحن نسعى إلى الوصول في الموعد المحدد.

انطلقنا في طريق جبلي صعب بارتفاعاته وانحداراته فأخذ التعب منا مأخذاً، وتأخرنا في الطريق عدة ساعات عن الموعد المقرر واستمر التأخير ليوم كامل حتى وصولنا إلى النقطة المحددة.

بعد استراحة يوم واصلنا عبر الجبال التركية الموحشة ومعنا أدلاء من أكراد تركيا،

كنا على معرفة بهم. في الطريق كاد (أبو سلام) بهاء الدين أن يسقط في الوادي بعد أن اصطدم جانب البغلة السريعة التي كان يمتطيها في حافة الجبل، ولولا نباهة الرفيق أبو هديل ومصادفة وجود صخرة أسعفته بالاستناد إليها عند سقوطه، لهوى في الوادي.

واصلنا المسير في جزء من الليل.. نمنا على التبن في غرفة صغيرة مليئة بالحشيش اليابس والتبن مخصصة للحيوانات.

أخبرنا الأدلاء بأن الجيش التركي مستنفر ويحتشد في مناطق عديدة. بعد انتظار بضع ساعات، تحركنا داخل وادٍ حجري باتجاه منطقة العبور إلى سوريا. وبقينا حتى المساء ولكن دون نتيجة وقد ساد وضع الأدلاء شيء من الارتباك. كنا قريبين من إحدى القرى، فاقترحوا علينا أن نتوزع في القرية حتى يوم غد، أو العبور في الليل. بعد سويعات من وصولنا القرية الكردية التركية وانتشارنا فيها، جاء أحد الأدلاء مذعوراً ومعه سيدة الدار التي نحن فيها وهي ترتجف من الخوف. قالا إن الجندرمة التركية تقدمت لتدخل القرية المجاورة وأنها سوف تتجه إلى قريتنا. طلبت منا المرأة مغادرة بيتها بسرعة والذهاب إلى الجبل للاختفاء. وبالمناسبة فإن الجندرمة (الجيش) التركي كان قاسياً جداً ويعامل أهالي القرى الكردية بوحشية، ويعتدي على رجال القرية ونسائها دون وازع من ضمير، لذا فإن أهالي القرى الكردية في تركيا يرهبونهم.

خرجنا من القرية في جو بارد وظلام دامس إلى الوادي الصخري حيث كان الحجر الصلد تحت أقدامنا.قادنا الأدلاء إلى ذات الغرفة المليئة بالحشيش والتبن بعد مسير ليل طويل.

كان في الغرفة شابان يريدان العبور إلى سوريا وقد تأخرا عن موعد العبور، وهما ينتظران فرصة أخرى. سألناهما عن حشود الجندرمة التركية ومجيء السيارات المحملة بالجيش للقرية، فضحكوا قائلين بأنهم لم يشاهدوا الجندرمة وأن تلك الأنوار كانت لتراكتورين رجعا متأخرين للقرية. فخجل الدليل التركي وغادرنا.

نهضنا صباحاً لمواصلة المسير. جاء أحد الأصدقاء الأتراك وقال إن مفرزة كبيرة من الرفيقات والرفاق، حوالي ٤٠ شخصاً قد عبرت متوجهة صوبنا، وقد كشفتهم

الدوريات التركية وأنهم شبه محاصرين. وهنا تساءلنا كيف تعبر مفرزة كبيرة ونحن في الطريق،هل هناك محاولة لمنع عبورنا ؟ إن عبور رفاق جدد وذهابهم إلى القاعدة ونحن في الطريق لحضور الاجتماع يعني إفشال محاولة عبورنا. وبالفعل فشلت المحاولة. بقينا أكثر من ٢٠ يوماً في الأراضي التركية بين صعود ونزول وتجوال في الجبال التركية اصطحبنا معنا المجموعة الجديدة وقررنا العودة إلى القاعدة.

وعند عودتنا اضطررنا صعود جبل (سر زيارات) في تركيا و كان جبلاً قاسياً أجرد، توجد عند قمته عدة مغاور مليئة بالرماد، لا تصلح للسكن، كما توجد عين ماء توشك أن تنضب. أغلب الجبال في تركيا جرداء شاهقة و الطريق إلى قمتها محفوف بالمخاطر.

وبعد صعود شاق لجبل (سر زيارات) عبرنا نهر (الهيزل) العريض وكادت أن تغرق إحدى الرفيقات فيه. ومن ثم نزلنا على منطقة (سناط) وهي منطقة عراقية أشبه ببساتين للفواكه فيها من كروم العنب الكثير وكان يحتلها الجيش العراقي وانسحب منها بعد أن هجرها سكانها الآشوريون. أمضينا فيها يومين. المناطق التي مررنا بها أثناء عودتنا خالية من القرى، فكنا نصنع الخبز بأنفسنا، كما كان لدينا معلبات أيضاً.

كانت صحتي قد تدهورت كثيراً بعد وصولنا إلى قاعدتنا في (گلي كوماته)، كما كنا نعاني من المشاكل الفكرية والتنظيمية، حول أسلوب العمل والعلاقات، ومسائل أخرى، فطلبت منحي إجازة للسفر للخارج للمعالجة والراحة بعد الجهود الكبيرة التي بذلتها من أجل توطيد عملنا في مختلف الجوانب في القاعدة.

كان جواز سفري العراقي قد انتهى منذ زمن والسفر به قد يعرضني للمخاطر. حصلت على جواز سفر (يمني) لرفيق جاء إلينا منذ سنة تقريباً ولازال الختم التركي عليه أي أنه جواز يعتبر حديثاً، فاستبدلت الصورة كما غيرت بعض المعلومات الواردة فيه.

اصطحبني الرفيق أسعد خضر وكان يريد الخروج للاستراحة، وصادف سفر مجموعة من الأخوان في (حدك) إلى تركيا.

جهزت حقيبتي للسفر ولما فتشتها ونحن في الطريق لإخراج علبة سجاير وجدت

بين طيات الملابس جريدة (طريق الشعب) فانتابتني الشكوك، وتساءلت عمن دسها في الحقيبة ! فلو جرى تفتيشنا من قبل الأتراك سواء في الطريق أو في الحدود وعثر على الجريدة في حقيبتي لعرضني ذلك لنتائج سيئة ربما يسلمنا الأتراك بسببها، للحكومة العراقية؟!! فقد سبق وأن سلموا مجموعة من رفاقنا، فيما بعد، للسلطات العراقية حينما شكوا بهم،(أبو شمس ومجموعته) فرميتها وكتمت الأمر. وسرنا أنا وأبو جبار وثلاثة من الأخوان في حدك عبر الأراضي التركية تحت الأمطار الغزيرة ونحن نصعد الجبال وننزلها، مروراً بعدة قرى حتى وصلنا مدينة (شرناخ) التركية. بعد ثلاثة أيام متواصلة وصلنا إلى قرية. دخلنا بيتاً في أطرافها. استقبلنا أهل الدار مرحبين بنا، إذ أنهم يعرفون الأخوة من حدك. أمضينا يومنا في ضيافتهم وكانوا طيبين ومضيافين حقاً.في اليوم الثاني وبعد الفطور غيرنا ملابسنا الكردية بملابس مدنية كنا جلبناها معنا من القاعدة، ودعنا مرافقينا الثلاثة وشكرناهم كثيراً كما شكرنا أهل البيت على ضيافتنا.

انطلقنا أنا وأبو جبار ووقفنا في محطة للباصات العمومية.جاء الباص وكان مملوءاً بالركاب من العمال والموظفين والنساء الذاهبين للعمل أو إلى المدينة.

في منتصف الطريق صعد أحد الجنود المسلحين، من نقطة للتفتيش وأخذ يتفحص الركاب ويطلب هويات البعض.كان كما بدا لي لا يعرف القراءة والكتابة. طلب هوياتنا عندما وصل إلينا فسلمناه الجوازات التي معنا وتكلم معه أبو جبار إذ كان يعرف اللغة التركية.أخذ الجندي ينظر إلينا وينظر إلى الجوازات كان جواب أبو جبار باللغة التركية عاملاً كبيراً لقطع الشك عند الجندي، فسلمنا الجوازات. كانت أعصابنا متوترة جداً. انطلق الباص، وكان نصف العمال والموظفين في السيارة شبه نيام ونصفهم الآخر يتثاءب من النعاس.

توقف الباص وسط سوق المدينة، حيث تنتشر دكاكين مليئة بالفواكه المتنوعة. نزل أبو جبار واشترى كيلوين من التفاح. كنا جائعين فأتينا على معظم التفاح بشراهة بعد الجوع والحرمان الذي عشناه في القاعدة. تذكرت رفاقنا في القاعدة كيف كانوا يصطادون السرطانات أبو (الجنيب) وغيرها حتى أن بعضهم كان يأكل الحيات.

وصل الباص ونزل جميع الركاب. تجولنا في سوق المدينة. دخلنا مطعماً وطلبنا كباباً مضاعفاً ولبناً. ركبنا الباص المتوجه إلى مدينة (نصيبين) الحدودية. وبعد حوالي الساعة أو أكثر كنا في وسط مدينة (نصيبين) ودخلنا أول مطعم صادفناه وطلبنا كباباً ولحماً مشوياً (تكة) بشكل مضاعف أيضاً.لا ندري أين يذهب كل ذلك الطعام، ورغم ذلك كنا نشعر بالجوع !

كيف دخلنا إلى سوريا

توجهنا إلى مديرية الجمارك الحدودية التركية للدخول إلى سوريا.

جوازاتنا صادرة من اليمن الديمقراطية. جوازي قد مر عام على صلاحيته وجواز أبو جبار حوالي ستة أشهر. وضعنا في كل جواز (٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠) ليرة تركية رشوة.

نظر المسؤول للجوازات وما في داخلها. بان الفرح على وجهه وانفتحت أساريره وقال إن هذا قليل فزدنا المبلغ قليلاً. وكان شاب صغير جالساً يبيع الطوابع فطلب مسؤول الجمارك منا أن نمنحه هو الآخر بعض النقود، فأعطيته ٤٠٠ ليرة (أقل من دينارين). ثم سألنا أين كنتم، فقال له أبو جبار، بالتركية طبعاً، كنا في (إسطنبول) ومن ثم ذهبنا إلى (أزمير وأنقرة)، إننا مصطافون جئنا للراحة.

ثم قال المسؤول: إن في اسطنبول بنات جميلات وكثيرات، قال له أبو جبار نعم كان أبو جبار يترجم لي ما يقوله مسؤول الجمارك.

قلت في نفسي آه لو يعلم أين كنا وماذا قاسينا. وتذكرت قصة الرفيق أبو كريم "النوم مع الشقراوات"!

كانت صحف النظام العراقي تكتب عنا، بأننا نعيش في الخارج مرفهين نأكل ونشرب وننام مع الشقراوات في موسكو وبراغ وصوفيا... إلخ، كانت مجموعة من الرفاق بضمنهم أبو كريم ينامون في بيروت في غرفة واحدة. استيقظ أبو كريم ليلاً بعد أن شمَّ رائحة كريهة ليرى جوارب نتنه وحذاء (بسطال) أحد الرفاق عند أنفه. فعلق : "يقولون عنا، إننا ننام مع الشقراوات ! هذه هي الشقراوات مشيراً إلى الجوارب والحذاء!"

دفعنا حوالي (٨٤٠٠) ليرة تركية كغرامة على تأخر بقائنا في تركيا، وقال المسؤول: "لن أسجل في جوازاتكم قضية تأخركم." سلمنا الجوازات بعد أن ختمها بختم الخروج شكرناه وخرجنا، وانتهت القضية بسلام.

دخلنا الجمارك السورية وقد انزاح عنا الخطر، لإن الأخوان في سوريا وإن عرفوا بأمرنا وهويتنا فنحن مطمئنون لموقف سوريا السياسي من المعارضة العراقية بحكم الخلافات بين الحكومة العراقية التي تتآمر ضد سوريا وبين الحكومة السورية. وهناك مجموعة كبيرة سواء من رفاقنا الشيوعيين أو غيرهم يعيشون في سوريا.

شك السوريون بجوازاتنا اليمنية وراح مسؤول الجوازات يوجه إلينا الأسئلة:

" من أين أنتما قادمان؟" توليت الحديث قائلاً؛ من تركيا.. من أنقرة

ماذا كنتما تعملان؟

نصطاف.

بمفردكما أم مع عوائلكما وأين عوائلكما؟

مع عوائلنا وقد عبروا قبلنا وبقينا لإنجاز بعض المعاملات.

هل أنتما من اليمن الجنوبي؟

نعم!

أين تسكنون في اليمن؟

في عدن.

ما هو اسم الشارع الذي تسكنون فيه، فأعطيته اسم أحد الشوارع في عدن وقلت له بأننا لن نبقى في سوريا بل سنعبر إلى بيروت.

ماذا تعمل في عدن؟ موجهاً السؤال لي.

عامل طباعة. ولما وجه السؤال لأبي جبار،عرف من لهجته أنه كردي فسأله هل يوجد أكراد في اليمن، فقال له (مازال يوجد جبال في اليمن يوجد أكراد!) للنكتة! فضحك الإثنان معاً.

قادت فطنة مسؤول الجمارك إلى طرح بعض الأسئلة عن مسؤول الشيوعيين في القامشلي وعن المسؤول البعثي وآخرين، مثل أبو محمود وأبو حسن من رفاقنا في

مكتب القامشلي فقال أبو جبار نعم نعرفهم وهم من جماعتنا فقال مسؤول الجمارك الآن عرفت من تكونان. ثم ختم جوازاتنا وخرجنا.

كان أبو جبار قد اتصل بأبي محمود (جلال الدباغ) فاستأجرنا سيارة تاكسي إلى بيته.

لقد كان وزني لا يتجاوز (٦٠ كيلو) سابقاً وقد انخفض عشرة كيلوات تقريباً عندما كنا في القاعدة في كردستان.

الفصل العشرون

حادث لا ينسى

عانيت من الأسنان كثيراً، إذ أصابها العطب بسبب سوء التغذية ورصاص المطابع والسجون وسوء التغذية في كردستان، خاصة في الأيام الأولى في قاعدة (گلي كوماته).كما أصاب المرض أسنان بعض الرفاق منهم (أبو داود) اليزيدي.

لم تتوفر في تلك الأيام معالجات طبية عندنا مما يضطر البعض خاصة الذين يعانون من الأمراض الصعبة السفر للمعالجة في الخارج.

عند نزولي إلى أحد الأنهر للاستحمام، وكان برفقتي الرفيق (كوكب حمزة) الملحن والمغني العراقي المعروف، سقط من فمي جسر الأسنان. فتشت عنه كثيراً بين الصخور داخل النهر ولكن بدون جدوى. سمعنا أن في القرى المجاورة مجموعة من الغجر (القرج) وبينهم شخص يقوم بتركيب الأسنان، وخاصة تركيب أسنان الذهب التي يشتهر الغجر بصناعتها.

حزمنا أمتعتنا ورحنا نفتش عن الغجر. وكلما وصلنا قرية يخبروننا بأنهم قد رحلوا إلى القرية المجاورة وبعد طول بحث، التقيناهم.

جاءنا رجل لوحته أشعة الشمس، لا يشبه الأكراد في سحنتهم المائلة إلى البياض، فسحنته كانت سمراء أقرب إلى السواد يحمل بيده كيساً من القماش.

العملية

جلس أمامنا وأخرج أدواته وهي عبارة عن مفك (درنفيس) وقنينة صغيرة من الزجاج مملوءة بالنفط مركبة فيها فتيلة من القماش مثبتة بالطين المفخور من كثرة الاستعمال.أشعلها وكان الدخان الأسود يخرج من نهاية الفتيل، وضع المفك على اللهب

لتعقيمه ثم مسح السخام العالق به ببنطاله الوسخ.فتح فم أحدنا وانصرف ينظف الأسنان المنخورة بواسطة المفك.

كان لديه كيس مملوء بالأسنان البشرية التي قلعها في القرى. فاختار سناً مناسباً ثم ألصقه بواسطة المعجون الأحمر الذي يستعمله أطباء الأسنان والذي بواسطته تركب الأسنان الاصطناعية. وبعد أن سخنه على نار القنينة المشتعلة، ثبت السن في فم النصير، دون أن ينظف السن ويعالجه بشكل صحيح. وعمل نفس الشيء مع (أبو داود) ومعي، وسلمناه أجرته ورجعنا نحمل أسناناً جديدة في أفواهنا.

التهبت أسناني مرة أخرى عندما وصلنا دمشق فذهبت إلى دكتور الأسنان وكان دكتوراً حقيقياً، عندما فحص أسناني استغرب كثيراً من طريقة صنعها وتركيبها. وقلعها بعد عملية ومداواة وقال لي أي دكتور ركب لك هذه الأسنان فقلت له أنه دكتور متمرن جديد!!.

السفر إلى ألمانيا الديمقراطية وقصة المعطف

كل من رآني في دمشق استغرب من الهزال الذي أصابني. بعد فترة قررت زيارة عائلتي.

حصلت على سمة الدخول (فيزا) لألمانيا الديمقراطية بالجواز اليمني وكنت على معرفة بالسفير إذ كان ملحقاً ثقافياً في سفارة ألمانيا الديمقراطية في بغداد مما سهل منحي إياها.

كنت أرتدي معطفاً شتوياً بني اللون جلبته معي. لم يسألني أحد من الرفاق ما إذا كان جوازي يصلح للسفر أم لا؟ ولم أحاول أنا تغييره بجواز آخر وسافرت بالجواز المزور بعد أن فقدت جوازي في كردستان.

خلعت المعطف في صالة الانتظار في دمشق ووضعته على الكرسي خلفي. كانت طائرات (أنتر فلوك) الألمانية الديمقراطية تأتي إلى دمشق ليلاً عبر مطار (لارنكا) في قبرص وترجع بعد بضع ساعات.

حان وقت الإقلاع فتوجه جميع الركاب إلى الطائرة بمن فيهم أنا وفتاة تلبس ملابس الزواج. وقد نسيت المعطف على الكرسي في صالة الانتظار والطائرة لازالت

جاثمة في المطار وهي على وشك الإقلاع. تذكرت المعطف فنزلت من الطائرة مسرعاً مما أثار انتباه المضيفات والركاب. نزلت إلى صالة الانتظار فرأيت المعطف مايزال على الكرسي في مكانه خطفته ورجعت للطائرة مرة أخرى. اعتذرت للمضيفة التي كانت تنظر إلي بريبة. وطارت الطائرة لتحط بعد ساعات في مطار (لارنكا) في قبرص للاستراحة لمدة ساعة وللتزود بالوقود. أثناء الوقت المقرر لبقائها كنت مراقباً. جاء ثلاثة أشخاص وطلبوا مني أن أرافقهم. قالوا بالإنكليزية، إنهم بوليس. أدخلوني غرفة صغيرة وفتشوا ملابسي وحينما لم يعثروا على شيء سمحوا لي بالذهاب إلى الطائرة مع الاعتذار. كان ذلك بسبب المعطف. وصلت الطائرة إلى مطار (ستوفيلد) في ألمانيا الديمقراطية الساعة الخامسة صباحاً تقريباً. توجهنا إلى شباك الجوازات. وعند وصول الدور لي قدمت جوازي فأخذ الشرطي يدقق في جوازي وسمة المرور ثم ينظر إليّ. بعدها قال انتظر. ومرت ساعات وهبطت عدة طائرات وخرج ركابها وأنا انتظر، ولا من يسال عني. طال انتظاري. ربما كان السبب المعطف، أو الجواز المزور.

مر أحد العسكريين فناديت عليه وطلبت منه مدير المطار. لم يتكلم معي وذهب. جاء بعد بضع دقائق أحد حراس المطار من الشرطة وقادني وأنا أحمل حقيبة ملابسي، إلى غرفة صغيرة. ففتشوا جميع حاجياتي بما فيه قوالب الصابون والحلويات التي اشتريتها من دمشق، ثم سألني إن كنت أعرف أحداً هنا، وسبب الزيارة ! قلت: إن عائلتي هنا وأريد زيارتهم وأعطيته أسماء من أعرفهم في برلين.

قال تستطيع الخروج على أن تترك "الفيزا" عندنا (كانت "الفيزا" منفصلة عن الجواز). حينما رفضت الخروج بدون "الفيزا" أعادوني مرة ثانية إلى غرفة الانتظار. كنت مستاءً من الإجراءات التي استخدموها معي ومرتاحاً لها في ذات الوقت. مستاء لأنهم قد يعيدونني إلى دمشق، ومرتاح لوجود التشدد واليقظة من قبل شرطة المطار لحماية أمن الدولة (D. D. R.).

جاء رجل مدني وأخذ ينظر إلي، ثم تلاه آخر، وغيره، فقدرت أنهم من أمن المطار. وبعد مدة من الزمن والمداولات سمحوا لي بالخروج بعد أن فتشوا محفظتي فعثروا على عدة دولارات و روبلات روسية ومائة مارك شرقي صادروا المائة مارك.

وبعد أن أقمت بضعة أشهر مع عائلتي، عدت إلى دمشق مرة ثانية ومنها قرر المكتب السياسي سفري إلى كردستان.

أجريت عدة فحوصات في ألمانيا وركّبت أسناناً جديدة. حظيت برعاية واهتمام من الرفاق الألمان.

بعد قرار م. س سافرنا مهدي عبد الكريم (أبو كسرى) وثابت حبيب العاني (أبو حسان)وعبد الوهاب طاهر (أبو خلدون) وأنا.

كانت الطائرة (إسلامية) إيرانية..كل شيء فيها ممنوع.. المضيفات يرتدين السواد ولم يظهر منهن سوى وجوههن.. تسمع في الطائرة هتافات التكبير (اللهم صلى على سيدنا محمد) وعندما حان وقت الصلاة قام أكثرية ركاب الطائرة للصلاة. والصلاة بسلامة الوصول... إلخ.

كان ذلك في عام ١٩٨٢ والحرب العراقية ـ الإيرانية محتدمة. وكل شيء في إيران مشدوداً لهذه الحرب العدوانية التي شنها العراق على إيران والتي أدت إلى خراب وتدمير البلدين بدون مبرر، والتي استفادت منها الصهيونية والدول الاستعمارية على حد سواء. وكانت إيران في أوج تحررها من حكم الشاه المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية.

تسود مطار طهران الفوضى، مما يعكس الوضع غير المستقر في البلاد. بعد تفتيش دقيق ولعدة مرات أخذت منا الراديوات والجوازات وقال لنا مفتشو المطار بأننا سنستلمها من مديرية الجوازات والإقامة! وهناك يخضع المرء للتحقيق قبل أن يستلم جوازه، وربما لا يستلمه. أما الراديو (الترانستور) والذي قيمته (١٠٠) دولار فيصادر بحجة وجود F.M فيه.

بعد فروض التفتيش في المطار خرجنا منه بدون جوازات طبعاً، التقينا مع الرفيق (حيدر فيلي)، الذي كان في طهران آنذاك. كان في طهران وحدها آلاف العراقيين، رجال ونساء وشيوخ وأطفال، من الذين هجرهم النظام العراقي ونهب ممتلكاتهم بحجة كونهم من التبعية الإيرانية.

اصطحبنا حيدر، بعد أن حصلنا على جوازاتنا، إلى الرضائية [٢٤٤]، وعاد أدراجه. لم يدم بقاؤنا في الرضائية سوى فترة قصيرة، لنسافر إلى منطقة الحدود، وعبرناها بسلام. لو علمت الجهات الإيرانية بهويتنا الحقيقية، لتعرضنا للسجن والتعذيب، رغم

أننا نحارب ونعارض الحرب المشتعلة بين النظامين.عبرنا الحدود من منطقة جبلية تدعى (جلاشين)، وصلنا إلى القاعدة في (نوزنگ). كانت مقرات لرفاقنا وجماعة الاتحاد الوطني (أوك) ومجموعة من (حدك) تعسكر بعيداً.

كانت منطقة (نوزنگ) من الوعورة والجفاف وصعوبة العيش بحيث لا يسكنها بشر، كانت موطناً للذئاب والحيوانات المفترسة، كما يقول الفلاحون الأكراد. إلا أن الأنصار أقاموا فيها وحولوها إلى منطقة سكنية تتكون من عدد من الأكواخ والخيام.

كان على مقربة منها سوق كبير (فروشكا) يسمى (قاسم رش) يباع فيه جميع ما يحتاجه المرء، من الإبرة وسنارات صيد السمك إلى مختلف الأسلحة المنهوبة من معسكرات الجيش بعد الثورة الإيرانية. وقد قصف هذا السوق من قبل الطيران العراقي عدة مرات. سكنت المنطقة منذ عام ١٩٧٩ وحداتٌ من الأنصار.

قبل وصولنا كان هناك هجوم إيراني،بدأ يوجه الضربات للجيش العراقي المحتل للأراضي الإيرانية، وبدأ الجيش العراقي بالتقهقر من الأراضي الإيرانية المحتلة متكبداً خسائر فادحة. ولحقت بالجيش العراقي خسائر فادحة بعد انسحابه من (معسكر حميد)، وقدم عددا كبيرا من الأسرى وعددا آخر من الغرقى. كما قتل الكثير من العراقيين برصاص العراقيين من قناصة فرق الموت العراقية وهم في الماء أثناء عبورهم باعتبارهم جبناء. قبلها كان الجيش العراقي قد استباح المدن الإيرانية التي احتلها ونكل بسكانها وهدم بيوتها واعتدى على شرف النساء في المعسكرات.

وتقرر بعد مرور بضعة أسابيع على وصولنا عقد اجتماع للجنة المركزية وتم استدعاء الرفاق من الخارج. عقد الاجتماع في عام ١٩٨٢ بحضور أغلبية الرفاق. دار نقاش مطول حول طبيعة حركة الأنصار وضرورة تطويرها، وحظي القرار بتشكيل حركة الأنصار بتأييد الجميع. قُدِّمَت وقتها مقترحات من قبل الأصدقاء تدعو إلى العودة للتفاوض مع حزب البعث. وكان وفد حكومي قد وصل إلى كردستان واتصل (بحدك وأوك) وبدأ عن طريقهم محاولاته للتفاوض معنا. فرفض أكثر الحاضرين، وكما أعتقد بالإجماع، التفاوض والدخول تحت خيمة البعث، الذي يريد أن تكون قواتنا من الأنصار مصداً للإيرانيين (أي جحوش) وفي الجبهات الأمامية لقتلنا جميعاً.

يمتلك البعث السلطة والقوة، وباستطاعته التفرغ لنا وتصفية حزبنا بعد أن زج بالعشرات في السجون وقتل أعداداً كبيرة منهم ومن غيرهم من الأحزاب الأخرى، وشن حربه الظالمة ضد الشعب الكردي. لقد قام بتصفية أكثر منظمات الحزب والأحزاب الأخرى وانفرد بالسلطة. كما عمد إلى إعدام ٣١ مناضلاً بتهمة كاذبة، وهي العمل التنظيمي في صفوف الجيش و و و... إلخ. فكيف الاطمئنان إلى مثل ذلك الحزب الدموي. وإذا ما أخذنا خلفيته الدموية في شباط ١٩٦٣ نخرج باستنتاجات أن دعوته هذه للتفاوض ما هي إلا مناورة للقضاء على الحزب، استكمالاً لدعوته السابقة الداعية للقضاء عليه في مدة لا تتجاوز عام ١٩٨٠. كان هذا بنظرنا يعني أن نتنكر لـ ٣١ شيوعياً أعدمهم البعث إضافة إلى صباح الدرة وعائدة ياسين وستار خضير وشاكر محمود ومحمد الخضري وعشرات غيرهم. وهذا ما طرحته أنا في الاجتماع.

أقر مقترح رفض الدعوة للتفاوض، ومن أهم النقاط الجوهرية الأخرى التي بحثها الاجتماع عدم الدخول والاتفاق مع أي فصيل كردي ضد الآخر في حال نشوب قتال بينهما، وأن نكون على الحياد وندين قتل الكردي أخيه الكردي. كما يقول الكردي: "صاحب اللحية البيضاء"، وأقر هذا التوجه السياسي أيضاً.

ونوقش أيضاً، احتمال انهيار النظام العراقي بعد دحره من قبل إيران وانسحاب الجيش العراقي من الأراضي الإيرانية التي احتلها في بداية الحرب في ٢٢/٨/١٩٨٠، وعليه يجب وضع خطة طوارئ لكافة الاحتمالات.

كما نوقشت القضية الفلسطينية والوضع العربي والدولي.... إلخ.

وأقرت فكرة عقد كونفرنس لحركة الأنصار وقيام تشكيلات جديدة وقيادات جديدة ومكتب عسكري جديد وإعطاء اهتمام وجدية لعملنا في المدن سواء العربية أو الكردية.

اتخذ م. س قرارات خاطئة بعد الاجتماع منها قرار تنظيمي بتجميع الكوادر والرفاق على أساس المناطق وتشكيل هيئات لقيادة العمل في الداخل (داخل المدن)، وجرى سحبهم من تشكيلاتهم الأنصارية وأطلق عليهم اسم الكوادر... إلخ لإرسالهم إلى المدن كل حسب منطقته ومتابعة العمل معهم من كردستان.

شكل المكتب العسكري الجديد، وكان في البداية من ثلاث رفاق.

قررنا عقد الكونفرس العسكري بحضور المسؤولين العسكريين للقطاعات والمسؤولين السياسيين والإداريين ورفاق من م.س و ل.م لدراسة وتنسيق وتنظيم العمل وتوزيع المهام وحل المشاكل التي تعترض العمل... إلخ، ووضع خطة طوارئ لاحتمالات التطورات في مجرى الحرب العراقية ـ الإيرانية.

كان أول كونفرس عسكري سياسي للأنصار يحضره هذا الكم الهائل من الرفاق جرى فيه نقاش مطول وخرج الاجتماع بقرارات حظيت بتأييد الأكثرية منها؛ تقسيم العمل وتشكيل القطاعات العسكرية: قاطع السليمانية، قاطع أربيل، قاطع بهدينان، وحل المشاكل بين المسؤول العسكري والسياسي وتشكيل قيادات لهذه القواطع، والاهتمام بتسليحها وتدريب العناصر الجديدة ووضع أسس للعلاقة بين الإقليم وحركة الأنصار كما هيأنا ورقة عمل من أجل عقد كونفرس (طبي) وانتخاب لجنة طبية مسؤولة مرتبطة بالمكتب العسكري ولجان طبية في القواطع وتخصيص مالي للنفقات الطبية والعلاجات. في أعقاب الكونفرس العسكري عقد الكونفرس الطبي وجرت انتخابات ديمقراطية كان بين الحضور، زهير الجزائري الصحفي المعروف وغيره من الصحفيين.

وانتخبت اللجنة الطبية المسؤولة وتحدد الوضع الطبي للأنصار أرسيت قواعده.

كما تقرر عقد اجتماع أو كونفرس للإداريين ولكن للأسف لم يعقد لتسارع الأحداث.

كانت هناك مشكلة الخلاف بين المسؤول العسكري والمسؤول السياسي، مع العلم أن الإثنين حزبيان قبل أن يشخصا لتلك المهام، وكذلك المشكلة بين التنظيمين المدني والعسكري.

هيأنا دراسة لعقد مؤتمر موسع إداري لدراسة الأمور الإدارية وتوحيد المخصصات الشهرية وتوحيد الصرف وتوفير المواد الغذائية وتحديد مالية القواطع وسد الحاجات الضرورية وبعد أن نوقشت جميع القضايا الأساسية وخاصة النظام الداخلي للأنصار. وبعد تفهم الجميع الوجهة الجديدة انطلقوا لوحداتهم يحدوهم الأمل بانتصارات كبيرة.

بعد رجوع الرفيق (أبو طارق) نسب إلى المكتب العسكري كمتفرغ، وكان تنسيبه

شكلياً،إذ أن هناك عدد من قيادة الحزب غير مقتنع بعملية الكفاح المسلح وكان يريد وأدها وإجهاضها وحلها بأي شكل، ويكفي، حسب رأيهم، وجود عدد قليل في الجبل، خاصة من رفاق الإقليم للمراسلة والأخبار. وكانت هذه الدعوات تنسجم مع ما تلقنه السلطة لعملائها لبثه بين الأنصار:

١ ـ عدم جدوى الكفاح المسلح.

٢ـ إثارة المشاكل القومية بين العرب والأكراد وبين الأكراد وغيرهم من اليزيديين والآشوريين بين السنة والشيعة.... إلخ.

٣ ـ إثارة المشاكل الجنسية وخاصة بين الشباب وتسريب المجلات والكتب الجنسية المثيرة بينهم.

إن عودة الحزب للوطن (كردستان) وحمله السلاح مع القوى القومية الكردية أعاد الثقة وأنعش الآمال به، ولولا عودة المناضلين الحقيقيين وحملهم السلاح بعد غدر البعث، رغم النواقص والأخطاء، لانتهى الحزب الشيوعي وضاع أعضاؤه في شوارع لندن وباريس وموسكو وواشنطن وبرلين كما هو الوضع الآن، وكما جرى لكثير من الأحزاب التي تركت مواقعها الحقيقية في بلدانها. ولأصبحنا حديث كل من هب ودب ولكان قد فقد الحزب مكانته،ولما كانت له هذه الشعبية.

أعاد الكفاح المسلح للحزب الشيوعي، إلى جنب الأحزاب التي نكل بها البعث، ثقة الجماهير بالحزب وأكد للجميع أن الشيوعيين لم ولن يتركوا النضال من أجل سعادة وحرية شعبهم ووطنهم، مهما غلت التضحيات.

حادث

بعد انتهاء أعمال اللجنة المركزية وعقد الكونفرسات العسكرية والطبية وتشكيل القواطع الثلاثة وتشخيص مسؤوليها وتحديد صلاحياتها ومهماتها، بدأ المكتب العسكري مهماته، فتقرر الانتقال إلى موقع آخر.

كان الرفيق (بهاء الدين نوري) يعاني من مرض عضال في ظهره وأوجاع مختلفة فتقرر منحه إجازة للسفر إلى الخارج للمعالجة ولكنه رفض، خاصة وأن الإيرانيين بدأوا

هجموهم لتحرير أراضيهم وبدأت التداعيات في وسط الجيش العراقي. فظهرت بعض التوقعات القائلة بانهيار نظام بغداد المسنود من قبل الدول العربية والإمبريالية في حربه ضد إيران.

طلب إجازة زمنية يمضيها على جبل قنديل. بعد أيام من ذهابه مع أولاد أخيه إلى جبل (قنديل) سقط وانكسرت بعض أضلاعه للأسف.

الفصل الحادي والعشرين

حصان أبو يوسف الشهير

كان (شيرزاد قاسم) بختيار وزوجته في قرية قرب (ليلكان) ومعه أبو دلشاد وعائلته ورفيق ثالث لا أتذكره وعائلته. تحركنا باتجاه منطقة (بارزان) للحاق بقاطع أربيل والفرس الحامل معنا. وصلنا ليلاً إلى إحدى القرى، فربط أحد الأنصار الفرس بحبل لا يتجاوز المترين إلى شجرة ونسي أن ينقلها إلى مكان آخر للرعي. كان الرفيق مهندساً للنفط من خريجي الاتحاد السوفييتي (هو والخيل كجا مرحبة) كما يقول المثل.

كانت الفرس متعبة وجائعة لأنها لم تشبع جيداً. وبالكاد وصلنا إلى منطقة (عادل رش) أي عادل الأسود، الذي كان يسكن هناك فسميت باسمه، حسب ما سمعنا. بقينا إلى اليوم الثاني. وصلت في الليل مجموعة من الأنصار بضمنهم أبو ربيع والملازم قصي وأبو سلوان وغيرهم، متوجهين إلى قاطع أربيل أيضاً.

طلبوا مني التخلي عن الفرس الحامل كي يستخدموها في نقل بعض حاجياتهم.

وافقت على ترك الفرس معهم وطلبت منهم عدم الإثقال عليها خاصة وأنها حامل ولم تأكل يوم أمس كفايتها.

تحركنا قبلهم وبمشقة وصعوبة جداً صعدت الجبل العالي ذا النتوءات الحادة، وبعد مسير (٦) ساعات متواصلة، وكانت المنطقة المقابلة لعبورنا مليئة بالربايا الحكومية. لذا كنا حذرين جداً عند العبور إلى منطقة بارزان.

التقينا في المساء بمفرزة الملازم قصي ولم تكن الفرس معهم ولما سألتهم عنها قالوا إنها سقطت من الجبل وإنها بين الحياة والموت. فقد حملوها بالعتاد والتموين والبطانيات (والعلايج) (حقائب الظهر)، بل إن البعض وضع المظلات الصغيرة الواقية من المطر عليها. ولما صعدت الجبل اصطدمت بإحدى النتوءات وهوت إلى الأرض.

واصلنا المسير نحو بارزان. التقينا بثلاثة رفاق ذاهبين إلى العلاج وأحدهم مصاب بعينه واسمه كما أتذكر (عمر) فكلفته برعاية الفرس إن كانت باقية على قيد الحياة. وواصلنا المسير حتى وصلنا إلى مقر قاطع أربيل، وكانت قيادته مؤلفة من أبو حكمت (إلياس حنا) وأبو سيروان الذي توفي في دمشق على أثر نوبة قلبية، والحاج سليمان وانضم إليهم فيما بعد أبو ربيع عضو ل.م، وكان ثلاثتهم أعضاء ل. م.

تجمع الذين على ملاك قاطع أربيل في تلك القرية المهجورة، قبل قرية بارزان، بما فيه لجنة أربيل المحلية للإقليم ليقيموا في المدرسة.كان صيد السمك هواية الجميع، وخاصة الرفيق (وليد شلتاغ) و (فهد) الأخرس كما أن الدكتورة ساهرة زوجة وليد تعلمت الصيد أيضاً. كان (فهد) الأخرس يصيد يومياً ثلاث أو أربع سمكات ويأكلها لوحده. وكان قسم من الأنصار يلقي صنارة السمك لأول مرة في حياته في الماء لكن صيده كان وافرا لكثرة السمك في الزاب.

لم يمر على وجودنا في ذلك المكان مدة طويلة. وكان مسؤول القاطع أبو حكمت، وهو رفيق قديم قضيت معه فترة سجن مشتركة في نقرة السلمان وسنة إضافية أخرى بموسكو للدراسة. كان لطيف المعشر دمث الأخلاق. في إحدى الليالي قصف موقعنا ذاك بقذائف (B7) من أعالي الجبل، وأحرقت تلك القذائف سيارة نقل لأحد القرويين وهدمت بيوتاً كانت فارغة، لكنها لم تصب أحدا منا بأذى. وسرعان ما صعد بعض أنصارنا المسلحين إلى الجبل ولكنهم لم يجدوا أحداً. لقد هرب الجناة تقرر ترك الموقع والسكن في قرية (بارزان) المهجورة التي تركها أهلها من البارزانيين واحتلها الجيش وسكن الجنود فيها مدة من الزمن ثم انسحبوا منها.

كانت مؤلفة من مجموعة بيوت حديثة مبنية من الحجر والأسمنت إلا أنها مخربة، وفيها جامع كبير وبساتين فاكهة وعيون ماء. وكانت القرية مزودة بأسلاك كهرباء ولكنها من دون تيار، ومزودة بأنابيب إسالة ماء ولكنها متوقفة ومخربة. كانت أرضيات غرف البيوت مبلطة، و الحمامات كبيرة، فهي قرية عصرية، تبعد عن نهر الزاب الخالد مسافة قليلة، تجاورها عند الجبل غابات وبساتين، ويقابلها من الجهة الأخرى للزاب قرى عديدة وبيوت سكنية لفلاحين ما زالوا مستقرين فيها. وتقع القرية تحت جبل (بيرس) الذي توجد عليه عدة ربايا حكومية، و تتواجد في الشارع عند سفح

الجبل المدفعية الثقيلة التي كانت تقصفنا باستمرار. وفي قرية بارزان توجد أيضاً غرف محفورة في الجبل، ومغاور، تسمى (الشكفتات)، يلجأ إليها البارزانيون عند اشتداد القصف على قريتهم.

كان الأكراد المطالبون بحقوقهم، يعاملون بقسوة متناهية، كما عامل المستعمرون الهنود الحمر في أمريكا أو العبيد في أفريقيا، ولو كانت الظروف تسمح لكان بالإمكان إخراج فيلم سينمائي وثائقي عن نضال الشعب الكردي من أجل حقوقه المشروعة والمآسي التي عاناها.

حططنا الرحال في تلك البيوت التي تعتبر جاهزة للسكن رغم المخاطر التي تأتي من وراء قصفها سواء بالمدفعية أم الطيران.

عاد الأنصار الذين ذهبوا للعلاج بعد أسابيع وجاء الذي طلبت منه متابعة الفرس الحامل، فكان معه حصان هزيل ذو شعر أحمر متساقط وأخبرني أنه استبدل الفرس التي سقطت من الجبل بذلك الحصان، في إحدى القرى، خاصة وأنها كانت حاملاً. كان الحصان "الجديد" بحاجة إلى رعاية كي يستعيد عافيته. كان الوقت جميلاً والجو معتدلاً ومنطقة بارزان مليئة بالمراعي والمياه فبدأ الحصان الهزيل ينمو بسرعة وتشتد عضلاته وينمو له شعر جديد أسود، وأخذ يتسابق مع بقية الخيل ويفوز وكنت أتدرب على ركوبه وهو يركض بأقصى سرعته.

وبعد أن استقر وضعنا ونزلت بعض المفارز للعمق، توجهنا عام ١٩٨٤ إلى اجتماع للجنة المركزية في منطقة (خواكرك). كنا، وأقصد مجموعة قاطع أربيل، ننتظر قدوم رفاق قاطع بهدينان للذهاب سوية. وصل أبو جوزيف ورفاق آخرون وحددنا يوم السفر.

أقترح عليّ الرفاق إما أن أكون في المقدمة أو في المؤخرة لأن الحصان الذي أركبه قوي ونزق... إلخ فقررت أن أكون في المؤخرة. سرنا مسافة لا بأس بها ثم شاهد الحصان الذي أركبه البغلة البيضاء الجميلة ذات الخلفية العريضة التي يركبها أبو جبار (أسعد)، فاندفع بكل قوته وصعد التلة فسقطت من على ظهره.وراح يشب على البغلة. التفت أبو جبار ليرى حصاني على بغلته فحاول إنزاله عنها فلم يفلح. بعد أن هدأ، امتطيته مجدداً وسرنا بضع ساعات. وأثناء صعودنا الجبل استهوته بغلة أخرى. ورغم أني لازلت على ظهره، شب عليها.

وصلنا إلى مكان الاجتماع، لمناقشة العديد من الموضوعات الملحّة وخاصة انتكاسة

بشتاشان. وقد حضر الجميع: ماجد عبد الرضا وزكي خيري وعامر عبد الله إضافة لنا نحن الموجودين في كردستان كما حضره الرفاق عزيز محمد وكل أعضاء م.س.

لم يحضر (بهاء الدين نوري) حيث جرى استثناؤه ومحاولة اعتقاله مع (ملا علي) بدلاً من دعوته للاجتماع ومحاسبته إن كان مخطئاً وفق ما يقتضيه النظام الداخلي والأصول التنظيمية للحزب. وبعد انتهاء الاجتماع الذي حضره ماجد وعامر وحسين سلطان. أصر ماجد عبد الرضا، وهو الساكن في دمشق، على الرجوع إلى دمشق مع عامر قبل أن تنتهي مدة تأشيرة المرور فيتأخر عن موعد السفر. وكما أعتقد، طُلب منه البقاء في كردستان إلا أنه تعلل بأن قدمه مسطحة ولا يستطيع السير في الجبال !!.

أغلب الحيوانات التي جلبها معهم الرفاق أخذوها إلى مناطقهم فاستعار (عامر عبد الله) حصاني. فقلت له إنه جامح ولا تستطيع ركوبه ويحتاج لخيَّال قوي ومتمكن، لكنه أصر على ركوبه. وبعد بضع دقائق وصلوا إلى جبل يظهر منه نتوء حاد. طلب الرفيق ملازم (قصي) نزول عامر من على ظهر الحصان لئلا يجمح بشكل مفاجئ في تلك المنطقة الخطرة، مما يؤدي إلى سقوطه. نزل فعلاً الرفيق عامر ولو بقي راكباً لتهشمت عظامه. قفز الحصان قفزة قوية وضرب بنتوء الجبل فسقط في الوادي متدحرجاً، و بقي ممدداً عند النهر عندما أخذ ملازم قصي الحقائب من على ظهره.

كنت جالسا أتحدث إلى أحد الأنصار عندما جاء الملازم قصي ليخبرني بسقوط الحصان واحتمال موته، وأنه سيذهب يوم غد ليطلق عليه رصاصة الرحمة. جاء الملازم قصي في اليوم الثاني وهو يضحك. سألته عن السبب، فقال إن الحصان بخير وهو يرعى قرب النهر فتركته حتى يتعافى.

مررنا مرّة بقرية للاستراحة وكان معي الرفيق بختيار. حين وصلنا القرية كان هناك امرأتان تغسلان الأطباق وملابس الأطفال وبغلة مربوطة بالقرب منهما. نزلت من على ظهر الحصان قرب عين الماء وشددته من قدميه بالشجرة. قطع الحبال حالما وقعت عيناه على البغلة وهجم عليها. وبعد أن نزل عنها، عاد ليقف قرب الشجرة ليربط عليها. فما كان من المرأتين إلا الاحتجاج على سلوك حصاني الشائن.

وبعد استضافتنا عرض علي أحد الفلاحين بيعه بـ (٣٠٠) دينار أو (١٠٠) دينار وبغل، فرفضت ذلك.

واشتهر هذا الحصان بين الأنصار بقوته ومزاجه الرائق.

كانت المدفعية تقصف قرية بارزان من جبل (بيرس)، فكنا نترك الدور السكنية ونلجأ إلى المغاور (الشكفتات) المحفورة بالجبل للوقاية من القصف. وفي يوم صاف والشمس مشرقة، جاءت ثلاث طائرات (ميغ) وأمطرت المناطق بأطنان من القذائف فأحرقت أشجار الغابة، حتى الطيور لم تنج من ذلك القصف الوحشي. وهكذا كنا نواجه الموت الجماعي باستمرار على يد حاملي مشعل القومية والعروبة. كان رفاقنا الأنصار الأبطال قد تعودوا ذلك القصف فلم يعد يرهبهم صوت المدفع ولا قذائف الطيران. كنا نرى الطائرات الإيرانية وهي تذهب لتقصف المدن العراقية وكان هذا يحز في نفوسنا.

كانت التهيئة لعقد المؤتمر الرابع للحزب، بعد أن نضجت الظروف لذلك، تجري على قدم وساق خاصة وقد مرت سنوات عديدة على المؤتمر الثالث.

في إحدى المرات تعرضت للموت على يد الرفيق أبو نرجس، وهو من أهالي الناصرية. كان عسكرياً مسجوناً في سجن بعقوبة مع المرحوم سكرتير حزب البعث السابق (فؤاد الركابي) الذي سجنه صدام حسين لأنه اختلف معه. وشاهد أبو نرجس عملية طعن فؤاد بسكين من قبل أحد المجرمين الذين كان معه.

كان أبو نرجس يدعي أنه مغن مشهور وكان (دالغجّي)؛ كثيرا ما يسرح مع خياله وينسى نفسه، وما اكثر ما تسبب بحرق الطبخ بسبب غفلته. كان ينام أحيانا على إحدى صخور الجبال ورفاقه يغذون السير وبعدها يفتقدونه فيرجعون إليه ليجدوه وهو يغط في نوم عميق.

صعدت وإياه في إحدى المرات إلى سطح البيت لإصلاح مدخنة الحمام، إذ كان السخام يغلقه بين آونة وأخرى. وحاولنا إدخال أنبوب حديدي لتنظيفه لكن الأنبوب لم يدخل بسهولة، وكان يحتاج إلى قوة وضرب لإدخاله في الفتحة. تناول أبو نرجس صخرة وضرب بها الأنبوب. كنت جالساً فانشطرت الصخرة إلى قسمين، سقط أحدهما على رأسي وترك فيه جروحاً بليغة نازفة. سقطت على الأرض مغشياً عليّ. فتحت عيني لأجد الدكتورة ساهرة تخيط الجروح في رأسي.

كنا في الأيام المشمسة والهادئة نذهب لصيد السمك، بعد أن يشح اللحم. ذهبت مرة أنا والرفيق (وليد شلتاغ) وحاولنا أن نجد طريقاً للنزول إلى الزاب فلم ننجح. وأخيراً قررنا أن ننزل من قطع في الجبل العالي. فسلكنا طريقاً وعراً لا تسير فيه إلا الحيوانات البرية والماعز. وصلنا النهر بعد مشقة كبيرة ومخاطر جمة. أخذ كل واحد منا

ركناً بعيداً. وقفت على حجر كبير وكدت أسقط في الماء الذي كان هائجاً يتلامع بلونه الأزرق الجميل. تذكرت البحر الذي كان هائجاً عندما وقفت على صخرة كبيرة أتأمله. كان متمرداً صاخباً كأن عفاريت تحركه من داخله. تتدفق الأمواج سريعة صاخبة فتلطم الصخور فيتقاذف منها الرذاذ منتشراً على امتداد الساحل، ثم تنحسر الأمواج مسرعة وكأنها تريد جرّ الصخور الجاثية على الشاطئ معها إلى عمق البحر، لترتفع مجددا سريعة وصاخبة إلى مديات عالية كأنها بركان هائج يقذف حممه. تتراجع الموجات إلى وسط البحر مرة ثانية ثم تعود بقوة وعنف تدفعها تلك الرياح الغاضبة وتتهشم على الصخور الصلدة. وحين تذهب العاصفة، بعد أن تقلب بعض قوارب الصيادين وتمزق شباكهم، يعود كل شيء إلى طبيعته ويهدأ موج البحر ويعود لصفائه وتظهر النوارس محلقة وتعود قوارب الصيادين إلى طبيعتها ويظهر مرجان البحر.

رجعنا دون صيد ونحن نحمل ذكرى ذلك الجبل العتيد.

في اليوم الثاني توجهنا مع عدد آخر من الأنصار إلى الزاب أيضاً.توتر الخيط بيدي في الساعة الثالثة بعد الظهر وكنت شبه نائم وكأن شيئاً قد علق به. سحبته، شعرت وكأن الصنارة علقت بجذع شجرة أو حجر أو صفيحة..حاولت سحبه مرة ثانية فلم أستطع.. تحول إلى عكس التيار الجارف..كان ماء الزاب يمشي سريعاً.. فأخذت أسحب خيط النايلون وألفه على يدي.. بدأ يطاوعني قليلاً.. وبعد فترة ظهر رأس السمكة الكبير. ذهلت من حجمه، وخشيت أن ينقطع خيط النايلون ويضيع ذلك الصيد الثمين. كانت الصنارة صغيرة وكنت أخشى أن تفلت من فمها، لذا استعملت كل الإمكانيات التي أعرفها كي لا تفلت.

نزلت إلى الماء ماسكاً غصن الشجرة لئلا يجرفني التيار القوي وأنا مستمر بلف الخيط على يدي. احمرت يداي وتجمد الدم فيهما. كنت أسحب بهدوء وصبر، وبعد صراع مع التيار أمسكت برأس السمكة بقوة وسحبتها والفرحة لا تسعني. ناديت من شدة غبطتي على الرفاق القريبين فلما رأوها تعجبوا منها ومن كبرها وكيف أخرجتها من الماء. كان وزنها ٦ كيلوغرامات تقريباً. وكان كلما تحدث الأنصار عن صيد السمك يذكرون تلك السمكة.

عدنا إلى قرية بارزان ومعنا تلك السمكة التي أصبحت نادرة الساعة حتى أننا التقطنا لها عدة صور. أرسلت الصور إلى الرفيق مهدي عبد الكريم (أبو كسرى) مع

قصيدة نثرية، فرد عليّ بقصيدة جوابية. ودعوت حوالي (١٥) نصيراً لعشاء السمك، وفي اليوم الثاني صنعنا من رأسها مرقة تغذى بها فصيل الحماية.

بعد انتكاسة بشتاشان خاصة، كان من البديهي أن تظهر آراء ومشاكل وعدم قناعة ولابد من إيجاد سبل لحلها ووقف تفاقمها، هذا مع ضرورة التحري عن الأسباب التي تؤدي إلى ظهورها خاصة وإننا نتعامل مع سياسيين لديهم تجربة ليست قليلة. كما كان من المهم معرفة سبب العزوف، وضرورة تنشيط أسلوب الانتقاد والنقد الذاتي والمحاسبة عن الأخطاء والتربية الديمقراطية والإقناع خشية أن تتكتل مجموعة من الرفاق، وتجنبا للعقوبات المنصوص عليها في النظام الداخلي للحزب والنظام الداخلي للأنصار وأقصى عقوبة هي الطرد من الحزب أو من الأنصار.. إلخ.

وللأسف لجأت قيادة قاطع أربيل حينها، لحل بعض المشاكل مع بعض الرفاق عن طريق استخدام العنف غير المبرر.

الفصل الثاني و العشرين

التحضير لعقد المؤتمر الرابع
في ١٠ ـ ١٥ تشرين الثاني عام ١٩٨٥

اجتمعت اللجنة المركزية قبيل المؤتمر عدة اجتماعات وأقرت الوثائق المعدة ووثيقة التقييم عن تجربة عمل الحزب مع حزب البعث والجبهة الوطنية والقومية التقدمية. وكان قد قصف مقر الاجتماع بالمدفعية مرتين مما دعا إلى تغيير مكان الاجتماع.

وبعد إقرار عقد المؤتمر في تلك الظروف الصعبة بدأ المندوبون بالحضور وفق خطة وضعت مسبقاً لهذا الأمر. نصبت خيمة كبيرة وكان المكان تحت حراسة بنادق الشيوعيين الأنصار الأبطال. ورغم الظروف الصعبةجرت تهيئة كافة المستلزمات لعقده. استنفرت السلطة كافة مرتزقتها ومن خانوا الحزب، وكان بعضهم مندساً في صفوفنا وهم وكلاء للسلطة، لمعرفة مكان عقد المؤتمر. ولولا يقظة وشكوك بعض من رفاق الحزب وكادره لوصل بعض من تم تزكيتهم من قبل بعض العناصر القيادية في الحزب، على اعتبار أنهم يعملون في الداخل، إلى المكان. منهم (أبو بهاء) و (أبو هيمن). وربما أفلت أحدهم واستطاع أن يدخل قاعة المؤتمر وينقل أخباره للسلطة. و كانت التفاتة ذكية من م.س عندما عممت إذاعة الحزب خبراً عن تأجيل المؤتمر لأسباب فنية. مع العلم أن المندوبين كانوا يصلون تباعاً لمكان عقد المؤتمر.

عقد المؤتمر بجو احتفالي دام من ١٠ إلى ١٥ تشرين الثاني. نوقش الكثير من الأمور وفي مقدمها، قضية الحرب العراقية- الإيرانية، وكان موقفنا منها هو إيقاف هذه الحرب ومحاكمة مشعليها. وإدانة النظام العراقي الذي قام بإشعالها (راجع قرارات المؤتمر الرابع).

وعند مناقشة وثيقة التقييم، أقر الرفيق السكرتير بمسؤوليته الأولى عن كافة الأخطاء التي رافقت عمل الحزب وحمل المكتب السياسي المسؤولية أيضاً ومن ثم اللجنة المركزية. طبعاً وكما هو معروف فإن الأخطاء كثيرة ومتراكمة وتقتضي المحاسبة،

إذ راح ضحيتها المئات من الشيوعيين، والكثير منهم عذبوا وأسقطوا سياسياً. لم يكن كل المكتب السياسي إلى جانب عقد الجبهة مع البعث، كما لم تكن كل اللجنة المركزية إلى جانب الجبهة. وعشرات الشيوعيين كانوا ضدها وأنا منهم.

لم تكن قيادة الحزب آنذاك بمستوى المسؤولية للأسف الشديد وتبين أنها كانت تجهل قوانين تطور الثورة وقوانين تطور المجتمع ومواقف الطبقات وطبيعة حزب البعث الطبقية وتشكيلته الاجتماعية. وتبين أيضا أنها لم تستوعب دروس التاريخ ونضال الحزب والشعب منذ تأسيسه عام ١٩٣٤ والظروف الجديدة، كما انها غضت النظر عن التاريخ الدموي لحزب البعث. لقد جاء في التقييم الذي أقره المؤتمر الرابع ما يلي: (إن النقص [٢٤٥] في استيعاب الطبيعة المزدوجة والمتذبذبة للبرجوازية الصغيرة،هو الخلفية الفكرية في عدم الوضوح في تقدير أفق العلاقة مع البعث العفلقي في العراق الأمر الذي أوقع الحزب في أخطاء ذات طبيعة يمينية حيث عول في مجمل نشاطه وتكتيكه وتثقيفه لأعضائه ومنظماته على التطور الإيجابي للجبهة الوطنية والقومية التقدمية لحزب البعث المهيمن على السلطة السياسية في الدولة، في حين كان،(بعد خراب البصرة - التعليق من عندي-، س.إ)، يجب الاحتراس الشديد من احتمال ارتداده وهو احتمال كبير جداً بحكم طبيعته البرجوازية الصغيرة وإيديولوجيته القومية المتطرفة وتكوين قيادته الشوفيني المعادي للديمقراطية والشيوعية وبراغماتيتها السياسية).

إن انحراف الحزب وركضه وراء حزب البعث الدموي وجبهته، حسب اعتقادي، جاء بعد ترك مقررات المؤتمر الثاني (١٩٧٠) ووضعها على الرف، والتي جاء فيها تحديد لطبيعة حزب البعث. وقد وصفت حكومة عبد الكريم قاسم بالبرجوازية الصغيرة مما أدى لانحرافها.

إن البرجوازية الصغيرة المنتصرة التي تنظم نفسها وتمتلك وتستحوذ على كل وسائل وأدوات القمع في الدولة لا تتورع عن قهر الشعب واستغلاله. وإن وجودها خارج السلطة غير وجودها على رأس السلطة. وهي لا تبقى برجوازية صغيرة عندما تستحوذ على السلطة، بل تتحول إلى مالكة ولا يفيد معها التنازل سواء في الجيش أو في المنظمات. إن بناء الاشتراكية أو حث السير على طريق التطور اللارأسمالي مع البرجوازية الصغيرة، ويطول التنظير في هذا المجال، لا يتحقق بالكلمات وحدها.

لقد جرت في المؤتمر، على المستوى التنظيمي، تغيرات كبيرة وهامة، كما تم اختيار عشرة من الكوادر (اختارهم السكرتير الأول بالتشاور مع بعض الرفاق)

لترشيحهم للجنة المركزية. تم ذلك بسرية، على أن يكونوا مهيئين للعمل داخل المدن كبغداد والبصرة والفرات الأوسط وغيرها.

عقد اجتماع للجنة المركزية في قاعدة لولان من الرفاق المتبقين في كردستان في سنة ١٩٨٦، بعد أن غادر أغلب أعضاء المكتب السياسي إلى الخارج. لم يحضر بعض أعضاء ل.م. هذا الاجتماع ومنهم عزيز محمد، كريم أحمد، عبد الرزاق الصافي و كاظم حبيب. قاد الاجتماع عمر علي الشيخ وكان اجتماعاً مطولاً استمر أسبوعين. درست فيه كافة الوثائق المطروحة. علماً بأن المؤتمر لم يستغرق سوى خمسة أيام.

وفي طريق العودة صادفتنا الكثير من المشاكل والصعوبات، وبدلاً من بارزان تحركنا إلى منطقة بهدينان بصحبة أبو جوزيف ومهدي عبد الكريم وأبو سيروان وعدد من الرفاق الأنصار. هطلت الثلوج بشكل غير طبيعي واكتست جبال كردستان بحلة بيضاء. وتسربلت الأشجار بثوب أبيض وغابت الشمس واختفت الطرقات والعلامات الدالة، بحيث أصبح من المتعذر سلوك الطريق الصحيح. وكانت البغال تغطس في الثلج ولا تستطيع المواصلة وهي الحيوانات القادرة أن تستدل على الطريق بشكل غريزي. تولى أربعة من الأنصار يتقدمون المفرزة فتح الطريق كي تستطيع الحيوانات التقدم، أما نحن فكدنا نتجمد لكثافة الثلج بسبب تعذر ركوب البغال في مثل تلك الظرف.

بعد يوم كامل من المسير وسط الثلوج لاحت لنا قرية تسكنها عوائل من البارزانيين ممن كانوا في الاتحاد السوفياتي مع الملا مصطفى البارزاني وتزوج بعضهم من روسيات ويجيدون اللغة الروسية. أعطونا ملابس جافة، أشعلوا النار وغسلوا ملابس بعض الرفاق.

سرنا في صباح اليوم الثاني في مناطق جبلية وعرة وخطرة. كادت أرجل البغال أكثر من مرة أن تنزلق فتهوي مع ركابها إلى قعر الوادي. اشتد المطر، ثم تحول إلى بَرَد كثيف تحسه كالإبر حين يضرب الوجه. اعترضنا نهر سريع الجريان فصار علينا عبور مياهه الباردة جداً. باختصار وصلنا بعد الظهر إلى إحدى القرى القريبة. وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى قرية زيوه على الزاب.

سكرتير إقليم كردستان

كانت هناك وجهات نظر عديدة حول توحيد عمل الأنصار مع التنظيم المحلي والمدني، وكان هناك من يقف ضد الفكرة. كما كان هناك الكثير من الآراء حول وجود أكثرية كردية في المكتب السياسي واللجنة المركزية وأقلية عربية، ويجب أن يكون

العكس خاصة وأن القومية الكردية أقلية بالنسبة للعرب، كما أن عددا كبيرا من الرفاق الأكراد أعضاء (ل.م). وكنا نحن العرب من قادة وكوادر الحزب نعتبر أن لا فرق بين كردي وعربي إلا بالتجربة والعمر الحزبي والقدرة على العمل ولا فرق بين يزيدي وآشوري، وهذا من منطلق أممي. وهكذا كانت المنظمات الحزبية تضم العرب والأكراد والآشوريين واليزيديين والأرمن والتركمان، والمسلمين من الشيعة والسنة. إلا أنه من المفترض مراعاة التركيب القومي للشعب العراقي ونسبتهم في تركيبة المنظمات الحزبية، وهذا لا يعني أن يكون المرء غير أممي.

نتيجة هذه الأمور وما يدور في الحزب عينت من قبل المكتب السياسي سكرتيراً للجنة الإقليم المؤلفة من أبو سالار وأبو هزار و مام قادر الشيوعي المخضرم. وعملنا بكل همة ونشاط وجمعنا المعلومات عن تنظيمات الإقليم خاصة وأن سكرتير الإقليم السابق أبو (آسوس) لم يسلمنا ولا حتى قصاصة صغيرة من الورق تضم معلومات عن التنظيم. وكانت هناك بعض المعلومات عند مام قادر باعتباره عضواً سابقاً وقديماً في الإقليم وعضو مكتب الإقليم.

وسرعان ما ارتفعت أصوات الاحتجاج من بعض الشيوعيين الأكراد، ممن كان أغلبهم في الخارج، لتنسيب عرب لقيادة العمل في الإقليم.

كان الإقليم مفككاً تنظيمياً، ومن دون برنامج عمل أو مالية ولا يوجد جرد لأسماء الشيوعيين ولا أصدقائهم ولا توجد حتى اتصالات بين المنظمات. قال لي مسؤول السليمانية (قادر رشيد)، بعد أن نظمنا الصلة معه ؛ إنه منذ ثلاث سنوات لم يستلم أي رد من مكتب الإقليم، ولكن، قبل ثلاث سنوات استلم قصاصة، من ربع صفحة، كرد على تساؤلاتهم.

بعد دراسة الأوضاع في الإقليم، وضعنا برنامج عمل وأقمنا صلات ثابتة مع سكرتارية اللجان المحلية وأعيد بناء اللجان المحلية واللجان المتفرعة، كما أرسلنا إليهم شفرات خاصة للاتصال وأرسلنا عدداً للعمل في المدن وخاصة مع تنظيمات أربيل. وكان سكرتير محلية أربيل في المدينة وأحياناً كان يذهب إلى بغداد. وأصدرنا جريدة الإقليم (ريكاي كردستان) وشكلنا مكتب تحريرها، وكانت تصدر كل شهر تقريباً. دخلنا في صراعات مع بعض الرفاق حول الجريدة إذ كان من رأيي أن يترجم المقال الافتتاحي بالجريدة إلى الكرمانجية (البهدينية)، لأن هناك حوالي أكثر من مليون شخص يسكن منطقة بهدينان، على أن يجري تحرير صفحة بالكرمانجية فيما بعد.

كانت هناك معارضة من (آسو) من العنصر الأساسي في هيئة تحرير (ريكاي) ومن آخرين. أخيراً رأيت، وكان ذلك رأي الرفاق في محلية الموصل ممن يسكنون بهدينان، ضرورة أن يكون في الجريدة صفحة بالكرمانجية. كلف أحد الرفاق بترجمة المقال الافتتاحي كبداية، ريثما يتم في المستقبل نشر أخبار المنطقة ومشاكل جماهيرها.

عقد اجتماعان للجنة الإقليم من الرفاق الذين كانوا أعضاء سابقين في الإقليم وتم ضم رفاق آخرين إليها. واجهنا صعوبات جمة،فنحن في الجبل وبعيدين و يعمل قسم من الرفاق في تنظيمات المدن كأربيل ودهوك والسليمانية، وهي تنظيمات سرية، وكثيراً ما كانت تنقطع وتعاد الصلة بها مرة ثانية.

وأذكر أن الرفيق (س) انقطع عنا لمدة أكثرمن سنة ولكنه كان يمارس عمله وصلاته مع الآخرين بشكل منتظم. كما انتقل موقع مكتب الإقليم إلى عدة مناطق حسب الضرورة.

الفصل الثالث والعشرين

النظام العراقي يستخدم الأسلحة الكيماوية ضدنا في ١٩٨٧/٦/٥

استقر بنا المقام في نهاية الأمر في منطقة بهدينان في منطقة جبلية قرب الزاب تسمى (زيوه).

في عام ١٩٨٧، وفي ٥ حزيران بالتحديد كان الوضع العام ينذر بانهيار الجيش العراقي بعد احتلال الجيش الإيراني للفاو، وتوغله في الأراضي العراقية وتوجيهه الضربات لمعسكرات الجيش العراقي قرب منطقة (الدوسكي) في ريف محافظة دهوك. وكذلك المعارك على جزر مجنون الغنية بالنفط.

ونتيجة الهزائم التي كان يتلقاها الجيش العراقي استخدم النظام العراقي الغاز الكيماوي في حلبجة والتي راح ضحيتها (٥) آلاف إنسان وهي تعد من جرائم الحرب والجرائم ضد الأنسانية، كما استخدم الغاز الكيماوي القاتل في قرية قرب (كاني برد) والتي راح ضحيتها أيضاً حوالي ٤٠ فلاحا شيعوا إلى مثواهم بعد الانتفاضة عام ١٩٩٢.

كان هناك مجموعة من رفاق اللجنة المركزية وعدد من رفاق المكتب السياسي. والكثير من أعضاء م.س بالخارج مثل الرفاق عزيز محمد السكرتير الأول وعبد الرزاق الصافي وكريم أحمد وكاظم حبيب. اعتذر(آرا ورحيم) عن الحضور بسبب صعوبة الطريق.... الخ ومن جملة من حضروا هذا الاجتماع الرفيق (حميد مجيد) سكرتير ل.م الحالية وكان عضواً في م.س.

كانت حركة جماهيرية غير اعتيادية تتفاعل في القاعدة وفي المنطقة، ولهذا فقد كان احتمال تطور الحركة الجماهيرية التي بدأت بوادرها في المدن الكردستانية وضرورة

التهيؤ لقيادتها... الخ في صلب القضايا التي بحثت في هذا الاجتماع كما بحثنا احتمال لجوء نظام بغداد إلى الأسلحة الكيماوية أو الجرثومية المحرمة دولياً إذا ما شعر بقرب انهياره وانتصار الإيرانيين. لقد كانت الدول العربية والخليجية كافة، ما عدا سوريا وخاصة الكويت، تشد من أزر الحكومة العراقية. وكانت الدول الغربية تقدم المعلومات اللوجستية للطرفين وتلقي الحطب على نار الحرب المشتعلة لقتل وتدمير الطرفين.

وقامت قوات من حدك بضرب عدة ربايا بما في ذلك مطار (بامرني). وأعتقد أن قوات من جماعة (محمد كلحي) المعادية للبارزانيين قامت بمساعدة الجيش العراقي المحاصر في بعض الربايا. كما جاءت للقاعدة قوات من جماعة حزب كادحي كردستان التي كان يتزعمها (قادر عزيز وعبد الخالق زنكنه) وكان هناك مقر للحركة الآشورية.

وصلت إلينا مجموعة من الرفاق ممن كانوا يتعالجون في الخارج ومن ضمنهم الشهيد (أبو فؤاد)[٢٤٦] وكان من المفروض أن يذهبوا إلى قرية (كافية) حيث مقر قاطع أربيل إلا أن أبو فؤاد رفض البقاء في قرية (كافية) وجاء لرؤية أصدقائه في قاعدة زيوه.

كما وصلت قوات من الاتحاد الوطني (أ. و. ك) إلى قاعدتنا ونزلوا فيها، قرب موقع (حدك).

ومنطقة زيوه عبارة عن حوض واسع جداً يجري وسطه نهر الزاب،وهو أشبه ما يكون بـ (قدر) كبير. سلسلة جبلية عالية من جهة اليمين تليها الدوشكات ثم سلسلة تلال عالية عليها (دوشكة وسترلا). ثم تأتي الحدود التركية شمال الموقع ببضعة كيلومترات وفيها قاعدة عسكرية جوية (انجرليك).

كانت قاعدتنا مكتظة بالرفاق؛ أكثر من (٤٠٠) رفيق من الأنصار، كما يوجد هناك أيضاً موقع م. س. وعدد من الضيوف من حزب تودة الإيراني وكذلك أحد أحزاب أكراد تركيا. ويسكن القاعدة عدد من العوائل التي هربت من وطأة وبطش النظام والتحقت بالأنصار.

وبعد عملية التهجير المستمرة والتهديدات الموجهة إلى العوائل واعتقال بعض الذين يسكنون القرى والمدن لأن أبناءهم أو أزواجهم من الأنصار، ترك الأهالي المدن

والقرى التي كانوا فيها والتحقوا بالأنصار وهذا كان يشكل عبئاً على حركة الأنصار وخاصة النساء والأطفال.

كان غير مشهود من قبل أن تتجمع كل هذه الأعداد منا ومن والقوى الأخرى في المنطقة. في أحد الأيام وفي الساعة الرابعة عصراً، وكان كل شئ يبدو طبيعياً؛ إذ كان عدد من الأنصار يتسلون بلعب كرة القدم وقسم آخر يتفرج عليهم، وعدد آخر من الأنصار يصطادوا السمك على الزاب. أبو فؤاد، الذي كان سكرتيراً لمحلية دهوك يجلس وبجانبه أبو زركار، وهو مهندس من خريجي باكو، والى جانبه يجلس أبو ليلى(صباح ياقو)، وقرب الحمام أبو زكي (حميد بخش) في غرفته الأنيقة المنظمة وهو يتحدث مع عدد من الأنصار. كان أبو سيروان مشغولا بسرد القصص لعائلته وأطفاله، وأبو هزار مشغولاً مع آخرين، و أبو داوود وزوجته مشغولين مع عدد من الأنصار و (أبو حسان) ثابت العاني يلعب الورق مع مجموعة من الأنصار. كان بعض الأنصار مشغولين بتنظيف الأسلحة والحراسات فيما كان أبو تحسين، آمر فصيل الحماية، مشغولا بتوزيع المهمات والرفاق على المواقع، والتشديد على الحراسات. البغال تسرح في الوادي.

كانت هناك أخبار تقول بأن النظام وبالتعاون مع تركيا قد يلجأ إلى استخدام الأسلحة الكيمياوية أو الجرثومية ضدنا وضد كل الحركة المسلحة إذا ما شعر بقرب سقوطه أو تزعزعت مواقعه. كما عرفنا بأخبار استخدام هذه الأسلحة في منطقة قريبة من كاني برد وشيخ وسان، حيث قتل العديد من الفلاحين والحيوانات وأصيب بعضهم بالعمى.

كان لدينا عدد من الكوادر العلمية، منهم خريجو العراق أو خريجو الدول الاشتراكية أو الرأسمالية، ومع اشتداد المخاوف من استخدام الأسلحة الكيمياوية من قبل النظام ضدنا، لجأ بعض الرفاق الكيماويين إلى إلقاء المحاضرات وطبع كراريس حول مفعول واستخدام الأسلحة الكيمياوية تاريخياً وكيفية الوقاية منها، وأنواع هذه الأسلحة الكيماوية ومنها غاز الخردل وتأثيراته على المناطق الحساسة في الجسم كالعيون وتحت الأبط والأعضاء التناسلية والكلى والقصبات الهوائية.... الخ. وكذلك عن غاز (السيانيد) الذي استخدم في حلبجة ومفعوله وتأثيراته وطرق تجنبه.

حلت الساعة السادسة وكان كل شيء هادئا وعاديا والحركة دائبة، ولم تكلّ فكوك أبو فؤاد وأبو ليلى وأبو رزكار عن تبادل الأحاديث. وكان أبو فؤاد، يستعد للمغادرة في اليوم الثاني لأهله، بعد أن أرسلت قيادة القاطع إلى الفوج الأول برقية تخبر عائلته بشفائه وإمكانية التحاقه بهم.

كان احتمال مجيء طيران مع الساعة السابعة ضعيف جداً، رغم أن الوقت صيف، ولازال ضوء النهار لم يخفت بعد. أعلن الطباخ الخفر وقت العشاء وكان خبزاً مع قطع من اللحم المعلب. وجرت العادة أن يأكل كل ثلاثة رفاق من الأنصار سوية. كما كانت التعليمات تقضي بأن يكون عشاء جميع المواقع في وقت واحد درءاً للطوارئ.

جلسنا لتناول الطعام ولم نكن قد أكلنا شيئا منه بعد، أي في الساعة السابعة وخمسة دقائق من يوم ٥ حزيران ١٩٨٧، انهالت علينا القذائف من الطائرات.. فكان الموت قاب قوسين من الجميع. تركز القصف الصاروخي على المنطقة التي كنا نسكنها والتي يسكنها بعض رفاق ل.م ورفاق المكتب السياسي و بعض الكوادر الحزبية المتقدمة. كنا جالسين أنا والرفيق حميد بخش وأبو جنان ورفيق آخر يزيدي (خابور) ورفيق آخر من البصرة، أعتقد أنه يسمى عباس رش أي عباس الأسود كان من قاطع السليمانية وجاء إلى بهدينان.

كان قريب منا ملجأ،لا يبعد ثلاثة أو أربعة أمتار. الطائرات تقصف بلا رحمة والصواريخ تضرب بالحجر وتتطاير الشظايا. ضربت إحدى الشظايا ساق الرفيق (خابور) وقطعت شرايينه وبدأ الدم يسيل منها، وشضية أخرى ضربت ساق عباس رش أيضاً وسقطت إحدى الشظايا التي يبلغ طولها عشرة أنجات على بعد سنتيمترات من الرفيق (حميد بخش). اضطررنا من هول القصف المستمر أن نختبئ وراء الصخور ونحاول الزحف نحو الملجأ فلم نستطع لشدة القصف وتطاير الشظايا. وبين رائحة البارود والمتفجرات انبعث رائحة كريهة.

بعد أن هدأ القصف قليلاً زحفنا إلى الملجأ. سبقنا إليه أبو سيروان وزوجته وأطفاله وأبو داوود وزوجته أم أسيل وأبو عليوي والرفيقة (أم رغد) وأطفالها الإثنان وعدد آخر من الرفاق. كأن كل منا ينظر بوجه الآخر باستغراب. ضربت إحدى الطائرات

القاعدة بصاروخ اهتز له المخبأ ونزلت الأتربة على رؤوسنا بحيث اعتقدت أنها النهاية لشدة هذا القصف. وبعد هذا الصاروخ الأخير المفجع انسحبت الطائرات وهدأ القصف.

غادرت الطائرات المغيرة الأجواء وهدأ القصف فخرجنا من المخبأ لنرى حالة الفوضى والارتباك تسود القاعدة، والنقاش يدور بين الأنصار، فالبعض يقول إن قصف الطائرات كان بصواريخ محملة بالمواد الكيماوية وآخرون ينفوا ذلك.

وكانت تنطلق رائحة كريهة أشبه برائحة الكبريت ففسر البعض هذه الرائحة بقصف العين الكبريتية التي فوقنا في حين أرجع آخرون هذه الرائحة إلى ضرب المياه الآسنة قرب حمامات الغسيل. نصحنا قسم من الكيماويين بوضع مناشف أو قطع من القماش المبللة بالمياه على أنوفنا وعيوننا للوقاية.

الكل يركض هنا وهناك، الكل يفكر لماذا ضربنا نحن فقط وهذا القسم من القاعدة فقط. مع العلم أن مقر حدك كان على مقربة منا. ناهيكم عن جماعة أوك ومجموعة من حزب كادحي كردستان ؟

وبعد برهة رأيت أبا فؤاد وقد حمله رفاقه إلى داخل غرفة الطبابة. وجهه ويداه قد اسودا وهو يعجز عن الكلام. قال رفاقه إن إحدى القذائف سقطت بالقرب منهما هو وأبو رزكار. كانت إحدى الرفيقات تبلل قطعاً من القماش وتمسح وجه (أبو فؤاد) الذي جاء بعد سنة من العلاج وهو بصحة جيدة وعائلته تنتظره وتحسب الساعات لمجيئه بعد فراق طويل. ينتظر أطفاله وأصدقائه بزوغ الصباح ليتجه صوبهم، لكن للأسف، استشهد (ابو فؤاد) بعد مرور ٤ ساعات من القصف بين يدي رفاقه بعد أن تمزقت رئته من شدة القصف ومن الكمية التي أصابته من غاز الخردل الكيماوي. مات أبو فؤاد ودفن، وكان لموته أثر كبير، أصاب الجميع بالحزن والأسى.

استمر الارتباك في القاعدة ثم هدأت الأمور وخفت الحركة إلى حد ما. وأخلد الكثيرون إلى النوم. لم أكن أعرف ماذا يدور في القسم الآخر من القاعدة، ولم نكن نملك أي علاج مضاد؛ حتى القطرة والأبر الخاصة المضادة.

في الساعة الثانية ليلاً وبعد ٧ ساعات من القصف يأتي الرفيق أبو سامر ويوقظنا من النوم ويقول إن أكثرية الرفاق مصابين بالكيماوي، انهضوا ولنخرج من هنا.

كانت الغرفة تضمنا أنا وأبو ربيع وأبو سيروان، الذي توفي في دمشق على أثر نوبة قلبية فيما بعد، وعائلته وخلفنا حميد وإلى جانبنا أبو داوود وزوجته، ورفاق آخرون. كان رأسي ثقيلاً كمن شرب كمية كبيرة من الكحول.

خرجنا من الغرفة لنرى عشرات من الرفاق الأنصار وهم أشبه بالعميان، بعضهم كان يتقيأ والبعض الآخر يضع رأسه في وسط مياه الساقية البارد ليطفئ لهيب الألم، والرفيق ثابت العاني [٢٤٧] ممدداً وقد أصابته نوبة قلبية، وقد أسعفته الحبوب التي كان يتناولها آنذاك. كان حدثاً مأساوياً حقاً، تلك هي إحدى مزايا النظام البعثي في العراق.

الوقت يجري وأكثر الرفاق يتلوى من الألم. في الرابعة صباحاً وقبل بزوغ شمس ذلك اليوم المشؤوم تقرر ترك هذا الموقع الموبوء والصعود إلى الجبل حيث موقع (الدوشكا) التي لم تستطع أن تحرك ساكناً أثناء القصف!

كنت مع عدد من الأنصار عيوننا مفتوحة ولم نشعر بضيق أو شيء آخر. مع صعودنا وبزوغ شمس الصباح بدأت عيوننا تثقل تدريجياً وتتصاعد حرقة شديد في الجفون، بدأ النفس يضيق ومعدنا تنقلب عن ماء أصفر اللون مر المذاق. بعض الأنصار انغلقت عيونهم تماماً ولم يعد أيّ منهم يستطيع السير والصعود إلى الجبل فاضطر أن يركب البغل ويقاد من قبل الآخرين. أما الآخرون، وأنا منهم، فكنا نرى بصيصاً من ضوء النهار.

وكان يصادفنا في الطريق أشجار كثيفة فكان الأدلاء يقولون للذين يركبون البغال من المصابين أن أحنوا رؤوسكم عن الأشجار فيحنون رؤوسهم. ويحتفظ الرفاق بوضعهم على تلك الحال مسافات أخرى دون أن يشعروا بأنهم قد عبروا الأشجار منذ دقائق. عند وصولنا إلى القمة كان أكثرنا في حالة أشبه بالعمى. كنا نقاد كالعميان تماماً لقضاء الحاجة أو للغسيل. لم يكن هناك في الأيام الأولى علاج، وبعد عدة أيام حصل الرفاق على كمية من قطرة للعيون، ولم تكن تجدي نفعاً.

الرفاق ممددون تحت الأشجار وقرب الساقية يتلوون من الألم. والأطفال وقد سدت عيونهم تحملوا الألم وكأنهم رجال كبار.

ومن الغريب أن تحولت بشرة الكثيرين إلى السواد وانحبست أصواتهم وأنا منهم والتهبت، إضافة إلى العيون والأنوف، المناطق الحساسة من الجسم.

أما الرفيق أبو زركار المهندس حريج ،د عاد السوفياتي الذي أخذ كمية كبيرة من الغاز نتيجة عنايته بأبي فؤاد قبل استشهاده، إذ كان يمسح عن فمه الزبد واللعاب، فقد أصيب بتمزق في الرئتين والقصبة الهوائية واستشهد بعد ثلاثة أيام من القصف.

نزلت أنا ومجموعة من الرفاق في موكب حزين لنودع أبو زركار الوداع الأخير وليدفن في القاعدة في منطقة زيوه على الزاب. لقد علمنا أن أمه كانت تنتظره و تسأل عنه ولم تكن تعلم باستشهاده....

كانت القاعدة مقفرة. الزرع والحشيش الأخضر الزاهي قد تحول إلى الصفار. وهناك بغلان يرعيان وقد فقدا بصرهما. الغرف كئيبة وفارغة تعصف بها الرياح من كل صوب.

هكذا تعامل النظام العراقي بقيادة صدام حسين مع المعارضة وأبناء الشعب.

وبعد جريمة ضربنا بالأسلحة الكيماوية في مقر قاطع بهدينان وانتقالنا إلى الجبل انتقلنا إلى منطقة بعيدة عن مقرالقاطع.

أحداث لا تنسى

انتقلنا كمكتب للإقليم بعد ذلك إلى (كلي مراني) (وادي مراني) حيث كانت هناك قوة من الأنصار من بينهم الشهيد المغدور (أبو نصير)[٢٤٨] وأبو أمجد والملازم هشام وأبو ظاهر وكامل الركابي وأبو عماد وزينة ومجموعة أخرى من الرفاق والرفيقات الأبطال.

جعلنا انتقالنا إلى (كلي مراني) قريبين من المدن وسهّل الاتصال بمدن دهوك والموصل والوصول إلى أربيل والسليمانية التي من خلالها يمكن الوصول إلى كركوك. عززنا محلية دهوك والموصل برفاق جدد. قمت بزيارة محلية دهوك، التي كانت ضمن القوى الأنصارية للفوج الثالث في كلي هصبة [٢٤٩]، وكان معي الرفيقان أبو رزكار قبل أن يستشهد ورفيق آخر، والمستشار السياسي لهذه القوة الأنصارية.

زحفت قوة كبيرة من الجيش من الفيلق الخامس بقيادة آمره وقوة كبيرة من (الجحوش) (الجاش)[٢٥٠] لاحتلال موقع (مراني) وطرد قوة الأنصار منها. قام مائة وسبعون مقاتلا شيوعيا مع عدد من قوات حدك في مقابلة جيش يقدر بـ (٢٠) ألف

جندي مدججين بالأسلحة الحديثة منها المدفعية النمساوية الحديثة التي كانت تصحح الأهداف ذاتياً. لقد صد أنصارنا الأبطال القوة الزاحفة، واستمر القتال حتى بعد أن انسحبت مجموعة (حدك). وقرر الأنصار الانسحاب إلى قمم جبل (كارة) بسبب عدم تكافؤ القوى الكبير بعد أن نقلوا معهم جميع الوثائق والمستلزمات الضرورية.

احتلت القوة الحكومية موقع الأنصار وأشعلت النار في غرفة الإقليم وقاعة للأنصار وتركت بقية القاعات سالمة. وترك كل شيء في مكانه، بما فيه المخزن المملوء بالمواد الغذائية. كما تركت مجموعة من قذائف مدفعية الهاون.

بعدما انسحب الجنود وعاد الأنصار إلى الموقع، وجدوا رسائل اعتذار من قبل بعض الجنود، يذكرون فيها، بأنهم مجبرون على احتلال الموقع.

في تلك الفترة، تمرد (جعفر بيسفكي) على السلطة، التي خططت لقتله. واحتل مسلحوه قرية (مانكيش)، بقيادة أخيه (سليم بيسفكي) أو ابنه فيما أعتقد. ثم احتل الأنصار القرية بعد معارك جسورة مع مفرزة الاستخبارات التي كانت في القرية.

استولى الأنصار على كمية كبيرة من الأسلحة المخزنة ووثائق عديدة فيها معلومات قيمة. كما استولى الأنصار على ثلاث مدرعات كانت مرابطة في القرية قاد إحداها الملازم نعمان [٢٥١] البطل إلى الجبل، وكمية كبيرة من العتاد والسلاح والمؤن. لم يكن لدى أنصارنا في الفوج الثالث مخازن للأسلحة فوضعوا كمية من العتاد المستولى عليه في كهوف (شكفنات) وبحراسة إداري الفوج (أبو تغريد).

بعد أن انتهى اجتماع اللجنة المحلية وتوصلنا إلى عدة قرارات لتطوير عمل المنظمات، خرجنا في الساعة الثانية عشرة والنصف لتناول وجبة الغداء. فوجئنا بصوت قذائف مدفعية تنطلق بغزارة نحو الجبل المقابل وطلقات أسلحة الدوشكا والكلاشنكوف وطلقات خطاط بدون تنظيم. اعتقدنا في البداية أن هجوماً واسعاً كبيراً قد شن على الموقع من قبل الجيش أو قوى معادية تهاجم الموقع، ولكن القذائف كانت تخرج من عندنا صوب الجبل المقابل. وتصور بعضنا أن هناك خلافا بين جماعة (حدك) مما أدى إلى اشتباك فيما بينهم. حدث استنفار في القاعدة وجاء بعض عملاء السلطة ممن جندتهم السلطة في القرى للإطلاع على الأمور وكانوا يتصورون أن اشتباكاً قد حدث بين قواتنا ليبشروا السلطة بذلك. وبعد أن هدأت نيران القذائف والإطلاقات جاء أحد

الأنصار وأبلغنا أن مخزن الأسلحة في الكهف قد فجر وأن تفجيره كان بفعل فاعل. إلا أن نصيراً آخر عزا سبب التفجير إلى حرارة الشمس القوية ووجود مولد الكهرباء والبنزين، واحتمال تولد شرارة.. إلخ. تعجبت من هذا التعليل فقلت له: لماذا لا تنفجر البنزيخانات في البصرة وقد تصل درجة الحرارة إلى فوق (٥٠) درجة؟!

هناك سبب آخر ولا بد أن التفجير حدث بشكل متعمد، وقد صحت توقعاتي.

كانت قيادة الفوج قد فتحت دورة دراسية لبعض الأنصار الجدد، وبعد عدة اختبارات اكتشف المحقق الذكي أن أحد الدارسين، وهو من الملتحقين الجدد، سكب النفط وأشعل عود كبريت قرب باب الكهف الذي فيه العتاد فوصلت النار للكهف.

كيف تم كشف الفاعل

كانت هناك خيمة قرب الكهف يسكنها ٤ أنصار من الدارسين. وكان الإداري قد خصص قنينة نفط للفانوس لكل يومين، وتم استلام الحصة في ذلك اليوم. وقال أحد الدارسين وقت الغداء أن فلانا قد رجع إلى الخيمة مدعياً أنه نسي شيئاً وقد تأخر خمس دقائق، وتفجر المخزن بعد وصوله لتناول الغداء مباشرة. وكان الرفيق حارس الكهف قد ذهب لتناول الغداء أيضاً.

ذهب المحقق إلى الخيمة فرأى أن قنينة النفط فارغة فسأل الإداري متى أعطيتهم قنينة النفط؟ فقال: اليوم، وأنهم يستحقون حصتهم بعد غد. فحص الفانوس فوجده فارغاً. أصدر أمراً باعتقال نزلاء الخيمة الأربعة وبعد عدة مناورات وتحقيقات قام بها المحقق أنهار أحدهم وكان مندساً واعترف أنه هو الذي سكب النفط وأشعله لحرق العتاد.

وجهاً لوجه مع الموت

بعد انتهاء اجتماع اللجنة المحلية عدت إلى (كلي مرّاني) (وادي مرّاني) حيث مقر الإقليم.

وصلت إلى مكتب الإقليم رسالة من مكتب لجنة محلية أربيل تذكر أنهم سيعقدون اجتماعاً في منطقة قرب سد (بخمه) في منطقة آمنة. كانت المسافة بعيدة جداً،

والوصول إليها يستغرق عدة أيام، لكنهم يطلبون مشرفاً لزيارتهم. تقرر أن أذهب أنا بهذه المهمة. كان الثلج قد نزل بغزارة شديدة، و تحركنا إلى أربيل أنا والرفيق أبو رؤوف، الذي كان مستشاراً سياسياً للسرية الخامسة (سرية العمادية) الذي نقلناه للعمل معنا في الإقليم، والذي استشهد فيما بعد على يد أحد العملاء، وسيأتي ذكر كيفية استشهاده. وكان معنا رفيقان آخران والحصان الذي كان يرافقني في سفراتي الشاقة هذه.

كان علينا عبور جبل (كارة) الذي غطته الثلوج بشكل كثيف، فعلق الحصان بالثلج ولم يستطع المواصلة. كان كلما ينهض يغطس مرة أخرى، فقررت إعادته مع رفيقين وأن نواصل أنا وأبو رؤوف المسيرة. وكان نزول الجبل لا يقل خطورة عن صعوده.

وصلنا إلى أقرب قرية تحل فيها مجموعة من رفاقنا الذين على علاقة بـ (أبو رؤوف) فاستعار أبو رؤوف منهم بغلاً لي. وعندما حاولت ركوبه تعلقت إحدى قدمي بحبل كان مشدوداً على ظهر البغل ففقدت توازني وسقطت على الجهة الثانية فاصطدم رأسي بقوة على الأرض. ولو صادف سقوطي على حجر لشج رأسي.

فقدت الوعي وبقيت فترة من الزمن دون حركة. وعندما استعدت وعيي شعرت أن أضلاعي قد تهشمت. وكان على مسافة بضع سنتمترات من رأسي حجر كبير. أما الرفيق أبو رؤوف فقد أصفر وجهه من هول صدمة المفاجأة غير المتوقعة.

في إحدى المرات، في طريقي إلى قاطع أربيل توجهنا إلى قرية (كافية) كمحطة لنواصل بعدها إلى سد (بخمة) حيث لجنة محلية أربيل. كان الوقت شتاءً أيضاً وقد هطلت ثلوج غزيرة و انقطعت الطرق دون أن نعرف ذلك. كان بصحبتي رفيقان شقيقان من أهالي أربيل، أحدهما كان معلماً. بعد مسير ساعة أو أكثر رأينا فلاحين قادمين وقد ابتلت ملابسهم وهم بدون حيوانات. قالوا إن الثلوج قد قطعت الطريق وإن الحيوانات تغطس فيها، وإن من المستحيل اختراقها، كان معي الحصان العتيد فواصلنا السير رغم تحذيرات الفلاحين حتى صادفتنا الثلوج. كانت غزيرة حقاً بحيث غطس الحصان ثم نفض نفسه وقام ثم غطس وقام. وبعد أن سار عدة أمتار غطس لنصفه في الثلج ولم يستطع الخروج منه وحاولنا كثيراً إخراجه من الثلج ولكننا لم نستطع.

أصبحت الساعة الرابعة عصراً والليل قادم، والمنطقة، كما يذكر الفلاحون، مملوءة بالذئاب المفترسة ومما يزيد من شراستها جوعها بسبب صعوبة حصولها على فرائس في ذلك الثلج.

وبعد التشاور مع المرافقين قررنا ترك الحصان في مكانه وإلا هلكنا جميعاً، وربما نفقد الطريق الصحيح المؤدي إلى القرية القادمة. فككنا رباط الحصان وأنزلنا حاجياتنا من على ظهره. وتركناه مع كمية من الشعير. وحزنت عليه، إذ ربما تفترسه الذئاب ليلاً. تركناه، وعيناي معلقتان به. وصلنا إلى قرية أمضينا فيها ليلتنا تلك، ثم واصلنا السير إلى قرية (كافية) التي تقع على سفح الجبل الذي أقيم عليه مقر قاطع أربيل.

استقبلنا الرفيق (أبو سيروان) ورفاقه. وبعد حوالي ساعة من وصولنا وصلت برقية من مقر الفوج الأول جلبها الرفيق (أبو بافل) مخابر القاطع، تقول :" أنبؤونا عن وصول أبو يوسف و الرفاق الذين معه إليكم. لقد وصل حصانه فارغاً!" كما أرسلوا برقية إلى مقر المكتب السياسي، وكان الرفيق (آرا خاجادور) هناك، يقولون فيها: (لقد وصل حصان أبو يوسف بدونه أنبئونا).

أرسلنا برقية من مقر (كافية) أنبأناهم فيها بوصولنا سالمين.

عند رجوعنا من سد بخمة كانت المياه تتدفق بغزارة،إذ بدأت تباشير الربيع، الأشجار مورقة،الطيور على اختلاف أشكالها مغردة، المياه تتدفق من باطن الأرض لتصب في الزاب، مياه تنزل من قمم الجبال كأنها شلالات لتزيد من جمال المنطقة سحراً وبهاءً، وخيول أصبحت برية، ترعى في الحقول الفارغة، التي غادرها أهلها هرباً من القصف المدفعي و قصف الطيران.

أعجبت بفرس شقراء جميلة كانت ترعى مع الفصيل. وبطريقة فنية اصطادها أحد الأنصار. وضع حبلاً، بعد أن ربطه بشكل دائرة، ونشره في الأرض وعندما مرت الفرس فوقه شد الحبل فربط رجلها. ركبتها وسرنا عبر طريق زراعي ملتو وغابات وصعود ونزول حتى وصلنا إلى منطقة صخرية، وإذا بالفرس تدير نفسها وتركض بكل قوتها متجهة نحو المكان الذي اصطدناها منه، نحو الزاب. ولولا تمسكي بالحبل المشدود في فمها وتمسكي برقبتها وليِّها بقوة لأسقطتني أرضاً وهشمت عظامي على الصخور.

كانت لم تروض بعد. (لم تجبش) كما يقولوا باللهجة العامية. وكنت أرغب في أن تكون بديلا عن الحصان الذي أخذ يشيخ، ولكنها اختفت بعد بضعة أيام.

ومن جملة اهتماماتنا في الإقليم أننا أجرينا دراسة عن تطور البرجوازية في كردستان، ونسبة ممثليها إلى مجموع السكان ومجموع الأغوات وكبار الملاكين والمتوسطين والفقراء من الفلاحين، وعن الذين تحولوا إلى طبقة المالكين منذ الثمانينات أثناء الحرب العراقية - الإيرانية، ولكن الدراسة مع الأسف لم تكتمل بسبب زخم الأحداث وتطورها.

كانت هناك باستمرار وجهات نظر وحتى خلافات، حول تنظيم الأنصار والتنظيم المحلي، فكان يرى البعض حل الأنصار والاندماج مع التنظيم المدني. طلبنا سحب الرفيق الشهيد (أبو رؤوف) من السرية الخامسة للعمل معنا وضمه إلى محلية دهوك، وقد حضر أول اجتماع للمحلية.

كان أبو رؤوف (معلم من الناصرية)، مستشاراً سياسياً لسرية العمادية، وكان يقود عدة تنظيمات في القرى و دهوك. كان عضو لجنة قضاء في الناصرية ثم التحق بالأنصار بعد أن تقرر خوض الكفاح المسلح. كان رفيقاً رائعاً حقاً مضحياً وشجاعاً. كان له أصدقاء كثيرون في (العمادية)، منهم أحد الفرسان (الجحوش) الذي يعمل مع السلطة.

أبو بهاء

كان(أبو بهاء) من البصرة، طالباً في جامعة البصرة وعضواً في الحزب وفي اتحاد الطلبة. اعتقل في البصرة عام ١٩٧٨ وكان موقفه غامضاً. بعد الهجمة على الحزب من قبل حزب البعث هرب إلى بيروت وادعى أنه عضو لجنة قضاء وليس عضوا عاديا. تزوج من إحدى الرفيقات التي كانت تدرس في جامعة البصرة وكانت عضواً في الحزب ومن عائلة شيوعية معروفة: ابنة طبيب الأسنان ستار القيسي، أخ المحامي أبو سعيد القيسي. جاء أبو بهاء إلى كردستان مدعياً أنه حزبي متقدم. بقي فترة في كردستان ثم نزل إلى بغداد باعتباره كادراً. ويبدو أن الاستخبارات أو الأمن قد جندته لحسابها.

اعتقلت زوجته كما أتذكر في بشتاشان من قبل (أ. و. ك) مع أخيها الذي استشهد، ثم أطلق سراحها. فالتحقت بزوجها في بغداد، الذي استطاع أن يخدعها.

صعد (أبو بهاء) في إحدى المرات إلى جبل ومعه تقارير كتبها له (الأمن) سلمها للحزب! وأخذ كمية من النقود من (أبو ف) وعاد إلى بغداد. وخلال عودته نام في إحدى القرى وكان فيها (آمر السرية) الرفيق (أبو ماجد اليزيدي). داهمت فرقة من الاستخبارات القرية في الليل، فاستطاع (أبو ماجد) الافلات، وكذلك وحاول أبو بهاء الهروب ولكنهم ألقوا القبض عليه واقتادوه معهم. رآه أهل القرية وهو مع فرقة الاستخبارات، وكان مع فرقة الاستخبارات تلك، صديق أبو رؤوف (الجاش) وهوالذي حقق مع أبو بهاء فأبرز أبو بهاء هوية الاستخبارات، المزود بها من قبل الاستخبارات والتي يحتفظ بها لمثل تلك الحالات، مما اضطر مفرزة الاستخبارات بعد الاتصال ببغداد أن يطلقوا سراحه. نقل صديق (أبو رؤوف) الخبر إليه، كما أن أهل القرية التي كان لأبي رؤوف مؤيدون وأصدقاء فيها، شاهدوا (أبو بهاء) وهو مطلق السراح، فنقلوا الخبر لأبي رؤوف أيضاً. تم إيصال تلك المعلومات لقيادة قاطع بهدينان ولكنها لم تتخذ أي إجراء!. أفلت (أبو بهاء) ونزل إلى بغداد.

كانت السلطة تريد معرفة مكان المؤتمر الرابع للحزب وما يدور فيه، فأرسلت (أبو بهاء) إلى مواقع الأنصار مرة ثانية، من أجل حضور المؤتمر. (من دعاه لحضور المؤتمر؟.. لاأدري). إلا أن المعلومات التي أرسلها (أبو رؤوف) جعلت الشكوك تزداد حوله فلم يحضر المؤتمر، إذ تم حجزه.

بعد انفضاض المؤتمر اعتقل (أبو بهاء) وجرى التحقيق معه فأنكر كل شيء. أرسل أبو رؤوف على صديقه (الجاش) وطلب منه المعلومات التي يعرفها عن (أبو بهاء) ومقابلته في إحدى القرى القريبة من الشارع العام عند جبل (متين) فوافق على ذلك. كانت خطة ذكية لعبها الرفاق مع أبو بهاء. أخبروه أن المعلومات عنه خاطئة وطلبوا منه مرافقتهم بمهمة، وأعطي سلاح كلاشنكوف وأصبح في جاهزية قتالية. وصلوا ليلاً إلى الشارع العام فعبروه إلى القرية. جلسوا للعشاء ثم لشرب الشاي.. دخل الرجل صديق (أبو رؤوف).. وعندما رآه (أبو بهاء) سقط من يده قدح الشاي

وأصفر وجهه وأخذ يرتجف. وبعد حوار قصير بينه وبين القادم انهار أبو بهاء، ليعترف بعدها بأنه كان يعمل مع الاستخبارات وكشف عن الكثير من المعلومات!. هذه القصة حدثني بها (أبو رؤوف).

فلما عرفت السلطة بنهاية (أبو بهاء) ألقي القبض على (الجاش) الصديق وطلبوا منه أبو رؤوف حياً أو ميتاً وإلا قتلوه هو وعائلته ومحوه من الوجود. طلب هذا الجاش مقابلة سريعة مع (أبو رؤوف) عن طريق صديقه (سائق في العمادية) وعن طريق أحد رفاقنا، في أحد البساتين القريبة من العمادية الذي كانوا يلتقون فيه دوماً. هيأت الاستخبارات كميناً محكماً بالاتفاق مع هذا الجاش. فبعد أن انتهوا من الطعام، وكان مع (أبو رؤوف) رفيق أرمني، معلم من أهالي زاخو، فوضعا البنادق قرب أحد الأشجار ليغسلوا أيديهم فهجم هذا الجاش على البندقيتين وأطلق النار فقتل أبو رؤوف والرفيق الذي معه وسائق السيارة وسلم جثثهم لمفرزة الاستخبارات وتم سحلهم في الشارع.

هكذا استشهد أبو رؤوف البطل. وسمعت مؤخراً قبل وفاة أبو جوزيف أنهم قتلوا هذا الجاش الذي سلم أبو رؤوف ورفاقه.

التيار الجارف

ذهبت مرة، أنا والرفاق أبو هندرين وأبو محمود من الناصرية لصيد السمك في الزاب. كان علينا أن نمشي مسافة طويلة كي نصل إلى نهر الزاب. كان هناك فرع من نهر الزاب يفصلنا عن مكان الصيد فقررت العبور منه. خلعت حذائي ونزلت في الماء وعندما وصلت إلى منتصف النهر جرفني التيار ولم أستطع التحكم بنفسي. كنت أعرف أني لو انجرفت بهذا التيار القوي لصرت في وسط نهر الزاب وربما يرتطم رأسي بأحد النتوءات البارزة. أمسكت بإحد الأغصان الممتدة في النهر بقوة ثم بغصن آخر وبقيت وسط الماء في حين جرف التيار حذائي والصنارة (الشص) وبعض الحاجيات. كنت أجيد السباحة إلا أن قوة التياركانت لا تقاوم، كانت أكبر من طاقتي إضافة إلى الصخور الناتئة. كان أبو هندرين وأبو محمود ينظران إلي ولا يستطيعان عمل شيء. حاولت التشبث بالأغصان وسحب نفسي صوب جرف النهر، ونجحت بذلك بأعجوبة وخرجت من الماء.

الفصل الرابع والعشرون

نهاية المطاف في كردستان

كانت هناك كما أسلفت العديد من الأمور المهمة المطروحة والكثير من التعقيدات المطروحة للمناقشة والتي تنتظر البت بها، على أرضية كردستان؛ من تدخلات الجيش التركي والتضييق على حركة الأنصار، ومنها ما جرى للمفرزة التي كانت متوجهة إلى منطقة خواكرك و إلى لولان حيث مقر م.س. والتي كان ضمن المفرزة الرفيقة انسام [٢٥٢] (موناليزا) أخت الرفيق (داوود أمين)، والتي استشهدت في هذه المفرزة. كانت هناك نية لعقد اجتماع للجنة المركزية بعد أن جاء أغلب أعضاء ل.م و م.س من الخارج. عقد اجتماع موسع ضم كادر الإقليم أيضاً. كان غرباتشوف قد سار شوطاً بتخريباته في مؤامرة (البروستريكا) والغلاسنوست (إعادة البناء) ضد المعسكر الاشتراكي وهدمه، وهناك من هلل لطروحات غورباتشوف واعتبرها القضية التي سوف تفتح أبواب الجنة للكادحين وتنصر العدل والسلام و تبنى الاشتراكية الغورباتشوفية على أدق الأنظمة والقوانين. كما ظن البعض أن الغورباتشوفية ستبدل الرأسمالين وتجعل العدل والديمقراطية يسودان في العلاقات الدولية، وآخر نصب نفسه للدفاع عن غورباتشوف وكأنه منذ زمن وهو يحمل أفكار التغيير، وأنه أبو التغيير، ونادى البعض الآخر بتغيير اسم الحزب الشيوعي لأنه ما عاد يصلح للمرحلة القادمة.. إلخ. انقلب كل شيء رأساً على عقب.

هذا في حين أن قسما آخر، وأنا من بينهم، اعتبرناها مؤامرة على الدول الاشتراكية وعلى الاشتراكية نفسها، و قلنا: لا يمكن أن تكون معالجة الأخطاء والنواقص المتواجدة في البنية الاشتراكية عن طريق هدم الدول الاشتراكية التي قدمت أنهاراً من الدماء لبناء هذا النظام.

كانت الطرق المؤدية إلى مكان الاجتماع خطرة وملغومة. تحرك الرفاق بمفرزة مشتركة مع حدك والاشتراكي وكان مع المفرزة الرفيق (حميد بخش). وقعوا في كمين نصبته الجندرمة أثناء سلوك طريق يمر عبر الأراضي التركية. اصطدمت المفرزة بالجيش التركي وتشتتت، فوقع قسم في الأسر وعاد آخرون إلى القاعدة فيما واصل قسم ثالث طريقه.

في بهدينان في زيوه على الزاب

وتؤكد برقيات المكتب العسكري (م.ع) أن الطرق خطرة ولا يمكن العبور. لكن مجموعتنا التي تضم رفاق ل.م، وعددا من أعضاء المكتب السياسي منهم الرفيق أبو داود ومجموعة من الكوادر، قررت الوصول إلى مكان الاجتماع، بأي شكل كان، يصحبنا عدد من الرفيقات، وترافقنا مجموعة من الرفاق المتوجهين إلى خارج كردستان للمعالجة. كما كان معنا سكرتير محلية أربيل الرفيق ملا حسن ورفاق آخرون ممن لهم دراية بالطرق ومسالكها. سرنا في طريق جبلية وعرة جداً ولم تمنحنا الأمطار التي نزلت في هذه الفترة، فرصة التحرك والسير بحرية.

كان المفروض أن ننزل من الجبل ونخترق أحد المجمعات السكنية، وهو مجمع يسكنه الكثير من الفلاحين والفرسان الجاش. كان البرد والمطر والجوع وقلة النوم والتعب من صعود الجبال ونزولها قد أنهكنا. وكنت أنظر إلى ذلك المجمع وفيه البيوت المنتشرة المضاءة بالكهرباء والدفء والاطمئنان والثلاجات المليئة بالطعام والأفرشة الدافئة، وأقارنه بحالتنا التي تشبه الصقور على قمم الجبال يلفنا البرد والجوع.

كان المجمع محاطا بالربايا الحكومية من كل صوب وهي تطلق بالونات التنوير بين حين وآخر، لكشف المتسللين أو الأنصار. ولم يتوقف إطلاق قذائف المدفعية على الطريق أيضاً. اتصل رفاقنا بالمعارف والأصدقاء في ذلك المجمع. وجرى الاتفاق على أن يكون اختراقنا في ساعة متأخرة من الليل، أي حينما يكون الناس جميعاً نياماً. ولما حانت الساعة تسللنا ومعنا البغال المحملة بحقائبنا ومررنا من وسط المجمع إلى منطقة صخرية. لم تتوقف الربايا المجاورة المحيطة بالمجمع عن إطلاق بالونات التنوير فأضاءت المنطقة ثم صارت تطلق مدفعيتها باتجاهنا فتتطاير الشظايا وتتناثر قطع

الصخور حولنا، مما جعلنا نختبئ خلف بعض الصخور وأن نبطح البغال بدون حركة على الأرض. تسللنا بعدها إلى غابة كثيفة بعيدة عن المجمع السكني وعن الربايا ولما أزفت الساعة الرابعة صباحاً استرحنا قليلاً ثم واصلنا المسير.

مازالت تصل أسماعنا أصوات مدفعية الربايا التي لم تهدأ ونرى بالونات التنوير المرتفعة بالسماء. لقد كانت مغامرة كبيرة ولكنها مطلوبة. وكما يقول المثل "فالمفاجأة نصف النصر".

قبل ذلك غادرت أنا والرفيق أبو عادل (أنور طه) إلى منطقة لولان للعلاج. وكان شتاءً قاسياً والثلوج تسد كل الطرقات. كان في لولان الرفيق رحيم عجينه وزوجته، وهما يعملان في الإعلام. سبقنا للخروج باقر إبراهيم وزوجته مع مفرزة من حسك (الحزب الاشتراكي الكردستاني) وجماعة من حدك. وتحتم علينا العبور من المنطقة الحدودية (جلشين). كاد الجميع أن يهلك في الطريق بشدة العواصف الثلجية، وكان إثنان من أنصار (حسك) قد تجمدا وماتا فعلاً. وعرفنا بعد هذه الحادثة أنه لولا شطارة المهربين (الكرونجية) لمات الجميع بين الجبال الحدودية!.

بقينا فترة في لولان وكان رفاقنا على صلة مع الديمقراطي الكردستاني ومع الأخ (فلك الدين كاكائي) عضو اللجنة المركزية لحدك. وكانوا يقيمون على مقربة ساعتين أو أكثر في منطقة تسمى (سيد صالح) كما أتذكر.

علمنا منهم أن الطريق إلى مدينة (اشنوي) سالك وأن مفرزة منهم سوف تنطلق إلى قرية ومعسكر حدك في (اشنوي). شددنا الرحال أنا وأبو عادل ورفيقان آخران وعبرنا الثلوج إلى قاعدة حدك فاستقبلنا الأخ فلك الدين بترحاب.

أمضينا الليل في مقرحدك، على أن ننطلق في الساعة الخامسة صباحاً،مع مفرزتهم نحو معسكر (اشنوي). نهضنا في الرابعة صباحاً وانطلقنا، بعد أن ودعنا الأخوان في حدك. من حسن الصدف أن مرّ رعاة معهم حوالي (٥٠٠) رأس من الغنم، فمهدوا الطريق أمامنا، مما سهل علينا السير. وبعد مسير أكثر من ساعتين تأخر أبو عادل عنا كثيراً، كان بطيئاً جداً كعادته. جاءني مرافقه النصير (ساري) [٢٥٣] وأخبرني بأن (أبا عادل) لا يستطيع السير في الثلج وأنه تعب جداً ومن المحتمل أن يعجز عن المواصلة، وقد يموت في الطريق! سألته عن رأيه، فأشار عليّ بأن يعود إلى القاعدة.

فطلبت منه تنفيذ ذلك والالتحاق بنا. وهكذا عاد أبو عادل ليبقى في لولان حتى الصيف، بعد ذوبان الثلوج وانكشاف الطرق.

سرنا مدة (٩ ساعات) دون توقف، فالوقوف في الثلج يعني التجمد و الموت. كان الجو ساكناً، فلو هبت عاصفة لدفنتنا في الثلوج التي تصل إلى أكثر من متر على القمم. خضنا في المياه وعبرنا نهراً اعترضنا، صعدنا ونزلنا قمم عديدة. وكنا كلما صعدنا قمة جبل تصادفنا قمة أخرى.. وهكذا كادت أرواحنا أن تغادر أجسادنا من شدة ما عانينا من التعب. وأخيراً صعدنا آخر قمة لنطل على شارع ترابي. كانت بانتظارنا سيارتي لاندروفر تابعة للأخوة في حدك. وعندما رأيت السيارتين تصورت نفسي كأنني أسير في صحراء قاحلة ليظهر لي في النهاية بئر ماء. أقلتنا السيارتان إلى معسكر حدك في (اشنوي) بعد تلك الرحلة الصعبة.

الخروج من كردستان

عقد اجتماع للجنة المركزية قبل شهر أو أكثر من إيقاف الحرب العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٨، وفقاً لقرار ٥٨٩. وأهم ما تناوله الاجتماع كان بشأن مسألة دمج التنظيم المحلي بالأنصار والتطورات الجارية في الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية. وبعد انتهاء الأجتماع حاولنا أنا والرفيق رحيم عجينة وزوجته الخروج عبر إيران والرفيق أبو فراس (ياسين) الذي كان مراسلاً، بمرافقة مفرزة من حدك.

كانت السيارة مكتظة بالأنصار (البيشمركة) وكان الرفيق رحيم وأبو فراس يجلسان معي في الخلف. كان الرفيق رحيم معروفاً لدى الإيرانيين، كما أن هيئته لا تدل على أنه (بيشمركة) وأبو فراس يرتدي ملابس مدنية أما أنا فكنت ألبس ملابس عسكرية (بيشمركه) والجمداني الذي لفه لي أبو ناصر كان مضبوطاً. بعد ساعات من سيرنا بالأراضي العراقية دخلنا الأراضي الإيرانية، وإذا بسيارة من (الباسدارية) الإيرانية المسلحة توقف سيارتنا للتفتيش.

فتشوا السيارة وأخذوا ينظرون إلى الوجوه. أشروا إلى الرفيق (رحيم عجينة) بأن ينزل وكذلك (أبو فراس). فوقف آمر مفرزة (حدك) موقفاً شجاعاً عندما رفض نزول أو اعتقال أحد من السيارة، وقال إننا ذاهبون لمعسكرنا (في اشنوي) وهناك يمكن التفاهم معكم. وتحركت سيارتنا تاركة الإيرانيين في حيرة من أمرهم.

وصلنا إلى معسكر (اشنوي) وبعد دقائق وصلت سيارة (الباسدارية) يريدون الرفاق رحيم وأبو فراس. جاء مسؤول (حدك) في المعسكر وحاول التفاهم معهم، لكنهم أصروا على أخذ الاثنين فأخذوهما معهم. ويذكر الرفيق (رحيم عجينة) في مذكراته قبل أن يتوفى في لندن قصة اعتقاله وإطلاق سراحه بعد أكثر من سنة في المعتقلات الإيرانية.

أما أنا والرفيقة زوجة رحيم فلم يشكوا بنا. هي لكونها امرأة وأنا لكوني من حدك (بيشمركه). جلسنا في قاعة مخصصة للضيوف جاء بعدها أحد معارفنا لنصحبه إلى داره. بقيت بضعة أيام ثم جاء (مام قادر) لنسافر سوية إلى طهران. وبعد قصة وتحقيق مطول من قبل رجال الأمن الإيراني استطعت الخروج من إيران لنعتقل في الأراضي السوفياتية التي تسللنا إليها ليلاً. وبعد فترة من الاعتقال عند الحدود السوفياتية تم نقلنا إلى موسكو ومنها سافرت إلى ألمانيا حيث تسكن عائلتي.

بقيت فترة قصيرة ثم عدت للعمل في مكتب دمشق بعد الانتفاضة، التي أرغمت الجيش العراقي على الخروج من كردستان، بعد انهياره بما سمي بعاصفة الصحراء.

وعندما ذهبنا لحضور المؤتمر الخامس للحزب في كردستان كنت أنظر إلى الجبال الشاهقة والطرقات الوعرة التي كنا نسلكها، والآن نحن في وسط مدينة أربيل نأكل في مطاعمها وننام في البيوت المدفأة ونمتلك كامل حريتنا بالحركة. كم هي جميلة حرية الإنسان.

الخاتمة

هذه قصة حياتي وأهم الأحداث فيها، وما هي إلا قصة من قصص آلاف المناضلين الذين وهبوا حياتهم لشعبهم ووطنهم وتعكس نضال الشيوعيين المتواصل في سبيل حرية وطنهم وسعادة شعبهم.

الهوامش

١ النهب : طريقة يلجأ اليها بعض الشباب عندما يمتنع اهل حبيبته أو عشيرتها عن زواجه بها ، فيضطر لنهبها (خطفها) . وهذه عادة منتشرة ليس في ريف العراق فحسب بل ايضاً في أيران وتركيا وغيرها . وبعد سنة تقريباً من الخطف ، تجري مصالحة بين أهل الشابين . . وبعد أن يرزقا بأطفال أحياناً . وتجري المصالحة إما عن طريق الفصل ؛ وهو عرف أن يعطي الناهب أخته أو إحدى قريباته لأخوة أو أقارب المنهوبة مع مقدار من المال ، أو النزوح من القرية لفترة من الزمن . .

٢ الكروبخية : هم أصحاب الدواب ، الذين ينقلون البضائع بين المدن و الأرياف في كردستان ، وأسفارهم لاتخلو من مشاق ومخاطر .

٣ عندما نقلنا من سجن بعقوبة بعد هجوم غادر من قبل الشرطة على السجن ، وذلك نكاية بنا بعد أن هرب من السجن ١٤ رفيق من نفق حفروه آنذاك . وقد تم إلقاء القبض عليهم جميعاً ، ماعدا رفيق واحد وهو عبد اللطيف الرحبي ، وهو من أهالي بعقوبة ، وقد توفي بعد ثورة ١٤ تموز ، وأيام كنت في سجن النقرة عام ١٩٥٥ .

٤ أحد كوادر الحزب ، اغتاله البعثيون بعد انقلابهم المشؤوم عام ١٩٦٨ ، وذلك في أوائل عام ١٩٧٠ . وكان معلماً مبعداً إلى قضاء " نقرة السلمان " لنشاطه السياسي ، وكنت على صلة دائمة معه عندما كان هناك عام ١٩٥٦ .

٥ بعد أن زَوّرت أنتخابات الجمعيات الفلاحية ، ونَصّبت "عراك الزكم" من الحزب الوطني الديمقراطي بدلاً من "كاظم فرهود" الذي كان رئيساً للجمعيات الفلاحية ، وهو قائد شيوعي معروف .

٦ سرد لنا قصته ، وقال :" أحببت امرأة من هذه العشيرة ومانع أهلها زواجنا ، فأخذتها (أي نهبها) . . وبيننا مشاكل وقد اتعرض للقتل . . وهذا مالاترضوه أنتم . .

٧ تعني رسالة .

٨ الفلاحون يستطيعون التنبؤ بسقوط المطر وأحوال الطقس . . فمثلاً الفلاح الكردي في الشمال يعرف أن الشتاء سيكون بارداً عندما يرى الزنابير تخرج بكثرة . وتحضرني نكتة رواها لي أحد الأصدقاء الآشوريين الذي كان يعمل مع الأنكليز . رأى أحد الأنكليز ،وكان بيده محرار يقيس به حرارة الجو ، فلاحا ينظر إليه . . فبادره بالقول : إنه محرار نقيس به البرودة ، ضحك الفلاح فقال الإنكليزي : لماذا تضحك ، أنتم كيف تعرفون الجو ؟ . قال الفلاح : ننظر إلى خصية الحصان أو الحمار ، فإذا كانت ممدودة فإن الجو سيكون حاراً ، واذا كانت متقلصة فأن الجو سيكون بارداً . ضحك الإنكليزي و قال أنها حكمة . .!

٩ التهلة : حجر صلب يبرز وسط الماء ، لاتؤثر به ضربات الأمواج (الروج) .

١٠ للسيد خميس ومجموعته قصة طريفة ، التقيتهم في " موقف مركز شرطة المدينة" التابعة لقضاء "القرنة" في البصرة عام ١٩٦٢ ، سأتناولها في مكان آخر .

١١ في حينها الدينار = ٣,٣٣ دولار .

١٢ وهي غرفة صغيرة مفتوحة يضعون فيها الأفرشة و الحاجيات القديمة في الشتاء ، وفي الصيف ، حيث ينام الناس على السطوح ، يضعون فيها الأفرشة .

١٣ الكعيبر : هم الذين لايملكون وثائق رسمية لإثبات الشخصية ويعبرون تهريباً الى الكويت للعمل .
١٤ يبدو أن هذا الكوخ المصنوع من القصب وسعف النخيل و البواري ، يستعمله للحراسة ، أما بيته الذي لم نره فيقع على مقربة من هذا الكوخ .
١٥ ضابط في الجيش العراقي ، ذو ميول قومية ، من مؤيدي الرئس جمال عبد الناصر . وهو من أهالي الناصرية ومن الضباط الأحرار . أستوزر في أول حكومة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .
١٦ البوامة : نوع من السفن الخشبية الكبيرة تستخدم في الخليج .
١٧ البواري : عبارة عن بساط محوك من القصب .
١٨ المعدان : هم فلاحون يسكنون الأهوار .
١٩ أعدم بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .
٢٠ من مظاهر الأمور ، يبدو أن الشابة هاربة من أهلها والتي معها هي التي دبرّت هروبها ، الى حيث الله أعلم .
٢١ محسن هذا ، هو أبن "علي شعبان" ، السجين الشيوعي الذي هو ابن عمتي ، وكان حينها في نقرة السلمان .
٢٢ كيف وصلت الى موقف " الفضيلية" . تلك قصة أخرى سأتناولها في مكان آخر .
٢٣ راجع (العراق : الطبقات الاجتماعية القديمة و الحركات الثورية) - الأستاذ حنا بطاطو .
٢٤ عائلة معروفة بالعشار ، أضافة الى بيت البدر وبيت حاج علي الطاهر وبيت العطية وبيت المظفر وبيت ملا صنكور وعوائل اخرى معروفة . . .
٢٥ أحدى العوائل الغنية في البصرة ، تنحدر من اصل سعودي ، سكنت البصرة وكان أبناؤها يوزعون الطعام على الفقراء يومياً ترحماً على موتاهم .
٢٦ حركة رشيد عالي الكيلاني في مارس ١٩٤١ .
٢٧ السويكة : مسحوق رطب مصنوع من نوع من التنباك المخلوط بالنورة ، يستعمله متعاطيه بدس قليل منه في زاوية من فمه لفترة من الزمن ثم يفضه . له فعل أشبه مايكون بفعل التدخين .
٢٨ أطلق الناس هذه الأهزوجة أستهزاءً بهؤلاء : " كركي قتل زعفران يا أهل السويكة عزلوا " . العديد من باعة السويكة هم من السود وغالباً هم من أبناء المناطق الفقيرة في البصرة ، مناطق الصرائف (التي بيوتها مبنية من القصب والبواري) . في أيام عاشوراء يبيعون الباقلاء و الحمص المسلوق (اللبلبي) . . . . إلخ . وهناك محلة في البصرة تسمى محلة العبيد ، وهناك جسر العبيد ، وهم يمتازون بقوة الأبدان . كان الحجاج أيام حكمه قد جلب السود للخدمة والحراسة .
٢٩ الليفي : مجندون عراقيون من الفلاحين الآشوريين أو من أهل العمارة جندهم الإنكليز لحماية مصالحهم في العراق ، وهم يلبسون ملابس عسكرية على طراز الجندي الإنكليزي ، ويضعون الريش على قبعاتهم .
٣٠ هو أحد المعسكرات الأنكليزية الأساسية في العراق إلى جانب معسكر الحبانية .
٣١ في إحدى المرات كان إثنان من جنود الليفي مخمورين تماماً وهم يرتدون بنطلونات قصيرة ويلبسون قبعات عريضة مريشة قد تعرضوا لإحدى الفتيات محاولين معها فصرخت مستنجدة بشباب المحلة ، وبعد أن أبعدوا الفتاة عنهم ، أشبعوهم ضرباً حتى شارف أحدهم على الموت . هذا هو سلوك الجيوش المحتلة سواء في مصر أو سورية أو الجزائر وغيرها .
٣٢ مثل اليد الحمراء واليد السوداء ، وكانت تسرق السيارات و الأدوات الأحتياطية من سيارات هؤلاء الجنود .
٣٣ صرح الجنرال مود الذي أحتل العراق في ١١/ آذار/١٩١٧ : إننا جئنا محررين وليس فاتحين .
٣٤ مثل محلة العشار (البجاري) مع محلةالخندق . ينقطع الطريق وينهمر الحجر على الطرف الآخر وعلى المارة ويقع جرحى وأسرى وأحياناً تستخدم أدوات جارحة .
٣٥ الكوسج يدخل الى شط العشار وقت المد من شط العرب ويفترس الأسماك ، وقد التهم أيدي أو أرجل بعض الشباب . يبلغ طول شط العرب ١٦٥ كيلومتر أماعرضه فيختلف من مكان الى آخر .
٣٦ الزهر حبوب سوداء سامة نطحنها ونخلطها مع العجين فيأكلها السمك فيموت ويطفو على الماء حيث يتم جمعه بيسر .

٣٧ من أنواع السمك المشهورة في البصرة : الصّبور ، الشانك ، الشبوط ، الكطان ، البرزم ، الشلج ، البني ، مخيط النبي ، الحمري ، المزلقن ، الزبيدي . .إلخ علاوة على وجود كميات كبيرة من الروبيان (الكنبري) .
٣٨ وهي أنواع من الشباك في نهاياتها السفلية رصاص ويربط في نهاياتها العلوية فلين أو (كرب النخل) وعندما تعلق سمكة في الشباك تغطس الفلينة أو (الكربة) . هذا النوع من الشباك يكون طويلاً ويلقى لمسافات كبيرة نسبياً (من عشرات الأمتار الى ما يقارب ١٥٠ متر) .
٣٩ إضافة لغانم كان هناك شخصيات معروفة مثل (تومان) عازف الناي والعارض المتجول لأعلانات السينمات في البصرة ، وفتحي العور ، ستار كريم الخطاط ، عليوي العبد وكثير من السود كانوا ينصبون دواليب الهوا في الأعياد ويغنون (عمي وعمك باشا اعيان) وبعدها يغنون (صاروخ روسي بالسما) ، بعد أن اطلق السوفيت صاروخهم .
٤٠ المصاليخ : قسم من عمال الميناء في البصرة ، فلاحون معدمون جاؤوا للبصرة هرباً من جور الإقطاعيين ، يسترون عوراتهم وأجسامهم بعباءة من الصوف في الصيف الحارق وهم شبه عراة ، ومن هنا لقبهم هذا .
٤١ البستان كان غنياً باشجار الفواكه مثل : المشمش ، الرمان ، الخوخ ، السفرجل ، التين ، العنب الأسود والأبيض إضافة الى انواع التمور . والبصرة مشهورة بتمورها الممتازة مثل : البرحي ، الحلاوي ، الخضرواي ، البري . . .إلخ
٤٢ الكيض : الصيف . الساب : الساقية .
٤٣ هذه العاب جماعية مسلية .
٤٤ هو مختص بصنع الطائرات الورقية الملونة الجميلة .
٤٥ هي نفس المدرسة التي درس فيها الرفيق فهد ، وهي معروفة في مدينة البصرة و للبصريين .
٤٦ كان سن دخول المدرسة هو السابعة من عمر الطفل ، ولا يقبل قبلها ، حتى في المدارس الحكومية .
٤٧ جاء في أحدى المرات أحد الطلاب متأخراً عن الدرس نصف ساعة ، كان حافياً وقدماه ملطختان بالوحل . فسأله المعلم كربيت بعد أن سمح له بالدخول : لماذا تاخرت ياولد ؟ أقلع عينيك ياولد ! لاتكذب ياولد ، كان القس كربيت يردد باستمرار كلمة ولد . فاصفر وجه الطالب وبدأ ينسج قصة من بنات افكاره . قال : إن زوجة أبيه تكرهه ولم توقظه ولم تعطه الفطور إذا لم يغسل الأطباق ويذهب لشراء الخبز ويعمل الفطور لأخوته الصغار . . .إلخ . فرَقّ عليه المعلم كربيت وعفا عنه ولم يسجنه .
٤٨ مثل (الهيس) الذي هو تمر بالطحين مع حبة حلوة ، و(الكماتيل) التي تصنع من سمسم معجون بالدبس ومضغوط بشكل كرات صغيرة ، و (اللبلبي) الذي هو حمص مطبوخ .
٤٩ بعد انتهاء القارئ ، ينزع الشباب ملابسهم لحد الخصر ، ويبدا اللطم . تتجمع الشابات في الطابق الثاني ليشاهدن (اللطامة) الذين بالمقابل يجدونها فرصة لمغازلة الفتيات .
٥٠ البعثيون منعوها بعد استلامهم السلطة عام ١٩٦٨ لأنها أصبحت ضدهم .
٥١ جيته : غير عراقي وكان يقيم الكثير من المآتم الحسينية ، أعدمه البعثيون باتهامه بالماسونية .
٥٢ المناضل الشيوعي ، عضو (اللجنة المركزية) ، الذي اغتاله البعثيون عام ١٩٧١ بحادث سيارة وكان يحمل ابنته الصغيرة (أماني) في بغداد .
٥٣ الجت = البرسيم : نبات يستعمل علفاً للحيوانات .
٥٤ عامر كان صابئي الديانة ذو لحية بيضاء كثة ، قصير القامة ، قوي ، سريع الحركة . كان والدي أحياناً يدعوه لتناول الطعام معه ، بعدها تغسل والدتي أطباق الطعام وتطهرها بآيات قرآنية .
٥٥ آنذاك كان الأغنياء فقط من يملكون المدافئ ، أما باقي الناس فكانوا يستعملون الحطب والفحم أساساً للطبخ والتدفئة .
٥٦ كان أبرز اللاعبين حميد مجيد ، شاكر إسماعيل (أخي) ، كريم علاوي ، سعيد يشوع ، صبيح درويش ، جاسم ، بيرسي ، أرشاك . . .وغيرهم . كانت لعبة كرة القدم تتمتع بشعبية واسعة في البصرة ، ويعتبر منتخب البصرة من أقوى الفرق في العراق ، إذ أنه فاز ببطولة العراق بعدما فاز على فريق الحرس الملكي و فريق القوة الجوية سنة ١٩٥٢ .

٥٧ الجراديغ جمع (جرداغ) . لا أعرف أصل الكلمة ، ربما هي كلمة تركية . الجرداغ هو المكان الذي تُجمّع فيه التمور بغرض تنظيفها من النوى ثم وضعها في صناديق (في الغالب خشبية) .

٥٨ النوبان يقام ليس في محلة الساعي فحسب بل أيضاً في محلات أخرى في البصرة مثل محلة جسر العبيد ومحلة المشراق . النوبان هو شكل من الاحتفالات حيث يلبس النساء والرجال ملابس نظيفة ، ويتحزم البعض منهم وخاصة الرجال بأحزمة من أظلاف الخرفان ، ويجري الغناء و الرقص على موسيقى وإيقاعات الدفوف والطبول التي تعتبر الآلات الرئيسة . وتتراوح حدة وتسارع الإيقاعات حسب اللحن المغنى ، وأحياناً يحتد ويتسارع بما يذكرك بالموسيقى الأفريقية . وكان صوت "رضية" العذب والمتميز بصفائه مع إيقاعات الدفوف يمنح المرء شعوراً رائعاً بالجمال .وكثيراً ما تحضر بنات الذوات للرقص ويرتدين الزي (الخاص) ، والبعض لديهن (نذور) بالمشاركة . يستمر الرقص حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحتى يهد الأعياء البعض منهم ويسقطون على الأرض إثر هز الرأس و الدوران السريع و المتكرر في حلبة الرقص ، هذا يسمسه البصريون (الطناكير) .

٥٩ كانت الحكومة تتهم أحياناً بتدبير هذه الحرائق وتلقي مسؤوليتها على الشيوعيين .

٦٠ مثل عبد الوهاب طاهر الشيوعي المعروف وعبد الرزاق وعبد الخالق العامل في الموانئ الذي عانى كثيراً ،إذ دخل المواقف والسجون وتوفي سنة ١٩٩٩ .

٦١ كان مدير المدرسة يسمى عبد علي .

٦٢ رئيس الوزراء محمد الصدر ، الذي كلف بتشكيل الوزارة آنذاك لتهدئة الأمور .

٦٣ عبد الله رشيد أعدمه عبد السلام عارف عام ١٩٦٤ مع رفيقه سكرتير نقابة الموانئ كريم حسين .

٦٤ كان رئيسه عبود شبر .

٦٥ في احدى المرات أمسك الشرطي أحد المتظاهرين ويسمى محسن من (جاكيته) فنزع محسن الجاكيت وتركها بيد الشرطي وأفلت منه ، بينما في مرة اخرى فَلَتَ نعال أحد المتظاهرين وكان نعلاً جيداً فلما رجع لأخذ نعله ألقي اقبض عليه . .!!

٦٦ في ١٩٤٩ أضرب ٦٠٠ عامل من عمال الحفار لعدة أيام في البصرة . في شباط ١٩٥٠ أضرب ١٠٠٠ عامل من عمال السكك في البصرة . في أيار ١٩٥١ أضرب ٣٥٠ عامل من عمال (كري مكنزي) في البصرة . في شباط ١٩٥١ أضرب ٢٠٠٠ عامل من عمال شركة نفط البصرة لمدة ١٣ يوم . وأيضاً في ١٩٥١ أضرب عمال الميكانيك وعمال مسفن (كري مكنزي) في البصرة . وفي نيسان ١٩٥١ أضرب ٤٠٠ عامل نسيج في المعامل اليدوية في النجف . وفي ١٩٥٢ أضرب ١٠٠٠ عامل من عمال الفاو لمدة ٣ أيام ، وفي نفس السنة أيضا أضربً ٩٠٠ عامل من عمال قاعدة الشعيبة مرتين . وفي ٢٢ آب ١٩٥٢ أضرب ٣٠٠٠ عامل من عمال الميناء من أجل الأجور والنقابة . وفي كل من حزيران وأيلول ١٩٥٢ أضرب عمال قاعدة الشعيبة . وفي كانون أول من نفس العام أضرب ٣٠٠٠ عامل من عمال شركة نفط البصرة . في كانون أول ١٩٥٣ أضرب عمال الشركات الإنشائية مثل شركة تاجريان و الكوكومر . وفي بغداد أضرب عمال النسيج في معامل فتاح باشا وصالح إبراهيم . في عام ١٩٥٢ ساهمت الثورة المصرية بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ الجائرة وكان لها فعلاً مسانداً ودافعاً أكثر للحركة الوطنيةفي العراق .

٦٧ الإنذار (Waring) يعني إيقاف الزيادة السنوية لمدة سنة و الإنذار الثالث يعني الفصل من العمل .

٦٨ كانت مطالبهم زيادة الأجور (٥٠) فلساً ، إلغاء العمل الليلي ، النقابة ، توفير سيارات للنقل . . إلخ .

٦٩ حزب الأمة الشتراكي هو حزب أسسه صالح جبر رئيس الوزراء السابق كما أسس نوري السعيد الحزب الدستوري .

٧٠ التقيت مع خالد حبيب الطيار في سجن نقرة السلمان بعد إنقلاب شباط ١٩٦٣ .

٧١ التقيت مع هذا الرفيق فيما بعد في سجن بعقوبة ، اسمه إبراهيم ، وكان أخوه يدير مستشفى السجن ، وهم من ألقوش .

٧٢ الذي أبلغني بترشيحي لعضوية اللجنة المحلية في البصرة وكان هذا أوائل عام ١٩٥٣ .

٧٣ كان ذلك في نهاية نيسان ١٩٥٣ .
٧٤ إن هؤلاء كانوا ياتون لزيارة العتبات المقدسة ، تهريباً ، ويلقى القبض عليهم ويبقون لفترات طويلة في المواقف حتى يتم تسفيرهم وقسم منهم يموتون لطول فترة التوقيف ، وخاصة الإيرانيون .
٧٥ كان مسؤول المعتقل ضابط يسمى عبد المهيمن .
٧٦ (راية الشغيلة) الاسم الذي اتخذته حزبية انشقت عن الحزب أواسط عام ١٩٥٢ بسبب خلافات فكرية ، ثم حلت نفسها وعادت للحزب عام ١٩٥٦ .
٧٧ مادة (٨٩ أ) من قانون العقوبات البغدادي ، أضيفت للقانون ، وبموجبها حرمت المبادئ الشيوعية «وماشاكل ذلك» .
٧٨ كانت تسلم كل هذه المواد و النقود والملابس للجنة السجن (التنظيم) وهو يقوم بتوزيعها على المحتاجين وخاصة الملابس .
٧٩ كان الرفيق جمال الحيدري سجيناً في سجن بغداد المركزي واستطاع الهرب من المستشفى عندما كان يتلقى العلاج وجاء هروبه بعد زيارة أم الرفيق (إبراهيم الحكاك) إليه وتزويدها إياه بملابس مدنية ، وعند خروجه متنكراً ، سلم على حارسه وخرج ، وكان بانتظاره الرفيق الآثوري (شمشون) .
٨٠ مدير سجن بغداد آنذاك وقد أعدم بعد ثورة ١٤ تموز . كان أحد الجلادين القتلة ، وقد أفاد أحد الضباط عنه : (لوترك الأمر له لأفناهم جميعاً وبسرعة) .
٨١ من الشهداء إسماعيل أحمد كرطة من البصرة ، وهادي عبد الرضا ، أنظر كتاب شهداء الحزب ، عن شهداء سجني بغداد والكوت .
٨٢ كان الماء ينقل الينا بواسطة السيارات (التنكرات) يومياً وهو مخلوط بالطين ، كنا نصفيه بواسطة مادة (الشب) .
٨٣ حاكه لنا الرفيق صادق الجواهري وهو من اهالي النجف .
٨٤ كان طالباً في فرنسا ورجع للعراق ، وتم سجنه لمدة سنة ، وكاد يقتل ، كان ينشد نشيد الأممية باللغة الفرنسية .
٨٥ من الذين استشهدوا في مجزرة الكوت : في ١٨/٨/١٩٥٣ استشهد الرفيقان وحيد منصور وصبيح مير وفي ٣/٩/١٩٥٣ استشهد الرفاق أحمد علوان (أبوعمر) ، جبار الزهيري ، رؤوف الدجيلي وغيرهم . (انظر كتاب شهداء الحزب – الجزء الأول) .
٨٦ أصيب الكثير منا بالإسهال و المغص المعوي و الأوجاع ، الأبواب لا تفتح بعد السادسة ، فالطثير من المصابين يتغوط بالصفائح (التنك) الموجودة داخل القاعة إضافة للتبول فيها . أو في أكياس النايلون (أي نوع من الأضطهاد كنا نعاني!) .
٨٧ مهدي حميد عسكري مفصول من الجيش قتله البعثيون في انقلابهم في ٨ شباط ١٩٦٣ . كان في سجن نقرة السلمان مع المحامي الشهيد حمزة سلمان الذي قتل ايضاً ، إذ كان عبد الكريم قاسم قد سجنهما قبل الانقلاب .
٨٨ مكرم الطالباني محام معروف وكان أحد محامي الرفيق فهد . أصبح وزيراً للري بعد عام ١٩٧٣ .
٨٩ علي الوتار عامل حدادة ، قتله البعثيون في ٨ شباط ١٩٦٣ في قصر النهاية .
٩٠ نور الدين محمود حكم على مئات المناضلين . أطلق عليه الناس نكتة (تسعيركم الشلغم أثلج صدورنا) لإصداره أوامر تسعير اللفت .
٩١ سعاد خيري من تاريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق .
٩٢ كريم الأسدي معلم من البصرة اغتيل في الشارع عام ١٩٦٥ على يد الأمن .
٩٣ توفيق منير من أشهر المحامين العراقيين ، ممثل حركة أنصار السلام ، قتله البعثيون عام ١٩٦٣ .
٩٤ أنظر نص " ياللي عقدوا النية " في آخر الفصل .
٩٥ أنظر نص أغنية " السجن ليس لنا نحن الأباة " ومايليها ، في آخر الفصل .
٩٦ مبروكة : أسم شائع بين أوساط السود في البصرة .

٩٧ المقصود بحاج مرجان حميد عثمان الذي كان مسؤول السجن والذي كان متقلباً بمواقفه وآرائه السياسية متخبطاً ، قاد الحزب للأخطاء بعد هروبه من سجن بعقوبة وأصبح المسؤول الأول للحزب .
٩٨ جوماكنياتا زعيم أفريقي قاد النضال الوطني ضد المستعمرين في بلاده (كينيا) .
٩٩ لقد زارني مرتين في سجن بعقوبة .
١٠٠ من أجل التغطية على عملية الهروب ، وضع ما يشبه شخصين في إحدى قاعات النوم بين الرفاق النيام في القاعة وغطيا بالبطانيات بحيث يبدو وكأنهما نيام . في اليوم الثاني ، هرب هادي هاشم ، فاصبح الأشباه النيام ثلاثة بدل إثنين . كان العدد مضبوطاً دائماً عند الحساب . وبعد عدة أيام ، وعندما وصل الخبر بأن الثلاثة في أمان ، رفعت الأشباه فظهر النقص عند حساب عدد السجناء . فتشددوا معنا وبعدها رجع الوضع على ماكان عليه . هادي هاشم اعتقل عام ١٩٦٣ في انقلاب شباط وخان الحزب .
١٠١ في أحدى المرات أذيعت أحكام مجموعة من المعتقلين من الراديو قبل أن ينطق الحاكم العسكري بالحكم .كان بعض المحكومين يهتف بسقوط المحكمة وأحكامها الجائرة داخل المحكمة دون أن ترهبهم أحكامها الجائرة .
١٠٢ شُخصَ الرفاق اللذين سيهربون وحدد يوم الهروب وتمت عملية الهروب ليلاً بنجاح من تحت الأرض وتحت أقدام الحراس .
١٠٣ كان الرفيق الشهيد مهدي حميد مسؤول السجن . والرفاق اللذين هربوا هم : مهدي حميد ، زكي خيري ، عزيز الحاج ، جاسم التاجي ، عبد اللطيف الرحبي ، سلطان ملا علي ، عمر الشيخ ، آرا خاجادور ، يحى جاسم (من الكاظمية) ، وحسين الوردي .
١٠٤ ضابط فاشل ، يقال انه مطرود من الجيش لأسباب أخلاقية .
١٠٥ بعد أنتهاء التظاهرة ، سألت الرفيق المسؤول عن مصدر هذه الأخبار ، قال ان ابوعلي سمعها من الراديو و اللاسلكي والمخابرت بين الألوية (المحافظات) ، لم يصدق عدد من الرفاق هذه الأخبار . قلت يوجد رفيق مخابر ، هل يمكن أن تدعه يسمع الأخبار ؟ فوافق . منذ المساء وحتى اليو الثاني صباحاً كان الرفيق المخابر يسمع الأخبار . ولما سألناه عن انباء الأنتفاضة في بغداد و المحافظات ، افاد أنه لايوجد شئ من هذا القبيل ، لم تكن سوى برقيات عن جنود هاربين وبرقية عن فلاح قاتل وهارب ، لاشئ عن مظاهرات أو اضرابات .
١٠٦ كريم أحمد (من مواليد ١٩٢٢) ،والذي أعتقل في تشرين الأول ١٩٥٥ ، كان مسؤولاً بعد بهاء الدين نوري ثم حل محله حميد عثمان بدله بعد هروبه من السجن .
١٠٧ باقر جعفر أصبح عميل التحقيقات الجنائية (شرطي أمن) وهو الذي ألقي القبض عليّ عام ١٩٥٧ ، عندما كنت أحمل حروف المطبعة السرية .
١٠٨ بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ شهد في محكمة الثورة ضد رجالات العهد المباد . استشهد بعد أن اعتقل وعذب بعد انقلاب ٨شباط ١٩٦٣ .
١٠٩ البراءة تعني شتم الحزب والشيوعية والتبرؤ من الحزب .
١١٠ منهم الشاعر محمد بحر العلوم ، حميد الدجيلي ، محمد صالح سميسم ، شامل النهر ، شاب آثوري أسمه داركيب ، هادي متروك وأنا ومجموعة أخرى من العمارة والناصرية والبصرة وبغداد وأربيل .
١١١ محمد الخضري الشيوعي المعروف ، من اهالي الخضر ، قتله البعثيون في احتفالات آذار ١٩٧٠ عند صدور قرار الحكم الذاتي لكردستان العراق .
١١٢ جاءت جماعات من البدو وهم يطلقون الرصاص بالهواء تحية للعريس وينشدون القصيد . وانتظموا في مكان العرس على قسمين متقابلين ، نساء ورجالاً ، متشابكي الأيدي في رقصة تسمى (الدحي) فيها ترقص المجموعتان أقتراباً وابتعاداً من بعضها البعض وهم يغنون سويةً . بعد حفلة الرقص حضر العشاء في صواني مليئة بالرز واللوز و(الكشمش) وفي كل صينية نصف خروف محشو . تتحلق حول كل صينية مجموعة والأكل بالأيدي . منهم من أحضر معه قدراً ليملأها بعد انتهاءه من العشاء ليأخذها لعائلته . لم أكن أعلم بتقليدهم بأن عليك أن تبقى جالساً رغم انتهائك من العشاء بانتظار الآخرين . فحاولت القيام بعد أن شبعت فأمسكني

الشخص الجالس جنبي وقال أن قمت سيقوم الجميع رغم عدم انتهائهم من الأكل .
١١٣ بدا العدوان على مصر يوم ٢٩/ ١٠/١٩٥٦ .
١١٤ كما يذكر الرفيق زكي خيري في دراسات عن الحزب الشيوعي العراقي .
١١٥ كانت عائلة عواد في النجف وجاءت الى بغداد لأسباب سياسية في ٣/ ١١/ ١٩٥٦، جاء بيتر يوسف الذي أصبح من كوادر حزب البعث لاحقاًوطلب من عواد الخروج للمظاهرات فامتثل للأمر ، كان مع الرفيق صالح دكله عندما استشهد في التظاهرة نصرة لمصر .
١١٦ زكي خيري (دراسات عن الحزب الشيوعي العراقي) ، " زمرة صدام حسين " .
١١٧ فؤاد الركابي : أحد قادة حزب البعث اغتاله رفاقه البعثيون على ايدي أحد السجناء المجرمين في سجن بعقوبة الانفرادي بعد عام ١٩٦٨ .
١١٨ المحامي حمزة سلمان عضو اللجنة المركزية ، قتله البعثيون علم ١٩٦٣ . انظر كتاب شهداء الحزب .
١١٩ كان لطيف الحاج أخا عزيز الحاج .
١٢٠ أستشهدوا جميعاً ، أنظر كتاب شهداء الحزب .
١٢١ لكل حرف موقعه الخاص في خشبة التنضيد حسب موقعه في الكلمة (أولي ، وسطي ، أخير) . .
١٢٢ كانت هذه الرفيقة رضية رضا الصفار أخت عواد الصفار الذي مر ذكره ، وأصبحت زوجتي بعد ثورة تموز ١٩٥٨ .
١٢٣ في اليوم الثاني التقت إحدى الرفيقات مصادفة بصاحبة البيت . فقالت الأخيرة : كنا نسمع صوت (الكاروك – سرير الطفل-) ، يظهر أن طفلتكم مريضة . فقالت لها الرفيقة : أرسلتها للدكتور ، كانت لديها حمى . ولما أخبرتنا الرفيقة بالأمر امتنعنا عن العمل ليلاً .
١٢٤ علمت فيما بعد ، بعد أن القي القبض علينا ، أن صبيحاً كان يتهيأ لحضور مهرجان موسكو للطلبة والشباب . وكان يعرف بمكان الغرفة أيضاً الرفيق محمد صالح العبلي ، الذي سافر الى موسكو للدراسة ، وحزام عيال .
١٢٥ الهنكلانة : قطعة حديد كبيرة وثقيلة ، وهذا مصطلح شعبي .
١٢٦ وهذا مبدأ مهم : ربط العمل السري بالعلني ، وتحرك الشخص ، غير المعروف للشرطة السرية .
١٢٧ سالم كان سجيناً واعطى البراءة ولم نكن نطمئن لوضعه ، أخوه عدنان وأخته كانا سجينين أيضاً . أنه قد ترك الحزب .
١٢٨ عرفت فيما بعد أنه كان الرفيق جمال الحيدري (أبو ليلى) .
١٢٩ كان سكرتير منظمة بغداد آنذاك ، توفي في لندن عام ١٩٩٨ .
١٣٠ (ديوشكا) تعني بالروسية بنت ، والمقصود إذا مارجعنا وألقي القبض علينا فسنحكم بالسجن سنتين . أما (دروجيا) فتعني صداقة .
١٣١ كان هذا الشخص (رفيق توفيق) مدير أمن بغداد وقدم إلى محكمة الشعب بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .
١٣٢ الباشا ، يقصد به مدير التحقيقات الجنائية (بهجت العطية) الذي أعدم بعد ثورة ١٤ تموز بعد محاكمته علناً في محكمة الشعب . إن عائلته في البصرة جيراننا ونحن من العوائل المعروفة في البصرة .
١٣٣ لقد خانا الحزب واصبحا وكيلين في التحقيقات .
١٣٤ عمر علي : عسكري كردي حاول التحرك ضد ثورة ١٤ تموز لكن محاولته أحبطت من قبل الجنود والضباط والوطنيين في محافظة الديوانية .
١٣٥ آمر الأنضباط كان كما أعتقد من عائلة سميسم النجفية ، من أقارب محمد صالح سميسم ، الدكتور الذي كان معنا في السجن .
١٣٦ بقيت سنوات أعاني من ألم وخدر في يدي اليمنى نتيجة هذا التعليق بالشجرة .
١٣٧ إن هذا الفعل أضافة الى البرودة والرطوبة ، أدى إلى معاناتي ، لعدة أشهر ، من نزف من بطني وكان يخرج الدم مع البراز ، إذ حدث تمزق في أمعائي .

١٣٨ كانت هذه ليست فتاة حقاً ، بل فتى متخفياً بملابس فتاة ، ألقي القبض عليه عند الحدود السورية بعد أن أراد الهروب مع إحدى الفتيات .

١٣٩ أعتقد أسمه فوزي وأصبح كادراً نقابياً بعثي بعد عام ١٩٥٨ -١٩٦٢ ، كان معتقلاً في الأمن العامة ومعه تقارير عسكرية ، اعدمه صدام حسين بعد ١٩٦٨ .

١٤٠ كلفه أحد الموقوفين بأن يجلب أما جريدة الأهالي " لصاحبها كامل الجادرجي" أو الزمان "لصاحبها السمعاني" أو البلاد "لصاحبها روفائيل بطي" . كان حينها جريدة البلاد معطلة ثم صدرت وهي التي جلبها لنا الشرطي .

١٤١ رغم انه موقوف الا أنه كان يراقبنا وينقل أخبارنا .

١٤٢ دخل فرج زيا وفتش الغرفة وعثر على الجريدة فوجه التهمة لي وأخذ منه الغضب مأخذاً وراح يشتم ويزبد واستدعي نائب العريف من بيته ليلاً وشتم وهدد بالتوقيف وعوقب بنزع أحد أشرطته فأصبح شرطي أول بدل نائب عريف .

١٤٣ كان صبيح البدر طالباً معي وعلمت أنه توفي عام ١٩٩٦ في البصرة ، عمه كان مسؤول فرع الحزب الوطني الديمقراطي الذي كان يرأسه كامل الجادرجي .

١٤٤ عمتي باسة طويلة القامة ، قوية ، رغم كبر سنها . قضت أكثر عمرها في فلاحة أرضها التي كانت تملكها . وبعد لقائي بها بعد سنوات ، ضحكت وقالت : عندما أخذوني معهم قلت لهم إنكم المسؤولون ، ربما قتلتموه وقلتم هرب . ووقعت على ورقة لاأعرف ما بها .

١٤٥ ابنه كان طالباً معنا في مدرسة الخليل بن أحمد في المشراق .

١٤٦ بعد ثورة تموز علمت أنها الرفيقة خانم زهدي وكان عليها أمر بإلقاء القبض لحضورها مهرجان موسكو للطلبة والشباب . ودلي مريوش كان من كوادر الحزب وهو زوجها ، توفي في هولندا .

١٤٧ علمت فيما بعد أنها أم فاضل (نرجس الصفار) ، وقد تزوجت من الرفيق جمال الحيدري بعد ثورة ١٤ تموز .

١٤٨ راجع ماكتبه كل من حنا بطاطو و زكي خيري و سعاد خيري عن ثورة ١٤ تموز ، وما كتبته أيضاً جريدة اتحاد الشعب .

١٤٩ خطبة نوري السعيد في مجلس الأعيان يطمئن فيها أتباعه وأسياده والعائلة المالكة .

١٥٠ قرأت تصريحاً لأحد المسؤولين الغربيين سابقاً يقول فيه إنهم يؤيدون الوحدة بين العرب على أن لاتقع أي دولة عربية بيد الشيوعيين .

١٥١ أجر صبيح غرفة في خان بالشورجة ونقل إليها نصف المطبعة وحروفاً ومستلزمات طباعية أخرى و(جرجوبة - إطار-) الصفحة الأخيرة المنضدة من الجريدة . وذلك بعد اعتراف حزام عيال على الغرفة الأولى في الشورجة التي كان فيها حروف ومطبعة يدوية صغيرة وحبر وورق . . . .إلخ وأخذوها الى التحقيقات الجنائية . وبعد إطلاق سراحه أخبر أصحاب الخانات بما جرى له . وبمن فيهم صاحب الخان الذي قد أجر صبيح عنده . ذهبنا الى وكان هناك شاب سالنا عما نريد فقال له صبيح : إنني استاجرت غرفة هنا قبل الثورة وسافرت والآن رجعت من السفر . فضحك الشاب وقال : أسمعوا هذه القصة . بعد شيوع خبر إلقاء القبض على مطبعة الحزب الشيوعي واعتراف أحدهم على الغرفة التي فيها مواد الطباعة واستدعاء صاحب الخان وغيابكم فترة طويلة والغرفة مقفلة ، أصابنا الرعب ، خاصة عمي صاحب الخان . فقلنا نفتح الغرفة ونرى مابها . ففتحناها ، فوجدنا فيها نصف مطبعة وحروفها ، فخر عمي مغشياً عليه من الخوف وبعدها أخذنا المواد ودفناها في وسط الخان . وعندما قفلنا الخان سقط عمي ثلاث مرات وكان يمشي ويتلفت خلفه ، وأخذت بطنه تقرقر ، و . . . سواها في الشارع . ومنذ ذلك اليوم لم يدخل الخان وأجر له دكاناً في (عكد الأكراد) . ثم أخذنا الشاب إلى مكان الحفرة فحفرنا وأخرجنا الحروف والأدوات وقد أصابها التلف جميعاً . هكذا كان الخوف والرعب من التعذيب في العهد الملكي يخيف الناس .

١٥٢ مصطفى خوشناو أحد الضباط الأكراد الوطنيين الذي أعدم في العهد الملكي وكان أحد المشاركين في حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ .

١٥٣ عزيز الشيخ مرشح م . س . آنذاك ، اعتقل عام ١٩٦٣ ، توفي في بغداد عام ١٩٩٨ .

١٥٤ اعتقل وقدم للمحاكمة وسجن وأرسل إلى سجن الرمادي لإبعاده عن بغداد ، كتب مرة في جريدة أتحاد الشعب عن عمله في المطابع السرية ، أعدم وهو سجين عام ١٩٦٣ ودفن مع مجموعة من رفاقه في طريق الرمادي .
١٥٥ حضر حاكم من المحكمة الشرعية وذهبنا إلى بيت حبه وشهود اثنين ثم تزوجنا في ١٨/ ٥/ ١٩٦١ .
١٥٦ جورج تلو : عضو م .س . ، اغتيل عام ١٩٦٣ أثناء انقلاب شباط عند مداهمة البيت من قبل الحرس القومي .
١٥٧ كان يحضر عند أم شوقي وقت الظهيرة كثير من النساء (المومسات) ورجال من مختلف الأصناف .
١٥٨ علي الوتار : جاء ذكره سابقاً ، كان معنا في سجن بعقوبة وهو عامل ميكانيك ، استشهد بعد انقلاب شباط عام ١٩٦٣ على أيدي البعثيين . انظر (شهداء الحزب) .
١٥٩ كان أحد اصدقائه من الشقاوات وعدة مرات دخل السجن بسبب شجار . وكان يحمل دوماً سكيناً ولايتورع عن ضرب أحد بها . قال أبوسلام : اعطيته جريدة الحزب ، قلت له خذها اقرأها و بعدها لم يأت للقهوة مدة أسبوعين أو أكثر . ولما التقيته صدفة وسألته عن سر اختفائه ، قال : عندما أعطيتني الجريدة وذهبت كنت أتلفت وأعتقد أن الشرطة خلفي وكاد يغشى عليّ ، فرميتها في الشارع ، قل أضرب و اقتل ، ولكن الجريدة لا . . .!
١٦٠ أدمون أحد الرفاق اللذين استشهدوا عام ١٩٦٣ بعد اعتقاله على أيدي البعثيين . انظر كتاب (شهداء الحزب) . وكان البيت قرب حديقة الواثق في شارع ٥٢ .
١٦١ كان يعلق الناس عندما تمر جنازة ما في الشارع (روح خلصت من أقوال الزعيم) .
١٦٢ الوالدة : كان يطلق على أم عواد الصفار وكانت أمرأة رائعة ، قتل ابنها عواد عام ١٩٥٦ وسجنت بناتها وأعطت للحزب أعز ما تملك ، إنها من الأمهات النادرات ، توفيت عام ١٩٧٤ في بغداد .
١٦٣ عبد الجبار وهبي : من البصرة ، زوج المحامية نظمية وهبي ، قتله البعثيون بعد ٨ شباط وسجنت زوجته وبعد أن ألقي القبض عليه هو والرفيقين جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي عذب في بناية محكمة الشعب حتى الموت . لقد كان من الصحفيين اللامعين .
١٦٤ يذكر خالد أبن جمال عبد الناصر في مذكراته ، أن والده جمال عبد الناصر وبوش الأب وصدام حسين كانوا مجتمعين في بيت جمال عبد الناصر قبل أن يصبح بوش رئيساً للولايات المتحدة ، وقبل أن يصبح صدام حسين رئيساً .
١٦٥ عباس كان يلتقي في بغداد مع سكرتير حزب توده رضا رادمنش الذي توفي في ألمانيا الديمقراطية . وعلمت ان عباساً هذا كان عميلاً للسافاك الإيراني ، أي المخابرات الإيرانية ، وعلمت أيضاً أنه قتل في إيران بعد أنكشاف وضعه .
١٦٦ كان الرفاق في بغداد قد أكدوا على المنطقة بضرورة الاهتمام بي . كان رجال الأمن يعتقد أنني إما سلام عادل أو زكي خيري أو أحد أعضاء م .س . ويريد العبور الى أيران ، لذلك كان اهتمامهم كبير جداً بعد إلقاء القبض علي .
١٦٧ فرج الله الحلو : قائد شيوعي لبناني ، اغتالته المخابرات السورية أثناء الوحدة بين مصر وسوريا وكان حينها قد دخل سورية بأسم آخر .
١٦٨ كان شيوعياً ثم انهار واصبح يتعاون مع الأمن كوكيل أمن .
١٦٩ عبد الخالق طاهر : سياسي وشيوعي صلب ، تعرض طيلة حياته للسجن والتوقيف ، توفي عام ٢٠٠٠ .
١٧٠ السيّاسي : الزورق الذي يسيره الماء بدون مجذاف أو ماكنة ، وهذا متعارف عليه عند أهل البصرة .
١٧١ إن الزعيم الأوحد – الوطني الديمقراطي ، قاسم ، أرجع للخدمة كافة أفراد الأمن في العهد الملكي . إنهم يمتلكون الخبرة بمكافحة الحركة الوطنية . إن البرجوازية المنتصرة تلجأ للأجهزة القمعية القديمة وخاصة الأمن لمكافحة الحركة الوطنية والشعبية ، إن هذا قانون . هكذا عمل عبد الناصر والثورة الإيرانية .
١٧٢ مثل شعبي عراقي .
١٧٣ النهيبة : هي المرأة التي اختطفت وتم الزواج منها من قبل ابن عمها أو أحد أقاربها بالضد من إرادة اهلها . وهناك قوانين وأعراف خاصة تفرض على الناهب من قبل عشيرة المختطفة .

١٧٤ أم الشويج : قرية تابعة لريف القرنة في البصرة يسكنها الفلاحون المعدان ، يحكمها بيت الإمارة ، وهم من كبار الملاكين .
١٧٥ هؤلاء الخمسة كانوا : حاج علي ، حاج صيبان ، محمد ، حاج خميس و خلف .
١٧٦ عفلق : تعني عربياً (فرج المرأة النتن) .
١٧٧ مامن دولة عربية وحكام يقفون من الأمريكان موقف حكام العراق ، وأعتقد أنها لعبة محبوكة بين حكام بغداد والمخابرات الأمريكية والإنكليزية للسيطرة على المنطقة .
١٧٨ حديث الملك حسين مع محمد حسنين هيكل (ماجرى في العراق في ٨ شباط قد حظي بدعم الاستخبارات الأمريكية . . .إلخ . لقد عقدت اجتماعات عديدة بين البعث و الاستخبارات الأمريكية وعقد أهمها في الكويت ، إن محطة إذاعة سرية تبث إلى العراق كانت تزود يوم ٨ شباط رجال الانقلاب بأسماء وعناوين الشيوعيين هناك للتمكن من اعتقالهم وإعدامهم) (جريدة الأهرام القاهرية ٢٧ أيلول ١٩٦٣)
١٧٩ البيان الذي أذاعه علي صالح السعدي والذي نص على إبادة الشيوعيين حتى العظام . وهو الذي صرح بعد سقوطهم في ١٨ تشرين على يد حليفهم عبد السلام عارف : إننا جئنا بقطار أمريكي (أي حزب البعث) .
١٨٠ لزيادة المعلومات عن مقاومة الحزب الشيوعي والجماهير أنظر كتاب زكي خيري المجلد (١) - دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي - الفصل الخامس عشر ، مقاومة أنقلاب الردة في ٨ شباط ١٩٦٣ . وكتاب حنا بطاطو ، الشيوعيون والبعثيون - أكثر السنوات مرارة - الفصل الثامن عشر .
١٨١ يمكن مراجعة كتاب (المنحرفون) الصادر عام ١٩٦٤ بعد انقلاب ١٨ تشرين الذي نفذه عبد السلام عارف والذي يفضح الجرائم التي ارتكبها الحرس القومي .
١٨٢ كان مصطفى الدوغجي وجبار ناصر المصارع وعمانوئيل الأرمني وفاضل (من الزبير) قد عذبوا بوحشية و آثار التعذيب ظهرت واضحة على وجوههم بحيث أني لم أعرف مصطفى من كثرت تعذيبه ، وهو صديقي من أيام الدراسة .
١٨٣ جميل نوري كان من الرفاق النشطين من الأربعينيات وسجن في نقرة السلمان .
١٨٤ سأشرح عملية اعتقال زوجتي في مكان آخر .
١٨٥ شرحت محاولات الهروب من مركز شرطة البصرة في مكان آخر .
١٨٦ كُتِبَ كثير عن البطل حسن سريع ورفاقه الذين قاموا بالسيطرة على أكبر معسكر في بغداد (معسكر الرشيد) ومحاولاتهم لتحرير الموقوفين من الضباط والعسكريين (انظر كتاب شهداء الحزب) . وأيضاً عن قصة كاظم السماوي .
١٨٧ انظر كتاب (شهداء الحزب) عن قطار الموت .
١٨٨ كان في السلمان أكثر من ألف سجين وموقوف ، أغلبهم من العسكريين بمختلف الرتب ، من زعيم ركن الى جندي المشاة ، واقتصاديون ، أطباء ، مهندسون ، علاوة على نسبة من العرب والفلاحين والطلبة . . . .إلخ .
١٨٩ الرئيس الأول غازي الذي كان مع مجموعة من الضباط في وزارة الدفاع ، اقتيدوا بعد فشل المحاولة إلى أحد النوادي المخصصة للتعذيب وحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص وأعدموا العشرة إلا أن غازي لم يمت وبقيت الطلقات في جسمه وعند الكشف عليه ظهر أنه لم يمت فأراد الحرس القومي أخذه وقتله إلا أن الطبيب العسكري استطاع منعهم ، فعاش وبقيت الطلقات في جسمه ولنا معه قصة .
١٩٠ مثل الشيوعي المعروف عبد الوهاب طاهر وسامي أحمد وعباس بغدادي وغيرهم .
١٩١ من الحرس القومي كان (نايف حواتمة) الذي قال مرة : (بالقي الإبرة بترن) ، معناها لاأسمع صوت أحداً منكم .
١٩٢ هذا الرفيق كان نائب ضابط ، وكان يغسل قميصه ، ولما طلب اليه الحرس القومي ترك الغسيل والدخول إلى القاعة لم يستجب لهم . فضربه الحرس القومي بالبندقية وانهال عليه بالشتائم . كان شاباً لايتجاوز العشرين من العمر . فرد على الحرس القومي وضربه وجرى ليدخل القاعة . كانت القاعة مقفلة ونحن

داخلها ، فدخل العسكري من الشباك بمساعدة الرفاق الذين سحبوه بدورهم إلى الداخل . فجأة فتحت الباب ليدخل إثنان من الحرس القومي ، أحدهم شاهراً مسدسه وأخذ يطلق الرصاص داخل القاعة ، فتطايرت الشظايا من أرض القاعة و الجدران في كل صوب . لم يستطيعوا أخذ العسكري . لقد جنوا ، فأخذوا يطلقون الرصاص من الرشاشات من الخارج ومن الربايا ، باتجاه القاعة وخصوصاً باتجاه الباب ، واشتركت الدوشكات ايضاً . وكأنها معركة حقيقية قد نشبت وبعد أن ضربوا الإثنين من الحرس دخلوا خمسة ومعهم آمرهم وطلب تشخيص العناصر الذين اعتدوا عليه . كنا أنا ومحمد غضبان (سكرتير نقابة السكاير) وحنا وعبد الله عبيد وأخيه ورفيق آخر ننام في مقدمة القاعة . فبدأ الحارس يشخص الذين ضربوه ، فأشار عليّ ومحمد الغضبان فأخرجونا من القاعة . قلنا لهم إننا كنا في الحمامات ولاعلم لنا بما جرى ونفينا تماماً علمنا بالحادث . أرجعونا الى القاعة وأخذ الحارس المضروب يشخص آخرين ، ونسي أمر الرفيق العسكري . أخيراً شخص ٥ رفاق ، كانوا من أصلب الرفاق الأبطال حقاً ، منهم كان عبد الله عبيد و عاصم (من الكوت) ، قادوهم خارج السجن وأشبعوهم ضرباً وطلبوا منهم شتم الحزب الشيوعي فرفضوا وأيضاً شتم قاسم والمهداوي فرفضوا . حلقوا رؤوسهم وطلبوا منهم رفع الشعر ورميه بصفيحة الزبالة فرفضوا ذلك وفعادوا يضربوهم ثم حلقوا شواربهم . هددوهم بالقتل . كان مدير السجن واقفاً ، بلباسه المدني مع شرطة البادية ، فبادر برفع الشعر ورميه بالزبالة . لقد كانوا أبطالاً وعادوا للقاعة مرفوعي الرأس .

١٩٣ لعبد القادر هيئة تشبه ماركس ، فشعره الأبيض الطويل ولحيته الطويلة مع شاربين كثين أبيضين . كان محكوماً ٤٠ سنة بالتداخل . كان دائماً يتحدى الحرس القومي ويشتمهم وينشد الأناشيد الثورية التي تعلمها من السجناء بصوت عالٍ . ويقال إنه ذات مرة شتم الحاكم الذي حكمه . لم يكن حزبياً . مرة رسم له أحد السجناء الأكراد (من السليمانية) صورة تخطيطية وعلقها فوق رأسه ، كانت تشبه صورة ماركس . لما دخل الحرس القومي للقاعة ظنوا أنها صورة ماركس . فقام لهم وقال : هذه صورتي ، فلم يصدقوه وقالوا له إنك تتحدانا . . فأخذوه معهم وضربوه وحلقوا رأسه ولحيته وشاربيه .

١٩٤ عندما كنا في سجن نقرة السلمان عام ١٩٦٤ ، كان أحد البدو يسال عن الملك فيصل الثاني وهل تزوج وله أولاد .

١٩٥ مرة كنت وإياه نتحدث عن الأوضاع الجديدة بعد ثورة ١٤ تموز . قال : أيام الحكم الملكي والاستعمار عندما كنت تخلع حذاءك وتضرب فإن الضربة تقع برأس الاستعمار وعملائه لأنهم الأعداء المكشوفون الرئيسون ، أما الآن فعندما تريد أن توجه ضربتك يجب أن تشخص لمن توجه حذاءك . الآن تنوعت الرؤوس ، ويجب أن تفرق بينها .

١٩٦ فاتني أن أذكر أن الكثير من الأمهات والزوجات والأهل يسعون لمعرفة مصير أبنائهم وأهلهم ، فكانوا يتوجهون إلى الحاكم العسكري فيقال لهم إنهم في سجن الحلة (مثلا) وهناك يقال لهم إنهم في نقرة السلمان وحين يصلون إلى السلمان يقال لهم إنهم في البصرة . . وهكذا . وفي الحقيقة إنهم قتلوا في قصر النهاية .

١٩٧ أبو عيدان : عامل شيوعي ، رئيس نقابة الحمالين في البصرة استشهد تحت التعذيب نهاية السبعينات على أيدي جلاوزة النظام الحاليين . كان شيوعياً صلباً . عمل نجاراً في مديرية الميناء ، درس في المدرسة الحزبية في موسكو . كان متفائلاً بالمستقبل . في السجن كان مسؤولاً عن مخزن التموين ولديه راديو خبأه بعناية وكان مصدر أخباره .

١٩٨ كان لديهم قرار في مثل هذه الحالات ؛ قتل جميع السجناء .

١٩٩ كان أحد السجناء سجيناً في العهد الملكي وكان أحد الشرطة يعرفه . بعد ثورة ١٤ تموز ومرور فترة زمنية اعتقل وحكم فرآه الشرطي وسكت ثم جاءت ردة ٨ شباط ولم يطلق سراح السجين . ثم جاء ١٨ تشرين وانقلاب عبد السلام عارف وصديقنا لازال في السجن والشرطي يفكر . . ثم جاء انقلاب ١٩٦٨ على عبد

الرحمن عارف فجاء الشرطي : إن جماعتكم جاءوا سوف يطلقون سراحك . فقال : هولاء ليس جماعتنا . فقال الشرطي : ماتقول لي من هم جماعتكم ؟ ؟ .

٢٠٠ حيث كان عند البعثيين شعار (اليد التي تمتد للشيوعيين يجب أن تقطع) .

٢٠١ عبد الله رشيد : موظف في الميناء ، رياضي ومدرب رفع الأثقال . كريم حسين : نائب رئيس نقابة الميناء في البصرة . حكموا عليهما بالأعدام زمن قاسم ونفذ بهم عند مجئ عبد السلام عارف للحكم . أتهموا زوراً بقتل القومي (أنس طه) .

٢٠٢ تم نقلنا أنا وشاكر محمود وطاهر الخياط وعبد النبي جميل وخالد محمود وأنيس والرئيس الأول غازي وآخرين إلى مستشفى الديوانية و البقية إلى مستشفى السماوة ووضعوا في مركز شرطة السماوة ، وفاتني أن أذكر أنني علمت بوفاة والدي وأنا في سجن نقرة السلمان بعد انقلاب ٨ شباط .

٢٠٣ عبد الأمير : سجين سياسي ، عضو اللجنة المحلية في الديوانية .

٢٠٤ جبر كان عضو كونفرس حزبي ، سبق له أن تصادم مع الحرس القومي ، هارب ومطارد من قبلهم .

٢٠٥ كانت همومنا وتفكيرنا ينصب على إنقاذ الحزب من أزمته وجمع شتات المنظمات قدر المستطاع والقيام بأي عمل من أجل ذلك وتدبير عملية هروبنا خاصة وأن بقاءنا في السجن سيطول ولانعرف المستقبل .

٢٠٦ جواد العطية : شيوعي ، سجن وتشرد ، اغتيل على أيدي البعثيين بعد عام ١٩٦٨ .

٢٠٧ كاظم الجاسم : كادر فلاحي قديم ، اغتاله البعثيون بعد عام ١٩٦٨ وكانت له جماهيرية واسعة في الريف .

٢٠٨ بعد أن أحتل الحرس القومي الديوانية وأحكم قبضته عليها ، دمر كل ماهو جميل فيها . كان هناك ٣ شباب ، طالبان وعامل ، يعلمون بوجود آلة كاتبة في مدرستهم فقرروا سرقتها ومواصلة أصدار الأدبيات . عبروا مساءً الجسر الذي يربط طرفي المدينة ومعهم عربة وضعوا فيها قدر شلغم كأنهم باعة . كان الحرس القومي يحتل طرفي الجسر ويفتش المارة ويعتقل من يشك به . وصلوا المدرسة وتسلقوا الجدار وسرقوا الآلة الكاتبة وعبروا بها أمام الحرس القومي . وفي أحد البساتين كتبوا بياناً باسم اللجنة المركزية للحزب يمجد الرفيق سلام عادل ، وأن الحزب الشيوعي لن يموت . . . ووزعوه داخل المدينة ليلاً . فجن جنون الحرس القومي وأثار هستيريتهم وأخذوا يفتشون الناس في الشوارع ويداهمون بعض البيوت وبعد عدة أيام طبعوا بياناً باسم اتحاد الطلبة ووزعوه ، ثم أرجعوا الآلة الكاتبة لنفس المدرسة وبنفس الطريقة التي أخذوها بها .

٢٠٩ لطيف : معاون أمن ، كان في التحقيقات الجنائية وقد حقق معي وذكرت اسمه عندما أعتقلت في بداية عام ١٩٥٨ قبل ثورة تموز . والثاني هو كريم فرج ، كان عضو المنطقة الجنوبية للحزب وانهار وأصبح وكيلاً للأمن ، وهو من مدينة العمارة .

٢١٠ أنظر حنا بطاطو الكتاب الثالث .

٢١١ سجل العداد (الميزانية) وخرج . لم أعرف عنه شيئاً ، الثقة ضرورية ، لكن الحذر مطلوب . لذا قررنا الانتقال خاصة وأن العائلة أقامت مع الجيران علاقات غير طبيعية .

٢١٢ نتيجة العمل في الحروف الرصاصية والحبر وسوء التغذية . . .الخ . التهبت أسناني وقد اشتد الألم عليّ وهذا مرض مزمن عانيت منه كثيراً . ذهبت ليلاً لطبيب الأسنان في بغداد الجديدة (كراج الأمانة) متخفياً ، دخلت عليه ولم يعالجني وطلب مني الانتظار . رأيت عبد الله حاتم وهو شيوعي قديم كان مسؤولاً في البصرة عام ١٩٥٣ وقد سمعت عنه أنه يتعاون مع الأمن وقد عرفني . ثم دخل على الطبيب وخرجا سوية ، طلب مني الطبيب الانتظار ليكتب لي الأدوية اللازمة لكنه كان مرتبكاً . خرج عبد الله مسرعاً على دراجته ، فقدرت أن الأمر غير طبيعي وربما ذهب عبد الله ليخبر الأمن ، فتركت العيادة مسرعاً دون علاج ولتبقى أسناني يسحقها الألم .

٢١٣ حنّا : امرأة آشورية ، أم لخمسة أولاد من ريف الموصل .

٢١٤ كنا أنا والشهيد صبيح سباهي قد شهدنا في المحكمة على (رفيق توفيق) والتعذيب الذي مورس ضدنا عندما ألقي القبض علينا في المطبعة .

٢١٥ رشيد محسن مدير الأمن العام ، هرب إلى مصر بعد استلام البعثيين السلطة بعد حركته مع عارف عبد الرزاق الانقلابية الفاشلة .
٢١٦ فيلم "الأوراق الحمراء" فيلم سوفيتي عن أيام النضال السري . يتحدث عن اتهام أحد الرفاق مع أنه برئ ، دبرت له أجهزة الأمن مكيدة لتلبسه التهمة ، واخيراً يحكم بالإعدام لأنه يقتل الخائن الذي انتحل اسمه ، لكن الجماهير تطلق سراحه .
٢١٧ حميد الدجيلي : استشهد في الأمن العامة بعد إطلاق الرصاص عليه من قبل الأمن وهو أخ رؤوف الدجيلي ، الذي اغتيل عام ١٩٥٣ في مجزرة الكوت .
٢١٨ الرفيق عمر ألقي عليه القبض بعد أن شخصه الأمن وهو راكب في سيارة ركاب ذاهبة الى بغداد الجديدة .
٢١٩ سليم الفخري ومجموعته حاولوا القيام بحركة عسكرية ضد النظام ، إلا أن بعض الضباط كانوا مندسين ويعملون مع الاستخبارات العسكرية ، مما أدى الى اعتقال أغلب من أرادوا القيام بالحركة وعلى رأسهم الضابط الوطني سليم الفخري ، وكانوا قد كتبوا البيان الأول عندما تم كبسهم .
٢٢٠ ألقي القبض على أحد البعثيين في مدينة الثورة وكان بحوزته بندقية كلاشنكوف ، ولما سأله المحقق عن سر وجود البندقية عنده قال : من أجل قتل الشيوعيين ، لأننا قتلنا وأسقطنا سياسياً ، رغم إرادتهم ، الكثير وهؤلاء يشكلون خطراً علينا في المستقبل .
٢٢١ عارف عبد الرزاق : من مواليد عام ١٩٢١ . درس في لندن بعد إرساله إليها . قومي ، ناصري كما يدعي . ساهم في قمع وقصف الأكراد عام ١٩٤٥ ، عندما تمرد الملا مصطفى على الحكومة العراقية وكان هو طياراً .
٢٢٢ جاء أحد عناصر الشرطة وبعد وهلة قال : ماهو الشئ الذي صعد لحم ونزل فحم ، واخذ يضحك . ثم قال : إن رئيس الجمهورية (عبد السلام عارف) احترقت طائرته في البصرة هو ومن معه .
٢٢٣ تم نقلنا جميعاً إلى هذه القاعة ، عمر الشيخ ، جاسم حلواني ، حسين علوان ، توفيق أحمد ، سامي جواد وأنا ولطفي حاتم .
٢٢٤ طبيب الأسنان في المستشفى كان سجيناً معنا في نقرة السلمان . اعتقل في ٨ شباط وأطلق سراحه بعد انقلاب عبد السلام عارف وأرجع للخدمة .
٢٢٥ عندما هربنا من مستشفى الديوانية كان أحد العرفاء الأكراد مسؤولاً عن الحراسة في المستشفى . وبعد الهروب نقلوه لخلف السدة وكان برتبة نائب عريف .
٢٢٦ بعد التعرف عليهم تحدثوا عن الوحشية التي عوملوا بها بعد فشل الانتفاضة وعن إشعال الانتفاضة وكيف سيطروا على معسكر الرشيد ومحاولاتهم لإطلاق سراح الضباط الموقوفين في سجن رقم واحد واعتقال ضباط المعسكر ، وكيف تسلموا مشاجب السلاح ، وتحدثوا كثيراً عن تهشيم رؤوس الجنود بالأحذية بعد فشل الانتفاضة .
٢٢٧ الشهيد عواد حريجية من الجنوب واصل العمل في تنظيم بغداد عام ١٩٧٨-١٩٧٩ . ألقي عليه القبض وأعدم .
٢٢٨ كاظم فرهود ، توفيق أحمد ، سليم إسماعيل ، حسين علوان ، محمد الرحبي ، بولص ، سامي عواد وآخرين : هيئوا أنفسكم للنقل .
٢٢٩ التكة : لحم مشوي على النار ، وبالمناسبة كان توفيق أحمد الذي انهار فيما بعد وترك السياسة ، يحب الأكل كثيراً ، بحيث أنه عندما كان مختفياً في بغداد ويذهب لمحلات عامة لأكل (الباجة) ولايتورع عن الذهاب الى السينما ، حتى تم أعتقاله .
٢٣٠ ناجي طالب أحد الضباط القوميين ، صار رئيساً للوزراء في عهد عبد السلام عارف .
٢٣١ قضاء تابع لمدينة الناصرية .
٢٣٢ كان قد عقد اجتماعاً وكونفرنساً فلاحياً في أحد المناطق الريفية النائية وانتدبت اللجنة المحلية لتلك

المحافظة أحد رفاقها للإشراف على الاجتماع وكان من المثقفين وبديناً بعض الشئ . وبعد مسير عدة ساعات صادفهم نهر واسع بعض الشئ . خلع الفلاحون نعلهم وملابسهم وعبروا النهر ، لكن المشرف بقي حائراً كيف يعبر النهر . خوفاً على بنطاله وحذاءه وتأخر لايستطيع العبور ، فحمله أحد الفلاحين على ظهره وعبر به النهر قائلاً : (عساها بختك لينين) .

٢٣٣ محسن علي ابن الكادح الشيوعي (علي شعبان) ابن عمتي . كان سجيناً في سجن الكوت ونقرة السلمان وسجن بعقوبة وقد توفي في البصرة .

٢٣٤ أكثرية بيوت الفلاحين في ريف كردستان فيها مدافئ مصنوعة من الصفيح تملأ بالخشب وتشعل فتنشر الدفء في كل الغرفة .

٢٣٥ كانت تصدر في الخمسينات جريدة (صوت الكادح) وبعد ثورة تموز أصدرت جريدة (صوت الطليعة) .

٢٣٦ كان في فرقتنا الدراسية كل من الرفاق فخري كريم وأبوحكمت وأبوسروان وكاظم الجاسم ، كنا حوالي ٢٠ رفيقاً .

٢٣٧ قام البعث بالتعاون مع أجهزة الشرطة بقمع إضرابات الطلبة عام ١٩٦٧ وإضرابات عمال الزيوت في ٥/ ١١/ ١٩٦٨ بالرصاص .

٢٣٨ يقال إن أسداً أحب فلاحة جميلة بعد أن رآها تحطب في الغابة فأراد أن يتزوجها ففرض أهلها عليه شروطاً قاسية ليتزوجها : أن ينزع أنيابه ومخالبه خوفاً عليها من غضبه ولما قرر الأسد نزع أنيابه ومخالبه (مصدر قوته) هجم عليه أهل الفتاة وأشبعوه ضرباً وطردوه .

٢٣٩ وادي كوماته يقع على الحدود التركية العراقية .

٢٤٠ سامي عبد الرحمن شخصية محترمة من قياديي حدك .

٢٤١ (دروك) رفيقة كانت تدرس في بلغاريا ، مسيحية من القرى المجاورة ، تركت دراستها والتحقت بالأنصار ، صنعت لنا (مربى) من التين تالمجفف والماء ولرداءته وتكراره يومياً سمي باسمها . كلمة (دروك) ليس اسمها الحقيقي بل على ماأظن أنها كلمة بلغارية وتعني (الصديقة) .

٢٤٢ أستشهد في أحداث بشتاشان سنة ١٩٨٢ على يد جماعات أوك .

٢٤٣ الجاش أو الفرسان هم أكراد وظفتهم السلطة كمرتزقة ، لذا يحاربون الثوار الأكراد .

٢٤٤ بعدها اعتقل حيدر وجرى استنطاقه وبعذيبه بشكل لاإنساني وعاش مع سجناء حزب تودة الإيراني .

٢٤٥ الخطوط من عندي (الكاتب)

٢٤٦ أبو فؤاد سكرتير محلية دهوك رفيق يزيدي أعطاه د س له عناصر النظام سم الثاليوم وهو من القرية المسماة (بامرني) فأصابه الهزال ، وتساقط شعر رأسه وكاد أن يموت . أرسلناه للعلاج ، بقي مدة سنة تحت العلاج ، ورجع معافى .

٢٤٧ توفي في لندن عام ١٩٩٨ .

٢٤٨ اغتيل ابو نصير في مدينة دهوك فيما بعد .

٢٤٩ كلي هصبة (وادي النخيل) .

٢٥٠ هم من الأكراد المحليين الذين كانوا بخدمة الحكومة .

٢٥١ الملازم نعمان : هو سلام ابن الشهيد محمد صالح العبلي الذي استشهد في شباط عام ١٩٦٣ .

٢٥٢ للرفيقة أنسام تاريخ نضالي رغم قصر عمرها الحزبي في الناصرية وفي بيروت وفي دمشق وفي كردستان ، حيث أستشهدت على يد الجيش التركي . كافة أفراد عائلتها في الحزب ، أمها البطلة وأخواتها الأصغر منها وثلاثة أخوة كلهم كانوا مع الأنصار ، أبرزهم الصحفي المعروف (داود أمين) .

٢٥٣ النصير ساوي : ملتحق بنا ، كان عسكرياً سريعاً جداً بالمشي . سمعت أنه أصبح يعمل مع جهاز الأمن الإيراني فيما بعد .

الفهرس

الإهداء 5

شكر وتقدير 7

توطئة 9

القسم الأول : قبل ثورة ١٤ تموز 11

الفصل الأول : 13

الوصول 13

الفصل الثاني : 23

الخضر 23

المطاردة 25

القمر.. الأمل 28

مروءة 31

الشريفات 32

عند سيد خضر 35

المقام الطاهر 46

الفصل الثالث : 49

البصرة.. حنين وذكريات 49

الى الزبير 56

البصرة 60

القسم الثاني : البصرة... البدايات والطريق الصعب 63

الفصل الرابع : 65

البصرة-١-.. 65

الطفولة والصبا -٢- 66
أحداث في الذاكرة -٣- 67
الانتقال من العشار -٤ 77
الفصل الخامس : 89
المشاركة في أول مظاهرة 89
المشاركة في أول إضراب عمالي. 100
مظاهرة التشييع. 102
أول محاكمة ١٩٥٣ 107
الفصل السادس : 109
في سجن الكوت. 109
الحياة في السجن. 110
مجزرة سجن بغداد 114
نقرة السلمان 115
مجزرة سجن الكوت 115
المجزرة 118
المسلخ 120
مركز شرطة الخيالة في مدينة الكوت.. 122
الفصل السابع : 127
سجن بعقوبة المركزي 127
محاولة الهروب من سجن بعقوبة المركزي 135
الهجوم على سجن بعقوبة 138
الحياة في سجن نقرة السلمان. 139
الحزب ينهض من جديد 141
العودة الى بادية نقرة السلمان 143
فترة المراقبة في قرية قضاء السلمان 145
الالتحاق بالخدمة العسكرية 150
في معسكر قتيبة بالشعيبة 150

الفصل الثامن : 157
الهروب من معسكر قتيبة بالشعيبة 157
أول لقاء مع الرفيق سلام عادل والعمل في مطبعة الحزب 159
كيف انتقلنا الى البيت الجديد في الكرادة الشرقية 164
في التحقيقات الجنائية 169
الانهيار وضعف العزيمة 176
الهروب من الجيش والالتحاق بالحزب 183
في دار المطبعة من جديد 186
القسم الثالث : ثورة ١٤ تموز وفترة قاسم 189
الفصل التاسع : 191
التهيؤ لثورة ١٤ تموز المجيدة ١٩٥٨ 191
الفصل العاشر: 199
العودة والعمل في بغداد 199
الفصل الحادي عشر : 213
الشرطة تداهمنا ولكن ؟ 213
كيف نجونا من الموت 215
الانحراف التام 215
كيف اعتقلت في البصرة ١٩٦٢ 217
القسم الرابع : انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وحكم العارفَيْن 225
الفصل الثاني عشر: 227
انقلاب ٨ شباط 227
أحداث في الذاكرة 229
كيف جرى تطويق الحرس القومي ونزع أسلحتهم 244
الفصل الثالث عشر: 247
الهروب من مستشفى الديوانية (كانون ثاني ١٩٦٤) 247
الهروب 250
الفصل الرابع عشر: 263
الالتحاق بالحزب من جديد 263

طريق الشعب تصدر من جديد 265
حادث طريف 267
مشكلة النوام 273
الفصل الخامس عشر: 275
المطاردة والقاء القبض على الجميع 275
مغالطة 278
الفصل السادس عشر: 287
محاولة الهروب من معتقل خلف السدة 287
كيف تمت عملية الهروب 291
محاولة الهروب من سجن رقم واحد في معسكر الرشيد 292
حفر نفق في معتقل الفضيلية 295
بدء عملية حفر النفق 296
الهروب من السيارات في طريق سجن نقرة السلمان 305
القسم الخامس : مسيرة الأعوام القادمة 315
الفصل السابع عشر: 317
المسيرة خلال الأعوام القادمة 317
الكونفرنس الثالث 319
المؤتمر الثاني آب- أيلول ١٩٧٠ 325
الفصل الثامن عشر: 335
الكفاح المسلح - ١٩٧٩-١٩٨٠ 335
البداية 337
عملية الالتحاق 340
أحداث 342
الفصل التاسع عشر: 351
جواسيس 351
كيف هرب هذا العميل 353
أبوكريم وأبو سحر 353
نهر الخابور يجري صاخباً 354

الأنصار وصيد السمك 355
محاولة العبور 359
كيف دخلنا الى سوريا 363
الفصل العشرون : 367
حادث لاينسى 367
العملية 367
السفر الى المانيا وقصة المعطف 368
الفصل الحادي والعشرين : 377
حصان أبو يوسف الشهير 377
الفصل الثاني والعشرين : 385
التحضير لعقد المؤتمر الرابع في تشرين الثاني ١٩٨٥ 385
سكرتير إقليم كردستان 387
الفصل الثالث والعشرين : 391
النظام العراقي يستخدم الأسلحة الكيمياوية ضدنا 391
أحداث لاتنسى 397
كيف تم كشف الفاعل 399
وجهاً لوجه مع الموت 399
أبو بهاء 402
التار الجارف 404
الفصل الرابع والعشرين : 405
نهاية المطاف في كردستان 405
في بهدينان في زيوة على الزاب 406
الخروج من كردستان 408
الخاتمة 411